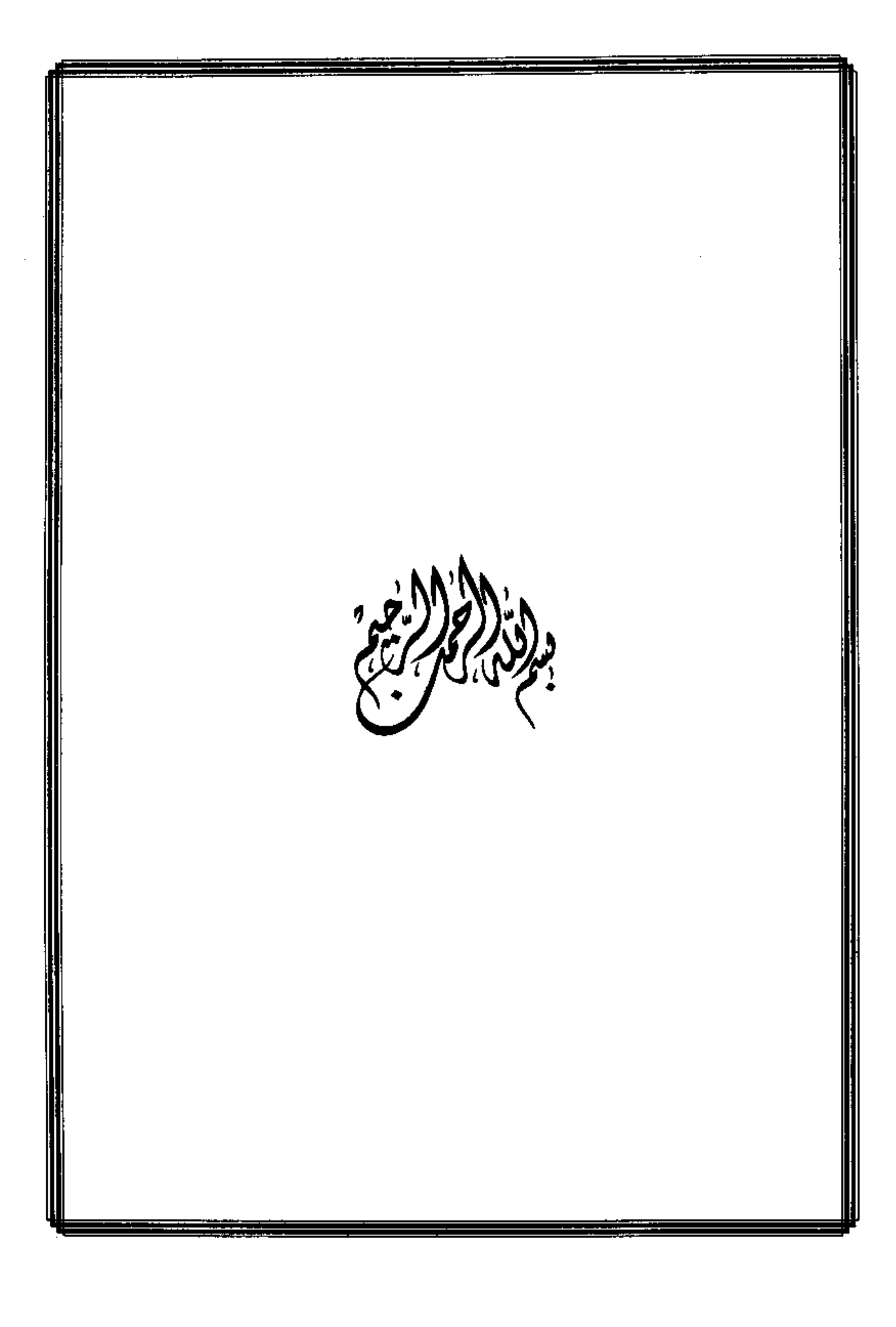

منهج ابن القيم
في
الدعوة إلى الله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم

منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى

د. أحمد بن عبد العزيز الخلف

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في قسم الدعوة
بالجامعة الإسلامية تحت إشراف
فضيلة الدكتور فتح الرحمن عمر

المجلد الأول

أضواء السلف

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي الحزين

الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص ب ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١
ت ٤٥-٢٣٢١٠٤٥ - محمول ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

المملكة العربية السعودية : مؤسسة الجريسي .
مصر : مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية ـ ت ٣٤٣٧٤٣ / ٠٦٤
باقي الدول : دار ابن حزم ـ بيروت ـ ت ٧٠١٩٧٤



المقدمـــة





الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله الداعي إلى دار السلام وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله أرسله الله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار الذين دعوا بدعوته واقتفوا أثره ومنهاجه فحازوا معالي الأمور جميعًا .

وبعـد :

فقد عاش المجتمع المسلم في صدره الأول في ضوء نور الرسالة المحمدية أمة واحدة يربطها إيمان واحد برب واحد وانتماء واحد لم تطفئه عواصف الأهواء ، ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم ، فسادت هذه الأمة وارتفع علمها على أهل الأرض فكانت خير أمة عرفها التاريخ ، اشتهرت بالعدل والحق والإيمان ومحاسن الأخلاق ، والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكانت بحق أمة تصلح أن تسود أهل الأرض بما تحمله من مبادئ عجز أهل العقول عن الإتيان بمثلها ، فكان أهل الأرض جماعتين « جماعة المسلمين » و « جماعة الكافرين » على اختلاف مللهم ونحلهم .

ولكن ما لبث هذا الأمر إلا وانشقت جماعة المسلمين عن وحدتها في

العقيدة والسلوك والسياسة فخرج عن منهجها وطريقها الذي ورثته عن نبيها بعض هذه الجماعة فمنهم من خرج عن وحدتها الاعتقادية ومنهم من خرج عن وحدتها السياسية ومنهم من خرج عن وحدتها في السلوك ، وهم في خروهم هذا على نوعين : أحدهم يظهر الإيمان ويبطن الكفر فحصل للإسلام وأهله من هؤلاء البلاء العظيم الذي يطول شرحه ، والآخرون أُتوا من سوء الفهم في معاني النصوص والاستبداد بما ظهر لهم منها ، وتحكيم بعضهم ما تهواه أنفسهم من دونها ، وكلاهما في الخروج عن الحق سواء وسبب في تقطيع أوصال هذه الجماعة ، وتشتت شملها قال تعالى : ﴿ **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** ﴾[1] لقد صاح بهذه الفرق جماعة المسلمين من عهد الصحابة والتابعين ومن تبعهم على منهجهم من كل قطر ورموهم بالعظائم وتبرءوا منهم ، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير ، رجوعًا إلى سنة نبيهم وأمره بالتمسك بالجماعة وأن الله مع الجماعة فكان من أعلام النبوّة أن تحصل هذه الفرق وأنها ستعادي هذه الجماعة وأن هذه الجماعة هي المنصورة والظاهرة مهما كانت الأحوال فتحقق جميع ما أخبر به المصطفى ﷺ فإن الناظر في تاريخ الفرق الإسلامية يدرك ذلك جيدًا ويَعْرِفُ مدى صمود جماعة المسلمين أمام جميع هذه الفرق وذلك لأنهم اعتقدوا الحق الثابت عن الله ورسوله فذلك يقوي إدراكهم وحجتهم فلا تجد أحدًا من هذه الفرق إلا ويسقط أمام حجتهم ولا تجد أحدًا من أفراد هذه الجماعة إلا ووافق الآخر على اختلاف بلادهم وبعدها عن بعض ولا تجد أحدًا منهم رجع إلى أحد من هذه الفرق بل أهل الفرق يرجعون إليهم ويقرونهم ويعتصمون بأقوالهم إذا ما خولفوا من قبل الفرق الأخرى ، فصمدت أمام جميع الفرق سواءً كان من الفرق المعادية للإسلام أصلاً وفرضت على المسلمين ، أم من الفرق التي انحرفت عن المنهج الصحيح الذي جاء به

---

(١) الآية من سورة الأنفال : (٤٦) .

النبي ﷺ وهي في هذه المعركة قد يدال عليها عندما تجتمع قوى الشر عليها ويطغى أهل الفسق ويكثر عددهم ولكن سرعان ما تنقشع هذه الغمة وتظهر هذه الجماعة بما تمتلكه من قوة الإدراك والبصيرة التي تغمر قلوب أعلامها من اعتقاد الحق وهكذا كانت هذه الجماعة حصنًا حصينًا، ونورًا يستضيء به جميع من حار أو ضلّ ....

وفي عصرنا الحاضر ظهرت جماعات تدعو إلى الإسلام اختلفت مسمياتها وأهدافها ومناهجها، حسب ما أراده مؤسسها ، وما يهدف إليه فمنها ما ظهر كرد فعل من بعض من شحذت همته وكان في قلبه غيرة على الإسلام فوضع الأسس والمناهج مصيبًا أحيانًا ومخطئًا حينًا آخر فقلده من قلده تقليدًا بلا بصيرة ولا تعديل لما أخطأ فيه وخرج به عن منهج جماعة المسلمين حتى لو كان الخطأ يخالف شرائع الدين .

بينما يظهر في الجانب الآخر جماعة على النقيض من الجماعة الأولى نصبت نفسها للدعوة لهذا الدين قاصدة هدمه وتفتيت قوته وتقطيع أوصاله يظهرون الكفر والنفاق ويتسمون بالمسلمين ، والإسلام منهم براء وأكثر ما تظهر هذه الجماعات في البلاد الكافرة التي يوجد فيها أقليات مسلمة حيث يمكنهم التعمية عليهم ، وتعليمهم إسلامًا يخالف ما عرفه المسلمون .

ويظهر على الساحة أيضًا قسم آخر قد خفيت أهدافه وكثر فيهم اللغط فمن الناس من انجرف معهم ولم يعدل بهم ومنهم من حاربهم وذكر عنهم الانحراف وما زال يسعى في كشف سرائرهم ، أما الطائفة الثالثة فوقفت محتارة لا تصوبهم ، ولا تحاربهم قد أرجئوا أمرهم ولم يظهر لهم أمرهم وهذه الجماعات قد أخطأت بخروجها عن منهج جماعة المسلمين الذي يقربون منه تارة ويبعدون عنه أخرى مما أدى إلى اختلاف المنتسبين إلى هذه

الجماعات وعدائهم لبعضهم ومحاولة كل جماعة النيل من الأخرى والحط من قيمتها بل ومحاربتها ، والتي تعود خسارتها بالتالي على جماعة المسلمين من تقطيع أوصالها وعزل بعضها عن بعض وإضعاف شوكتها[1]، وفي الجانب الآخر تحالف أعداء الإسلام على اختلاف مللهم ونحلهم على هدم الإسلام ومحاربته بشتى الوسائل .

في وقت نرى فيه بزوغ نور من الصحوة الإسلامية في كثير من البلاد مما يوجب رعايتها والعناية بها وتوجيهها إلى المسار السليم لا سيما وأن أكثر المنتسبين إلى هذه الصحوة هم من الشباب الذين يملكون مقومات النصر إن أحسن إعدادهم وتوجيههم وحسنت قيادتهم .

وكثير من هؤلاء الشباب أصابه نوع من الإحباط أمام هذه العواصف الهوجاء من الصراع والخلاف لا يدري أين مركب النجاة ، وغامر البعض بمتابعة من دعاه أولاً مع قلة تمكنه من العلم الذي يحيمه من الانجراف وراء كل ناعق ، وجميع هذه الأمور تعتبر معوقات للصحوة الإسلامية وتصديع وتفتيت للأمة بأسرها ، ولا يمكن أن تنتصر الأمة وهي بهذا التفرق والتعصب والعداء لأن ريحهم قد ذهبت كما أخبر الرّب سبحانه بذلك ، ولم ينتصر العرب والمسلمون في صدرهم الأول إلا بنبذ هذا التفرق والتعصب ، والاجتماع على كلمة واحدة يحكم فيهم كتاب الله وسنة رسوله .

انتماء واحد ، وإمام واحد ، وجماعة واحدة ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، والمخرج من هذه الكارثة التي ألمت بالمسلمين ، هو رجوع هذه

---

(١) انظر في كتاب « حكم الانتماء » للشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد .

الجماعات إلى الجماعة الأولى جماعة المسلمين التي لم تتغير ولم تتبدل بل سارت على منهاج النبوة ولم تنفصل عنه لحظة واحدة والتي أمر النبي ﷺ بلزومها وعدم الخروج عنها والعض عليها بالنواجذ وأن كل ما خرج عنها فهو رد ، وهذه الجماعة ما زالت قائمة بالدعوة إلى الله ولها في كل زمان رجال يقومون بها وينشرونها ، ومن أعلام هذه الجماعة الذي نذر نفسه للدعوة إليها وتوضيح منهجها والدفاع عنها ورد المطاعن حولها ونشرها بأسلوب مقنع ومنهج قويم معتمدًا فيه على الكتاب والسنة : هو ابن قيم الجوزية رحمه الله وقدس روحه الذي وقع عليه الاختيار ليمثل هذه الجماعة .

* **أسباب اختيار الموضوع :**

أولاً : إنه من الشخصيات الإسلامية البارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد كان داعية بالمعنى الخاص المتعارف عليه لدى أصحاب هذا الشأن من ناحية الإصلاح الديني والوعظ والإرشاد والتربية والأخلاق وفنون النشر والبلاغ كما سنرى إن شاء الله ، وكان داعية بالمعنى العام من ناحية الآراء الاعتقادية والفقهية والسلوكية والتربوية .

ثانيًا : أن ابن القيم رحمه الله كان محط الإعجاب البالغ من أهل العلم في كل عصر ومصر والاستشهاد بآرائه وأقواله في مقام المعارضة والترجيح لما يتميز به من الاعتماد على الكتاب والسنة ، واقتفاء آثار السلف الصالح .

ثالثًا : أن منهجه وأسلوبه موافق لروح العصر الذي نعيش فيه ، حيث إن كثيرًا من الموضوعات التي تطرق لها ، توافق هذا العصر الذي ازدهر علميًا وثقافيًا .

رابعًا : أن هذا العصر قد انفتحت فيه أبواب الشرور والشهوات والاضطرابات النفسية ودعوة ابن القيم رحمه الله علاوة على ما تمتعت به من مميزات فإنها دعوة روحية شفافة تزيل تلك الأكدار والأمراض التي تراكمت على أهل هذا العصر .

خامسًا : كثرة مصنفات هذا الداعية ، وشمولها جميع متطلبات الدعوة من دعوة إلى المعتقد الصحيح ورد الشاردين إلى منهج الكتاب والسنة والانتساب إلى سلف هذه الأمة ، والدعوة إلى التحرر من ربقة التقليد ، والدعوة إلى تفهم روح الشريعة ، وتربية الأمة تربية إسلامية ، وغير ذلك من مستلزمات الدعوة .

بل كان التراث الفكري العظيم الذي تركه ابن القيم رحمه الله مرتعًا خصبًا لكثير من الباحثين ، قديمًا وحديثًا وهذا يدل على أصالة الفكر وثراء المعرفة ، لذلك اتسعت دراسة تراث ابن القيم واستوعبت العديد من الدراسات والبحوث فمثلاً كتب عنه في جهوده في الدفاع عن عقيدة السلف[١] والبعض في تقريب فقه ابن القيم[٢] والبعض عن منهجه في التفسير[٣] والبعض عن عصره وآرائه ومنهجه[٤] والبعض عن لغته وبلاغته[٥] والبعض عن موقفة من التفكير الإسلامي[٦] والبعض كتب عنه كمفكر تربوي[٧] وغيرها كثير كما أن أكثر هذه البحوث رسائل علمية نالت درجاتها ، وهؤلاء الأفاضل كتبوا كتابات لا أدعي أني أجاريهم فيما كتبوا ،

---

(١) د . « عبد الله محمد جار النبي » .

(٢) د . « بكر بن عبد الله أبو زيد » ، وقد استفدت من كتاباته كثيرًا لكثرة ما كتب عنه وجمع .

(٣) الأستاذ « محمد أحمد السنباطي » .

(٤) د . « عبد العظيم عبد السلام شرف الدين » .

(٥) د . « أحمد ماهر البقري » في كتابه « ابن القيم اللغوي » ، والدكتور « عبد الفتاح الأشتين » في كتابه « حسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم » .

(٦) د . « عوض الله حجازي » وقد حاول التقليل من قيمة الداعية ابن القيم واتهامه بالتلفيق وعدم الانتخاب .

(٧) د . « حسن بن علي حسن الحجاجي » .

ولكن الرغبة تأكدت عندما لم أجد من بحث فيه كداعية ملهم ، وخصص وجمع شتات ما كتبه في فن نشر الدعوة ومستلزماتها ، مما جعلني أخوض لجة هذا البحر من العلم ، وأنتقي من لؤلؤئه حتى يخرج هذا البحث في منهجه في الدعوة إلى الله تعالى .

*** منهجي في هذا البحث**

لقد قمت بجمع آراء ابن القيم فيما يخص مسائل الرسالة ثم قسمتها على الأبواب والفصول ممهدًا لها ثم أنقل كلام ابن القيم بعد مقول القول فأقول مثلاً : قال ابن القيم أو كما يقول ، ثم أبدأ من أول السطر فإذا انتهى كلامه أضع علامة النقل ، وقد أدرج عدة نقول من كلام ابن القيم يتلو بعضه بعضًا ولا يفصله إلا علامة الترقيم ، ولا أضع كلام ابن القيم بين قوسين إلا إذا خشيت الالتباس . وقد أكرر نفس النص في أكثر من موضع للحاجة .

وقد ألجأ إلى كتب شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عند عدم عثوري على نص إحدى مسائل الكتاب ، وقد حاولت وأنا أبرز منهج ابن القيم أن أنقل ما ينفع الداعية علمًا وروحًا مع التركيز والتقيد بما يخص البحث لا سيما وإنني أجول في رياض ابن القيم ومن النادر أن أجد زهرة لا أتمنى أن أزين بها باقة بحثي ، لجمال ما كتبه ومحاكاته للفكر والقلب والروح ، وقد قمت بعزو الآيات ، وتخريج الأحاديث ، وترجمة لغالب الأعلام .

*** خطة البحث**

وقد جاء البحث مشتملاً على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة وفهارس الكتاب .

أمـــا المقدمـــة : فذكرت فيها أهم الدوافع التي حملتني على الكتابة في هذا الموضوع وبينت فيها أيضًا ملخصًا للمنهج الذي سرت عليه .

أمـــا التمهيـــد : فقد ذكرت فيه التعريف بالداعية ابن القيم .

أما الباب الأول : فتحدثت فيه عن أصول الدعوة عند ابن القيم وقسمته إلى أربعة فصول .

الفصـــل الأول : موضوع الدعوة وقسمته إلى مباحث تحدثت فيها عن تعريف الدعوة وحكمها وفضل الدعوة والداعية والحاجة إليها وموضوع الدعوة وتحدثت فيه عن تعريف الإسلام وأركانه مبتدئًا بالشهادتين وإثبات وجود الله ووحدانيته وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ لأنها أشرف المعارف وهي أعظم ما يواجهه الداعية.

ثم تحدثت عن بقية الأركان مبينًا الحكمة من شرعها على وفق ما يراه ابن القيم .

الفصـــل الثانـــي : أهداف الدعوة عند ابن القيم وقد قسمت هذا الفصل إلى تمهيد وثلاثة مباحث ، لكل هدف مبحث خاص ، المبحث الأول : سيادة شرع الله ، المبحث الثاني : تقرير مذهب السلف الصالح ، المبحث الثالث : تربية الأمة المسلمة .

الفصـــل الثالث : صفات الداعية :

وأولها : العلم ، وبينت فضله وحاجة الداعية إليه والواجب منه وآدابه وغير ذلك مما يراه ابن القيم ، وأدخلت في هذه الصفة البصيرة ، ثم الإخلاص ، والصبر ، والتواضع ، والزهد ، والصدق ، وأخلاق الداعية عمومًا .

الفصـــل الرابـــع : أساليب الدعوة ووسائلها وتحدثت عن أساليب الدعوة وهي أسلوب الحكمة ، والموعظة ، والجدل ، والجهاد .

ثم تحدثت عن وسائل الدعوة أولاً : التعليم . ثانيًا : الخطابة . ثالثًا : القلم .

أما الباب الثاني : فذكرت فيه منهجه في الأسس العلمية في مجال الدعوة وقد قسمته إلى ثلاثة فصول .

الفصل الأول : تحدثت عن الأصول الاعتقادية وأهميتها وموقفه من الفرق ونشأتها وأسباب الافتراق ، والمنهج الذي ارتضاه ابن القيم وأصوله في الدعوة إلى الاعتقاد وهي الاعتماد على الكتاب والسنة ، وكشف الستار عن مذهب السلف وفضح سرائر المبتدعة والرد عليهم .

الفصل الثاني : منهجه في مجال الفروع الشرعية وتحدثت فيه عن مسيرة الفقه الإسلامي وتاريخ حركته وأسباب الاختلاف ، وكسر ابن القيم لسلطان التقليد وفتح باب الاجتهاد ومذهبه وأصوله التي اعتمد عليها في الفتوى .

الفصل الثالث : منهجه في إصلاح المجتمع وتحدثت فيه عن مفهوم التربية وعن القلوب وتقسيمها وأمراضها وعلاجها وأنواع النفوس وأمراضها وعلاجها .

وتحدثت عن الأساس الثاني في إصلاح المجتمع وهي السياسة .

الباب الثالث : منهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد جعلته فصلين :

الفصل الأول : التعريف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحدثت فيه عن مكانته في الإسلام وحكمه وأدلة مشروعيته وعلاقته بالدعوة وتعريف الحسبة ونشأة ولاية الحسبة .

الفصل الثاني : أركان الحسبة وتحدثت فيه عن المحتسب ، والمحتسب عليه والمحتسب فيه ، والاحتساب ، واختصاصات المحتسب وسلطاته عند ابن القيم .

ثم الخاتمة وقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث .

ثم الفهارس وهي فهرس الآيات الواردة مرتبة على حسب سور القرآن الكريم ، وفهرس الأحاديث والآثار، ثم فهرس الأعلام المترجم لهم في البحث، ثم فهرس المصادر والمراجع مرتبة ترتيبًا هجائيًا، ثم فهرس الموضوعات.

*** وفـــي الختــــام**

أتقدم بواجب الشكر والتقدير لكل القائمين على هذه الجامعة المباركة التي تربيت فيها وترعرعتِ في أكنافها مذكنت طفلاً إلى الآن ، ومنحتني الكثير والكثير وأسأله سبحانه أن يديمها ذخرًا للإسلام والمسلمين .

كما أشكر فضيلة الدكتور فتح الرحمن عمر الذي تفضّل بالإشراف على الرسالة فلقد منحني من وقته وعطفه وكرمه الكثير ، وبذل لي من دماثة الخلق ولين الجانب وعطف الأبوة ما كان عونًا لي على إنجاز الرسالة أسأل الله أن يمدّ في أجله ويبارك له وينفع به وبعلمه .

كما أشكر فضيلة شيخنا الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد على توجيهه لي باختيار هذا الموضوع ، مما كان له أعظم الأثر في نفسي .

كما أشكر كل من أتحفني برأي أو توجيه أو مرجع من مشايخي وإخواني وزملائي سائلاً الله عز وجل أن يجزل لهم جميعًا عني عطاء غير مجذوذ إنه أكرم مسئول .

التمهيـــد

* التعريف بالداعية ابن قيّم الجوزية [1]

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي شمس الدين ، أبو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية[2].

وتتفق كتب التراجم على أن ولادة هذا الإمام كانت في عام

---

(١) لقد اعتنت كتب التراجم والباحثون في ذكر حياة ابن القيم ومنهم من ألف في حياته وآثاره استقلالاً وفي أبواب خاصة بحياته تغني عن دراستي لحياته دراسة موسعة ولكني سوف أتحدث عن جانب من جوانب حياته وسوف أنقل لك بعض كتب التراجم والكتب التي يمكن الرجوع إليها وأولها كتب تلاميذه رحمه الله وغيرهم مثل « ذيل طبقات الحنابلة » : (٤٤٧/٢) للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن البغدادي الشهير بابن رجب الحنبلي تحقيق محمد الفقي مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة الطبعة الأولى عام (١٣٧٢هـ) ، « البداية والنهاية » (١٤/ ٢٣٤) لابن كثير ، « الوافي بالوفيات » للصفدي : (٢/ ٢٧٠) ط : الثانية (سنة ١٣٨١هـ) ، و « ذيل العبر » للذهبي : ٢٨٢/٥ ، و « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » : (١٦٨/٦) لعبد الحي بن الصماد ط المكتب التجاري بيروت ، و « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » : (٤١/٤) للحافظ ابن حجر ط المدني ، بمصر عام (١٣٨٧هـ) ، وانظر « البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع » : (١٤٢/٢) لمحمد بن علي الشوكاني ط مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى عام (١٣٤٨ هـ) وانظر « الفتح المبين في طبقات الأصوليين » : لعبد الرحمن بن مصطفى المراغي ط الثانية بيروت، وانظر « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » : (٦٢/١) لجلال الدين السيوطي ط الأولى عام (١٣٨٤هـ) مطبعة الحلبي بمصر ، و « الأعلام » للزركلي (٥٦/٦) ط دار العلم للملايين بيروت الطبعة السادسة عام (١٩٨٤ م) يضاف إلى كتب التراجم هذه أكثر الكتاب الذين قاموا بتحقيق كتبه رحمه الله أو الباحثين في جانب من جوانب علمه الواسع أو ألفوا في حياته استقلالاً مثل محمد مسلم الغنمي في كتابه « ابن قيم الجوزية » ، وأحمد ماهر البقري في كتابه « ابن القيم من آثاره العلمية » ، ود . عبد العظيم شرف الدين في كتابه « ابن القيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف » ، وبكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » . وغيرها كثير.

(٢) انظر كتاب « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » : ص٧ فقد اعتنى بضبط اسمه وكنيته والمشاركين له في هذا اللقب وغير ذلك .

(٦٩١هـ)، نشأ هذا العالم في جو علمي وحضارة علمية ، فدمشق التي نشأ فيها ، منارة من منارات العلم في ذلك العصر خاصة بعد سقوط حاضرة العلم بغداد في أيدي الغزاة من التتار ، وإقفال مدارس العلم وإبادة كثير من كتب العلم والعلماء في عاصفة هوجاء همجية لم يعرف التاريخ مثلها[١] فاتجه طلبة العلم والعلماء إلى الشام ، ومصر ، فكانتا من أعظم حواضر العلم ، فكانت في الشام عدة مدارس وجوامع أتاحت لهذا الإمام فرص العلم والتعلم .

فهو في الأصل من أسرة علمية كريمة ، فأبوه قيم المدرسة الجوزية وناظرها ومدير شئونها ولابدّ أن يكون لذلك أثر في تعلق الابن بالدرس والمدارس .

وقد ترجم لوالده ابنُ كثير في حوادث (٧٢٣هـ) فقال : الشيخ العابد الناسك أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي قيم الجوزيه كان رجلاً صالحاً متعبدًا قليل التكلف ، وكان فاضلاً وقد سمع شيئًا من دلائل النبوة عن الرشيد العامري ، توفي فجأة ليلة الأحد تاسع عشر ذي الحجة بالمدرسة الجوزية وصلى عليه بعد الظهر بالجامع ودفن بباب الصغير ، وكانت جنازته حافلة وأثنى عليه الناس خيرًا رحمه الله[٢] وله في الفرائض اليد الطولي وعنه أخذها ابنه شمس الدين رحمهما الله[٣] ولذلك نرى أثر العلم في أولاده : شمس الدين المترجم له ، وأخوه زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن أبي بكر ولد بعد أخيه الشمس بنحو سنتين فكانت ولادته سنة

---

(١) انظر « البداية والنهاية » : (١٤ / ٢٠٠) .

(٢) « البداية والنهاية » : (١٤/١١٠) .

(٣) « التقريب لفقه القيم » : (٣٥/١) نقلاً عن « المنهل الصافي » لابن تغري بردي .

(٦٩٣هـ) وشارك أخاه في أكثر شيوخه ، ومن تلامذته الحافظ ابن رجب[١] وكذا ، سَرَتْ هذه البركة في الأولاد مثل ابن أخيه زين الدين : وهو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن زين الدين عبد الرحمن كان من الأفاضل وقد اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين توفي يوم السبت الخامس عشر من شهر رجب سنة (٧٩٩هـ)[٢].

وكذا ابنه عبد الله : جمال الدين بن عبد الله ابن الإمام شمس الدين محمد توفي سنة (٧٥٦هـ) وهو شاب فاضل محصل كانت لديه علوم جيدة ، وذهن حاضر خارق ، أفتى ودرس وأعاد وناظر وحجّ مرات عديدة تولى التدريس بالصدرية بعد وفاة أبيه شمس الدين فأفاد وأجاد ، رحمه الله وبلّ بالرحمة ثراه[٣].

وكذا ابنه إبراهيم : قال ابن كثير في حوادث (٧٦٧هـ) : « توفي الشيخ برهان الدين إبراهيم ابن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية ، ببستانه بالمزة ونقل إلى عند والده بمقابر باب الصغير فصلى عليه بعد صلاة العصر بجامع جراح وحضر جنازته القضاة والأعيان ، وخلق من التجار والعامة ، وكانت جنازته حافلة ، وقد بلغ من العمر (٤٨ سنة) ، وكان بارعًا فاضلاً في النحو والفقه وفنون أخرى على طريقة والده رحمهما الله تعالى ، وكان مدرسًا بالصدرية والتدمرية ، وله تصدير بالجامع وخطابة بجامع صلحان ، وترك مالاً جزيلاً يقارب المائة ألف درهم »[٤].

---

(١) « الدرر الكامنة » لابن حجر : (٢ /٤٣٤) .

(٢) « الدارس في تاريخ المدارس » للقصيمي : (٦١/٢) .

(٣) « البداية والنهاية » : (٢٣٥/١٤، ٢٥٣/١٤) .

(٤) « البداية والنهاية » : (٢٣٤/١٤) .

وبعد ، فهذا هو الجو الذي نشأ فيه ابن القيم رحمه الله ، مدينة علم ومدارس وجوامع تعجّ بطلبة العلم وأسرة علم وبركة ، تدل على كرم الاتجاه ، وحسن الخلق ، فكان لذلك أعظم الأثر في تكوين شخصية ابن القيم ، لا سيما وأنه صاحب همة عالية وذكاء وألمعية فحاز علوم الدين وغيرها رحمه الله ، يقول عنه تلميذه ابن رجب : « تفقه في المذاهب ، وبرع وأفتى ، وتفنن في علوم الإسلام ، وكان عارفًا بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيها المنتهى ، وعني بالحديث ومتونه وبعض رجاله ، وكان يشتغل في الفقه يجيد تقريره وتدريسه ، وفي الأصلين ، ولا رأيت أوسع منه علمًا ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ولكن لم أرى في معناه مثله ، وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه : ما تحت أديم السماء أوسع علمًا منه ، ودرس بالصدرية وأَمَّ بالجوزية مدة طويلة وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة »[1].

ويقول ابن كثير : « سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعددة لا سيما علم التفسير والحديث والأصلين ، ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علمًا جمًّا ، مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريدًا في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهارًا » [2].

لقد استكمل ابن القيم بحيازة هذا العلم والبراعة فيه ، المقومات الأساسية والشروط الواجب توفرها في الداعية المسلم من علم وعمل ، وتعليم ، وصبر مما جعله نبراسًا يقتدى به ، وداعية يجمل اقتفاء أثره واتباع

---

(١) « ذيل طبقات الحنابلة » : (٤٤٧/٢) إلى (٤٤٩) مع بعض الحذف .

(٢) « البداية والنهاية » : (٢٣٤/١٤) .

منهجه ، فقد برع وتفنن رحمه الله في علوم الإسلام وتعليمها والدعوة إليها وتميز على أقرانه بسعة العلم وتأسيسه على ما جاء عن الله ورسوله مقتفيًا في ذلك أثر السلف الصالح كما ستعرف ذلك من خلال دراستنا لمنهجه رحمه الله لاحقًا إن شاء الله تعالى .

إلا أن مواطن الجلال والجمال في دعوة هذا الإمام هي تلك الشفافية والإيمان العميق الصادق ، وتلك المحبة النادرة ، والغربة الدائمة والسفر إلى الله التي جعلت دعوته نورًا يستضيء به السالكون ، وحصنًا يتحصن به الداعون ، وسهامًا ترسل إلى المعاندين والجاحدين .

إن الروحانية الإيمانية التي كست دعوة هذا الإمام هي السرّ في نجاح دعوته وقبولها حتى من الخصوم لأنه يدعو بنور الله ومن أجله طالبًا رضاه عازفًا عمّن سواه ، شعاره محبته والشوق إليه وتنفيذ أمره في كل ما أمر، لقد سدّ بذلك المنافذ على الحاقدين ، وفتح أبواب الهدى للطالبين ، وما ذلك إلا بصدق اللهجة ، ونقاء السريرة ، وتحري مواطن رضى الرب تبارك وتعالى فخالج هذا الإحساس نفس المدعو كما خالج نفس الداعية من قبل ، وهذا ما يدركه كل عاقل متجرّد عن الأهواء .

ولو أردنا أن نتعرف على هذه الروحانية في هذا الإمام لطال بنا المقام ولكن نريد أن نتعرف على بعض صورها في حياة هذا الداعية الملهم كعبادته وزهده وأخلاقه وأشواقه وغربته وسفره الدائم ، الدالة بمجملها على حقيقة معرفته رحمه الله تعالى لبارئه ، ومحبته التي فاقت جميع المحبوبات ، وتوارت من دونها .

فكانت عبادته لربه وزهده فيما دونه والافتقار إليه والإنابة ، والرجاء

والخوف ، والتوكل عليه ، كل ذلك يظهر جليًا من خلال ما كتبه رحمه الله .

أما ما ذكره مشاهدوه عيانًا فإنه زيادة في تأكيد صدقه مع ربه سبحانه، يقول عنه الحافظ ابن رجب[١] : « وكان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والإنابة والاستغفار ، والافتقار إلى الله ، والانكسار له ، والاطراح بين يديه وعلى عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدّبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خيرًا كثيرًا وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحة ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم وتصانيفه مملوءة بذلك » .

وحجّ مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدّة العبادة وكثرة الطواف أمرًا يتعجب منه ، وقال ابن كثير: « وكان حسن القراءة والخلق كثير التودد ، لا يحسد أحدًا ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكان له طريقة في الصلاة يطيلها جدًّا ، ويمدّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحة » [٢].

---

(١) انظر « ذيل طبقات الحنابلة » : (٢/٤٤٧، ٤٤٨) .

(٢) انظر « البداية والنهاية » : (١٤/٢٣٤، ٢٣٥) .

لقد سيطرت الروح الإيمانية على حياة هذا الداعية سيطرة تامة بحيث أصبحت الغربة والاغتراب والسفر من هذه الأوطان الفانية إلى الوطن الخالد والشوق إلى المحبوب ولقائه تظهر في أغلب ما سطره رحمه الله في كتاباته الشعرية والنثرية ، وتلك جولة نتتبع فيها دلائل هذه الغربة معه ، ولنستمع إليه في البداية يعبر عن هذه الغربة[1] التي يعيشها حاديًا للنفس ، والناس إلى السفر ، والجد فيه ، إلى الوطن الأصيل الحقيقي ، والحياة الأبدية فيقول رحمه الله :

إن الناس كلهم في هذه الدار غُرباء ، فإنها ليست لهم بدار مقام ، ولا هي الدار التي خلقوا لها وقد قال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « **كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل** » وهكذا هو في نفس الأمر ، لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حق المعرفة ولي من أبيات في هذا المعنى :

وحيّ على جنات عدن ، فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيّم
ولكننا سبي العدو ، فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونُسلّم ؟
وأي اغتراب فوق غربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكّم ؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطّت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة ... من العمر ، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريبًا ، وهو على جناح سفر لا

(١) انظر هذا الموضوع في كتاب « شرح القصيدة الميمية » لابن القيم (ص٣٤) عرض وتحليل مصطفى عراقي نشر مكتبة ابن تيمية القاهرة مطبعة التقدم ، وانظر « مدارج السالكين » (٢٠٣/٣) ط دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى .

يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور ؟ فهو مسافر في صورة قاعد[١].

ثم بين رحمه الله حكمة الرب تبارك وتعالى في زرع هذه الغربة في كيان الإنسان ، وأن الهجرة إلى الوطن فطرة في الإنسان السوي فقال :

إن النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة ، وهذا من لوازم كونه خلق من عجل ، وكونه خلق عجولاً ، فعلم سبحانه ما في طبيعته من الضعف والخور ، فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ، ليعرف النعيم الذي أعدّ له عيانًا ، فيكون إليه أشوق ، وعليه أحرص ، وله أشدّ طلبًا ، فإن محبة الشيء والشوق إليه من لوازم تصوره ، فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوقه ، لم يصبر عنه ، وهذا لأن النفس ذواقة توّاقة ، فإذا ذاقت تاقت ، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الإيمان ، وخالطت بشاشة قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئًا أبدًا .

فاقتضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه إياها ، ثم قص على نبيه قصته، فصاروا كأنهم مشاهدون لها ، حاضرون مع أبيهم ، فاستجاب من خلق لها ، وخلقت له ، وسارع إليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو .

فيراها وطنه الأول ، فهو دائم الحنين إلى وطنه ، ولا يقرّ له قرار حتى يرى نفسه فيه ، كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى ... وحنينه أبدًا لأول منزل[٢]

---

(١) « مدارج السالكين » : (٢٠٩/٣) .

(٢) « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » لابن القيم : (١٤/١) دار نجد للنشر والتوزيع .

هكـذا دائمًا ما تجد نفس ابن القيم رحمه الله مولعـة بمنزلها الأول لـم يفارقه الشوق ولـم يغادره الحنين إليها ، وهذا دليل على شدة ما يعانيه من الغربة .

فإذا كان رحمه الله يرى أن جميع الناس غرباء ، فإنهم لا يتساوون في الغربة ، بل هم طبقات ومنازل أكرمها أشدها غربة ووحشة ثم جعل الدعاة في قمة الغرباء فقال :

فأهل الإسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الإسلام غرباء، وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة الذين يميزونها من الأهواء والبدع فهم غرباء.

والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين : هم أشدّ هؤلاء غربة ولكن هؤلاء هم أهل الله حقًّا وهي الغربة التي مدح رسول الله ﷺ أهلها، وأخبر عن الدين الذي جاء به : أنه بدأ غريبًا ، وأنه سيعود غريبًا كما بدأ ، وأن أهله يصيرون غرباء .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم .

ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقًّا ، فإنهم لم يأووا إلى غير الله، ولم ينتسبوا إلى غير رسوله ﷺ ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم ، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم فيقال لهم: « ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإنا ننتظر ربنا الذي كنّا نعبده » .

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها ، بل هو آنس ما يكون إذا

استوحش الناس وأشدّ ما تكون وحشته إذا استأنسوا ، فوليّه الله ورسوله والذين آمنوا وإن عاداه أكثر الناس وجفوه[1].

ثم بعد هذا الإيضاح يوجه الدعاة إلى أن هذه الغربة ستزيد إذا ما قام بالدعوة على الوجه الأكمل فليوطن نفسه على الغربة والوحشة فيقول رحمه الله :

فإذا أراد المؤمن ، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه ، وفقهًا في سنة رسوله ، وفهمًا في كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع ، والضلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وازدرائهم به ، وتنفير الناس عنه ، وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه ﷺ فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه : فهنالك تقوم قيامتهم ، ويبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله ، فهو غريب في أمور دنياه وآخرته ، لا يجد من العامة مساعدًا أو معينًا ، فهو عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدعة ، داع إلى الله ورسوله ، بين دعاة إلى الأهواء والبدع ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف[2].

هكذا أنت أيها الداعية في غربة وسفرك عن هذه الغربة هو استمراريتك في الدعوة ، والسفر يحتاج إلى صبر ، وتحمل ، وركوب أخطار ، وإلا فلن تصل إلى برّ السلام يقول ان القيم :

---

(١) انظر « مدارج السالكين » : (٣/٢٠٥، ٢٠٦) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » : (٣/٢٠٨) .

العاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة ، إنما ذلك بعد انتهاء السفر .

ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل فإذا نزل ، أو نام ، أو استراح فعلى قدم الاستعداد للسير[1].

فلابدّ من السفر وتخطي الصعاب ولابدّ من الاستعداد ، إنها فكرة السفر إذن تلحّ على الداعية بعد أن سيطر عليه الشعور بالغربة وبعد أن هزه الشوق إلى بلاد الأفراح .

ومما يؤكد لك مدى استغراق ابن القيم في شعور الغربة ، وتعلق أشواقه ببلاد الأفراح وعزمه على السفر أن تنظر في اختياره لأسماء كتبه فترى معظمها يدور حول هذا المحور : محور الرحلة والتشوق والسفر .

فكتاب « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » يعرض لك في عنوانه القافلة يحدوها الحادي وهي تواصل المسير في شوق الوصول ويحثها على الإسراع .

وكتاب « زاد المعاد » وثيق الصلة بالرحلة حيث الحاجة إلى الزاد في الطريق والسفر .

وكتاب « طريق الهجرتين » ألفه لبيان وجوب الهجرة إلى الله ورسوله ﷺ بما توحي الهجرة من مفارقة الأوطان ومعانات الأخطار في سبيل الوصول .

وكتاب « مدارج السالكين » يوحي اسمه بالرحلة والسير الذي تقطع

---

(١) « الفوائد » لابن القيم : (٢١١) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى عام (١٤٠٣هـ) .

فيه المراحل حتى يصل السالك إلى أعظم الدرجات ، اذن فالرحلة عند ابن القيم فكرة جوهرية نشأت عن شعوره الحاد بغربته في الدنيا وأثارها شدة شوقه إلى بلاد الأفراح والأشواق(١) كما أنه رحمه الله قد بين للناس مراحل هذا السفر والزاد وأنواع المسافرين وغير ذلك ناصحًا ومذكرًا فقال :

العبد من حين استقرّ قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ومدة سفره هي عمره الذي كتب له ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ، فالكيّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينه ، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتدّ أمله ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير ، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها ، وسرعة انقضائها هان عليه العمل فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك فلا يزال هذا دأبه حتى تنقضي مراحل عمره فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فإذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه .

ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان : فقسم قطعوها مسافرين إلى دار الشقاء فكلما قطعوا منها مرحله قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته ، قطعوا تلك المراحل بمساخط ربهم ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقًا كما قال تعالى : ﴿ **ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًا** ﴾(٢).

---

(١) « شرح القصيدة الميمية » : (٤١) بتصرف قليل .

(٢) الآية من سورة مريم : (٨٣) .

القسم الثاني : قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله فهؤلاء متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره ، وفي نفس السير وسرعته وبطئه .

فالظالم لنفسه : مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته بل مفرّط في زاده ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار .

والمقتصد : اقتصر من الزاد على الذي يبلّغه ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة ، ولم يتزود ما يضره فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة .

والسابق بالخيرات : همّه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل فيرى من الخسران أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر به فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجارتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر وعنده حاصل وله خبرة بالتجارة فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل[1].

وكذلك كان الشوق والحب حاديًا لقريحته الشعرية رحمه الله مما جعله يبوح بما يخالج نفسه من حب وشوق لمحبوبته واصفًا للناس جمالها وطيبها موضحًا سبب هيامه بها وبمنازلها وهي جنّة الخلد في مقطوعة أدبيه رائعة فيقول :

(١) انظر « طريق الهجرتين وباب السعادتين » لابن القيم : (١٨٥ – ١٨٦) طبع دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ) .

وإن حجبت عنّا بكل كريهة ... وحُفّت بما يُؤذي النفوس ويؤلم
فلله ما في حشوها من مَسَرة ... وأصناف لذْت بها يتنعم
بذياك الوادي يهيم صبابة ... محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أبصار ترى الله جهرة ... فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المحب المتيم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها ... فلم يبق إلا وصالها لك مرهم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها ... يلذّ به قبل الوصال وينعم
وللورد ما قد ألبسته خدودها ... وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تذكر بالرحمن من هو ناظر ... فينطلق بالتسبيح لا يتلعثم
إذا أقبلت جيش الهموم بوجهها ... تولى على أعقابه الجيش يهزم
فيا خاطب الحسناء إن كنت راغبًا ... فهذا زمان المهر فهو المقدم
فاقدم ولا تقنع بعيش منغص ... فما فاز باللذات من ليس يقدم[1]

وبعد فهذه نبذه من تعلق هذا الداعية بربه وحبه له وتصديقه وأشواقه وهجرته إليه وتألهه ولهجه بذكره ، فهل يا ترى .

بعد هذا تجد في قلب هذا العبد مكانًا لغيره أو تعلقًا بغيره أو أن يحاول مثله عصيان أمر ربه ومخالفته إن الله سبحانه وتعالى أكرم من أن يخذله بل رأينا من كرمه سبحانه له وإعانته وتبصيره وحفظه وحفظ علمه وتنوير بصيرته ، وحب الناس له ما يدل على منّة الله سبحانه وتعالى عليه.

وهذا ما يريح الدعاة في تقبل آرائه في الدعوة ، لاطمئنانهم على سلامة قصده ومعتقده .

---

(١) انظر كتاب « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » لابن القيم : (ص١٨) .

* مؤلفات ابن القيم رحمه الله [١]

١ - « اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية » .

٢ - « أحكام أهل الذمة » .

٣ - « تحفة المودود في أحكام المولود » .

٤ - « أسماء مؤلفات ابن تيمية » .

٥ - « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ، بكسر همزة إعلام وفتحها.

٦ - « إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان » .

٧ - « إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان » .

٨ - « بدائع الفوائد » .

٩ - « تهذيب سنن أبي داود » .

١٠ - « جِلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام » .

١١ - « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » ، ويأتي باسم « الداء والدواء » .

١٢ - « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » .

١٣ - « حكم تارك الصلاة » .

---

(١) قام الدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد مشكورًا بثبت تفصيلي لأسماء مؤلفات ابن القيم وحذف المكرر وما نسب لابن القيم عن طريق الخطأ فتحصل أن عددها الذي أمكنه الوقوف عليه (٩٦) كتابًا ، وسوف أسرد هنا الكتب المطبوعة فقط ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابه « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » (ص١١٩) طبع مطابع الهلال الرياض ط الأولى عام (١٤٠٠هـ) .

١٤ - « رسالة إلى كل مسلم » .

١٥ - « الرسالة التبوكية » .

١٦ - « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » .

١٧ - « الروح » .

١٨ - « زاد المعاد في هدي خير العباد » .

١٩ - « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » .

٢٠ - « الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطله » وذكر باسم « الصواعق المرسلة » .

٢١ - « الطب النبوي » وقد أودعه ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » .

٢٢ - « طريق الهجرتين وباب السعادتين » .

٢٣ - « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » .

٢٤ - « عِدَة الصابرين وذخيرة الشاكرين » ، بكسر العين وفتح الدال من الوعد .

٢٥ - « الفروسية » .

٢٦ - « الفوائد » .

٢٧ - « الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن » ، ونسبته إلى ابن القيم خطأ [١] .

٢٨ - « الكلام على مسألة السماع » .

---

(١) انظر « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » : (١٨٤) .

٢٩ - « الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية » ، وهي المشهورة بالقصيدة النونية .

٣٠ - « مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين » .

٣١ - « مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة » .

٣٢ - « المنار المنيف في الصحيح والضعيف » .

٣٣ - « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » .

٣٤ - « الوابل الصيب من الكلم الطيب » .

٣٥ - « التبيان في أقسام القرآن » .

هذه بعض آثار هذا الداعية ، الذي نذر نفسه للدعوة إلى الله وتصحيح مسار الأمة وتوجيهها إلى منهج الله ورسوله ومحاربة البدع ، حتى توفاه الله سبحانه وتعالى ليلة الخميس ثالث عشر من رجب سنة إحدى وخمسين وسبعمائة[(١)] رحمه الله وقدس روحه وأسكنه فسيح جناته .

وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله ، شهدها القضاة والأعيان ، والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه وكمل له من العمر ستون سنة [(٢)].

* * *

(١) « ذيل طبقات الحنابلة » : (٤٤٨/٢) و « البداية والنهاية » : (٢٣٤/١٤) .

(٢) « البداية والنهاية » : (٢٣٥:١٤) .



الباب الأول

أصول الدعوة عند ابن القيم

الفصل الأول : موضوع الدعوة

الفصل الثاني : أهداف الدعوة

الفصل الثالث : صفات الداعية وأخلاقه

الفصل الرابع : وسائل الدعوة وأساليبها



الفصـــل الأول :

موضوع الدعـوة



المبحث الأول

تعريف الدعوة وحكمها

* أولاً : تعريف الدعوة في اللغة :

الدعوة في اللغة لها معان متعددة وهي مأخوذة من قوله تعالى : ﴿**والله يدعوا إلى دار السلام**﴾ [1] يقول في « اللسان » : « والدّعوةُ والدِعْوة والمدعاة» والمدعاة ما دعوت إليه من طعام وشراب ، وقول الله عز وجل : ﴿ **والله يدعوا إلى دار السلام** ﴾ ودعاء الله خلقه إليها كما يدعو الرجل الناس إلى مدعاة أي إلى مأدبة يتخذها وطعام يدعو الناس إليه »[2].

ويقول في « المصباح المنير » : « دعوت الله أدعوه دعاء : ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدًا ناديته وطلبت إقباله ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله ، والجمع دعاة وداعون ، والنبي ﷺ داعي الخلق إلى التوحيد »[3].

« والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلال ، واحدهم داع ، ورجل داعية إذا كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء للمبالغة »[4].

ويصدّق هذا قوله ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور**

---

(١) سورة يونس : (٢٥) .

(٢) « لسان العرب » لابن منظور : (١٤/٢٦٠) .

(٣) « المصباح المنير » مادة دعا : (١٩٤) .

(٤) « لسان العرب » : (١٤/٢٥٨) .

من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » (١).

والذي يميز كلًا من دعوة الهدى والضلالة هو الإضافة إلى ما يدعو إليه ، يقول الإمام ابن القيم في تعريفه للدعاة :

والدعاة جمع داع ، كقضاة وقاضي ورام ورماه ، وإضافتهم إلى الله للاختصاص أي : الدعاة المخصصون به الذين يدعون إلى دينه ، وعبادته ومعرفته ومحبته ، وهؤلاء هم خواص خلق الله ، وأفضلهم عند الله منزلة وأعلاهم قدرًا (٢).

فيتضح أن كل معاني الدعوة تدور حول الطلب والسؤال والنداء .

إذًا الدعوة هي : النداء والطلب إلى شيء ما سواء كان حقًّا أو باطلاً والدعوة إلى الله هي النداء إلى داعي الله سبحانه وتعالى وتوحيده .

*** ثانيًا : تعريف الدعوة في الاصطلاح :**

بعد أن عرفنا معنى الدعوة في اللغة ، لابد أن نحدد مفهوم هذه الدعوة في الاصطلاح حيث إن الدعوة الإسلامية ليست كغيرها من الدعوات ، فليست من المبادئ المتعارف عليها ، وليست ظاهرة اجتماعية خاصة .

بل هي أمانة يتحملها خلفاء رسول الله ﷺ من هذه الأمة ، وهي واجب يفرض نفسه على تلك النفوس الزكية كي تنقذ البشرية من هاوية الهلاك ، وقد اختلف العلماء في تعريف الدعوة إلى الله في الاصطلاح من

---

(١) رواه مسلم في كتاب العلم : (٢٠٦٠/٤) باب : من سن سنة حسنة أو سيئة .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١٩٤/١) .

جهة التصور والشمول والقصور حسب نظر المعرّف ، وليس من اليسير حصرها ونختار بعضها مما يقرّب المعنى :

فقد عرفها البعض بقوله :

« إنها برنامج كامل يضم في أطوائه جميع المعارف التي يحتاج إليها الناس ليبصروا الغاية من محياهم ، وليستكشفوا معالم الطريق التي تجمعهم راشدين »[١].

وقال آخر هي : « حثّ الناس على الخير والهدى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل »[٢].

وعرفها بعضهم بأنها : « حركة إحياء للنظام الإلهي الذي أنزله الله عز وجل على نبيه الخاتم »[٣].

ويرى بعضهم : « أن الدعوة إذا أطلقت فإن لها معاني إما بمعنى النشر والبلاغ أو بمعنى الدين » .

وعلى ذلك فإن التعريف الاصطلاحي للدعوة بمعناها الأول يغاير تعريف الدعوة بمعناها الثاني وإليك التعاريف .

تعريف الدعوة بمعنى النشر : هي « العلم الذي به تعرف كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الناس الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق » .

وأما عن تعريف الدعوة كدين فإنه أورد عدة تعاريف يقول : إنها

(١) « مع الله دراسة في الدعوة والدعاة » للشيخ محمد الغزالي ص: (١٧) .

(٢) « هداية المرشدين » ص : (١٧) المؤلف الشيخ على محفوظ .

(٣) « الدعوة الإسلامية في عهدها المكي » ، رؤوف شلبي ص : (٣٢) .

ليست متعارضة ، وسوف ننقل التعريف الأول منها .

يقول : « الدعوة الإسلامية هي الدين الذي ارتضاه الله للعالمين وأنزل تعاليمه وحيًا على رسول الله ﷺ وحفظها في القرآن الكريم ، وبينها في السنة النبوية »[(١)].

*** التعريف المختار :**

وعرفها شيخ الإسلام ابن تيمية[(٢)] بقوله : « الدعوة إلى الله هي الدعوة إلى الإيمان به ، وبما جاءت به رسله بتصديقهم فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا »[(٣)] وقال : « وقد تبين بذلك أن الدعوة نفسها أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، فإن الداعي طالب مستدع مقتضي لما دعى إليه ، وذلك هو الأمر ، إذ الأمر هو : طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله دعاء إلى سبيله فهو أمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر »[(٤)].

واخترت هذا التعريف لعدة أسباب :

أولها : أن شيخ الإسلام لم يقيد التعريف بالضابط المنطقي أو الحد الاصطلاحي كما فعل غيره من المتأخرين وهذا هو الصحيح حيث إنه بين الموضوع والمنهج .

---

(١) « الدعوة الإسلامية » ص : (١٠-١٣) ، المؤلف أحمد غلوش .

(٢) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي أبو العباس تقي الدين بن تيمية ، ولد عام (٦٦١هـ) وتوفى (٧٢٨هـ) ، شيخ الإسلام وعلم الأعلام وهو من أعظم شيوخ ابن القيم الذين تأثر بهم وسوف يكثر ورود اسمه في هذا البحث لترابط الأفكار بينهما وطريقتهما في المنهج والمصدر، انظر ترجمته في « الأعلام » للزركلي : (١/١٤٤) .

(٣) « مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية » : (١٥/١٥٧) .

(٤) نفس المرجع : (١٥/١٦٦- ١٦٧) .

ثانيًا : أنه جمع بين مفهوم الدعوة كحركة بناء ونشر ، وبين دعوة الإسلام النظام الكامل الذي أنزله الله ، والمتمثل في الإيمان به وتصديق رسوله وطاعته فيما أمر به .

ثالثًا : جمعه رحمه الله بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذا هو الصواب كما سنرى ذلك إن شاء الله في الباب الثالث .

ثانيًا : حكم الدعوة :

لما كانت رسالة الإسلام خاتمة الرسالات وهي عامة للبشرية جمعاء إلى أن تقوم الساعة ولا يقبل الله دينًا سوى الإسلام لقوله تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه** ﴾[1] من هنا لزم لها التبليغ كي تصل تعاليمها وشرائعها إلى الناس جميعًا .

ومن أمعن النظر علم أن الدعوة إلى الله حياة الأديان وأنه ما قام دين من الأديان ولا انتشر مذهب من المذاهب إلا بالدعوة ، وما تداعت أركان ملة بعد قيامها وتلاشت إلا بترك الدعوة .

ولقد علّمنا التاريخ ، أنه ما قام أحد يدعو إلى شيء إلا وجد له أنصارًا وأتباعًا كما نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة ، والمذاهب الحقة بإهمال الدعوة تتضاءل ، ولو كان الحق ينتشر بذاته لأنه الحق لما فرضت علينا الدعوة إليه ولما كان ثم حاجة للأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين[2].

فاقتضت حكمة الباري عزّ وجل أن تكون هذه الرسالة واجبة التبليغ .

---

(١) سورة آل عمران آية : (٨٥) .

(٢) « هداية المرشدين » بتصرف : (١٤) .

وقد اتفق علماء الإسلام على وجوبها[١] للأدلة القاطعة على الوجوب كقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ [٢].

وقوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ [٣].

وقوله تعالى : ﴿ **وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين** ﴾[٤].

وقوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾[٥].

وقوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على الوجوب .

ومن الأدلة في السنة قوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** » [٧] وقال النبي ﷺ : « **بلغوا عني ولو آية** »[٨].

---

(١) انظر « تفسير روح المعاني » للألوسي ج (٤) ص : (٢١) دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان .

(٢) سورة آل عمران آية : (١٠٤) .

(٣) سورة آل عمران آية : (١١٠) .

(٤) سورة القصص آية : (٨٧) .

(٥) سورة النحل آية : (١٢٥) .

(٦) سورة يوسف آية : (١٠٨) .

(٧) رواه مسلم كتاب الإيمان برقم (٧٨: جـ١ ص : ٦٩) .

(٨) رواه البخاري في كتاب الأنبياء : (٥٠) والترمذي في كتاب العلم باب (١٣) ، وأحمد في « المسند » (١٥٩/٢) .

وقوله ﷺ : « ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »[(١)].

والأحاديث الدالة على الوجوب كثيرة .

ولكن العلماء اختلفوا في تعيين الوجوب ، هل هو واجب عيني ـ أي أنه يلزم كل مسلم بعينه ـ أم أنه واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإليك بيان كل قول وأدلته التي استدل بها على تعيين قوله :

* **أولاً : الوجوب الكفائي :**

والذين قالوا بهذا القول استدلوا بقوله تعالى : ﴿ **وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم**﴾[(٢)].

فالآية الكريمة تدل على أن الدعوة لا تلزم كل مسلم بعينه بل تلزم طائفة من المؤمنين واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن لمنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[(٣)].

قالوا إن « من » في قوله تعالى ﴿ **منكم** ﴾ تفيد التبعيض[(٤)] وعليه فإن

(١) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » برقم (٨٠ جـ١ ص : ٧٠) .

(٢) سورة التوبة آية : (١٢٢) .

(٣) سورة آل عمران آية : (١٠٤) .

(٤) « تفسير القرطبي » : (١٦٥/٤) .

الذين يتولون مهمة الدعوة إلى الله تعالى بعض الأمة « وهذا واجب على مجموع الأمة ، وهو الذي يسميه العلماء : فرض كفاية ،إذا قامت به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين » [١].

* **ثانيًا : الوجوب العيني :**

واستدل القائلون بهذا القول بقوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[٢] فالآية تدل على أن الدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله . كما دعا إلى الله .

وبقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾[٣] ومعنى هذه الآية الكريمة : « ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف ولكن « من » ها هنا تدخل لتخص المخاطبين من سائر الأجناس وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين ومثله قوله تعالى: ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾[٤] ومعناه : اجتنبوا الأوثان فإنها رجس » [٥].

فالأمر في هذه الآية عام « ويدل على العموم قوله تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ فإن التواصي هو الأمر والنهي » [٦].

---

(١) « فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية » (١٥) ص : (١٦٥) .

(٢) سورة يوسف آية : (١٠٨) .

(٣) سورة آل عمران آية : (١٠٤) .

(٤) سورة الحج آية : (٣٠) .

(٥) « زاد المسير في علم التفسير » لابن الجوزي : (٤٣٤/١) المكتب الإسلامي للطباعة الطبعة الأولى عام (١٣٨٥هـ) .

(٦) « تفسير المنار » : (٢٧/٤) محمد رشيد رضا الطبعة الثانية دار المعرفة بيروت لبنان .

واستدلوا كذلك بذم الله تعالى بني إسرائيل ولعنهم على لسان أنبيائه لتركهم الواجب في قوله تعالى : **﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾**[(١)].

وبقوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »[(٢)] وهذا الحديث صريح في لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لزومًا عينيًا .

*** رأي ابن القيم :**

يرى ابن القيم أن كل من اتبع النبي ﷺ يجب عليه أن يدعو إلى ما دعا إليه لقوله تعالى : **﴿ قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾**[(٣)] قال ابن القيم :

« لأن قوله تعالى : **﴿ ومن اتبعني ﴾** معطوف على الضمير في **﴿أدعوا﴾** يعني أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو ثم يقول : وهذا قول الكلبي[(٤)] قال : حقٌّ على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة ثم يقول : ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة »[(٥)].

---

(١) سورة المائدة الآية : (٧٨ و ٧٩) .

(٢) سبق تخريجه (ص ٤٤) .

(٣) سورة يوسف الآية : (١٠٨) .

(٤) هو إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي أبو ثور : الفقيه صاحب الإمام الشافعي ، قال ابن حبان : كان أحد أئمة الدنيا فقهًا وعلمًا وورعًا صنف الكتب وفرّع على السنن وذب عنها له كتاب ذكر فيه اختلاف مالك والشافعي ، مات ببغداد شيخًا كبيرًا سنة (٢٤٠هـ) رحمه الله . انظر «تذكرة الحفاظ» (٧٧/٢) و « ميزان الاعتدال » (١٥/١) ، و « تاريخ بغداد » (٦٥/٦) ، و« الأعلام » (٣٧/١).

(٥) « التفسير القيم » ص : (٣١٨) .

والنهي عن المنكر لأن (العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعرف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ولم يخالف في ذلك إلا النزر)[1] لأن المصلحة لا تتكرر بفعله مرتين فلو أبصرنا منكرًا من المنكرات كآلة لهو أو إناء خمر ونحن قادرون على إزالته فقام أحدنا بكسرها فإن القصد بالفعل المأمور وقع بفعل الأول فإذا وقع الفعل على الوجه الصحيح ارتفع عن الباقين سواء قام به فرد أو جماعة .

وفي وقتنا الحاضر يجب على من يتولى أمر المسلمين أن يخصص جماعة من علماء الأمة ممن له أهلية الدعوة وأن ينشروا على جميع الأقطار كي يقيموا الحجة وينفذوا أمر الله فإذا وجدت هذه الجماعة وقاموا بتبليغ رسالة الله وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر سقطت الدعوة عن البقية وأصبح التبليغ في حق غيرهم سنة .

وأما الذين قالوا بأنها فرض عين فنحمل قولهم على الدعوة الخاصة حيث إن الدعوة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال .

فالرجل في بيته وبين أهله وجيرانه تكون الدعوة بالنسبة له فرض عين لأنه رب البيت وعنده القدرة والاستطاعة بأن يأمر وينهى ويوجه ويربي والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة** ﴾[2] ويقول المصطفى ﷺ : (**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها ، وكلكم راع ومسئول**

---

(١) « تفسير روح المعاني » للألوسي : (جـ٣ ص : ٢١) .

(٢) الآية من سورة التحريم : (٦) .

عن رعيته»[١] ، فهو يأمر أهله بالصلاة والصيام والعبادات وينهاهم عن ارتكاب المحرمات ويؤدب إلى غير ذلك .

وكذلك عند كثرة المنكرات وغلبة الجهل فإنها تكون فرض عين على كل واحد وحسب طاقته . أما ولاة الأمور من حكام المسلمين ، ومن ولي أمر الدعوة والعلماء ممن لهم القدرة ، بالنسبة لأرض الله تعالى الواسعة فإنها في حقهم فرض عين فيجب عليهم مالا يجب على غيرهم من تبليغ الدعوة في جميع الأقطار حسب القدرة والمستطاع لا سيما في وقتنا الحاضر حيث إن وسائل تبليغ الدعوة قد تيسرت ، والمتمثلة في وسائل الأعلام الحديثة كالإذاعة والتلفاز ، والصحف إلى غير ذلك .

وبعد ذلك كله يتبين لنا أن حكم الدعوة إلى الله تعالى بالنسبة لكونها فرض عين أو فرض كفاية أمر نسبي يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال[٢].

* * *

(١) رواه البخاري في كتاب « الجمعة » رقم الباب (١١ جـ ١ ص : ٢١٥) .

(٢) انظر « بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة » بتاريخ (١٣٩٧/٢/٢٤هـ) من بحث « فضل الدعوة إلى الله وحكمها » لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز ـ المجلد الأول .

المبحث الثاني :

الحاجة إليها وفضلها

*** أولاً : حاجة البشرية إلى الدعوة :**

إن الحاجة للدعوة إلى الله تعالى ، كامنة في سر وجود البشر في هذه الدنيا ، وحاجة البشرية إليها لا تقاس بحاجة ، لأن السعادة والرخاء ، والاطمئنان والاتزان لا يكون إلا بنشر ذلك الناموس الإلهي ، وهو وحده يستطيع أن يدبر شئون العالم جميعها سواء أكانت اعتقادية أو اجتماعية ، أو اقتصادية أو سلوكية ، لأنه منهج رباني يدرك ولا يدرك ، فهو خالق العالم وصانعه والعالم بجميع أسراره.

وأعتقد أنه من البديهيات التي لا تخفى على عاقل : أن صانع الشيء أعرف بأسراره ، والإنسان منا إذا ما حصل على سلعة من السلع وكان فيها كتاب التعليمات فإنه يسير على حسب تلك التعليمات لأنه متيقن أن هذه التعليمات صادرة من صانع تلك السلعة أو الآلة ، وهو أعلم بما يصلحها فما بالك بصانع العالم وصانع صانعي السلع فإننا أحوج ما نكون إلى الأخذ بتعليماته وشريعته .

ولنرى ماذا يقول ابن القيم عن حاجة البشرية إلى هذه التعليمات الربانية المثلة في تشريعاته ، وما هي النتيجة عند فقدانها ؟

يقول : وحاجة الناس إلى الشريعة ضرورة فوق حاجتهم إلى أي شيء، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون

بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في المدن الجامعة ... وما يقدر عند عدم الشريعة من فساد الروح والقلب جملة ، وهلاك الأبد . وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت : فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به ، والدعوة إليه ، والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه[1].

*** لماذا دعوة الرسل ؟**

ولسائل أن يسأل ، ولماذا نتبع الرسل وهناك من العقول البشرية من فلاسفة وغيرهم قد جاءوا بالشيء الكثير ؟

نقول : إن العقول البشرية وحدها لا يمكن أن تصل أو تدرك الحقيقة بل هي عاجزة عن إدراك نفسها وحقيقة ذاتها ، والعقل أقل من أن يدرك الخير لنفسه أو يحذرها من الشر وكثيرًا ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه وكثيرًا ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه[2] ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[3] .

فعين الإنسان لا تدرك إلا ما رأته أمامها أو بوسيلة من وسائل العلم فتعرفه لأنها رأته وميزها العقل .

ولعلم الله سبحانه وتعالى بحقيقة هذا العبد وقصور مداركه أرسل إليه الرسل ليبصروه بما خفي عليه ويميزوا له الخبيث من الطيب يقول ابن القيم :

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٣/٢) .

(٢) « هداية المرشدين » : (١٨) .

(٣) سورة البقرة : (٢١٦) .

ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل [١] إلا من جهتهم ولا ينال رضى الله ألبتة إلا على أيديهم ... فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال[٢].

وتتابعت رسالات الله تعالى إلى البشرية تترى من لدن نوح عليه السلام، فكلما زاد الكفر والإلحاد والفجور في قوم بعث الله تعالى إليهم رسولاً يدعوهم إلى الخير وينذرهم مغبة البعد عن الله تعالى وتعاليمه ، ويخرجهم من ظلمات الشرك والطغيان إلى نور الله بتوحيده وطاعته ويبشرهم بالنعيم في الدنيا والآخرة إن هم أطاعوه وآمنوا به كما قال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ..** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارًا ، يرسل السماء عليكم مدرارًا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارًا** ﴾[٣].

وهكذا جميع أنبياء الله تعالى قاموا بأعباء الدعوة ، ونصحوا أقوامهم وأنذروهم وبشروهم فمنهم من آمن بهم وكتب له النعيم ، ومنهم من كفر واستحق الجحيم والعياذ بالله .

* حاجة الناس إلى مبعث النبي ﷺ :

حين أظل زمان نبينا محمد ﷺ ، والناس في غاية الانحلال والضلال

---

(١) قوله « على التفصيل » يريد أن العقل البشري قد يميز بين الخير والشر والحق والباطل ولكن العقول البشرية لا تستقل بإدراك جميع مصالحها الدنيوية والأخروية .

(٢) « زاد المعاد » : (٦٩/١) .

(٣) سورة نوح الآيات من أول السورة إلى آية : (١٢) .

فقدوا الأخلاق وعبدوا الأشجار والأحجار ، يقتلون أولادهم ويعيشون على النهب والسلب ، لا يردع أحدهم عن إدراك نزوات نفسه وهواه رادع دين أو خلق ، قبائل متباغضة ، وشعوب متناحرة ، يظلم بعضهم بعضًا لا يحكمون بالقسط ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر حتى (كان القرن السادس والسابع الميلادي من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة تمسك بيدها وتمنعها من التردي)[1] إنهم مختلفون ، حتى مَنْ أنزل الله إليهم الكتاب كاليهود والنصارى كما قال تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾[2]. فالاختلاف في الدين حاصل بين من أنزل الله تعالى إليهم الكتب المقدسة التي كانت تدعو إلى معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له.

والحاصل أن حالة العالم قبل مبعث النبي ﷺ سواء كانت دينية أو اجتماعية أو سياسية مملوءة بالاضطرابات والفتن والقلاقل في جزيرة العرب وفي مملكة فارس والروم وغيرها من بلاد الأرض ، وأصبحت النفوس متعطشة لهداية السماء وإنقاذها من هاوية الهلاك ، وهاك ابن القيم وهو يصف حال الناس في ذاك الزمان وحاجتهم إلى مبعث رسول الله ﷺ وكيف أنه كان بالفعل رحمة للعالمين حيث يقول :

فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها فإنهم بين عباد أوثان

---

(١) « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » (٢٤) تأليف الشيخ أبو الحسن الندوي ، دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) سورة البقرة الآية : (١١٣) .

وعباد صلبان وعباد نيران وعباد الكواكب ومغضوب عليهم وضالين وحيران لا يعرف ربًا يعبده ولا بماذا يعبده والناس يأكل بعضهم بعضًا من استحسن شيئًا دعا إليه ، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة وقد نظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا على أثر دين صحيح .

فأغاث الله به العباد والبلاد وكشف به تلك الظلمة وأحيا به الخليقة بعد الموت فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن .

ولم يكن فضله ورحمته ﷺ على المسلمين خاصة بل إنه لعموم العالمين حصل لهم النفع برسالته ، أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة ، وأما أعداؤه المحاربون له فاللذين عجل قتلهم خير لهم من حياتهم ، لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة ، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم ، وأما المعاهدون له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته ، وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم ، وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته(١).

لقد بعث الله محمدًا ﷺ لتشرق الأرض بنور ربها وانتصر رسول الله ﷺ و (ليس الانتصار في غزوة ، ولا الانتصار في معركة ، إنه ليس فتح مكة ولا ضم جزيرة العرب ، ولا إخضاع مملكتي كسرى وقيصر ، إنما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة ويغير مجرى التاريخ » (٢).

---

(١) « جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام » لابن القيم بتصرف قليل (١١٣- ١١٦) ، وانظر كذلك « مختصر الصواعق المرسلة » لابن القيم : (١٤٧/١) .

(٢) « دراسات إسلامية » : (٢٤) تأليف سيد قطب ، ط الشروق ص : (٢٤) .

لقد جاء محمد ﷺ يبين للناس ما اختلفوا فيه كما قال تعالى : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه** ﴾[1] وليرفع الظلم عن المظلوم ويهز الجبابرة والمتكبرين ويزهق الباطل والمبطلين لقد انتصر حين « جعل لشريعة الإسلام نظامًا يحكم الحياة ، ويصرف المجتمع ، وينظم علاقات الناس »[2].

لقد قام رسول الله ﷺ بأعباء الدعوة فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ودعا إلى الله سرًا وجهرًا وأوذي في الله وصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل حتى أكمل للناس دينهم وأتم عليهم نعمته كما قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ [3].

ثم انتقل بعد ذلك إلى ربه راضيًا مرضيًا عليه أفضل الصلاة والتسليم ثم قام أصحابه رضوان الله عليهم بالدعوة وتحملوا الأمانة وساروا على طريقه الذي رسمه لهم وانتشروا في أرجاء المعمورة دعاة للحق ومجاهدين في سبيل الله لا يخشون في الله لومة لائم ولا يطلبون رضى أحد إلا الله ، فكانوا دعاة مهتدين ، صالحين مصلحين ينشرون شريعة الله ويوضحون العقيدة ، وصبروا على الدعوة صبرًا عظيمًا وجاهدوا في الله جهادًا كبيرًا ، وتبعهم على ذلك التابعون وتابعوهم من أئمة الهدى والصلاح ممن دخلوا في هذا الدين من عرب وعجم ، فكانوا دعاة مصلحين مخلصين رفعوا راية الإسلام في شتى بقاع الأرض وعلت كلمة الله على أيديهم ولم يحصل لهم ذلك إلا بسبب صبرهم ويقينهم بالله عز وجل .

---

(١) النحل : (٦٤) .

(٢) « دراسات إسلامية » ص : (٢٨) .

(٣) سورة المائدة الآية : (٣) .

*** الانحلال وأسبابه :**

وتعاقبت الأجيال تلو الأجيال وبعدت المسافة وقدم العهد بصاحب الرسالة وكلّت الهمم وركنوا إلى متاع الدنيا وزخرفها وغلبت عليهم الشهوات ، واستزلّهم الشيطان وتخلى المسلمون عن تعاليم دينهم وأصبحوا في ذلة ومهانة وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيًا** ﴾(١).

فوعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالنصر والعزة والاستخلاف في الأرض إنما هو مشروط بشروط يجب أن تتحقق وتخلص النية فيها يقول تعالى : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا** ﴾(٢).

وتحقق هذا الشرط فيمن سبق من المؤمنين وصدقهم الله وعده واستخلفهم وجعلهم سادة أهل الأرض زمنًا طويلًا ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . لقد غير المسلمون ما بأنفسهم من الإيمان بالله واليقين به تعالى والإخلاص فى الدعوة إليه واستبدلوها بالمعاصي واتباع الشهوات فغير الله ما هم فيه من استخلاف وتمكين ونصر ، وأبدلهم به ذلاً وتخلفًا ومهانة ولذا نرى ابن القيم وهو يتحدث عن آثار المعاصي في العبد وعقوبات الذنوب يقول :

إنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ولا

---

(١) سورة مريم الآية : (٥٩) .

(٢) سورة النور الآية : (٥٥) .

حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال علي بن أبي طالب رضى الله عنه : «ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » وقد قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ [١].

وقال تعالى : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرًا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [٢].

فأخبر تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غَيّرَ غُيّر عليه ، جزاءً وفاقًا ، وما ربك بظلام للعبيد[٣].

وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ﴾[٤].

فكثرة المعاصي في هذه الأمة وبعدها عن الله كان سببًا لتغيير الله تعالى العز بالذل والنصر بالهزيمة والتقدم بالتخلف ، وليصدق قول النبي ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قلنا : يا رسول الله ! أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت »[٥].

لقد نزع الله المهابة من قلوب أعداء الإسلام وانقلبت الآية وأصبح

---

(١) الآية من سورة الشورى : (٣٠) .

(٢) الآية من سورة الأنفال : (٥٣) .

(٣) « الجواب الكافي » بتصرف : (٨٥) .

(٤) الآية من سورة الرعد : (١١) .

(٥) رواه الإمام أحمد في « المسند » (٢٧٨/٥) رقم : (٢٢٤٥٠) ، وأبو داود في « الملاحم » : (٥) .

المسلمون يهابون أعداء الله وأعداءهم ، وزرع الله في قلوبهم الوهن فتركوا الجهاد ، وتشبثوا بالدنيا الفانية ونسوا الدعوة إلى الله فأبدلهم الله بالعز ذلًّا ، وبالرفعة هوانا وسلط عليهم أعداءهم . (وطمع فيهم الغرب الحاقد مستغلًّا غفلة المسلمين وضعفهم وقام بحملات صليبية واسعة استمرت قرنين من الزمان من عام (٤٩٠هـ) إلى عام (٦٩٠هـ) خاض المسلمون فيها معارك طاحنة مع الصليبيين الحاقدين يقودهم البابوات فقد استعملوا جميع وسائل الإغراء لإثارة الحمية في الصدور زيادة على إعلان غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية زيادة على إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية)[1].

فالحروب الصليبية لم تكن حملات استعمارية باحثة عن المصالح الاقتصادية فقط بل كان الهدف الأول منها والرئيسي هو هدف ديني صليبي حاقد ، ولكن الله سبحانه وتعالى قيض لهذه الأمة رجالاً مخلصين دافعوا عن حمى هذه البلاد الإسلامية فردوا أولئك الغزاة يجرون ثوب الخزي من أفعالهم التي تنم عن الحقد والكراهية لهذا العالم الإسلامي .

فأيقنوا بعد ذلك أنه لا يمكن مجابهة العالم الإسلامي بقوة السلاح أبدًا لما تحمله عقيدتهم من جهاد وحماس وإخلاص وبذلهم النفس والنفيس من أجل الذود عن هذا الدين وعقيدته وأنه لابد من سبيل آخر غير السلاح لأن قوة الإيمان لا تقهر ، وإنهم لابد أن يطفئوا جذوة هذا الإيمان في نفوس المسلمين ويقتلوا هذه العقيدة كي يسهل عليهم التغلب واستلاب بلادهم فتحولت المعركة من معركة السلاح إلى معركة الفكر ، والطريق إلى

---

(١) « الحروب الصليبية في المشرق والمغرب » : (٣٤) مؤلفه محمد العروسي المطوي طبع دار المغرب الإسلامي (١٩٨٢م) .

ذلك هو تزييف العقيدة الإسلامية الراسخة التي تحمل طابع الجهاد وتدفع المؤمنين إليه وتأمرهم باجتناب المحرمات كالعادات الفاسدة وعدم التخلق بأخلاق الكفار .

فجمعوا العدة لهذه الحرب وتفننوا فيها واخترعوا المناهج والأساليب والوسائل الكفيلة لتحقيق غرضهم ، وهو ما يعرف بالغزو الفكري للعالم الإسلامي وكانت وسائلهم في هذا الغزو الاستشراق والتبشير يساندهما الغزو العسكري للبلاد الإسلامية ، فالاستشراق أخذ على كاهله تشويه الشريعة الإسلامية والتقليل من أهميتها والطعن في نبيها وكتابها ومصادرها والدعوة إلى نشر المذاهب الفاسدة[1] وتشجيع الخرافة والقومية والإلحاد وزرع ذلك في قلوب أبناء الإسلام .

وكذلك التنصير أو التبشير الذي تكفل بإخراج المسلم عن دينه وإيقاف الزحف الإسلامي عن أوروبا وغيرها .

وقد أصابوا أهدافًا كثيرة في المنطقة الإسلامية وأفسدوا على الكثير ممن لا يعرف دينه واستطاعوا أن يلقنوا أبناء الإسلام أن كل قديم من الأخلاق والتقاليد والعادات أصبح غير ذي جدوى في الحياة العصرية وهم يقصدون في ذلك الإسلام وتقاليده وصارت هذه التقاليد في زعمهم من المعوقات عن أيّ تقدم حضاري مما تقتضيه الحياة المعاصرة ، ويتطلبه النهوض العلمي وتقنية الحياة المادية العصرية .

وتطور العلم التجريبي في الغرب الذي أدى إلى النهضة الصناعية الهائلة

---

(١) لقد شجعوا ونشروا المذاهب الباطنية كالقاديانية والبهائية وغلاة الصوفية وغيرهم من المذاهب الفاسدة التي كان ولاؤها للإنجليز وقد اتفقوا على عدم جهاد الإنجليز والفرنسيين . انظر : « دمروا الإسلام أبيدوا أهله » (ص :) .

عندهم ساعدهم على أن يصوروا لأبناء الإسلام أن سبب هذا التطور هو تخليهم عن هذه التقاليد ، وأن سبب تخلف المسلمين هو تشبثهم بالتقاليد البالية والتعاليم التي مضى على وجودها أكثر من عشرة قرون وذلك أخذًا من قول إمامهم في الإلحاد كارل ماركس[1] « الدين أفيون الشعوب » وهي كلمة تصدق على المذاهب الوضعية والديانات المحرّفة الباطلة ولكنها لا تصدق على الدين الإسلامي الذي حمل للإنسانية كل خير وحررها من عبودية غير الله وأطلق الفكر حرًّا يقارن ويستدل ويختار .

فضلًا على أنه لا يوجد دين من الأديان دعا إلى العلم والتعلم كما دعا إليه الإسلام قال تعالى : ﴿ **هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون** ﴾[2] .

وقال المصطفى ﷺ : « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »[3].

وغير ذلك كثير لا يتسع المقام إلى ذكره ، وكذلك أول من بدأ بالعلم التجريبي هم علماء المسلمين .

ومن المؤسف حقًّا أن بعض أبناء المسلمين صدقوا هذه الفرية واعتبروها واقعًا مسلمًا مما جعل طائفة منهم ـ ويعتبرون أنفسهم من المثقفين ـ تحولوا

---

(١) هو مؤسس المادية التاريخية الشيوعية وحاخام الشيوعية ، وفيلسوفها الأكبر ، ينتمي إلى أسرة يهودية حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة (١٨٤١م) من جامعة برلين ثم طرد منها بسبب اتهامه بالإلحاد فهاجر إلى فرنسا حيث وجد المناخ الذي يبث فيه أفكاره في دول أوربا حتى يهلك سنة (١٨٨٣م ، ١٣٠١هـ) . انظر أحمد العوايشة : « موقف الإسلام من نظرية كارل ماركس للتفسير المادي للتاريخ » (ص: ٦١١) ، الطبعة الثانية (١٤٠٤هـ) المكتبة الإسلامية عمان الأردن .

(٢) الآية من سورة الزمر : (٩) .

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة : (٨) .

إلى عملاء لهم عن قصد أو بدون قصد يدافعون عن أفكارهم ويبثونها في عالمنا الإسلامي وهم أخطر علينا من أعدائنا ويصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾[1].

إن الفكر الإسلامي يعاني من هجمات خطيرة يخطط لها أعداء الإسلام ولا يعني أن العالم الإسلامي الذي تخلص أخيرًا أو الذي تخلص بعضه من الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي قد استعاد قوته بل إنه لا يزال يرزح تحت أثقال الغزو الفكري الذي أضاع الشخصية الإسلامية وأصبح كثيرًا من أبناء المسلمين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، فقد ابتعدت المجتمعات الإسلامية عن الإسلام شيئًا فشيئًا ، ولا يتوقف البعد على التقاليد والأخلاق فقط بل تعداه إلى العقائد والعبادات وهذا مكمن الخطر ، وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « **لتتبعُنّ سنن من كان قبلكم شبرًا شبرًا، وذراعًا بذارع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا : يا رسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ !** »[2].

*** مجالات الدعوة :**

إن الناظر إلى واقع العالم اليوم بشقّيه سواء العالم الإسلامي الذي تخلى عن مبادئه ودينه أو العالم الخارجي المادي يدرك مدى الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى .

إذًا مجالات الدعوة تتجه إلى وجهتين :

ونبدأ في المجال الداخلي ونقصد به المجتمعات المسلمة في مختلف

---

(١) الآية من سورة الروم : (٧) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الاعتصام » الباب (١٤ جـ ٨ ص : ١٥١) .

الأقاليم والبلدان حيث إن الواجب على الدعاة أن ينطلقوا من داخل البلاد الإسلامية أسوة برسول الله ﷺ فإذا ما تمكنت العقيدة والعمل الصالح والآداب الإسلامية في مهدها ـ أي البلاد الإسلامية ـ انتقلنا بها إلى المجال الآخر فالرسول ﷺ عندما بدأ بالدعوة إلى الله وحسب أمر ربه عز وجل تدرج في الدعوة وتنقل من مرحلة إلى مرحلة كما بينها الترتيب في سور القرآن الكريم فقد ركز جهوده أولًا في بلده الذي أوحي إليه فيها كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر** ﴾ (١) ثم أمره بإنذار عشيرته الأقربين كما قال تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾(٢) ثم انتقل إلى مكة وما حولها من القرى كما قال تعالى : ﴿ **لتنذر أم القرى ومن حولها** ﴾ (٣) ثم انتقل إلى جميع الأمم على المستوى العالمي كما قال تعالى : ﴿ **لتخرج الناس من الظلمات إلى النور** ﴾(٤) وقد ذكر الإمام ابن القيم مراتب الدعوة فقال :

المرتبة الأولى : النبوّة ، والثانية : إنذار عشيرته الأقربين ، والثالثة : إنذار قومه ، والرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة ، والخامسة : إنذار جميع من بلغته الدعوة من الجن والإنس إلى آخر الدهر(٥).

وهذه المراتب حسب تسلسلها في دعوة المصطفى ﷺ وهو الداعية

---

(١) سورة المدثر الآيات : (١ ، ٢ ، ٣) .
(٢) الآية من سورة الشعراء : (٢١٤) .
(٣) الآية من سورة الأنعام : (٩٢) .
(٤) الآية من سورة إبراهيم : (١) .
(٥) « زاد المعاد » (١/ ٨٦) .

الأول والقدوة لنا في جميع أمورنا ، لذا يجب أن تنطلق الدعوة من الداعية نفسه ثم بيته وأقربائه وبلده ثم البلاد الإسلامية ثم بلاد الكفر لا سيما في هذا العصر ، والمسلمون في أشدّ الحاجة إلى الدعوة بسبب انحرافهم عن طريق الإسلام للأسباب التي ذكرناها سابقًا من تضافر قوى أعداء الإسلام على المسلمين فغالب المسلمين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ، ولا يفهمون منه إلا بعض صوره فهم بين عبدة أضرحة ، وعبدة أشخاص موزعين بين طوائف شتى ، وبين عبدة أصنام آدمية ينحنون لها ويركعون ، وبين أتباع ومقلدين لمشايخ وعلماء لا يتبعون ما صح في الدين ولا ما ثبت عن سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، أما مثقفوهم فإذا علموا شيئًا فعن غير الإسلام وإذا اتبعوا شيئًا فهو ما يأتي به أعداء الإسلام

وكثير منهم اجتاحته الشيوعية الماركسية أو الحضارة الغربية المادية ، وصار يحسب على الإسلام والمسلمين وهو يهزأ ويسخر من المسلمين المتمسكين بالدين الحنيف ويعدهم رجعيين ، بل إن بعضهم يقول : لا مانع من أن أكون مسلمًا في الدين ماركسيًا أو شيوعيًا في الاقتصاد وقد اغترّ بهذا كثير من العامة ، وأما البقية المتمسكة بدينها وبمبادئه القيمة وأخلاقه السامية يخاف عليها وهي محاطة بهذه الأجواء الداكنة ، فتحتاج هي وغيرها إلى الدعوة إلى الله ليبقى هؤلاء على دينهم ويرجع الباقي إلى دينه الحنيف ويفهموا حقائقه ، ويعلموا أنه دين حق [1] فإذا ما انتعشت الدعوة في الداخل وتمسك أكثر المسلمين بدينهم ومبادئه وأخلاقه استطعنا أن ننتقل بالدعوة إلى الخارج لأنه من الضروري أن يكون الدعاة أسوة حسنة وقدوة

---

(١) راجع كتاب « الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم » : ص (٥٨) تأليف محمد بن سيدي بن الحبيب ، طبع دار الوفاء جدة .

لغيرهم ، وأن يكون على علم بظروف القوم وأحوالهم الثقافية ، والاجتماعية ، والسياسية ، لأن ذلك مما يسهل مهمته ويستطيع أن يخالط القوم ويجذبهم إليه .

*** فضل الدعوة والداعية :**

لكل إنسان يعمل في هذه الحياة هدف من وراء عمله ومصلحة يبتغيها ويتلذذ بها ، وتختلف مطامع البشر في التحصيل والكسب كل له ميوله ورغباته ، والموجه لذلك كله النفس وما تميل إليه ؛ والنفوس تختلف وتتباين فمنها المطمئنة ، ومنها اللوامة ، ومنها الأمارة كما بين ذلك سبحانه وتعالى فهي مختلفة حسب ما حباها الله تعالى من سداد وتوفيق أو بعد وفجور قال تعالى : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها** ﴾[١].

واعلم أيها الأخ المسلم أن فعل الداعية وحركته من أجل الدعوة دليل على إرادة الخير ومحبته لله تعالى ، فإن أفعال العباد وحركاتهم تابعة للإرادة والمحبة كما يقول ابن القيم :

المحبة والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها فإنما يدفعها بمحبته لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع...[٢] ثم يمثل لذلك بمثال فيقول : شرب الدواء الذي يدفع به ألم المرض ، فإنه وإن كان مكروهًا من وجه فهو محبوب لما فيه من زوال مكروه وحصول محبوب[٢].

وكمال المحبة : العبودية والذّل لله تعالى ، لكمال الجزاء الأوفى الذي

---

(١) الآية من سورة الشمس (٧ ، ٨) .

(٢) « روضة المحبين ونزهة المشتاقين » : (٧٦) .

يمن به سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين الصالحين ؛ فنعيم الجنة وما فيها لا يعادله شيء ألبتة وكذلك كراهة النار والعذاب ، لذلك كانت العبودية كمال المحبة للإنسان لأنه لن يحصل على شيء أحب إليه من هذا الجزاء وهو الجنة والبعد عن النار ، فالعبد حسب المحبة والإرادة يتحرك فمنهم من حبس جميع طاقاته وعقله لتلبية رغباته وشهواته التي يحبها ويميل إليها غير مكترث بمشروعيتها وهل هي حلال أم حرام كما وصفهم الله تعالى: ﴿ **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً** ﴾[1] ويصفهم ابن القيم رحمه الله بقوله :

فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار إن هم أحدهم إلا بطنه وفرجه ، فإن ترقت همته كان همه مع ذلك لباسه وزينته ، فإن ترقت همته فوق ذلك كانت في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية ، كان همه في نصرة النفس الكلبية[2][3].

أما الدعاة والعبّاد من المسلمين فإنهم قد ارتفعوا عن هذه الهيئة ونفوسهم تختلف عن نفوس هؤلاء ، فنفوسهم ملكية ملكت نفسها وأذلتها لمحبة الله وطاعته وابتغاء رضوانه ، وشتان ما بين محبة هؤلاء وهؤلاء وجزاء هؤلاء وهؤلاء حيث يقول الرب جل وعلا : ﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون** ﴾[4].

فما أعظم درجات من اتبع رضوان الله ودعا إلى سبيله وجاهد فيه فإن

---

(١) الآية من سورة الفرقان : (٤٤) .

(٢) « الوابل الصيب من الكلم الطيب » ص : (٧٥) .

(٣) راجع نفس المرجع ص : (٧٦) يوضح لك أنواع النفوس .

(٤) سورة آل عمران الآيات : (١٦٢- ١٦٣) .

المؤمنين متفاوتون في الدرجات يوم القيامة كل حسب إيمانه وتقواه يقول تبارك وتعالى : ﴿ **لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًّا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا** ﴾[1].

والدعاة من أعظم المجاهدين كما سنرى .

وفي « الصحيحين » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله ! تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟! قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين** »[2].

وبعد أن بينا أنواع النفوس والأسباب المحركة لها ودرجات الناس في الخير والشر ؛ نريد أن نعرف درجة الداعية وجزاءه ومن أيّ الأصناف هو ، وسوف أضع بين يدي الداعية ما يسعني مما جاء في كتاب الله العظيم ، وحديث نبيه الكريم ﷺ في فضل الدعوة والداعية مما ذكره ابن القيم رحمه الله في كتبه عن ذلك ليعرف المنزلة العظيمة التي كرمه الله بها ، والجزاء الأوفى الذي مَنّ الله به عليه كي يكون دافعًا له على الجهاد في الدعوة إليه وطاقة توقد في نفسه حب الدعوة حتى ينطلق إلى الدعوة مخلصًا عازمًا على تبليغ رسالة الله لا تأخذه في الله لومة لائم .

---

(١) سورة النساء الآية : (٩٥) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « الجنة ونعيمها » برقم : (٢٨٣٠ : جـ٤ ص : ٢١٧٧) ، والترمذي في كتاب « الجنة » باب (١٩) واللفظ له .

*** أفضل الدعاة الأنبياء :**

يوجهنا ابن القيم رحمه الله إلى أن الله سبحانه وتعالى فضل الأنبياء والمرسلين وجعلهم أزكى العالمين نفوسًا وأخلاقًا وأكملهم علمًا وعملًا من أجل الدعوة وكي يكونوا قدوة للمدعوين .

أولها : يقول ابن القيم في ذلك :

إن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فالله يصطفى من الملائكة رسلًا ومن الناس ، وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عباده في تبليغ رسالاته ، وتعريف أسمائه وصفاته ، وأفعاله ، وأحكامه ، ومراضيه ، ومساخطه ، وثوابه ، وعقابه ، وخصهم بوحيه ، وخصهم بتفضيله ، وارتضاهم لرسالته إلى عباده ، وجعلهم أزكى العالمين نفوسًا ، وأشرفهم أخلاقًا ، وأكملهم علومًا وأعمالًا ، وأحسنهم خلقًا ، وأعظمهم محبة وقبولًا في قلوب الناس ، وبَرّأهم من كل وهم وعيب وكل خلق دنيء[1].

*** الدعاة ورثة الأنبياء :**

وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم ، بأنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وإرشادهم الضال ، وتعليمهم الجاهل ، ونصرهم المظلوم ، وأخذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيهم عن المنكر وتركه ، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين ، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين[1].

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ١٠١) .

ثانيها : أن الداعية يقوم بأفضل الأعمال ويقول أحسن الأقوال بشهادة الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين** ﴾[١].

ويرى ابن القيم رحمه الله أن الدعوة إلى الله أفضل الأعمال على الإطلاق حتى من الجهاد فيقول :

وتبليغ سننه إلى الأمة ، أفضل من تبليغ السهام إلى نحور العدو ، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس ، وأما تبليغ السنن فلا يقوم بها إلا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم[٢].

ويقول في موضع آخر : وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد ، فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير .

والثاني : الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه[٣].

ثم يدل على أن الدعوة إلى الله جهاد بآيات من القرآن الكريم حيث أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بالجهاد من حين بعثه وقال : ﴿ **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا فلا تطع الكافرين ، وجاهدهم به جهادًا كبيرًا** ﴾[٤].

---

(١) سورة فصلت آية : (٣٣) .

(٢) « التفسير القيم » ص : (٤٣١) ، وانظر « القصيدة النونية » لابن القيم : (٨/١) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٩١) .

(٤) الآية من سورة الفرقان : (٥١ ، ٥٢) .

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفّار بالحجة ، والبيان ، وتبليغ القرآن[١] فهذا جهادهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضًا فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ [٢] وملعوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن [٣].

وجهاد الكلمة والدعوة لا يقل خطرًا عن جهاد السيف كما يرى ذلك ابن القيم ومثال ذلك كلمة الحق عند سلطان جائر حيث يقول ابن االقيم :

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه [٤].

ويتضح لنا مما ذكرنا أن ابن القيم يفضل الدعوة على الجهاد لأسباب جوهرية تدعو إلى ذلك مع أنه يرى أن الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة [٥].

ولكن الجهاد يستطيع أن يقوم به عامة الناس بينما الدعوة لا يقوم بها إلا الخاصة من خلفاء رسول الله ﷺ ولشدة مؤنة الدعوة وعظيم المنفعة التي تعود على الأمة والناس من دعوته ، وكثرة أعداء الدعاة وهذه سنة الله

---

(١) « زاد المعاد » (٣/ ٥) .

(٢) سورة التوبة آية : (٧٣) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٩٢) .

(٤) « زاد المعاد » : (٣/ ٦) .

(٥) « زاد المعاد » : (٣/ ٥) .

فيهم وكذلك فإن الدعوة إلى الله جهاد بنص القرآن الكريم كما بيّناه سابقًا، وكذلك لو جاهد العالم الداعية لكانت خسارة الأمة فادحة حيث أن يعوض مثل هذا الرجل من الصعوبة بمكان فلذلك وغيره كانت الدعوة إلى الله تعالى أفضل من الجهاد ، وكذلك عند اجتماع الجهاد والدعوة ووجود من يقوم بالجهاد كانت الدعوة هنا أفضل من الجهاد ، لأنها هي المحرك للمجاهد .

ثالثها : أن الداعية ناج من الخسارة في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾[1].

يقول ابن القيم في توجيه هذه الآيات الكريمات :

إن هذا القَسَمَ من الله سبحانه وتعالى بالعصر وهو الدهر أن جميع جنس الإنسان في خسارة وهلاك إلا من استثنى من المؤمنين العاملين للصالحات المتواصين بالحق والصبر فإن المراتب أربعة باستكمالهما يحصل للشخص غاية كماله ، أحدها : معرفة الحق . الثانية : عمله به . الثالثة : تعليمه من لا يحسنه . الرابعة : صبره على تَعَلُّمه ، والعمل به ، وتَعْليمِه .

ثم يبين أن تحقق هذه المراتب نهاية الكمال فيقول :

فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه ، مكملاً لغيره ، وكماله بإصلاح قوتيه العِلميّة والعَمَليّة فصلاح القوة العلمية بالإيمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل[2].

---

(٦) سورة العصر : (١-٣) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » بتصرف : (١/ ٧٤-٧٥) .

ولا أحد من الناس يتحقق فيه هذا الكمال غير الداعية حتى لو كان عابدًا طوال الليل والنهار مؤمنًا بالله صابرًا فإنه لا يبلغ درجة الداعية بل يخشى عليه من عقاب الله تعالى من تركه للدعوة وهو قادر .

ومنها أن الدعاة هم خير الناس بعد الرسل .

لقوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾[١].

فوصفهم بالخيرية مشروط بوجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكان الدعاة خير الناس لأنهم أنفع الناس للناس فهم يخرجونهم من الظلمات إلى النور ويرشدونهم إلى الخير ويحذرونهم من الشر ، إضافة إلى ما يلقاه الداعية من المشاق في سبيل الدعوة .

ومن فضل الدعاة أنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة .

لقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[٢].

فهم مفلحون في الدنيا لما ينالونه من العزّ والنصر والطمأنينة هم وأمتهم وهم المفلحون في الآخرة لما يتمتعون به من نعيم مقيم .

ومن فضائل الدعاة استشهاد الله سبحانه وتعالى بهم في عدة مواضع :

منها قوله سبحانه وتعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط** ﴾[٣] فعندما يستشهد الله بأحد من خلقه فإنما يدل على عظيم

---

(١) سورة آل عمران آية : (١١٠).

(٢) سورة آل عمران آية : (١٠٤) .

(٣) سورة آل عمران آية : (١٨) .

فضل هذا المخلوق وشأنه العظيم عند الله سبحانه فأهل العلم وهم الدعاة الذين عَلِموا، وعَمِلوا ، وعلّموا ، من المخلوقات العظيمة عند الله لمكانتهم بين الناس وتأثيرهم في صلاح الدنيا والآخرة بعد الله سبحانه وتعالى ويذكر ابن القيم عند حديثه على هذه الآية عن فضل العلم وأهله فيقول :

استشهد الله سبحانه بأولي العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه .

أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر .

ومنها : اقتران شهادتهم بشهادته ، ومنها : اقترانها بشهادة ملائكته ، ومنها : أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله سبحانه لا يُشْهِد من خلقه إلا العدول ، ومنها : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

ومنها : أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عن عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به .. وكل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضًا وهذه الوجوه كلها مستفادة من هذه الآية الكريمة[١] .

وكذلك فإن الله سبحانه وتعالى جعلهم شهداء على الناس يوم يقوم الأشهاد ، ويشهدون أنهم بلغوا الرسالة ، وأقاموا موازين العدل والقسط ونوّروا لهم الطريق قال تعالى : ﴿ **وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدًا** ﴾[٢].

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/ ٦٤-٦٥) .

(٢) سورة البقرة الآية : (١٤٣) .

* **عظيم أجر الداعية :**

ثم نقل ابن القيم رحمه الله بعض الأحاديث الدالة على فضل الداعية وعظيم أجره نذكر شيئًا منها .. مثل ما ورد في الصحيحين من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال : « **مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضًا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به** »[1].

يقول ابن القيم رحمه الله :

شبه النبي ﷺ العلم والهدى الذي جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنفع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فإنها بالعلم والمطر ، وشبه القلوب بالأراضي التي يقع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع ، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركته وثمرته[2].

ثم يقول : فجعل النبي ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الذين آمنوا بالدين علمًا وعملاً ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ .

---

(١) رواه مسلم كتاب « الفضائل » رقم الحديث (١٥جـ ٤ ص : ١٧٨٧) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٧٩) .

فهؤلاء أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم حقًّا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها ، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله فيهم: ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار**﴾[1].

البصائر في دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

الطبقة الثانية : حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ ، والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

الطبقة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسًا فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية[2].

ومنها : ما روى في « الصحيحين » : قول الرسول ﷺ لعلي : « **لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم** »[3].

ما أعظم فضل الدعوة والداعية ! فلو اهتدى رجل واحد بالداعية كان ذلك خيرًا له من حمر النعم ـ وهي خيار الإبل ـ فما الظن بمن يهتدي به كل يوم طائفة من الناس ؟!

ومنها : ما رواه مسلم قال رسول الله ﷺ : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا ومن دعا إلى**

---

(١) الآية من سورة (ص: ٤٥) .

(٢) انظر « الوابل الصيب » : (٧٤ - ٧٥) .

(٣) رواه البخاري في كتاب « فضائل الصحابة » (٩ ، جـ ٤ ص : ١٨٨) .

ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا » [(١)].

يقول ابن القيم عند كلامه على هذا الحديث :

إن المتسبب إلى الهدى بدعوته له أجر من اهتدى به ؛ والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضَلّ به ، لأن هذا بذل قدرته في ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور في غير موضع[(٢)].

قال تعالى : **﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾** [(٣)].

ومنها دعوة النبي ﷺ للداعية بالنضرة .

قال رسول الله ﷺ : « **نضّر الله امرءًا سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم** »[(٤)].

يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحديث :

إنه جمع مراتب العلم : من سمع ثم عقل ثم حفظ ثم بلاغ وأن من قام بهذه المراتب دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان ،

---

(١) رواه الترمذي برقم (٢٦٧٦) كتاب العلم : (٣١٧/٧) ومسلم .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٨٢/١) .

(٣) الآية من سورة النحل : (٢٥) .

(٤) رواه ابن ماجه برقم (٢٣٠) باب من بلغ علمًا : (٨٤/١) .

وابتهاج الباطن به ، وفرح القلب وسروه ، والتذاذه به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على وجهه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما قال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورًا** ﴾[١] فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم[٢].

أما عن قوله ﷺ « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ..... » إلخ .

قال : لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة ، فإنها تنفي الغل والغش وهو فساد القلب وسخائمه ، فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه ويزيل جمله لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضات الله فلم يبقى فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى : ﴿ **كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين** ﴾[٣].

وقوله : « إن دعوتهم تحيط من ورائهم » .

يقول : هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام ، وهم داخلوها لما كانت سورًا وسياجًا عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام ، كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها ممن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته[٤].

---

(١) الآية من سورة الإنسان : (١١) .

(٢) مفتاح دار السعادة : (٩٤) .

(٣) الآية من سورة يوسف : (٢٤) .

(٤) مفتاح دار السعادة : (٩٥) .

المبحث الثالث :

موضوع الدعوة

لقد عرفت أيها الأخ المسلم حكم الدعوة وفضلها ، فإن ارتقت بك الهمة وانشرح صدرك للدعوة ، وجب عليك معرفة أي شيء تدعو إليه حتى تكون على بصيرة من أمر الله وليتضح لك الطريق الذي تسير فيه من أجل الدعوة ، ولتقتدي برسول الله ﷺ في دعوته ، فإذا عرفت ذلك بقي أن تعرف الكيفية التي تدعو بها إلى هذا الموضوع الذي عزمت على القيام به .

وهذا ما سنعرفه إن شاء الله موضحين ذلك حسب المنهج الذي سار عليه ابن القيم في دعوته .

فموضوع الدعوة :

هو الإسلام الذي نزل به الروح الأمين ، من عند الله على أفضل الخلق محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وأمره بتبليغه ، وتعبد جميع الخلق به ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم سبل السلام

قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين** ﴾(١).

وقال : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ (٢).

وقال : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه**

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (٨٥) .

(٢) الآية من سورة آل عمران : (١٩) .

سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾(١) وهو دين جميع الأنبياء .

وقد حدد العلماء هذا الإسلام وعرفوه(٢) بتعاريف تدل على مضمون الإسلام، وإن اختلفت في اللفظ فهي تدل على معنى الإسلام صراحة أو بالمعنى.

وأصدق تحديد للإسلام هو تحديد من أرسله الله بالإسلام ودعا إليه محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فإنه أجاب عندما سئل عن الإسلام بقوله : « **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً** »(٣).

---

(١) الآيات من سورة المائدة : (١٥ - ١٦) .

(٢) عرفه ابن القيم بقوله : هو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه ولا طريق لهم إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة - « مدارج السالكين » : (٢١) .

وعرفه شيخ الإسلام بقوله : « إن الإسلام دين ، والدين مصدر دان يدين دينًا إذا خضع وذل ، ودين الإسلام هو الذي ارتضاه الله وبعث به رسله ، وهو الاستسلام لله وحده ، فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحده دون سواه فمن عبده وعبد معه آلهًا آخر لم يكن مسلمًا ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا ، والإسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له ، فالإسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح. « كتاب الإيمان » لشيخ الإسلام ابن تيمية : (ص٢٢٦) .

ويقول : (إن الإسلام الذي هو إخلاص الدين لله مع الإحسان وهو العمل الصالح الذي أمر الله به هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان) « الإيمان » : (٢٢٤) .

وعرّفه بأنه : الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك : « فتح المجيد شرح كتاب التوحيد » للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص٨٩) ، تأليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق محمد الفقي ، الطبعة الرابعة (١٣٦٢هـ) .

(٣) رواه البخاري في كتاب « الإيمان » الباب الأول : (٢٨/١) ، ومسلم في كتاب « الإيمان » برقم (١) باب الإيمان : (٣٧/١) .

وهذه هي أركان الإسلام ومبانيه ، وهي حقيقة الإسلام وجوهره ، وليست هذه الخمس هي الواجبات في الإسلام فقط ، فإن ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من ذلك ، ولكنها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيام العبد بها يتم استسلامه ، ومن أتى بهذه الخمس لزم أن يأتي بجميع الواجبات ، قال شيخ الإسلام : « والتحقيق أن النبي ﷺ ذكر الدين الذي هو استسلام العبد لربه مطلقًا ، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادرًا عليه أن يعبد الله بها مخلصًا له الدين وهذه هي الخمس وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح ، فلا يعم وجوبها كل الناس بل إنما يكون فرضًا على الكفاية كالجهاد ، وإما أن يجب بسبب حق الآدميين يختص من وجب له وعليه ، وقد يسقط بإسقاطه من قضاء الديون ونحوها من الإنصاف من المظالم والحدود والأموال وغيرها ، وإذا أبرئوا منها سقطت وتجب على شخص دون شخص ، في حال دون حال ، ولم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ، وهذه يشترك فيها المسلم واليهودي والنصراني بخلاف تلك المباني الخمس فإنها من خصائص المسلمين »[1].

مع أنه مطالب بالشرائع الأخرى كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة** ﴾[2].

قال مجاهد[3]: نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الإسلام

---

(١) كتاب « الإيمان » : (٣٧/١) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (٢٠٨) .

(٣) أبو الحجاج مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، تنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة له كتاب في التفسير ، توفي رحمه الله سنة (١٠٤هـ) . انظر « طبقات خليفة » : (ص٢٨٠) ، « حلية الأولياء » : (٢٧٩/٣) ، و « تذكرة الحفاظ » : (٩٢/١).

كلها[١] قال شيخ الإسلام : « إن الله أمر بالدخول في جميع الإسلام كما دل عليه هذا الحديث فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه، فإن كان واجبًا على الأعيان لزمه فعله، وإن كان واجبًا على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه إذا تعين أو أخذ بالفضل ففعله ، وإن كان مستحبًا اعتقد حسنه وأحب فعله»[٢] فيتضح أن الإسلام كل شرائعه جزء لا يتجزء، وإنما خصّ هذه بالذكر لأنها أركانه التي تجب على جميع المسلمين المكلفين القادرين .

فيتضح للداعية أنه مطالب بالدعوة إلى جميع شرائع الإسلام وعلى رأسها هذه الأركان كما سترى ذلك إن شاء الله .

*** الفرق بين الإسلام والإيمان[٣]:**

ومما ينبغي أن ننبه إليه في هذا المقام أن نرفع الإشكال الذي قد يرد على البعض عند مطالعة النصوص فلا يعرف الارتباط بين الإيمان والإسلام ، فيجد مثلاً في بعض الأحاديث أن النبي ﷺ فسر الإيمان بالأركان الخمس للإسلام ، كما في حديث وفد عبد القيس[٤] وفي حديث آخر فسر

---

(١) كتاب « الإيمان » : (٢٨) .

(٢) نفس المرجع : (٢٩) .

(٣) اختلف أهل السنة والحديث في ذلك هل هما شيء واحد أم بينهما فرق وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنة على أنهما شيء واحد منهم محمد بن نصر المروزي وابن عبد البر ، ومنهم من يحكي عن أهل السنة التفريق بينهما كأبي بكر السمعاني ، وقد نقل التفريق بينهما عن كثير من السلف منهم قتادة وداود بن أبي هند والزهري وحماد بن زيد وشريك وابن أبي ذئب وأحمد بن حنبل وأبي خيثمة ويحيى بن معين وغيرهم كثير على اختلاف بينهم في صفة التفريق . انظر « جامع العلوم والحكم » : (٢٤- ٢٥) .

(٤) قال النبي ﷺ لوفد عبد القيس : « **آمركم بأربع** » ثم قال : « **الإيمان بالله** » ثم فسرها لهم فقال: « **شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤتوا خمس ما غنمتم** » مسلم كتاب « الإيمان » رقم : (٢٣) باب الأمر بالإيمان (٤٦/١) .

الإسلام بالإيمان[١] كما أنه فرق بينهما في حديث جبريل[٢].

فاعلم رحمك الله أن ديننا يجمع ثلاث معاني : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان ، وهذا مستفاد من قول النبي ﷺ في آخر حديث جبريل : «**فإنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم**» وهي درجات للدين ،أعلاها الإحسان وأوسطها الإيمان ، ويليه الإسلام ، وترتيبها مسلم ثم مؤمن ثم محسن[٣].

فإذا عرف هذا فإن الجمع بين الأحاديث ، يتضح بتقرير أصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالًا على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دال على باقيه وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج ، فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوي الحاجات والآخر على باقيها .

وهكذا اسم الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما دخل الآخر ، ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، فإذا قورن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي .

فيقال : إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ ، وإن قرن بين الاسمين كان بينهما فرق ، والتحقيق في الفرق أن

---

(١) ما رُوي في «مسند الإمام أحمد» (أن رجلًا قال : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : «**أن يسلم قلبك لله عز وجل ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك**» قال : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : «**الإيمان**» رقم الحديث : (١٧٠٦٨) «مسند الإمام أحمد» : (١١٤/٤) .

(٢) حديث جبريل الطويل الذي سأله فيه عن الإسلام والإيمان والإحسان ، رواه مسلم والبخاري سبق تخريجه . (ص: ٨٢) .

(٣) انظر كتاب «الإيمان» : (١١) .

الإيمان هو تصديق القلب وإقراره ومعرفته ، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له ، فالإيمان جنس تصديق القلب ، والإسلام جنس العمل كما ورد في الحديث : « **الإسلام علانية ، والإيمان في القلب** »[1] وبذلك يعلم أن الإيمان بالله ورسوله داخل في ضمن الإسلام .

شرح هذه الأركان ومنهجه في الدعوة إليها :

بعد أن عرفت أن الإسلام مبني على هذه الخمس ، وهي الأركان والدعائم لبنيانه ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وعرفت أن بقية الواجبات تتمة لهذا البنيان ، فإذا فقد منها شيء نقص البنيان ، وهو قائم بخلاف هذه الأركان الخمس فإن الإسلام يزول بزوالها بغير إشكال ، وكذلك يزول بفقد أحد أركانها كالشهادتين أو إنكار شيء منها .

لذلك فإن على الداعية معرفة هذه الأركان والتي تمثل صلب موضوع الدعوة وما تشتمل عليه من معاني وقيم ، كي يمكنه من تحقيقها في نفسه ثم الدعوة إليها ومواجهة المعاند وإلزامه الحجة .

وسوف أنقل شرح هذه الأركان وما يتعلق بها مما يهم الداعية حسب المنهج الذي سار عليه ابن القيم رحمه الله سائلاً الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد .

* مفتاح الدعوة إلى هذه الأركان :

على كل داعية أراد أن يدعو إلى الإسلام أن يبدأ دعوته بالدعوة إلى

---

(١) « جامع العلوم والحكم » بتصرف قليل : (٢٤ - ٢٥) لمؤلفه ابن رجب الحنبلي مكتبة الرياض الحديثة بالرياض ، وهذا نفس قول ابن القيم رحمه الله في « الرسالة التبوكية » ، نقلنا هذا لوضوحه ، راجع « الرسالة التبوكية » ص: (١٠ - ١٤) .

هذه الأركان وأولها التعريف بالله عز وجل بذكر شهادة أن لا إله إلا الله وما يترتب عليها من عبادة ، ولنا في رسل الله أسوة حسنة فجميع الرسل عليهم أفضل الصلاة والتسليم بدءوا بها فالله سبحانه أرسلهم من أجل تحقيقها والأمر بها قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (١).

فهي مفتاح دعوتهم وبها يتحقق الفلاح وبعدمها يحبط جميع عمل ابن آدم .

قال ابن القيم :

اقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعًا ، فإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو والمخوف ، المحبوب ، المطاع ، المعبود ، ولما كان مفتاح الدعوة الإلهية معرفة الرب تعالى قال أفضل الداعين إليه سبحانه وخيرهم لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن « **إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة** » (٢).

فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

---

(١) سورة الأنبياء آية : (٢٥) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » باب الدعاء إلى الشهادتين : (١/٥٠) .

أحدهما : تعريف الطريق الموصل إليه، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه.

الثاني : تعريف السالكين مالهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع[١].

معنى شهادة أن لا إله إلا الله :

بعد أن عرفنا أن هذه الشهادة هي مفتاح الدعوة ، فما هو معناها ؟ وما هي حقيقتها ؟ وما هي الأمور التي تتعلق بها وذلك على حسب ما يراه ابن القيم ؟ :

« **أشهد** »[٢] يقول ابن القيم رحمه الله :

وعبارة السلف في « أشهد » تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار .

قال مجاهد : حكم وقضى . وقال الزجاج[٣]: بَيّنَ ، وقالت طائفة : أعلم وأخبر .

وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد، وخبره ، وقوله ، وتتضمن إعلامه ، وإخباره ، وبيانه[٤].

---

(١) « الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة » : (ص ٦١ - ٦٢) .

(٢) انظر « لسان العرب » لابن منظور (٣/ ٢٣٩) و « مختار الصحاح » مادة شهد و « المصباح المنير » مادة شهد .

(٣) هو إبراهيم بن سري بن سهل أبو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ومات ببغداد علمه المبرد وصنف التصانيف المفيدة في الأدب واللغة منها : « خلق الإنسان » و « الأمالي » ، و « إعراب القرآن » ، وفعلت وأفعلت والمثلث وغيره ، توفي سنة (٣١٠هـ) رحمه الله انظر « تاريخ بغداد » : (٨٩/٦) و « ابن خلكان » (١١/١)، و « الأعلام » : (٤٠/١) .

(٤) « التفسير القيم » (ص: ١٧٤) .

وبعد أن بين تعريفها أخذ يبين مراتبها فقال :

فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ونطقه به وإن لم يُعْلِم به غيره ، بل يتكلم هو به مع نفسه ويذكرها ، وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

رابعًا : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به[١].

وقال تعالى : ﴿ **وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثًا ، أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون** ﴾[٢].

فجعل ذلك منهم شهادة وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة[٣].

فدل ذلك على أن ابن القيم رحمه الله لا يشترط لفظ الشهادة ، لمن أراد الدخول في الإسلام فقال :

وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله فقد دخل في الإسلام وشهد شهادة الحق ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة[٤].

« **الله** » : وهو الإله ، وهو علم على الرب تبارك وتعالى وهي أعرف المعارف .

---

(١) « التفسير القيم » : (ص ١٧٥) .

(٢) سورة الزخرف آية : (١٩) .

(٣) « التفسير القيم » (ص ١٧٥) .

(٤) نفس المرجع : (١٧٦) .

قال ابن القيم :

فاسم الله دال على جميع الأسماء الحسنى والصفات العليا بالدلالات الثلاث فإنه دال على إلهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلهية له مع نفي أضدادها عنه[١].

والله سبحانه وتعالى يجري جميع أسمائه الواردة صفات له أي (الله).

يقول تعالى : ﴿ **ولله الأسماء الحسنى**﴾ [٢].

ويقول تعالى : ﴿ **هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ [٣].

يقول ابن القيم :

يقال : الرحمن ، والرحيم ، والقدوس ، والسلام ، والعزيز ، والحكيم من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الرحمن ولا من أسماء العزيز ونحو ذلك ، فعلم أن اسم الله مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال ، والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلهية التي اشتق منها اسم الله [٤].

واسم الله دال على كونه مألوهًا معبودًا ، فأله الخلائق محبة وتعظيمًا

---

(١) « مدارج السالكين » : (٤١/١) .

(٢) سورة الأعراف الآية : (١٨٠) .

(٣) سورة الحشر الآية : (٢٢ -٢٥) .

(٤) اختلفوا في اسم الله هل هو مشتق أم لا ، ويرى ابن القيم أنه مشتق من الإله ورد على السهيلي وشيخه أبي بكر بن العربي في قولهم أن اسم الله غير مشتق . انظر « إغاثة اللهفان » (١/ ٢٢) .

وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب[1].

* « **لا إله إلا الله** » :

ماذا تعني كلمة التوحيد جملة واحدة ؟ [2].

يقول ابن القيم عن حقيقة لا إله إلا الله وطريق القرآن في مثل ذلك :

وطريق القرآن في مثل ذلك أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ، ويثبت عبادته وهذا هو حقيقة التوحيد ، والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي ، فلا يكون التوحيد إلا متضمنًا للنفي والإثبات[3] مثل قوله تعالى : ﴿ **فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى** ﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[5] فيكون معناها : لا معبود بحق إلا الله .

قال ابن القيم في ردِّه على من قال أن المستثنى مخرج من المستثنى منه :

صح مذهب الجمهور أن الإخراج من الاسم والحكم معًا ولو كان مخرجًا من المستثنى لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله (لا إله إلا الله) لأنه على هذا التقدير الباطل لم يثبت الإلهية لله وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله ، وإثباتها له بوصف الاختصاص

---

(1) « مدارج السالكين » : (1/41) .

(2) انظر « فتح المجيد في شرح كتاب التوحيد » لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ (ص: 35) وما بعدها في شرح هذه الشهادة .

(3) انظر « التفسير القيم » (ص: 178) نقلا عن « جلاء الأفهام » .

(4) سورة البقرة الآية : (256) .

(5) سورة النحل الآية : (36) .

فدلالتها على إثبات الإلهية أعظم من دلالة قولنا الله (إله) ولا يستريب في هذا أحد ألبتة[١].

خلقه سبحانه وتعالى السموات والأرض وما بينهما كان بها ولأجلها:

ثم يبين رحمه الله تعالى عظيم أمر هذه الشهادة وروح وسر هذه الشهادة فيقول : هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الإطلاق ، وإنكارها وجحودها أظلم الظلم على الإطلاق فلا أعدل من توحيد الرسل ولا أظلم من الشرك[٢].

وهي كلمة لا إله إلا الله التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام وبها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهي العامود الحامل للفرض والسنة[٣].

وبعد أن بين رحمه الله تعالى موجب هذه الشهادة أخذ يبين روح وسر هذه الكلمة وهي « كلمة التوحيد » .

فقال : « روح هذه الكلمة وسرها » :

---

(١) « بدائع الفوائد » بتصرف قليل : (٣/٥٨) .

(٢) « التفسير القيم » ص : (١٨٠) .

(٣) « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » ص: (٢٣٣) وانظر « زاد المعاد » : (١/٣٤) .

إفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده لا إله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه(١).

وبعد أن ذكر روح هذه الكلمة تفصيلاً قال :

ويمكن أن يجتمع ذلك في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة ، فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة(٢) فحقيقتها معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له .

*** إثبات وجود الله :**

لا شك أن الداعية سيواجه أصنافًا كثيرة من المدعوين منهم الغافل والملحد والمشرك وغيرهم ، ولابد أن يتسلح بسلاح العلم حتى لا يقف أحدهم عثرة في طريق دعوته ، وأن يبين لكل من عنده شبهة الحق الذي يزيل عنه تلك الشبهة ويرده إلى دين الله .

فالملحد المنكر لوجود الله تعالى من الماديين والطبعيين الذين حكى الله تعالى مقولتهم في القرآن : ﴿ **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر** ﴾ (٣).

---

(١) ، (٢) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (ص: ٢٣٣) وانظر «زاد المعاد» : (١/٣٤).
(٣) سورة الجاثية الآية : (٢٤) .

كثيرون في هذا العصر أكثر من أي زمان مضى ، وممّا يزيد الأمر سوءًا أن الإلحاد أخذ يمد ألسنة لهبه في صفوف المسلمين ، ممن خدعوا بمقالاتهم وفلسفتهم ، مما يوجب أن نضع بين يدي الداعية بعض الأدلة التي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى حتى تكون عونًا له على رد شبه من زاغ عن الحق ، وإن كان الأمر في حقيقته لا يحتاج إلى ذلك ، فوجود الرب سبحانه لا يحتاج إلى دليل لأن كل ما في الكون دليل على وجوده ، كما يقول ابن القيم :

قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه ، ولهذا قالت الرسل لقومهم : ﴿ **أفي الله شك** ﴾ (١).

فهو أعرف من كل معروف أبين من كل دليل فالأشياء عرفت به في الحقيقة وإن كان عرف بها في النظر والاستدلال بأفعاله وأحكامه عليه(٢).

وصدق القائل :

ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد(٣)

ولكن الواقع فرض علينا ذلك بحيث أصبح الحال كما قال المتنبي :

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل(٤)

---

(١) سورة إبراهيم : (١٠) .
(٢) « الفوائد » لابن القيم : (٢٩) .
(٣) الأبيات لأبي العتاهية في الديوان (ص: ٧٠) دار التراث بيروت (١٣٨٩هـ).
(٤) البيت للمتنبي في ديوانه (ص : ٢٦١) .

* **الدليل الأول : الفطرة :**

قال تعالى : ﴿ **وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين** ﴾[(١)] قال تعالى لنبيه : (واذكر يا محمد ربك إذا استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك وإقرارهم به) [(٢)].

وروى ابن جرير أن النبي ﷺ قال : « **أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان** » يعني عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلىً فقال : ﴿ **ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا ...** ﴾ الآية إلى ﴿ **ما فعل المبطلون** ﴾[(٣)].

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة أودعها الله جلت قدرته في كيان البشر فهي غريزة في الإنسان يستشعرها في أعماقه ؛ ولهذا نرى العنصر البشري عامة سواء كان مؤمنًا بالله أو جاحدًا إذا ألم به خطب عظيم واجتمعت عليه الأحداث وشعر بالعجز عن المقاومة فإنه سرعان ما يتجه إلى الله تعالى ويدعوه وحده ويستجير به وإن كان يجحده ظاهرًا ولكنه يستشعره في أعماقه .

قال تعالى : ﴿ **وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورًا** ﴾ [(٤)].

---

(١) الآية من سورة الأعراف : (١٧٢) .

(٢) « تفسير الطبري » : (١/ ١١٠) .

(٣) « تفسير الطبري » : (٦/ ١١١) .

(٤) الآية من سورة الإسراء : (٦٧) .

* **ابن القيم والفطرة :**

كثيرًا ما يقرر ابن القيم رحمه الله أن معرفة الله تعالى مسطورة مثبتة في الفطرة وأن الله سبحانه وتعالى لم ييسر للناس شيئًا أكثر من تيسيره معرفة خالقهم جل وعلا فيقول :

ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إلى العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه ، وبارئه ، ومبدعه سبحانه والإقرار به ، وييسر عليه طرق هذه المعرفة ، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة ، وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكل ما تراه بعينك ، أو تسمعه بأذنك ، أو تعقله بقلبك ، وكل ما يخطر ببالك وكل ما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها ... ولهذا قالت الرسل لأممهم : ﴿ **أفي الله شك** ﴾؟ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك[1].

ويقول : ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول السليمة والفطر من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما[2].

ويرى رحمه اله أن الفطرة إذ كانت صحيحة سليمة تكاد تنطق بالحق وتعرفه لما جبلت عليه من حب الخير ومعرفة الله وهذا مجرب في حياة المؤمن ذي الفطرة السليمة يقول رحمه الله عن ذلك :

المؤمن قلبه يضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له

---

(١) « مفتاح دار السعادة » ص : (٣٤٨) .

(٢) « مدارج السالكين » : (١/ ٧١) .

من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورًا بالوحي على نوره الذي فطره الله عليه ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثرًا ، ثم يسمع الأثر مطابقًا لما شهدت به فطرته فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة[١].

إلا أن هذه الفطرة قد يطرأ عليها ما يفسدها ويعكر عليها ويميل بها عن الحق وهي مؤثرات خارجية تجعلها لا تميز بين الحق والباطل وهذه المؤثرات كثيرة نذكر بعضًا منها على سبيل المثال : التقليد الأعمى باتباع الآباء والأجداد على غير هدى وبصيرة قال تعالى : ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾[٢].

ومنها : الاستكبار من أجل الجاه والسلطان كقوله تعالى : ﴿ **أنؤمن لك واتبعك الأرذلون** ﴾ [٣] وغير ذلك من معوقات الفطرة .

والذي يراه ابن القيم رحمه الله أنه لو انتفت المعوقات عن العبد وخُلي وفطرته التي خلق عليها لعرف ربه وأقر بوحدانيته فيقول :

فلو خليت على ما خلقت عليه ولم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه لأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته ... ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت[٤].

ولذلك بعث الله الرسل لتذكير أممهم وإيقاظ الفطرة وإعادتها إلى ما

---

(١) « الوابل الصيب » لابن القيم : (٦٧) .

(٢) سورة الزخرف آية : (٢٢) .

(٣) الآية من سورة الشعراء : (١١١) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٣٤٩) .

كانت عليه يقول ابن القيم :

ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى : ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى** ﴾ [(٢)] وقوله : ﴿ **إنما أنت مذكر** ﴾ [(٣)].

ويقول رحمه الله مفصلًا ذلك :

وجاءت الرسل ، وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع الله سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفصيله ، وزيادته حسنًا إلى حسنه[(٤)] فالقلوب مفطورة على حب إلهها وتأليهه ، فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها ، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها[(٥)].

* **الدليل الثاني : التفكر في آيات الله وتدبرها :**

يبين ابن القيم رحمه الله أن منهج الرب تبارك وتعالى في دعوة عباده إلى معرفته من طريقين :

أحدهما : التفكر في آياته وتدبرها ، والثاني : النظر في مفعولاته .

وقبل أن نبدأ الحديث عنها بالتفصيل نود أن نوضح منهج الناس في طرق الاستدلال على وجود الصانع كتمهيد للموضوع .

---

(١) الآية من سورة الذاريات : (٥٥) .

(٢) الآية من سورة الأعلى : (٩) .

(٣) الآية من سورة الغاشية : (٢١) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » : (٢/ ٤٨٩) .

(٥) « إغاثة اللهفان » : (٢/ ١٥٨) .

* **طريق الاستدلال على وجود الله :**

اختلفت الطرق في الاستدلال على وجود الله ، فهناك طريقة المتكلمين، وطريقة الفلاسفة وطريقة السلف رضي الله عنهم المستمدة من منهج القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الصانع تبارك وتعالى ، وهو المنهج الذي سلكه ابن القيم رحمه الله في الاستدلال على وجود الله كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

ولكن ابن القيم تعقب الطرق الأخرى ورد عليها ونقد مسلكهم ووصفه بالعقم وأنه لا يؤدي إلى إثبات الصانع تبارك وتعالى بقدر ما يؤدي إلى نفيه ونفي صفاته إضافة إلى تعقيده بشكل لا يستطيع فهمه إلا المختصون[1].

فيقول رضي الله عنه بعد أن ذكر طريقة الفلاسفة في الاستدلال على وجود الله وفند قولهم ورده :

والمقصود أن الطريق التي سلكها هؤلاء في إثبات الصانع هي أعظم الطرق في نفيه وإنكار وجوده ، ولذلك كان سالكوها لا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا باليوم الآخر[2].

وقال عن المتكلمين بعد أن ذكر طريقتهم[3] في الاستدلال على الصانع

---

(١) نقل ابن القيم طريقة الفلاسفة في إثبات الصانع فقال : أما الفلاسفة فأثبتوا الصانع بطريق التركيب وهو أن الأجسام مركبة ، والمركب يفتقر إلى أجزائه وكل مفتقر ممكن ، والممكن لابد له من وجود واجب ويستحيل الكثرة في ذات الواجب بوجه من الوجوه إذ يلزم تركيبه وافتقاره وذلك ينافي وجوبه ، وهذا هو غاية توحيدهم وبه أثبتوا الخالق على زعمهم : « مختصر الصواعق المرسلة » : (١٢٦/١) .

(٢) « مختصر الصواعق المرسلة » : (١٢٨/١) .

(٣) ذكر ابن القيم رحمه الله طريقة المتكلمين في إثبات الصانع فقال : وأما المتكلمون فلما رأوا بطلان طريقة الفلاسفة ، عدلوا عنها إلى طريقة الحركة والسكون والاجتماع والاقتران وتماثل الأجسام=

وما بنوا عليه طريقتهم من أمور يترتب بعضها على بعض قال :

فلزم من سلوك هذا الطريق إنكار كون الرب فاعلًا في الحقيقة وإن سموه فاعلًا بألسنتهم فإنه لا يقوم به عندهم فعل .

وفاعل بلا فعل كقائم بلا قيام وضارب بلا ضرب ، وعالم بلا علم[(١)].

منهج ابن القيم في الاستدلال على وجود الله :

نهج ابن القيم رحمه الله في إثبات وجود الله منهج القرآن الكريم والأدلة التى جاء بها الشرع لإيقاظ الفطرة في نفس الإنسان لأنها أسلم الطرق وأقربها إلى فهم السامع فحججه وبراهينه قاطعة الدلالة وأسلوبها سلس سهل ميسور تقمع شبه المنحرفين بكل يسر وهي بعيدة عن التعقيد والتخبطات التي تفسد أكثر مما تصلح ، ولا شك أن هذا هو المنهج القويم المعتمد على كتاب الله تعالى ولذلك يقول :

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب

= وتركبها من الجواهر المفردة وأنها قابلة للحوادث ، وما يقبل الحوادث فهو حادث فالأجسام كلها حادثة فإذن يجب أن يكون لها محدث ليس بجسم ، فبنوا العلم بإثبات الصانع على حدوث الأجسام واستدلوا على حدوثها بأنها مستلزمة للحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، ثم قالوا إن تلك أعراض ، والأعراض حادثة ، وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث واحتاجوا في هذه الطريق إلى إثبات الأعراض أولاً ، ثم إثبات لزومها للجسم ثانياً ثم إبطال حوادث لا أول لها ثالثًا ، ثم إلزام بطلان حوادث لا نهاية لها رابعًا عند فريق منهم ، ثم إثبات الجوهر الفرد خامسًا ثم إلزام كون العرض لا يبقى زمانين سادسًا فيلزم حدوثه والجسم لا يخلو منه وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ثم تماثل الأجسام سابعًا فعلمهم بإثبات الخالق مبني على هذه الأمور السبعة : « مختصر الصواعق المرسلة » : (١٢٨/١) .

(١) « مختصر الصواعق المرسلة » : (١٢٨/١) .

العالية من التوحيد ، وإثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوات ، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة ، مثل القرآن فإنه كفيل بذلك كله ، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها ، وأقربها إلى العقول وأفصحها بيانًا[١].

إن ذلك توجيه من ابن القيم رحمه الله للدعاة على أن لا ينهجوا نهج أولئك الفلاسفة والمتكلمين الذي أثبت أن طريقتهم لا تفي بالغرض بل إنها إنكار وإبطال لوجود الله وأن المسلك الصحيح الذي يوافق الفطرة والعقل هو منهج القرآن الكريم ، الذي صنع أعظم الرجال وأقواهم إيمانًا وصلاحًا بفضل ما يتمتع به من تأثير وقرب من الفطرة التى فطر الناس عليها .

*** التفكر والتدبر قائد إلى العلم بوجود الله :**

يقرر أن قراءة القرآن الكريم لا تفي بالغرض وحدها بل لابدّ من التفكر والتدبر فيقول :

ولهذا أنزل القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه[٢].

فإن الله سبحانه وتعالى قيد الانتفاع بالقرآن في قوله : **﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًا ﴾**[٣].

يقول ابن القيم تعليقًا على هذه الآية :

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب ، وهو فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا

---

(٢) « إغاثة اللهفان » : (١/٤٤) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١/٢٣٦) .

(٣) الآيات من سورة يس : (٦٩ - ٧٠) .

بقلبه كما يرى الليل والنهار[١].

ولذلك فإن ابن القيم يرى أن التفكر في القرآن والنظر في آياته نوعان هما: تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه ، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه . فالأول: تفكر في الدليل القرآني ، والثاني : تفكر في الدليل العياني . فالأول : تفكر في آياته المسموعة ، والثاني : تفكر في آياته المشهودة[٢].

فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على مالا يوقعه العلم المجرد فإن التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له وتمييز مراتبها في الخير والشر[٢] .

ويزيد الأمر وضوحًا فيقول : فأصل كل طاعة إنما هي الفكر ، وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة ، فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها الأفكار الردية ، فيتولد منه الإرادات والعزوم ، فيتولد منها العمل ، فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الأفكار النافعة فيما خلق له ، وفيما أمر به ، وفيما هيئ له ، وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعًا [٣].

فالتفكر عنده رضي الله عنه هو الموصل إلى المطالب العليا من معرفة وجود الله تعالى وتوحيده ومعرفة صفاته فيقول :

وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى ، وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم

---

(١) « اغاثة اللهفان » : (١/ ٤٥) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢٣٦/١) .

(٣) نفس المرجع : (٢٢٨/١) .

قدرته وعلمه ، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه ، وعدله ورضاه ، وغضبه وثوابه وعقابه ، فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته[١].

كقوله تعالى : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ﴾ [٢] وقوله : ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾[٣]. وقوله : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته ﴾ [٤] وغير ذلك من الحث على تدبر القرآن من أجل الوصول إلى معرفة الخالق .

*** الدليل الثالث : النظر في مفعولاته :**

مفعولات الرب سبحانه وتعالى من أعظم الأدلة على وجود الرب تبارك وتعالى ولذلك نجد أن ابن القيم رحمه الله قد ركز عليها ودعا الناس إلى النظر فيها لدلالتها على وجود الصانع فيقول :

فأما المفعولات فإنها دالة على الأفعال ، والأفعال دالة على الصفات ، فإن المفعول يدل على فاعل فعله ، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا إرادة ، ثم ما في المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على إرادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحدًا غير متكرر، وما فيها من الحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى، وما فيها من النفع والإحسان والخير دال على رحمته ، وما فيها من البطش والعقوبة دال على غضبه ، وما فيها من الإكرام والتقريب والعناية دال على محبته ... وغير ذلك مما ذكره ابن القيم في مفعولات الرب تبارك وتعالى

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٣٢/١) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٨٢) .

(٣) الآية من سورة المؤمنون : (٦٨) .

(٤) الآية من سورة ص : (٢٩) .

التي تدل على صفاته وصدق ما أخبر به رسله عليه فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات[١] كما ينبه الرب تبارك وتعالى العباد إلى ذلك في كثير من آياته كقوله تعالى : **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾** [٢].

فإذا رأيت الإنسان ينظر في ملكوت الله تعالى ولا يهتدي إلى الحق فادعه إلى أن ينظر بعين البصيرة وليست العين المجردة فقط ، قال ابن القيم عن أنواع النظر في ملكوت الله نوعان :

الأول : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلًا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوانات ، وليس هو المقصود بالأمر .

الثاني : أن يتجاوز ذلك إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فيها وفي أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له بابًا بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن[٣].

والنظر في مفعولاته سبحانه له طريقان هما :

أولاً : ما يظهر من اختراع الموجودات مثل اختراع الحياة فيما لم يكن حيًا ، فتحدث أشياء وتنعدم أشياء .

---

(١) انظر كتاب « الفوائد » لابن القيم : (٢٨) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (١٦٤) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥١/١) .

ثانيًا : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وأنه خلق جميع ما في الوجود من أجله ، وهذا ما يسمى بدليل العناية .

فقد يتحدث القرآن الكريم عنها مجتمعة أو متفرقة ؛ ولذلك نرى ابن القيم رحمه الله لا يخرج في الاستدلال على وجود الله عن هذه الطريقة .

أ - دليل الخلق :

إن طرق الاختراع والإبداع التي يذكرها القرآن الكريم بالأساليب المختلفة شاملة لجميع مخلوقاته ، عظيمها وحقيرها مما يدل على عظمته سبحانه وقدرته على الإبداع ، وسعة علمه ، وحكمته ، كما أنها تبين أن القادر على هذا الخلق العظيم هو الرب الذي يستحق العبادة وحده .

ويستدل ابن القيم بدليل الخلق بقوله تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾[1] .

وبقوله تعالى : ﴿ **إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون** ﴾[2].

وقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين** ﴾[3].

يقول ابن القيم :

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (١٩٠) .

(٢) الآيات من سورة الجاثية : (٣ - ٥) .

(٣) الآيات من سورة الروم : (١٩ - ٢٢) .

نوّع سبحانه الآيات في هذه السور فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون ؛ فإن سكون الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة .

فمتى نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطرة بربوبيته وحكمته ورحمته[١].

ثم يقول : فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس ، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته[٢].

* **خلق السماء :**

بعد أن تحدث رحمه الله عن خلق الإنسان من نطفة وإظهار عجائب خلقه سبحانه للإنسان قال :

فكيف صنعه في ملكوت السموات ، وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها ، وقمرها ، وكواكبها ومقاديرها وأشكالها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟

فلا ذرة فيها تنفك عن حكمه ، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان ، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ، قال الله تعالى : ﴿ **أأنتم أشد خلقًا أم السماء بناها رفع**

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١/٢٣٥) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١/٢٣٥ - ٢٣٦) .

سمكها فسواها ﴾ [١]. وقال تعالى: **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿لآيات لقوم يعقلون ﴾** [٢] فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى: **﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب﴾**[٣].

فالأرض والبحار، والهواء وكل ما تحت السماوات، بالإضافة إلى السماوات كقطرة في بحر؛ ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها، إما إخبارًا عن عظمتها وسعتها وإما إقسامًا بها، وإما دعاء إلى النظر فيها.

وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالًا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالًا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالًا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته[٤].

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن تحليلها فكم من قسم في القرآن بها كقوله: **﴿والسماء ذات البروج ﴾**[٥] **﴿ والسماء وما بناها ﴾**[٦] **﴿ والسماء ذات الرجع﴾**[٧] **﴿والشمس وضحاها ﴾**[٨] **﴿ والنجم إذا هوى ﴾**[٩] فلم يقسم في كتابه

---

(١) الآية من سورة النازعات : (٢٧) .
(٢) الآية من سورة البقرة : (١٦٤) .
(٣) الآية من سورة آل عمران : (١٩٠) .
(٤) « مفتاح دار السعادة » : (٢٤٨/١) .
(٥) الآية من سورة البروج : (١) .
(٦) الآية من سورة الشمس : (٥) .
(٧) الآية من سورة الطارق : (١١) .
(٨) الآية من سورة الشمس : (١) .
(٩) الآية من سورة النجم : (١) .

بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجم والشمس والقمر .

وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنها الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظِّم هذا القسم كقوله : ﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ [(١)] .

والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته فانظر إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات ، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان ، لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات ، وأوضح لهم الآيات البينات ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة ، وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة على الدوام ، من غير فطور في حركتها ، ولا تغير في سيرها .

بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها وبديعها[(٢)].

*** خلق الأرض :**

يقول ابن القيم رحمه الله : وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت ، رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها ، خلقها سبحانه فراشًا ومهادًا وذللها

---

(١) الآية من سورة الواقعة : (٧٥) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١/٢٤٨ - ٢٤٩) .

لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم ، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم ، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادًا تحفظها لئلا تميد بهم ، ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جوانبها ، وجعلها كفاتًا للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياءً وكفاتًا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا .

فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات ، وقد أكثر سبحانه وتعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها[1].

قال تعالى : ﴿ **والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ [2] ﴿ **الله الذي جعل لكم الأرض قرارًا** ﴾ [3] ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشًا** ﴾ [4].

قال ابن القيم :

فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيجًا للناظرين كريمًا للمتناولين [5].

* * *

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥٢/١) .
(٢) الآية من سورة الذاريات : (٤٨) .
(٣) الآية من سورة غافر : (٦٤) .
(٤) الآية من سورة البقرة : (٢٢) .
(٥) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥٢/١) .

* **خلق الإنسان :**

يقول ابن القيم :

وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه ، كقوله تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق** ﴾ [(١)] وقوله : ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾ [(٢)] وقال تعالى : ﴿ **يأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلًا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا** ﴾ [(٣)].

وغير ذلك من الآيات التي استدل بها رحمه الله على خلق الإنسان حيث يقول :

وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره ، إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه .

ثم يقول : فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت ، كيف استخرجها رب الأرباب مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها

---

(١) الآية من سورة الطارق : (٥) .

(٢) الآية من سورة الذاريات : (٢١) .

(٣) الآية من سورة الحج : (٥) .

إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها وكيف قدّر اجتماع ذينك الماءين مع بعدكل منهما عن صاحبه ، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد ؟ جعل لهما قرارًا مكينًا لا يناله هواء يفسده ، ولا برد يجمده ، ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ، ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة عليقة حمراء تضرب إلى السواد ، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها وهيأتها وقدرها وملمسها ولونها .

وكيف كساها لحمًا ركّبه وجعله وعاء لها وغشاء وحافظًا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها [١] .

ثم أخذ يفصل رحمه الله أعضاء الإنسان عضوًا عضوًا والحكمة من خلقه بتلك الصورة الباهرة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على عظمة خالقها سبحانه وتعالى وحكمته التي تبهر العقول .

*** خلق الحيوان :**

يقول ابن القيم رحمه الله :

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع [٢].

قال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** ﴾ [٣].

يقول : ثم تأمل الحكمة البالغة في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل انتفاع الإنسان بها .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٣٧/١ - ٢٣٨) بتصرف .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥٨/١) .

(٣) الآية من سورة الغاشية : (١٧) .

ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره إياها فيقودها ويصرفها حيث يشاء ، قال تعالى : ﴿ **أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾(١).

وقد ذكر رحمه الله من الحكم الكثيرة في خلق الحيوان على الصور التي خلقها الله عليها لنفع أنفسها ونفع الإنسان (٢).

ب - دليل العناية :

المتأمل لهذا العالم المترابط الأجزاء يجده قائمًا على نظام دقيق لا خلل فيه ، فهو يحوي مخلوقات متنوعة الصّفات والأحجام لا يخل شيء بشيء ولا يطغى بعضه على بعض ، يجد فيه الدلالة على قدرة خالقه وحكمته، وأن وجود هذه الموجودات بهذه الأشكال لم يكن وليد الصدفة ، بل يجد فيه العناية التامة مما يدل على أن وراء ذلك خالقًا عالمًا حكيمًا لطيفًا ، يستحق العبادة وحده .

يقول ابن القيم رحمه الله :

فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه ، والأرض مهاد وبساط وفراش ومستقر للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه، والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للمتنقل في هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له ، وضروب النبات مهيئ لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة

---

(١) الآية من سورة يس : (٧١ - ٧٢) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٢٩٣) ، و« شفاء العليل » فإنه قد ذكر فيها من عجائب خلق الحيوانات وكيف أن الله هداها لمصالحها وتسخيرها للإنسان ما يدل على عظمة خالقها سبحانه .

لمصالحه، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء ، ومنها اللباس والأمتعة والآلات ، ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه ، فلولا ما سلط عليه من ضده لم يقرّ للإنسان قرار بينهم .

جعل الإنسان كالملك المخوّل في ذلك المحَكّم فيه المتصرف بفعله وأمره ، ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدّره أحسن تقدير [(١)].

ثم يطرح رحمه الله سؤالًا للجاحد بوجود الله فيقول :

فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته ولا في صورته ، وقد جُعل على حديقة عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفي تلك الحديقة من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام .

أترى هذا اتفاقًا بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقة ، وكل ذلك اتفاقًا من غير فاعل ولا قيّم ولا مدبّر !!

أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان ؟ وما الذي يفتيك به ؟ وما الذي يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوبًا عميًا

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥٩/١) .

لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤية الحيوانات البهيمية ، كما خلق أعينًا لا أبصار لها ، والشمس والقمر مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها ؟ فهي تقول في ضوء النهار : هذا ليل ، ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئًا ولقد أحسن القائل :

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء[(١)]

ومن عنايته سبحانه بعباده أن جعل لهم الليل والنهار يقول ابن القيم رحمه الله :

وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه ، كقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته الليل والنهار** ﴾ [(٢)].

وقوله : ﴿ **وهو الذي جعل لكم الليل لباسًا والنوم سباتًا وجعل النهار نشورًا** ﴾[(٣)].

وقوله عز وجل : ﴿**الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرًا**﴾[(٤)].

وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنًا ولباسًا يغشى العالم فتسكن فيه الحركات [(٥)].

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعها وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٦٩/١) .

(٢) الآية من سورة فصلت : (٣٧) .

(٣) الآية من سورة الفرقان : (٤٧) .

(٤) الآية من سورة غافر : (٦١) .

(٥) « مفتاح دار السعادة » : (٢٥٦/١) .

معايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ؟ ثم تأمل الحكمة من غروبهما ، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة ، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء .

ثم لولا كان الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات[١].

قال تعالى : ﴿ **ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم** ﴾ [٢] ، يقول ابن القيم :

فالدنيا قرية ، والمؤمن رئيسها ، والكل مشغول به ، ساعٍ في مصالحه والكل قد أقيم في خدمة حوائجه [٣].

وقد أطال رحمه الله تعالى بذكر أدلة الخلق والعناية وبين الحِكَم من خلق كثير من المخلوقات بما يدل على وجود الرب تعالى وعظمته وحكمته ومن أراد المزيد فليرجع إلى كتابه القيم : « مفتاح دار السعادة » ، « والتبيان في أقسام القرآن » ، و « شفاء العليل » ، فإنها زاد للداعية في دعوته إذا ما أراد إثبات وجود الله عز وجل للملحد الكافر بوجوده .

* **إثبات وحدانية الله :**

قال الله تعالى : ﴿ **قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ،**

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٦٠/١) .
(٢) الآية من سورة الإسراء : (٧٠) .
(٣) « مفتاح دار السعادة » : (٣٢٨/١) .

ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ [(١)].

هذا المبحث له علاقة بالذي قبله ، حيث إن الاعتراف بوجود الله تعالى وأنه الخالق حجة على تفرده بالوحدانية في كل شيء في ربوبيته وألوهيته وصفاته وأفعاله سبحانه لتفرده بالخلق .

فاعتراف من اعترف بوجود الله وإقراره به لا يدخله في التوحيد الذي بعث الله من أجله رسله وهو توحيد الألوهية .

يقول ابن القيم : وتوحيد الإلهية رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذي أقرّ به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده بل هو حجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع [(٢)].

فهو حجة عليهم لأنهم مقرون بوجود الصانع فإذا ثبت أن صانع هذا الكون موجود ثبت أنه واحد ، بالإضافة إلى الأدلة القاهرة التي استدل بها سبحانه في كتابه الكريم التي تثبت وحدانيته في الخلق والألوهية .

وقد سلك ابن القيم رحمه الله تعالى في الاستدلال على وحدانية الله مسلك القرآن الكريم في ذلك :

أولاً : الاستدلال على وحدانيته بنظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم ، فهذا الكون العظيم الذي لا تدركه الأبصار ولا العقول ، وما أوجد الله فيه من مخلوقات منها السيارة والثابتة وسيرها كل في فلكه الذي أعدّ له وسيرها بهذا النظام المتقن وعدم احتكاكها واختلالها لدليل على أن خالقها واحد سبحانه .

---

(١) سورة الاخلاص : (١- ٤) .

(٢) « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » : (١/٣٠) .

(أ) : قال تعالى : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش ﴾ [1]، - يقول ابن القيم رحمه الله :

أي لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا وبطلتا ، ولم يقل « أربابًا » بل قال « آلهة » والإله هو المعبود المألوه ، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل أن يشرعَ اللهُ عَبادة غيره أبدًا وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدت السموات والأرض [2].

(ب) : وكذلك قوله سبحانه مقررًا برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه . ﴿ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذًا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴾ [3] فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره فكيف يعبدونهم دونه ؟ [4].

(ج) : قوله تعالى : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ [5].

يقول ابن القيم : فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فإن الإله الحق لابدّ أن يكون خالقًا فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه إله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الإله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره وتفرده بالإلهية دونه فعل ،

---

(1) الآية من سورة الأنبياء : (22) .

(2) « مفتاح دار السعادة » : (2/ 394) .

(3) الآية من سورة الإسراء : (42) .

(4) «الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة»: (1/285) ، وانظر « المختصر للصواعق المرسلة » (62).

(5) الآية من سورة المؤمنون : (91) .

وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضًا بمماليكهم وإذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه ، فلابدّ من أحد أمور ثلاثة :

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

وإما أن يكون كلهم تحت قهر إله واحد ، وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ، ويمتنع من حُكْمِهِم عليه ولا يمتنعون من حُكْمِهِ عليهم، فيكون وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبّره واحد لا إله غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والإيجاد وهذا تمانع في الغاية والإلهية .

فكما يستحيل أن يكون للعالم ربّان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان [١].

(د) : قال تعالى : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾** [٢] يقول ابن القيم :

فالأرض والبحار ، والهواء وكل ما تحت السموات كقطرة في بحر ، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارًا عن عظمتها وسعتها وإما إقسامًا بها ، وإما دعاء إلى النظر فيها ، وإما إرشادًا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة ما فيها ورافعها وإما استدلالاً منه سبحانه بخالقها

---

(١) « الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة » : (٢٨٦/١) .

(٢) الآية من سورة آل عمران : (١٩٠) .

على ما أخبر به من المعاد والقيامة وإما استلالاً منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته [1].

ثانيًا : التركيز على إبطال معبودات المشركين وبيان عجز الآلهة المدعوة من دون الله وتفاهتها وأنها لا تحمد على شيء حتى تستحق العبادة لذلك يقول ابن القيم :

كلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل ، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها ، ولهذا كان الحمد لله حمدًا لا يحصيه سواه ، ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار ، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها ، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدي ، ولا تنفع ولا تضر ، قال تعالى في محاجة إبراهيم لأبيه : ﴿**يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا**﴾ [2] وقال تعالى : ﴿ **واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدًا له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين** ﴾ [3][4] .

(أ) : قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز**﴾[5].

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٤٨/١) .

(٢) الآية من سورة مريم : (٤٢) .

(٣) الآية من سورة الأعراف : (١٤٨) .

(٤) انظر « مدارج السالكين » : (٣٢/١) .

(٥) الآيات من سورة الحج : (٧٣ - ٧٤) .

يقول ابن القيم : فضرب لهم سبحانه مثلاً من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد عصى أمره وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو اجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضًا وعاونوه بأبلغ المعاونة لعجزوا عن خلق ذباب واحد ، ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ، ومن عابده الطالب نفعه وخيره ، فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهة هذا شأنها ؟ !

فإن هذا المثل يقطع مواد الشرك من قلب الإنسان ، وذلك أن المعبود أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده وإعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ما هو أكبر منه ؟

ثم سوى سبحانه بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله : **﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾** قيل : الطالب العابد ، والمطلوب المعبود ، فهو عاجز متعلق بعاجز ، وقيل : هي تسوية بين السالب والمسلوب ، وهو تسوية بين الإله والذباب في الضعف والعجز [١].

(ب) : قال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ [٢].

يقول ابن القيم : فذكر سبحانه أنهم ضعفاء ، وأن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم ؛ فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتًا وهو أوهن البيوت وأضعفها وتحت هذا المثل أن

---

(١) انظر «مفتاح دار السعادة»: (٣٩١/٢) و«إعلام الموقعين»: (١٨١/١) و«الصواعق المنزلة»: (٢٨٧/١).
(٢) الآية من سورة العنكبوت : (٤١) .

المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا كما قال تعالى : ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزًّا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدًّا** ﴾ [١] فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف ينفي عنهم ذلك بقوله : ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ ؟

فالجواب : أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذ أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتًا ، فلو علموا ذلك لما فعلوه[٢].

(ج) : قال تعالى : ﴿ **ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون** ﴾ [٣].

تضمن هذا المثل ناعقًا أي مصوتًا بالغنم وغيرها ، ومنعوقًا به وهو الدواب فقيل : الناعق العابد وهو الداعي للصنم ، والصنم هو المنعوق به المدعو ، وأن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه هذا قول طائفة منهم عبد الرحمن بن زيد[٤] وغيره ، واستشكل صاحب « الكشاف » وجماعة معه هذا القول ، وقالوا : قوله ﴿ **دعاء ونداء** ﴾ لا يساعد عليه ، لأن الأصنام لا تسمع دعاء ولا نداء .

---

(١) الآيات من سورة مريم : (٨١ - ٨٢) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (١/ ١٥٤) ، و « التفسير القيم » : (٤٠٣) .

(٣) الآية من سورة البقرة : (١٧١) .

(٤) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العمريّ المدني ، صاحب قرآن وتفسير جمع تفسيرًا في مجلد وكتابًا في الناسخ والمنسوخ توفي سنة (١٨٢هـ) ، انظر الذهبي : « الكاشف في معرفة من له رواية في الكتاب والسنة » تحقيق عزت عطية وموسى محمد : (٢/١٦٤) ط (١٩٧٢م) دار الكتب الحديثة القاهرة .

وقد أجيب عن هذا الاستشكال بأجوبة نذكر منها :

١ - أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو .

٢ - أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه هو في دعاء ونداء ، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء [١].

(د) : قال تعالى : ﴿ وضرب الله مثلًا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كلٌ على مولاه أينما يوجهه لا يأتِ بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴾ ؟ [٢].

يقول ابن القيم : فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه أيضًا ، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، قد عدم النطق القلبي واللساني ، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء ألبتة ، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حي قادر متكلم ، يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له راض به آمر لعباده به محب لأهله لا يأمر بسواه بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل [٣] .

*** الشطر الثاني من الركن الأول : شهادة أن محمدًا رسول الله :**

وهذه الكلمة تعني : العلم والتصديق والاعتقاد الجازم بأن محمدًا ﷺ

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١٨٣/١) .

(٢) الآية من سورة النحل : (٧٦) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (١٦١/١) و « التفسير القيم » (١٨ ، ٣٣٨ ، ١٤٠) .

أرسله الله إلى الخلق كافة بشيرًا ونذيرًا ، وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

وشهادة أن محمدًا رسول الله فرض لمن أراد الدخول في الإسلام وأنه لا يدخل الإسلام إلا بها مقرونة بكلمة الإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله.

فإذا انفرد الإقرار بالنبي ﷺ وشهد الكافر أن محمدًا رسول الله فإن ذلك لا يدخله وحده في الإسلام حتى يلزم طاعته ومتابعته قال ابن القيم رحمه الله في فقه وفد نجران :

إن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبيّ لا يدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته ومن ذلك قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل ، فلما أجابهما قالا : « نشهد أنك نبي » ، قال : **« فما يمنعكما من اتباعي »** قالا : « نخاف أن تقتلنا يهود » ، ونظير ذلك شهادة عمه أبي طالب له بأنه صادق ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام فيعلم أن الإسلام أمر وراء ذلك وأنه ليس المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفة والإقرار ، والانقياد ، والتزام طاعته ودينه ظاهرًا وباطنًا [1].

وقال : وأجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فقد دخل الإسلام وشهد شهادة الحق ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة [2].

ويرى ابن القيم أن هذا الاقتران والشهادة بهما ، هي المرادة بقوله تعالى : ﴿ **ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي أنقض ظهرك ،**

---

(١) « زاد المعاد » : (٦٣٨/٣) .

(٢) « مدارج السالكين » : (٤٧١/٣) .

ورفعنا لك ذكرك ﴾ [(١)].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : رفع الله ذكره فلا يذكر إلا ذكر معه . لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية .

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾ فقال : رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة فليس خطيب ولا مستشهد ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها : أشهد أن لا إله إلا اله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله [(٢)].

فقد قرن الله سبحانه اسمه باسمه فلا يذكر إلا ذكر معه كما في التشهد والخطب والتأذين [(٣)].

*** لازم النطق بهذه الشهادة :**

أن يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب ، وهي العقائد وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب .

وأعمال القلب : وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجلّه ، هو ما جاء به الرسول ﷺ فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ [(٤)] أي : لا تقولوا

---

(١) الآيات من سورة الشرح : (١ - ٤) .

(٢) « جلاء الأفهام » بتصرف (ص٢٨٤) بعناية محيي الدين مستو . دار ابن كثير دمشق - بيروت .

(٣) « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » : (٤/١) .

(٤) الآية من سورة الحجرات : (١) .

حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر [1] ، ويقول ابن القيم :

ومن هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل .

ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضى الله ألبته إلا على أيديهم [2].

وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه [3].

وهذه المعاني لشهادة أن محمدًا رسول الله يجب أن يشرحها الداعية للمدعو لأن شهادة أن لا إله إلا الله هي الإخلاص وهذه هي المتابعة والإخلاص والمتابعة هما أساس قبول العمل .

*** إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ**

تمهيـــد :

إن إثبات نبوة النبي ﷺ محمد بن عبد الله يتوقف عليها قبول الإسلام بكامله من تشريعات وعقائد فقد يؤمن من تدعوه إلى الإسلام بوجود الله ووحدانيته ولكنه لا يؤمن بنبوة محمد ﷺ ، مثل بعض اليهود والنصارى

---

(١) « اغاثة اللهفان » : (٨/١) .

(٢) « زاد المعاد في هدي خير العباد » : (٨٩/١) .

(٣) « زاد المعاد في هدي خير العباد » : (٨٩/١) .

وغيرهم من الفلاسفة والملاحدة فلابدّ للداعية أن يوضح لهم أن ذلك إنكار لله تعالى .

فإن من أنكر النبوة فقد جحد الخالق تبارك وتعالى وجهل بالحقائق كما يقرره ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول :

ولذلك كان جحد نبوة خاتم أنبيائه ورسله وإنزال كتبه وتكذيبه إنكارًا للرب تعالى في الحقيقة وجحودًا له ، فلا يمكن الإقرار بربوبيته وإلهيته وملكه ، بل ولا بوجوده مع تكذيب محمد بن عبد الله ﷺ ، وقد أشرنا إلى ذلك في المناظرة التي تقدمت [١] فلا يجامع الكفر برسول الله ﷺ الإقرار بالرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله والتعريف بحقوقه على عباده ، فمن أنكر رسالته فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها ، بل نقول : لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله وهذا ظاهر جدًّا لمن تأمل مقالات أهل الأرض وأديانهم [٢].

وهم الذين أنكروا النبوات أو خالفوا أمرها وقد قام ابن القيم رحمه الله بذكر مقالاتهم ودياناتهم التي ذكروها مع إنكارهم النبوّة وكيف أنهم زاغوا عن الحق والحقائق فقال :

فإن « الفلاسفة » لا يمكنهم الاعتراف بالملائكة والجن والمبدأ والمعاد وتفاصيل صفات الرب تعالى وأفعاله مع إنكار النبوات ، بل والحقائق المشاهدة التي لا يمكن إنكارها لم يثبتوها على ما هي عليه ولا أثبتوا حقيقة

---

(١) المناظرة هي التي جرت بين ابن القيم رحمه الله وأحد كبار اليهود في مصر من أجل إثبات نبوة النبي ﷺ وسوف أنقلها بكاملها عند حديثي عن أسلوب الجدل فيما بعد إن شاء الله ، انظر المناظرة في كتابه « التبيان في أقسام القرآن » : (١١٢) و « هداية الحيارى » (٨٩) و « زاد المعاد » (٦٣٩/٣) .

(٢) « هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى » : (١٩٠) .

واحدة على ما هي عليه ألبته وهذا ثمرة إنكار النبوات فسلبهم الله إدراك الحقائق التي زعموا أن عقولهم كافية في إدراكها ، وإن عرفوا من ذلك بعض ما خفي على غيرهم .

وأما « المجوس » فأضل وأضل .

وأما « عباد الأصنام » فلا عرفوا الخالق ولا عرفوا حقيقة المخلوقات ولا ميزوا بين الشيطان والملائكة .

وأما « النصارى » فقد عرفت ما الذي أدركوه من معبودهم [١] وما وصفوه به وما الذي قالوا في نبيهم وكيف لم يدركوا حقيقة ألبتة ووصفوا الله بما هو من أعظم العيوب والنقائص ، ووصفوا عبده ورسوله بما ليس له بوجه من الوجوه .

وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل أسلافهم وعبادتهم وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم وجعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة الذي يضرب به المثل في قلة فهمه وقد شهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب ما لم يشاهده غيرهم .

ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم ما قالوا لنبيهم ﴿ **لن نؤمن لك حتى**

---

(١) يقول : فهم يعتقدون أن الله رب السماوات والأرض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في فرج امرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوط وتحيض فالتحم ببطنها وأقام هناك تسعة أشهر يتلبط بين نجو وبول وطمث ثم خرج إلى القماط والسرير كلما بكى ألقمته أمه ثديها إلى نحو ذلك ، فمريم لا أم لابن الله إلا هي ولا أب لابنها إلا الله وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده ، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها ، وابنها عن يمينه ، ويعتقدون أن الله زوجها ويعظمونها ويرفعونها على الملائكة ، انظر « هداية الحيارى » (ص: ١٤١) وما بعدها .

نرى الله جهرة ﴾ [(١)(٢)].

هذه عواقب إنكار النبوة ومخالفة أمرها ومنهجها فإذا ثبت ذلك اتضح لك أن إشراق الأرض بالنبوة وظلمتها يفقدها كما يقرر ذلك ابن القيم بقوله :

فأهل الأرض كلهم بظلمات الجهل والغي إلا من أشرق نور النبوة عليه كما في « المسند » وغيره عن النبي ﷺ « **إن الله خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل فلذلك أقول : جف القلم على علم الله** » [(٣)]، ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور والضياء ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمة التي خلق فيها وهي ظلمة الطبع ، وظلمة الجهل ، وظلمة الهوى ، وظلمة الغفلة عن النفس وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها ، فهذه جملتها ظلمات خلق فيها العبد ، فبعث الله رسله لإخراجه منها [(٤)].

*** دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ :**

فإذا كانت هذه حال النبوة فإنه من أوجب الواجب علينا إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ لا سيما أنها أشق ما يصادف رسل الله عليهم السلام وعليها يتوقف قبول دعواه وما جاء به من عقائد وتشريعات .

وقد بين ابن القيم رحمه الله لطف الله سبحانه وتعالى بعباده أن جعل طرق الهداية بالأنبياء ومعرفة صدق نبوتهم متنوعة رحمة ولطفًا ، وذلك

---

(١) الآية من سورة البقرة : (٥٥) .

(٢) انظر « هداية الحيارى » (ص : ١٩٠) .

(٣) « مسند الإمام أحمد » : (١٧٦/٢) والترمذي في كتاب « الإيمان » باب (١٨) .

(٤) انظر « هداية الحيارى » : (ص ١٩٤) .

لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم .

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به النبي وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهانًا خارجًا عن ذلك وهذا كحال الكمّل من الصحابة كالصّدِّيق، وهذا ما سنعرفه إن شاء الله بالمسلك النوعي(١) وهي نوعية التعاليم التي أتى بها النبي ﷺ .

ومنهم من يعرفه بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمالات الأخلاق والأوصاف والأفعال وهذا ما سنعرفه بالمسلك الشخصي .

ومنهم من عجز عن معرفته بهذه المقامات في الإيمان فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس وهذا ما سنعرفه بالمعجزات الحسية(٢).

وهناك مسلك رابع وهو المسلك النقلي ، وهذه المسالك الأربعة هي التي نهجها ابن القيم رحمه الله في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ .

أولاً : المسلك النوعي :

وهو أعظم هذه المسالك لأنه خاص بأولي الألباب والحجى أصحاب العقول النيرة فهو يحاكي العقول التي تَمَيَّز بها هذا المدعو من غيره من الحيوان وهو مناط التكليف ومحل المعرفة ، لذلك فإن دعوة الإسلام دائمًا ما تخاطب هذا العقل وتدعوهُ إلى التفكر والتدبر ، لأن الإنسان إذا أعمل عقله في الحقائق عرف صحتها وسلامتها .

وهذا ما حصل من أفاضل الناس وهم الكمّل من أصحاب العقول النيرة ، عندما عرضت عليهم الدعوة المحمدية وعرفوا نوع تشريعاتها

---

(١) استفدنا هذه المسالك : نوعي وشخصي من كلام شيخ الإسلام في كتابه « شرح العقيدة الأصفهانية »، (ص ٩٣) بعناية محمد مخلوف دار الكتب الإسلامية .

(٢) انظر ذلك في « مفتاح دار السعادة » : (٢/٣٩٦) .

وأفكارها ، فلم يترددوا في تصديق النبي ﷺ في جميع ما أخبر به وآمنوا.

هذا كحال صدِّيق هذه الأمة : أبو بكر رضي الله عنه ، وملك الحبشة النجاشي رضي الله عنه ، فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأ عليه جعفر بن أبي طالب صدرًا من سورة مريم بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وقال: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحده[1].

وكذلك ما حصل من ورقة بن نوفل لما أخبره النبي ﷺ بما رأه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية فقال : هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وإن قومك سيخرجونك فقال النبي ﷺ : « **أومخرجيّ هم** »؟ فقال : نعم ، لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينشب ورقة أن توفي[2].

فنوع ما جاء به النبي ﷺ من الأدلة العقلية التي يستدل بها أرباب العقول السليمة على نبوة محمد ﷺ ، وهذا ما يقرره ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذا المسلك بقوله :

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به ﷺ ، والملة التي دعا إليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته .

فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم ، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار ، كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول

---

(١) رواه ابن اسحاق في «السيرة النبوية» (٣٦٠/١) و «مجمع الزوائد» (٣١/٦) و «البداية والنهاية» (٦٩/٢) انظر «دلائل النبوة» للبيهقي تحقيق عبد المعطي قلعجي: (٣١٠) دار الكتب العلمية ، بيروت.

(٢) انظر « شرح العقيدة الأصفهانية » لشيخ الإسلام (ص٩٣) ، وانظر « هداية الحيارى » (ص٢٦)، والحديث رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » (٣/١) الباب الأول رقم الحديث (٣) .

وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب وقد سئل « بما عرفت أنه رسول الله؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال العقل : ليته أمر به » ، فهذا الأعرابي قد أقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته[١].

وأعظم ما يمثل هذه النوعية التي هي أقوى الأدلة على إثبات نبوّة النبي ﷺ هو القرآن الكريم الذي خاطب أهل العقول وأخضعهم لسلطانه وهو أعظم المعجزات العقلية التي بهرت العقول .

والله سبحانه وتعالى قد أرسل رسله عليهم السلام وآتاهم الآيات التي تدل على صدقهم وهي من فعل الله عز وجل ، يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها وقد سماها القرآن الكريم آية ، وبينة ، وبرهانًا .

قال تعالى : ﴿ **ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرًا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون** ﴾ [٢].

والمعجزة وإن كانت دليلاً صحيحًا لإثبات نبوّة النبي إلا أنها ليست الطريق الوحيد لإثبات النبوّة .

يقول شيخ الإسلام : ولا ريب أن المعجزة دليل صحيح لتقرير النبوة بل معرفتها بغير المعجزات ممكنة فإن المقصود إنما هو معرفة صدق مدعي النبوة أو كذبه فإنه إذا قال : (إني رسول الله) فهذا الكلام إما أن يكون صدقًا وإما أن يكون كذبًا .

فإذا كان مدعي الرسالة لم يكن صادقًا فلابدّ أن يكون كاذبًا عمدًا أو

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٨/٢) .

(٢) الآية من سورة المائدة : (٣٢) .

ضلالاً فالتمييز بين الصادق والكاذب له طرق فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بالنبوة .

ومعلوم أن مدعي النبوة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم ، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم ، وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الكذب والجهل والفجور ما يظهر لمن له أدنى تمييز .

وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما يظهر لمن له أدنى تمييز [١].

وعرّف ابن القيم المعجزة بقوله :

آية خارقة للعادة يظهرها الله على يد مدعي النبوة على وفق مراده تصديقًا له في دعواه مع عجز سائر المخلوقات عن معارضتها والإتيان بمثلها[٢].

وقد أمد الله رسله بآيات واضحات لا يستطيع جميع الخلق الإتيان بمثلها وهذا هو الإعجاز فيها لأنها مقرونة بالتحدي ومن ثم الإلزام بالاعتراف بنبوة النبي . ومعجزات الأنبياء كثيرة مثل فلق البحر بضربة عصا ، وإخراج الناقة من الحجر ، وإحياء الموتى ، وانشقاق القمر ، وغير ذلك .

والمقصود أن كل معجزة نبي كانت تناسب أهل زمانه ليكون عجزهم عنها حجة عليهم وتكون مؤيدة لصدق النبي ﷺ .

وكذلك معجزة خاتم الأنبياء محمد ﷺ ، فلما كان العرب في عهد بعثته كانوا قد برعوا في البلاغة والفصاحة وتفوقوا في صناعة الكلام وضروب البيان كانت معجزته الخالدة الباقية ما بقيت شريعته (القرآن الكريم) قائمة يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله إلى قيام الساعة ،

---

(١) انظر « شرح العقيدة الأصفهانية » : (ص : ٨٨ - ٨٩) .

(٢) «التبيان في اقسام القرآن» فإنه جميعه استدلال على وجود الله وإثبات وحدانيته وإثبات نبوة النبي ﷺ.

وذلك لأنه خاتم الرسل وآخرهم فدينه خالد فكانت معجزته خالدة .

وقد اتخذ ابن القيم رحمه الله من آيات القرآن الكريم البراهين الدالة على تحدي جميع الخلق عن الإتيان بمثله أو سورة منه وهذا التحدي القوي مستمر إلى قيام الساعة وهذا دليل على خلود الرسالة وخلود المعجزة مما يثبت نبوة نبينا محمد ﷺ ، فيقول :

ومن ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده ، وكلامه بقوله : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾[1].

فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزّله على عبده وأنه كلامه أن يأتي بسورة واحدة مثله وهذا يتناول أقصر سورة من سوره ، ثم فسح له أن عجز من ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين فقال تعالى : ﴿**أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [2]، وقال تعالى : ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين** ﴾ [3].

وقال : ﴿ **أم بقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ [4].

ثم سجل عليهم سبحانه تسجيلاً عامًا في كل زمان ومكان بعجزهم عن ذلك ولو تظاهر عليه الثقلان ، فقال : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن**

---

(١) الآية من سورة البقرة : (٢٣) .

(٢) الآية من سورة يونس : (٣٨) .

(٣) الآية من سورة هود : (١٣) .

(٤) الآية من سورة الطور : (٣٣ - ٣٤) .

على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا ﴾[(١)].

فانظر أي موقع يقع من الأسماع والقلوب هذا الحجاج القاطع الجليل الواضح الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيدًا ولا فوقه مزيدًا ولا وراءه غاية[(٢)]، وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر عند قوله تعالى : **﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** [(٣)]:

إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم أنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم ومن المحال أن يأتي واحد منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه ثم يطالب أهل الأرض بأجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف ثم تعجز الخلائق عن ذلك ، حتى أن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته ، فهو كمن أظهر طيبًا لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله فاستحيا العقلاء وعرفوا عجزهم ، وجاء الحمقاء بعذرة منتنة خبيثة وقالوا : قد جئنا بمثل ما جئت به ، فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانًا وعظمة وإجلالاً ؟!

وأكد سبحانه هذا التقريع والتعجيز بقوله : **﴿ وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾** ، كما يقول المُعجّز لمن يدعي مقاومته (أجْهِد عليّ

---

(١) الآية من سورة الإسراء : (٨٨) .

(٢) « الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة » : (٢٨٩/١) .

(٣) الآية من سورة البقرة : (٢٣) .

بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك ولا تبق منهم أحدًا حتى تستعين به) فهذا لا يقدم عليه إلا أجهل العالم وأحمقه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه .

وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا أحدها .

وثانيها : إقدامه ﷺ على هذه الأمور وإسجالها على الخلائق إلى يوم القيامة وهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله .

وثالثها : النظر إلى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه ، وبالوجهين الأولين يكون معجزًا لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه [(١)].

ثانيًا : المسلك الشخصي :

ونقصد به معرفة نبوة النبي ﷺ بحاله وما فطر عليه من كمالات الأخلاق والأوصاف والأفعال وأحواله قبل البعثة وبعدها .

ويمثل ابن القيم رحمه الله لهذا المسلك بمسلك خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها في الاهتداء إلى صدق النبي ﷺ وأن من قامت به تلك الأوصاف أن الله لا يخزيه من كان بهذه المثابة فقالت : « أبشر فوالله لن يخزيك الله أبدًا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقري الضعيف وتعين على نوائب الحق » فاستدلت بذلك على أن الله لا

---

(١) انظر « بدائع الفوائد » (١٣٤/٤) وما بعدها .

يخزيه ولا يفضحه وهو محل كرامته واصطفائه [(١)(٢)].

ومن ذلك ما استدل به هرقل ملك الروم على نبوة النبي ﷺ لما كتب إليه كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام طلب هرقل من كان هناك من العرب، وكان أبو سفيان قد قدم في طائفة من قريش في تجارة، فطلبهم وسألهم عن أحوال النبي ﷺ فسأل أبا سفيان وأمر الباقين أن يكذبوه إن كذب، فصار يجدهم موافقين له في الأخبار .

فسألهم هل كان من آبائه ملك ؟ فقالوا : لا ، وهل قال هذا القول أحد قبله ؟ قالوا : لا ، وسألهم أهو ذو نسب فيكم ؟ قالوا : نعم ، وسألهم هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فقالوا : لا ، ما جربنا عليه كذبًا ... حتى سألهم عن أكثر من عشر مسائل وكان يجيب عن كل مسأله بإجابة تدل على أنه حق نبي حتى انتهى ، فقال :

إن يكن ما تقول حقًّا ، إنه لنبيّ ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه منكم ولو أعلم أني أخلص إليه لأحببت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه وليبلغن ملكه ما تحت قدمي[(٣)].

فانظر إلى هؤلاء العقلاء العلماء كيف استدلوا على نبوته ﷺ من سيرته وخلقه وشخصيته العظيمة الشريفة .

ومن براهين ابن القيم رحمه الله التي استقاها من القرآن الكريم لإثبات نبوة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم جمع فيها بين المسلك النوعي والشخصي للنبي باعتبار المتأمل لأحواله ودعوته وما جاء به، فيقول :

---

(١) رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » : (٣/١) الباب الأول رقم الحديث (٣) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » بتصرف قليل : (٣٩٦/٢) .

(٣) رواه البخاري في كتاب « بدء الوحي » : (٤/١ - ٥) رقم الحديث (٦) .

قال تعالى : ﴿ **أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون** ﴾[١] ، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وحال القائل فإن كون القول كذبًا وزورًا يعلم من نفس القول تارة ، وتارة من تناقضه ، واضطرابه وظهور شواهد الكذب عليه ، ويعرف من حال القائل تارة فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله ، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب، فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ يتبين أن ما جاء به من أعلى مراتب الصدق، وقال تعالى: ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرًا من قبله أفلا تعقلون** ﴾ [٢] .

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز :

إحداهما : أن هذا من الله ، لا من قِبلي ولا هو مقدور لي ، ولا من جنس مقدور البشر ، فإن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأمسك عنه قلبي ولساني وأسماعكم .

الحجة الثانية : أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به وأنتم تشاهدونني وتعرفون حالي وتصحبونني حضرًا وسفرًا ، وتعرفون دقيق أمري وجليله وتتحققون سيرتي ، هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم ، هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابًا ولا أخطه بيميني ولا صاحبت من أتعلم منه ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل فأي برهان أوضح من هذا؟!

---

(١) الآيات من سورة المؤمنون : (٦٨ - ٧٠) .

(٢) الآية من سورة يونس : (١٦) .

وقال تعالى : ﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ [١].

يقول : ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان :

إحداهما : أن يكون مناظرًا مع نفسه .

والثانية : أن يكون مناظرًا لغيره .

أمرهم بخصلة واحدة وهي : أن يقوموا لله اثنين اثنين فيتناظران ويتساءلان بينهما واحدًا واحدًا ، يقوم كل واحد مع نفسه فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام[٢].

ثالثًا : المعجزات الحسية :

بعد أن ذكرنا المعجزات العقلية المعنوية لإثبات نبوّة نبينا محمد ﷺ فإن ذلك لا يعني أنه لم يعط معجزات حسية كما أعطى الأنبياء قبله .

فانشقاق القمر المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر ، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر** ﴾ [٣].

وهذه آية حسية للنبي ﷺ وفي « صحيح البخاري » عن أنس رضي الله عنه قال : « **سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر** »[٤]، وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : « **انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ**

---

(١) الآية من سورة سبأ : (٤٦) .

(٢) انظر « الصواعق المنزلة » : (٢٩١/١) .

(٣) الآيات من سورة القمر : (١-٢) .

(٤) « صحيح البخاري » باب المناقب (٤/ ١٨٦) رقم الباب (٢٧) ، ورواه مسلم .

شقين، فقال رسول الله ﷺ اشهدوا » [1].

وثانيها : نبع الماء من بين أصابعه كما في « الصحيحين » عن أنس رضي الله عنه قال : **« أتي النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال قتادة : قلت لأنس : كم كنتم؟ قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة »** [2].

وقد قرر ابن القيم رحمه الله ذلك في كتابه « زاد المعاد » وذكر الأحاديث الواردة في ذلك مما يدل على إثبات نبوّة النبي ﷺ في أثناء سياقه في صلح الحديبية[3].

وثالثها : (رده ﷺ عين قتادة بن النعمان في غزوة أحد فأتى بها النبي ﷺ ، فردها عليه بيده ، وكانت أصح عينيه وأحسنها)[4][5].

وعلامات النبوة الحسية كثيرة قد ذكرها أهل الحديث في كتبهم [6] وقد أسلم بسببها الكثير من الناس ، إلا أنها لم تصل إلى درجة دلائل النبوة السابقة التي كانت تفوق هذه المعجزات الحسية في قوة سلطانها ، وكثرة المهتدين بها وهي لأصحاب العقول الناضجة السليمة .

رابعًا : المسلك النقلي :

معظم هذ المسلك يدور حول البشارات الواردة في الكتب المقدسة السابقة

---

(١) « صحيح البخاري » باب المناقب (٤/ ١٨٦) رقم الباب (٢٧) ، ورواه مسلم .

(٢) متفق عليه ، البخاري : باب علامات النبوة في الإسلام (٤/ ١٦٨) و « مسلم » : باب معجزات النبي ﷺ (٤/ ١٧٨٢) .

(٣) انظر « زاد المعاد » : (٣/٢٩٧) وما بعدها .

(٤) « زاد المعاد » : (٣/١٩٨) .

(٥) أخرجه البيهقي في « دلائل النبوة » فيما ذكره ابن كثير (٢/٤٤٧) من حديث يحيى الحماني .

(٦) انظر « صحيح البخاري » (٤/ ١٦٨) و « مسلم » : باب معجزات النبي ﷺ (٤/١٧٨٢) .

وقد حكى القرآن الكريم أن البشارات ببعثة النبي ﷺ قد وردت في التوراة والإنجيل ، يقول تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر**﴾[1].

ولقد أبدع ابن القيم رحمه الله تعالى بذكر البشارات الواردة في الكتب المقدسة في كتابه المعروف بـ (**هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**) وقال في مسائل الكتاب :

وقسمته قسمين ، القسم الأول في أجوبة المسائل ـ وهي المسائل التي وردت عليه ـ ، والقسم الثاني في تقرير نبوّة محمد ﷺ بجميع أنواع الدلائل[2].

ثم بدأ بأجوبة المسائل والرد عليها وإثبات النبوّة ونحن ننقل بعض ما ورد في إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ .

أولًا : يقرر ابن القيم رحمه الله قوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾ .

أن ذلك لا يدل على الاسم الخاص بالعربية وهو (محمد) وإنما ذلك يدل على نعمته وهو أبلغ من ذكر اسمه فقال :

فالرب سبحانه إنما أخبر عن كون رسوله مكتوبًا عندهم ، أي الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعمته ، ولم يخبر بأن صريح اسمه العربي مذكور عندهم وهذا أبلغ من ذكره بمجرد اسمه ، فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز ، ولا يشاء أحد يسمى بهذا الاسم أن يدعي أنه هو إلا فعل ، إذ الحوالة إنما وقعت على مجرد الاسم ، وهذا لا يحصل به

---

(١) الآية من سورة الأعراف (١٥٧) .

(٢) « هداية الحيارى » : (١٣) .

بيان ولا تعريف ولا هدى ، بخلاف ذكره بنعته ، وصفته ، وعلاماته ودعوته ، وصفة أمته ، ووقت مخرجه ، ونحو ذلك فإن هذا يعينه ويميزه ويحصر نوعه في شخصه[1] لذلك عرفه قيصر وسلمان وكثير من أهل الكتاب واليهود الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم من صفاته ونعته الموجود عندهم .

ثم ذكر رحمه الله تعالى اثني عشر وجهًا تدل على أنه مذكور في الكتب المنزلة :

أحدها : إخبار من قد ثبتت نبوته قطعًا بأنه مذكور عندهم في كتبهم .

الوجه الثاني : أنه جعل الإخبار به من أعظم أدلة صدقه وصحة نبوّته وهذا يستحيل أن يصدر إلا من واثق كل الوثوق بذلك .

الثالث : أن المؤمنين به من الأحبار والرهبان الذين آثروا الحق على الباطل صدقوه في ذلك وشهدوا له بما قال .

الرابع : أن المكذبين له لم يمكنهم إنكار البشارات والإخبار بنبوة نبي عظيم الشأن صفته كذا وكذا وصفة أمته ومخرجه لكن جحدوا أن يكون هو الذي وقعت عليه البشارة وأنه نبي آخر غيره .

الخامس : أن كثيرًا منهم صرح لخاصته وبطانته بأنه هو هو بعينه وأنه عازم على عداوته .

السادس : أن إخباره ﷺ بأنه مذكور في كتبهم هو فرد من أفراد إخباراته بما عندهم في كتبهم عن شأن أنبيائهم وقومهم وما جرى لهم وقصص الأنبياء والمتقدمين وشأن المبدأ والمعاد وغير ذلك وكل ذلك مما يعلمون صدقه فيه ومطابقته لما عندهم .

---

(١) « هداية الحيارى » : (٤٤) .

السابع : أنه استشهد على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب وقد شهد له عدولهم[(١)] إلى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها رحمه الله مما يدل على أنه ﷺ مذكور في الكتب التي بين أيديهم .

*** البشارات في التوراة والإنجيل**

ثم بدأ رحمه الله بذكر نصوص الكتب المتقدمة في البشارة به وصفته ونعت أمته وإيضاح دلالتها ومطابقتها للشريعة والواقع .

الوجه الأول :

قوله تعالى في التوراة : « **سأقيم لبني إسرائيل نبيًّا من إخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه ويقول لهم ما آمره والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه** »[(١)].

يقول فهذا النص مما لا يمكن أحد منهم جحده وإنكاره ، ولكن لأهل الكتاب فيه أربعة طرق :

أحدها : حمله على المسيح وهذه طريقة النصارى .

وأما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق :

أحدها : أنه على حذف أداة الاستفهام ، والتقدير : « أأقيم لبني إسرائيل نبيًّا من إخوتهم » أي : لا أفعل هذا .

---

(١) انظر « هداية الحيارى » : (٤٩) وما بعدها .

(١) (كلامي في فيه) أي أنه لا يكتب يعني أميًّا : وهذا ما نقله ابن القيم رحمه الله من الكتاب المقدس وأما الذي وجدته ففيه قليل اختلاف قد يكون نتيجة تحريف منهم ونصه : (أقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه) الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية فقرات : (١٨ -١٩).

الثاني : أنه خبر ووعد ولكن المراد به شمويل، والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوتهم ، وإخوة القوم هم بنو أبيهم .

الثالث : أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم .

قال المسلمون : « ال » للاستغراق ودعوة الإسلام عامة في قوله الإنسان والمثلية في موسى ومحمد ﷺ .

وكذلك : البشارة صريحة في النبي ﷺ العربي الأمي محمد بن عبد الله لا يحتمل غيره ، فإنها وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم والمسيح من بني إسرائيل ، ولو كان المراد المسيح لقال أقيم لهم نبيًا من أنفسهم كما قال تعالى : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولًا من أنفسهم** ﴾ [١] وإخوة بني اسرائيل هم بنو إسماعيل .

وأيضًا فإنه قال : « نبيًا مثلك » وهذا يدل على أنه صاحب شريعة جديدة مثل موسى وهذا يبطل حمله على شمويل من هذا الوجه أيضًا ويبطل حمله على يوشع من ثلاث أوجه ، **أحدها** : أنه من بني إسرائيل لا من إخوتهم . **والثاني** : أنه لم يكن مثل موسى ، وفي التوراة لا يقوم في بني إسرائيل مثل موسى . **الثالث** : أن يوشع نبي في بني إسرائيل في زمن موسى وهذا الوعد إنما هو بنبي يقيمه الله بعد موسى وبهذه الوجوه الثلاثة يبطل حمله على هارون . **الرابع** : وهو أن في هذه البشارة أنه ينزل عليه كتابًا يظهر للناس من فيه وهذا لم يكن لأحد بعد موسى غير النبي ﷺ[٢] .

الوجه الثاني : قال في التوراة في السفر الخامس : « أقبل الله من سيناء

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (١٦٤) .

(٢) انظر « هداية الحيارى » : (٥٣) .

وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ومعه ربوات الأظهار عن يمينه »[١].

وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة : نبوة موسى ، ونبوة عيسى ، ونبوة محمد ﷺ فمجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ونبأه عليه ، وتجلى من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس ، وساعير قرية معروفة هناك إلى اليوم وهذه بشارة نبوة المسيح ، وفاران هي مكة وشبه الله سبحانه نبوة موسى بمجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه ، ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الأفق .

وهذه النبوات الثلاث نظير ذكرها في أول سورة ﴿ **والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين** ﴾ ، فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها ، (فالتين والزيتون) : المراد بهما منبتهما وهي الأرض المقدسة وهي مظهر المسيح ، (وطور سينين) : الجبل الذي كلم الله عليه موسى فهو مظهر نبوته (وهذا البلد الأمين) : مظهر نبوة محمد ﷺ و (فاران) هي أرض الحجاز وعندهم في التوراة أن إسماعيل لما فارق أباه سكن برية فاران ولفظها : (وأقام إسماعيل في برية فاران ، وأنكحته أمه امرأة من جرهم)[٢] وذكر غير ذلك من نصوص التوراة الدالة على نبوة النبي ﷺ .

الوجه الثالث : ما في الإنجيل : « أن المسيح قال للحواريين : إني ذاهب وسيأتيكم الفار قليط روح الحق ، لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما هو كما يقال له ، وهو يشهد عليّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس،

---

(١) هذا ما ذكره ابن القيم نقلًا عن التوراة والذي وجدته في الكتاب المطبوع هو (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتي من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم) سفر التثنية الإصحاح (٣٣) فقرات (٢) .

(٢) انظر « هداية الحيارى » (ص : ٥٥) .

وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به » .

وفي إنجيل يوحنّا « الفار قليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، وإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه مما يسمع به ، ويكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب»[(١)] .

وفي موضع آخر « إني سائل له أن يبعث إليكم فار قليطًا آخر يكون معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء » .

وفي موضع آخر : « ابن البشر ذاهب والفار قليط من بعده يجيء لكم بالإسراء ويفسر لكم كل شيء ، وهو يشهد لي كما شهدت له ، فإني أجيئكم بالأمثال وهو يأتيكم بالتأويل » .

وقد اختلف في الفار قليط بلغتهم فذكروا فيه أقوال ترجع إلى ثلاثة :

إحداها : أنه الحامد والحماد أو الحمد ورجحت طائفة هذا القول ، وقال الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد ، والدليل عليه قول يوشع « من عمل حسنة يكون له فار قليط جيد » أي : حمد جيد .

القول الثاني : وعليه أكثر النصارى : أنه المخلص والمسيح نفسه يسمونه المخلص .

ثم يقول : ولما لم يمكن النصارى إنكار هذه النصوص حرفوها أنواعًا من التحريف فمنهم من قال : هو روح نزلت على الحواريين ، ومنهم من قال : هو ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا بها الآيات والعجائب ، ومنهم من زعم أنه المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصلب

(١) وهذا معناه ولم أجد هذا النص في كتابهم وإنما وجدت ما يشابه ذلك في إنجيل يوحنا ، إصحاح (١٦) الفقرات (٥-١٦) .

بأربعين يومًا ، ومنهم من قال لا يعرف المراد بهذا الفار قليط .

ومن تأمل ألفاظ الإنجيل وسياقها علم أن تفسيره بالروح باطل ، وأبطل منه تفسيره بالألسن النارية ، وأبطل منهما تفسيره بالمسيح[(١)] .

فإن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى : ﴿ **لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه** ﴾[(٢)] .

وإذا كان ذلك ولم يسم أحد هذه الروح فار قليط علم أنه أمر غير هذا ، وايضًا فمثل هذه الروح لا زالت يؤيد بها الأنبياء والصالحون وما بشر به المسيح ووعد به أمر عظيم غير هذا .

وأيضًا فإنه وصف الفار قليط بصفات لا تناسب هذه الروح وإنما تناسب رجلاً يأتي بعده نظيرًا له فقوله : « فار قليط آخر » دل على أنه ثانٍ لأول كان قبله .

وأيضًا فإنه قال : « يثبت معكم إلى الأبد » وهذا إنما يكون لما يدوم

---

(١) ومن الأدلة في الإنجيل التي لم يذكرها ابن القيم سنذكرها هي ما قاله المسيح عند ليلة القبض عليه ! « وإذا واحد من الذين مع يسوع مدّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه فقال له يسوع : رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف يهلكون أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من اثني عشر جيشًا من الملائكة فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون » .

ومما يرد عليهم « في تلك الساعة قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذوني كل يوم كنت أجلس معكم أعلم في الهيكل ولم تمسكوني وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الأنبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا » إنجيل متّى إصحاح (٢٦) الفقرات (٥٥ - ٥٦) . نكر العبارة وهو موجود كي تكمل كتب الأنبياء .

(٢) سورة المجادلة : (٢٢) .

ويبقى معهم إلى آخر الدهر ومعلوم أنه لم يرد بقاء ذاته فعلم أنه بقاء شرعه وأمره والفار قليط الأول لم يثبت معهم شرعه ودينه إلى الأبد وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بل يبقى إلى الأبد .

وأيضًا : فإنه أخبر أن هذا الفار قليط الذي أخبر به يشهد له ويعلمهم كل شيء وأنه يذكر لهم كل ما قال المسيح وأنه يذبح العالم على خطيئته، فهذه الصفات والنعوت التي تلقوها عن المسيح لا تنطبق على أمر معنوي في قلب بعض الناس لا يراه أحد ولا يسمع كلامه وإنما تنطبق على من يراه الناس ويسمعون كلامه فيشهد للمسيح ويعلمهم كل شيء [1] .

إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الواردة في الكتب المنزلة التي ذكرها رحمه الله في كتابه مما يدل على نبوة محمد ﷺ .

*** لازم الشهادتين محبة الله ورسوله :**

إذا وقع تصديق العبد بأن الله رب واحد وأن محمدًا عبده ورسوله لزمه محبتهما ، فبذلك يثبت فيه أصل الأعمال الدينية والأقوال .

لأن المحبة أصل كل فعل ومبدؤه ، وقوام أمر الإسلام عليها ، وهي الدافع والمحرك للعبد تجاه أي عمل فكلما قويت المحبة قوي الاندفاع ، ولمكانة المحبة في الإسلام وأنها أصل الأعمال الدينية والأقوال وجب عليّ أن أعرّف الداعية هذه المحبة التي تدفعه وتدفع من يدعوه إلى العمل إذا أحسن غرسها في قلبه وقلب المدعو وهذا ما عناه ابن القيم رحمه الله من التركيز على ذكر هذه المحبة وتوضيح اشتقاقها وأسمائها ، وحدها ، وأنواعها ، وعلاماتها ، في كثير من كتبه وقد أفردها في مصنف سماه (**روضة المحبين**

---

(١) انظر « هداية الحيارى » : (٥٧ - ٥٩) .

ونزهة المشتاقين) وسوف أتطرق في هذه العجالة إلى بعض ما ذكره ابن القيم رحمه الله مما له علاقة بموضوعنا توضح لنا منهجه في تعريفنا بهذه المحبة وعلاماتها واشتقاقها وغير ذلك .

فتتعرف أولاً على اشتقاق هذا الاسم والذي ذكر فيه ابن القيم كثيرًا من كلام الناس في أصل اشتقاقها نذكر بعضًا منها فقال :

أصلها الصفاء : لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها : حبب الأسنان .

وقيل : مشتقة من اللزوم والثبات ومنه أحبَّ البعير إذا برك ولم يقم ، فكأن المحب لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالاً .

فيكون تعريفها اصطلاحًا وتحديدها كما يرى ذلك ابن القيم :

ميلك للمحبوب بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرًا وجهرًا ثم علمك بتقصيرك في حبه[1] .

* **أنواع المحبة :**

ومحبة الله ورسوله أنواع يجب التمييز بينهما كما يقول ابن القيم :

أربعة أنواع يجب التمييز بينها وإنما ضل من ضل بعدم التفريق بينهم :

أحدها : محبة الله ، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله ، والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحبه الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس إلى الله أقواهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

---

(١) انظر « روضة المحبين » : (٣٣) وما بعدها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب إلا فيه وله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئًا مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه ندًا من دون الله وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهو المحبة الطبيعية وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم ، والزوجة والولد[1] .

*** حركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب :**

يقول رحمه الله تعالى : فالمحبة والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة حتى دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها فإنما يدفعها بإرادته ومحبته لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع[2] .

فإذا عرف ذلك فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له فتحرك محب الرحمن ومحب القرآن ، ومحب العلم والإيمان ، ومحب المتاع والأثمان ، ومحب الأوثان والصلبان ، ومحب النسوان والمردان ، ومحب الأوطان ومحب الإخوان .

فتثير من كل قلب حركة إلى محبوبه من هذه الأشياء فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غيره[3] .

---

(١) « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » (ص: ٢٢٦) .

(٢) « روضة المحبين » : (٧٦) .

(٣) « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » : (١٣٢/٢) .

*** أصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله :**

وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله ، وكل إرادة تمنع كمال الحب لله ورسوله وتزاحم هذه المحبة ، أو شبهة تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا أو شركًا أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت في كماله ، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في العزيمة والطلب وهي تحجب الواصل ، وتقطع الطالب وتنكس الراغب فلا تصلح الموالاة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه : ﴿ **أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون فإنهم عدو لي إلا رب العالمين** ﴾[1][2] .

ثم بين رحمه الله أن المحبة تحتها أنواع متفاوتة وبين أعظم أنواع المحبة المحمودة فيقول :

ولما كانت المحبة جنسًا تحته أنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق الله تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعها ، ومالا تصح إلا له وحده ، مثل العبادة والإنابة ونحوها[3] .

وأعظم أنواعها المحمودة : محبة الله وحده ومحبة ما أحب وهذه المحبة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها .

ومدار القرآن على الأمر بهذه المحبة ولوازمها ، والنهي عن المحبة الأخرى

---

(١) سورة الشعراء الآيات : (٧٥ - ٧٧) .

(٢) « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » لابن القيم : (٢٣٦) .

(٣) « الجواب الكافي » : (٢٣٧) .

ولوازمها [1] وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم : إنما هي عبادة الله وحده لا شريك له ، والمتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضوع والذل له ، والإجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى .

وقد ثبت في « الصحيحين » من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال : **« والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين »**[2] .

وفي « صحيح البخاري » أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : **(يارسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، قال : والذي بعثك بالحق لأنت أحب إليّ من نفسي قال : الآن يا عمر)** [3] .

فإذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله ﷺ ووجب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين ، فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمه على ما سواه ؟!

فمحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وإفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب إلى العبد من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه .

وليس شيء يحب لذاته من كل وجه إلا الله وحده[4].

---

(١) يقصد المحبة المذمومة التي يقول عنها أنها المحبة مع الله التي يسوي فيها بين محبة الله ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله ، « الجواب الكافي » (ص: ٢٣٩) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الإيمان » رقم الباب (٨ جـ ١ ص ٩) .

(٣) رواه الإمام أحمد في « المسند » : (١١/٤) .

(٤) انظر « الجواب الكافي » : (٢٣٧) .

*** علامات هذه المحبة وشواهدها :**

وقد ذكر رحمه الله علامات وشواهد كثيرة تدل على محبة الله ورسوله فمن وجد شيئًا من هذه العلامات في نفسه فليعلم أن محبة الله ورسوله قد تمكنت من نفسه فكل ما زادت هذه الشواهد عنده كانت المحبة أقوى وأمكن ، وقد أطنب رحمه الله في ذكر هذه الشواهد والعلامات ، أذكر شيئًا منها ، مما يوفي بغرضنا إن شاء الله ، فقال :

منها : كثرة ذكر المحبوب واللهج بذكره وحديثه فمن أحب شيئًا أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ولهذا أمر الله بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون** ﴾[1] .

والمحبون يفتخرون بذكر أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة الأعداء كما قال قائلهم :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم[2]

ومن علاماتها : الانقياد لأمر المحبوب وإيثاره على مراد المحب بل يَتحِد مراد المحب والمحبوب ، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحدًا فليس بمحب صادق من له إرادة تخالف مراد محبوبه منه وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة للرّسُولِ الحبيب قال تعالى : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم** ﴾[3] فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبتهم له .

---

(١) سورة الأنفال : (٤٥) .

(٢) البيت لعنترة بن شداد في معلقته .

(٣) سورة آل عمران : (٣١) .

ومن علاماتها : قلة صَبرِ المحِبِّ عن المحبوب بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته والصبر عن معصيته ، والصبر على أحكامه فهذا صبر المحب .

ومنها : الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرّغُ لحديثهِ سمعه وقلبه ، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف .

ولهذا لم يكن شيء ألذّ لأهل المحبة من سماع القرآن وقد ثبت في « الصحيح » عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : **قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ عليّ ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى : ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا﴾[1] قال : حسبك الآن ، فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان »**[2] .

ومنها : الإسراع إليه في السير وحث الرّكاب نحوه وطيّ المنازل في الوصول إليه والاجتهاد في القرب والدنوّ منه ، وقطع كل قاطع يقطع عنه.

ومنها : غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه ، فالغيرة له أن يكره ما يكره ، ويغار إذا عُصي محبوبه وانتهك حقه وضيع أمره ، فهذه غيرة المحب حقًّا والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس دينًا أعظمهم غيرة ، وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « **أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني**»[3].

فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله ، وإذا

---

(١) سورة النساء : (٤١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « التفسير » تفسير سورة النساء : (١٨٠/٥) ومسلم كتاب « صلاة المسافرين » باب فضل استماع القرآن : (٥٥٠/١) .

(٣) رواه الدارمي في باب النكاح وأحمد في « المسند » : (٢٤٨/٤) .

خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين .

فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهين بحقه ويستخفّ بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد .

فكيف يصح لعبد أن يدعي محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتهكت ، ولا لحقوقه إذا ضيعت وإذا ترحلت هذه الغيرة من القلب ترحلت منه المحبة بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي :

أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي الحامل على ذلك .

ومنها : بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبة ، وللمحب في هذه ثلاثة أحوال :

أحدها : بذل ذلك تكلفًا ومشقة وهذه في أول الأمر .

فإذا قويت المحبة بذله رضًا وطوعًا ، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤالاً وتضرعًا كأنه يأخذه من المحبوب حتى أنه ليبذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقون رسول الله ﷺ في الحرب بنفوسهم حتى يصرعوا حوله ومن آثر محبوبه بنفسه فهو له بماله أشد إيثارًا .

قال تعالى : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾[1] .

ومنها : هجره كل سبب يُقْصِيه من محبوبه ويبغضه المحبوب ،

---

(١) سورة الأحزاب : (٦) .

وارتياحه لكل سبب يدنيه منه ، ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه [١] .

وهذه هي شواهد محبة الله ورسوله المتمثلة في الطاعة العمياء والتزام أمرهما واجتناب نهيهما وعدم مخالفتهما أو إحداث شيء في الدين لم يشرّع منهما وابتداعه كما يفعل بعض المتصوفة من عبادات لم يأذن بها الله ورسوله ويدعون أنها محبة لله ورسوله ، فالمحبة الحقيقية في طاعتهما فقط .

ولله ما أحلى كلام ابن القيم وحسن تربيته وأسلوبه الدعوي المبارك ! وما أحسن تصويره للعباد حق الله من المحبة !وكيف بين أن مدار الدين كله يرجع إلى هذه المحبة ؟! حقًّا إنها شواهد تدل على المحبة يلزم كل عبد مؤمن بالله الانقياد لهذه الشواهد وجعلها شواهد تنطبق على حاله مع محبوبه فإنها كما قال ابن القيم رحمه الله :

تكون تكلفًا ومشقة في بداية الأمر فإذا حبس نفسه وصبر ورأى الله سبحانه منه العزم فإنه يسهلها عليه فيبذلها رضًا وطوعًا بلا تكليف ومشقة فإذا صبر عليها وجدّ في المسير فإنها تصبح سعادته ولذة روحه وقلبه ومحبوبه الذي أصبحت أوامره ونواهيه متحدة مع هواه ورغبته فتكون قد اكتملت فيه علامات المحبة فيكون هو المحب على الحقيقة الذي كمل أنواع المحبة السالفة الذكر جعلنا الله منهم .

* * *

---

(١) انظر « روضة المحبين » : (٢٦٧) وما بعدها .

القسم الثاني :

من أركان الإسلام[١]

بعد أن تحدثنا عن القسم الأول من أركان الإسلام وهو الشهادتان أعظم الأركان والعبادات على الإطلاق وهو مفتاح الجنة .

إلا أن هذا المفتاح يحتاج إلى أسنان فإن لكل مفتاح أسنانًا لا يكمل الفتح إلا بها ، والشهادتان تحتاج إلى أسنانها ، وهي بقية الأركان من العبادات الواردة في الحديث ، من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وسوف أعرض هذه الأركان على الداعية ليس ليعرفها ويعرف مكانتها في الإسلام فقط ، بل ليتزود بنور يكشف له سر هذه العبادات والحكمة من تشريعها وحاجة البشر إليها وعدم استغنائهم عنها .

كل ذلك مستفاد من نظرة هذا العالم الرباني ابن القيم رحمه الله ، الذي لا أشك في أنه عرف ربه معرفة لم يصل إليها الكثير من الدعاة ، فلذلك تجد في كلامه ، ما يجلو الصدر ، ويزيد في إيمان المؤمن عندما يتحدث عن حقوق الرب وواجبات العبد ، فتعرف الرب والعبد على حقيقتهما .

والعبادة ثمرة الإيمان بالله وبرسوله وبها يظهر معنى الشهادتين بالعمل والسلوك وقد صرح القرآن الكريم في كثير من الآيات عند ذكر الإيمان أن يقرنها بالعمل الصالح كما قال تعالى : ﴿ **وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاءً الحسنى** ﴾[٢].

---

(١) في منهج ابن القيم في إصلاح الأمة في الباب الثاني تحدثت عن العبادة وهي تكمل عناصر الموضوع انظر : (ص ٤٤٥ ، ٥٤٧ ، ٦٧٨).

(٢) سورة الكهف : (٨٨) .

وقال : ﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف ﴾[1].

وقال : ﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين ﴾[2].

وغير ذلك من الآيات الدالة على ارتباط العمل بالإيمان وأنهما جزء لا يتجزء فلا إيمان بلا عمل ، ولا يقبل عمل بلا إيمان ، لأن الإيمان : قول وعمل وتصديق .

*** حاجة العباد إلى العبادة :**

يرى ابن القيم رحمه الله أن العبادة هي روح العباد في هذه الحياة وأنها نورهم وسرورهم كما أنها نورهم وسرورهم في الآخرة وقد كرر ذلك في أكثر من موضع محاولاً تركيز هذا في أذهان المسلمين مثل قوله :

إن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه في خلقه لهم ، ورزقه إياهم ، ومعافاة أبدانهم ، وستر عوراتهم ، وتأمين روعاتهم ، بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم ، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ولا صلاح لهم ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال[3].

ويقول رحمه الله : إن فقر العبد إلى أن يعبد الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ولكن بينهما فروق كثيرة .

---

(١) سورة سبأ : (٣٧) .

(٢) سورة القصص : (٦٧) .

(٣) انظر « إغاثة اللهفان » : (١/٣٠ - ٣٣) .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو ، فلا يطمئن إلا بذكره ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحًا فملاقيه ولابدّ له من لقائه ، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته ، وعبادته ، وخوفه ، ورجائه .

فإلهه الحق لابدّ له منه في كل وقت وفي كل حال وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان[1].

وهو في نفس الوقت يبين أن أكثر الخلق يعجز عن إدراك هذا ، وإنما يدركه من كان مراده حب الله وحده ونذر حياته لمعرفته ومحبته الذي صار نعيمه في التوجه إليه وذكره ، فهذا هو الذي يعرفه ويقرّ به ، وهو الذي يشعر بالنعيم ، واللذة ، والسرور ، في عبادته أيًا كانت هذه العبادة .

فمن لم يصدق ذلك فليتأمل حال أهل الإيمان وما وقع منهم في بذل النفس والنفيس من أجل رضا الرب تبارك وتعالى الذي أحبه فنسي الوجود من دونه وأصبح لا يتحرك إلا به ومن أجله فكم من القوم أقدم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ، ومفارقة أوطانهم ، وبذل نحورهم ومحبتهم للقتل وإيثارهم له على البقاء ، وإيثار لوم الائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم فوقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذته وسروه ونعيمه ممتنع ، والواقع شاهد بذلك .

فيا منكرًا هذا تأخر فإنه

حرام على الخفاش أن يبصر الشمس[2]

---

(١) انظر ذلك في « طريق الهجرتين : (٥٩) .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

وبعد أن بين رحمه الله حاجة العباد إلى عبادة الله وحده أخذ يرد على من قل نصيبه من التحقيق والعرفان وبخس حظه من الإحسان وقل نصيبه من ذوق حقائق الإيمان ، بقولهم : إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة لمجرد الابتلاء والامتحان أو لمجرد التعويض المنفصل كالمعاوضة بالأثمان أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيمية والحيوانية .

فيقول : بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره ، قرة عين الإنسان وأفضل لذّة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلًا لهذا الشان .

إذ ليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول، وإن وقع ذلك ضمنًا وتبعًا في بعضها، لأسباب اقتضته لابدّ منها وهي من لزوم هذه النشأة.

فأوامره سبحانه وحقه الذي أوجبه على عباده ، وشرائعه التي شرعها لهم هي قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الأرواح وسرورها ، وبها شفاؤها وفلاحها وكمالها في معاشها ومعادها بل لا فرح ولا نعيم إلا بذلك كما قال تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[1] .

قال أبو سعيد الخدري[2] : « فضل الله : القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله » ، وقال هلال بن يساف[3] : « بالإسلام الذي هداكم

---

(١) سورة يونس : (٥٧ - ٥٨) .

(٢) سعيد بن مالك رضي الله عنه صحابي جليل من ملازمي النبي ﷺ وروى عنه أحاديث كثيرة غزا اثنتي عشرة غزوة وتوفي في المدينة سنة (٧٤هـ) انظر : خليفة بن خياط « الطبقات » تحقيق د. أكرم ضياء العمري (ص٩٦) ط الثانية (١٤٠٢هـ) دار طيبة الرياض ، والذهبي « سير أعلام النبلاء » (٣/ ١٦٨) ط الثانية (١٤٠٥هـ) مؤسسة الرسالة بيروت .

(٣) هلال ، لم أستطع الوقوف عليه ولعله هلال الرأي ، هلال بن يحيى بن مسلم البصري فقيه من أعيان الحنفية لقب بالرأي لسعة علمه وكثرة أخذه بالقياس توفي سنة (٢٤٥هـ) رحمه الله ، انظر « مفتاح السعادة » (١٢٤/٢٥) و « الأعلام » (٩٢/٨) .

إليه وبالقرآن الذي علّمكم إياه هو خير مما تجمعون من الذهب والفضة وكذلك قال ابن عباس[١] والحسن[٢] وقتادة[٣] وهما الأمران اللذان امتن الله بهما على رسوله ﷺ فقال : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان** ﴾[٤].

والله سبحانه رفع من رفع بالكتاب والإيمان ووضع من وضع بعدمهما.

فإن قيل : فقد وقع تسمية ذلك تكليفًا في القرآن الكريم كقوله :

﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾[٥].

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ، ابن عم النبي ﷺ وأمه لبابة بنت الحارث وكان يسمى البحر لسعة علمه ويسمى حبر الأمة ولد في شعب أبي طالب أثناء محاصرة الرسول وحنكه بريقه وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين قال عبيد الله بن عتبة : كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ما سبقه وفقه فيما احتيج إليه وتأويل وما رأيت أحدًا كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله ﷺ وقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه ولا أفقه في رأي منه ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا تفسير القرآن منه توفي سنة (٦٨هـ) بالطائف وهو ابن سبعين رحمه الله ورضي عنه ، انظر « أسد الغابة في معرفة الصحابة » (١٩٢/٣) دار إحياء التراث العربي بيروت مؤلفه الشيخ العلامة عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير .

(٢) الحسن بن يسار البصري أبو سعيد تابعي إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمانه وهو أحد العلماء والفقهاء الفصحاء الشجعان ولد بالمدينة وشبّ في كنف علي بن أبي طالب وسكن البصرة وعظمت هيبته في القلوب لا يخاف في الحق لومة لائم وله مع الحجاج مواقف وسلمه الله من أذاه توفى بالبصرة سنة (١١٠هـ) رضي الله عنه ، انظر : « ميزان الاعتدال » (٢٥٤/١) و «حلية الأولياء » (٢/ ١٣١) و « الإعلام » (٢٢٦/٢) .

(٣) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري مفسر حافظ ضرير قال عنه الإمام أحمد قتادة أحفظ أهل البصرة ، وكان معه علم بالحديث رأسًا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب مات بواسط في الطاعون سنة (١١٨هـ) رحمه الله انظر « ابن خلكان » (٤٢٧/١) و « الأعلام » (١٨٩/٥) .

(٤) سورة الشورى : (٥٢) .

(٥) سورة البقرة : (٢٨٦) .

وقوله : ﴿ **لا نكلف نفسًا إلا وسعها** ﴾[1].

قيل : نعم إنما جاء ذلك في جانب النفي ولم يسمّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفًا قط ، بل سماها : روحًا ، ونورًا ، وشفاء ، وهدى ، ورحمة ، وحياة ، أو عهدًا ، ووصيته ، ونحو ذلك [2].

ولا يشعر بذلك إلا من امتلاء قلبه إيمانًا وحبًا لله تعالى .

*** الأدلة على أن العبادة مصلحة للعبد وسعادته :**

وقد بين رحمه الله تعالى أن هذه العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده إنما شرعت لمصلحة العباد أولًا وآخرًا وليتم بها سعادتهم ولذتهم في الدنيا والآخرة والأدلة على ذلك هي :

أولاً : أنه لم يخلقهم لحاجة منه إليهم ولا ليتكثر بهم من قلة ولا ليتعزز بهم كما قال : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون** ﴾[3] فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ، ولا ليربح عليهم ولكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله : ﴿ **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم** ﴾[4] ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال تعالى : ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾[5] وقال في

---

(1) سورة الأنعام : (152) .

(2) انظر « إغاثة اللهفان » (32/1) ، و « طريق الهجرتين » : (58) .

(3) سورة الذاريات الآيات : (56 - 57) .

(4) سورة الإسراء : (7) .

(5) سورة المائدة : (6) .

الأضاحي والهدايا : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ﴾[1] .

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد** ﴾[2] ، يقول سبحانه : إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء ، حميد مستحق المحامد كلها ، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجد له حمدًا ، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته ، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائده عليكم[3] .

إذن هذه العبادة هي علاج للعبد إذا ما تلقاها وقام بها على الوجه الأكمل فتطهر نفسه وتزكو مما هو سبب في سعادة العبد ولذته .

ثانيًا : أن هذه العبادات والشرائع هي سعادة للفرد والمجتمع ، لأنها تربي المؤمن مما يؤثر بدوره على سعادة المجتمع ونفسه يقول ابن القيم :

تضمن التكليف إيصاف العبد بكل خلق جميل وإثباته بكل فعل جميل وقول سديد واجتنابه لكل خلق سيئ وترك كل فعل قبيح وقول زور فتكليفه متضمن لمكارم الأخلاق ومحاسن الأفعال، وصدق القول، والإحسان إلى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر أضداد ذلك[4].

إذا كان ذلك فالسعادة والخير يعود على العبد نفسه وعلى الآخرين

---

(١) سورة الحج : (٣٧) .

(٢) سورة البقرة : (٢٦٧) .

(٣) « طريق الهجرتين » : (٢٣٦) .

(٤) « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » لابن القيم : (٢٦٧) .

فجمع بين الحسنيين والسعادتين والأجرين .

ثالثًا : أن من لم تكن العبادة قرة عينه وسروه ونعيمه ، فاعلم أنه معذب ، لتعلقه بسوى الله ، وهذا مضرة عليه إذا أخذ منه فوق قدر حاجته ولم يقصد بها التزود على الطاعة ، وهذا قد صرف شيئًا من المحبة لغير الله .

وكل من أحب شيئًا سوى الله ، فليعلم العبد أن هذا الشيء المحبوب مسلوب منه وسيفارقه ولابدّ بأي حال من الأحوال ، وهذا من أعظم مصادر القلق والتعاسة والشقاء على هذا المحب .

فإن كان أصل المحبة لغير الله فلابدّ أن تضره محبته هذه في الدنيا أو في الآخرة وغالبًا ما يجتمع له العذاب في الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿**الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم...**﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون** ﴾[2] ، فعذاب الآخرة معلوم وقوعه وصفته عن الله ورسوله ، أعاذنا الله منه .

ولكن كيف يعذب في الدنيا بهذه الملذات والشهوات والمحبوبات التي حصل عليها وأحبها وبذل جهده في الحصول عليها ؟

والجواب أن عذاب أهل الدنيا مشاهد من تعذيب أهل الدنيا وطلابها ومحبيها وموثريها على حب الله والآخرة ، وذلك بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ، ومُقاساة أنواع المشاق في ذلك فلا تجد أتعب ولا أشقى ممن الدنيا أكبر همه وذلك واضح في قول النبي ﷺ : « من

---

(١) الآية من سورة التوبة : (٣٤) .

(٢) الآية من سورة التوبة : (٥٥) .

كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له »[1] .

ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل ، وتفريق القلب وكون الفقر بين عيني العبد لا يفارقه .

ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها ، لاستغاثوا من هذا العذاب ، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه ، وذلك باشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم من أعظم المصائب ، ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث ، هَمّ لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضي ، وذلك أن محب أي شيء من الدنيا من دون الله لا ينال منه شيئًا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه[2] وهذا بعكس العبادة ومحبة الله وحده ، فكل ما زدت منها زاد إحساسك بقرب محبوبك وشوقك إليه وإلى لقائه حتى تنصرف عن كل عذاب فتظل في سعادة وشوق في الدنيا وكمال هذه السعادة في الآخرة إن شاء الله .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله غير ذلك من الأدلة ، لا يتسع المقام إلى ذكرها ، وإنما المراد توضيح أن العبادة هي سعادة الإنسان وروحه ونعيمه ولا يمكن أن يحصل له ذلك بدون عبادة الله وحده .

ومع ذلك فإن الله سبحانه لم يكلفنا ما لا طاقة لنا به ، بل أمرنا بما نستطيع ونقدر عليه وما لا نقدر عليه لعلة من العلل فإنه سبحانه خفف عنا

---

(١) رواه الإمام أحمد في « المسند » : (١٨٢/٥) .

(٢) انظر هذا الموضوع في «إغاثة اللهفان»: (٣٧/١) وفيه كلام جميل في تربية المؤمن مع ربه عز وجل.

وأمرنا بما دونه وما نستطيعه ، قال تعالى : ﴿ **لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها** ﴾[١] .

وقال المصطفى ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم**»[٢]، وهناك قاعدة العبادات التي يعمل بها فقهاء الأمة التي يقول عنها ابن القيم رحمه الله :

إن ما أوجبه الله تعالى ورسوله أو جعله شرطًا للعبادة ، أو ركنًا فيها أو وقف صحتها عليه هو مقيد بحال القدرة لأنها الحال التي يؤمر فيها به ، وأما في حال العجز فغير مقدور ولا مأمور فلا تتوقف صحة العبادة عليه .

وهذا كوجوب القيام والقراءة والركوع والسجود عند القدرة وسقوط ذلك بالعجز وكاشتراط ستر العورة واستقبال القبلة عند القدرة ، ويسقط بالعجز[٣] .

وكذلك من قواعد الشرع الكلية كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

إنه لا واجب مع عجز ، ولا حرام مع ضرورة[٤] .

وهكذا الأمر في جميع العبادات وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمة وتيسيره عليها جميع مصالحها وأنه سبحانه ما أمر بشيء إلا لحكمة ومصلحة تقتضي شرع تلك الأحكام ولأجلها خلقت تلك الأعيان يقول ابن القيم :

وإذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من

(١) سورة البقرة : (٢٨٦) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الاعتصام » : (١٤٢/٨) ومسلم في كتاب « الفضائل » الحديث (١٣٠، جـ٤ ، ١٨٣٠ رقم الحديث : ١٣٣٧) .

(٣) « تهذيب سنن أبي داود » لابن القيم : (٤٧/١) .

(٤) « إعلام الموقعين » : (٤١/٢) .

أولها إلى آخرها شاهدة بذلك [١] ناطقة به ، ووجدت الحكمة ، والمصلحة ، والعدل والرحمة باديًا على صفحاتها مناديًا عليها ، يدعو العقول والألباب إليها ، وأنه لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها ، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح والظلم والسفه الذي يتعالى عن إرادته وشرعه ، وأنه لا يصلح العباد إلا عليها ولا سعادة لهم بدونها ألبتة[٢] .

وبعد ذلك كله يتضح أن الله جلت قدرته لم يشرع العبادة تكليفًا وتعجيزًا وإنما شرعها لمصلحة العباد وسعادتهم في الدنيا والآخرة وهي قرة عيونهم وراحة نفوسهم كما كان حال المصطفى ﷺ وأصحابه .

*** الركن الثاني : الصلاة** [٣]

الصلاة عمود الدين وهي أعظم ركن من أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي العهد الذي بين المسلم والكافر كما قال النبي ﷺ : « **العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر** »[٤]. وقوله : « **بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة** » [٥].

---

(١) يقصد أنها ما شرعت إلا لحكمة .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢/٤٠٩) .

(٣) عرّف ابن القيم رحمه الله الصلاة في اللغة والاصطلاح فقال : أصل هذه اللفظة في اللغة يرجع إلى معنيين : أحدهما : الدعاء والتبريك ، والثاني : العبادة فمن الأول قوله تعالى : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم** ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، ويقول عن تعريفها في الاصطلاح : فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة وهو الدعاء ، والدعاء : دعاء عبادة ودعاء مسألة ، فهو في صلاة حقيقية لا مجاز ، ولا منقولة لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة ، انظر « جلاء الأفهام » (٩٤ - ٩٥) وانظر « بدائع الفوائد » : (٣/٦) .

(٤) الترمذي (٢٦٢٣) في الإيمان باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٥) مسلم (٨٢) في الإيمان باب بيان اسم الكفر على من ترك الصلاة (١/٨٨) رقم الترمذي (٢٦٢٢).

يقول ابن القيم رحمه الله : ولا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا وشرب الخمر وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخرة[1] .

كما أنه يرى أن تارك الصلاة بالكلية حابط جميع عمله لا يقبل منه شيء كما يقول :

أما تاركها بالكلية ، فإنه لا يقبل منه عمل كما لا يقبل مع الشرك عمل فإن الصلاة عمود الإسلام كما صح [2] عن النبي ﷺ وسائر الشرائع كالأطناب والأوتاد ونحوها ، وإذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من أجزائه ، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة فإذا ردّت ، ردّتْ عليه سائر الأعمال[3][4].

من أجل ذلك نرى أن ابن القيم رحمه الله قد اهتم بأمر الصلاة اهتمامًا عظيمًا وقلما تجد كتابًا من كتبه لا يوجد فيه ذكر الصلاة بل جميع كتبه ذكر فيها أمر الصلاة وألّف كتابًا خاصًا عن الصلاة وأحكامها

---

(١) كتاب « الصلاة وحكم تاركها » : (١٦) لابن القيم .

(٢) يشير إلى قوله ﷺ « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة » الترمذي برقم (٢٦١٩) في الإيمان .

(٣) يشير إلى قوله ﷺ « ان أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله الصلاة فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله » عزاه الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١/٢٩١) إلى الطبراني في « الأوسط » وأورده المنذري في « الترغيب والترهيب » (١/١٤٥) وله شواهد من حديث أبي هريرة فيكون الحديث بها صحيحًا .

(٤) كتاب « الصلاة » : (٦٤) .

أسماه كتاب (**الصلاة وحكم تاركها**) ولقد أولى أمر الدعوة إلى الصلاة اهتمامًا بالغًا نظرًا لأهميتها ومكانتها فتحدث عن شأنها وفضلها ومكانتها ومحاسنها وآدابها وأسرارها وغير ذلك من الأمور التي تجعل الغافل يدرك عظم شأنها وفضلها وتجعله إذا وقف بين يدي الله وقف موقف المحسن وأنصح كل مسلم بالرجوع إلى كتابه كي يتبين ذلك بنفسه لأن الصلاة مفتاح الجنة كما يقول ابن القيم :

إن الشهادة أصل المفتاح والصلاة وبقية الأركان أسنانه التي لا يصلح الفتح إلا بها إذ دخول الجنة موقوف على المفتاح وأسنانه[١] .

*** منافع الصلاة في الدنيا والآخرة :**

قال تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[٢] وقال : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين** ﴾[٣] ، وفي السنة كان رسول الله ﷺ « **إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة** »[٤] .

لما رأى ابن القيم رحمه الله أن طبيعة الإنسان جبلت على حب العاجل الحاضر في الحال غير المؤجل أخذ يبين للناس منافع الصلاة وبركاتها التي تعود عليهم في العاجل والآجل ، فقال :

والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى ، مطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، ممدة للقوى ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منورة

---

(١) كتاب « الصلاة » : (٤٩) .

(٢) الآية من سورة العنكبوت : (٤٥) .

(٣) سورة البقرة : (٤٥) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في « المسند » : (٣٠٦/١) .

للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن .

وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب ، ودفع المواد الرديئة عنهما وما ابتلي رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية إلا كان حظ المصلي منها أقل وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولا سيما إذا أعطيت حقها من التكميل ظاهرًا وباطنًا ، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة .

وسر ذلك : أن الصلاة صلة بالله عز وجل ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه ، والعافية والصحة والغنى والراحة والنعيم كلها محضرة إليه مسارعة إليه[1] .

*** تحذير الساجد أن يكون ساهيًا غافلاً :**

ويجدر بنا أن نبين أن هذه المنافع والبركات لا تكون لكل مصلى فإن الناس في الصلاة على خمس مراتب كما ذكرها ابن القيم وسنبينها إن شاء الله تعالى، وإنما تكون لمن وقف بين يدي الله بقلبه وقالبه واستشعر وجوده سبحانه .

والالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان ،

أحَدُهُما : التفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره ،

والثاني : التفات البصر .

وكلاهما منهي عنه ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته وقد سئل الرسول ﷺ عن الالتفات في الصلاة فقال :

---

(١) « زاد المعاد » : (٢٣٢/٤) .

« **اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد** »[1] .

وفي الأثر القدسي يقول الله تعالى : « **إلى خير مني ، إلى خير مني** » ؟.

ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه وهو يلتفت يمينًا وشمالاً وقد انصرف قلبه عن السلطان فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ؟ أليس أقرب المراتب أن ينصرف ممقوتًا مبعدًا قد سقط من عينيه؟ فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته وذلت عنقه له ، واستحيا من ربه أن يقبل على غيره وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية [2] :

إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض .

والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان وأشد عليه فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه بل لا يزال به يَعِدهُ ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة ، فيتهاون بها فيتركها ، فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ويحول بينه وبين قلبه ، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ،

---

(١) رواه البخاري في « الأذان » باب الالتفات في الصلاة : (١٩٤/٢) والترمذي رقم (٥٩٠) وغيرهما.

(٢) أبو بكر حسان بن عطية المحاربي مولاهم الدمشقي ، إمام حجة نال ثناء أعلام الأمة وتقديرهم توفي سنة (١٣٠هـ)، انظر : أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، « حلية الأولياء وطبقات الأصفياء » (٧٠/٦) ط الأولى (١٣٥٤هـ) مكتبة الخانجي بمصر ، وانظر « سير أعلام النبلاء » (٤٦٦/٥) .

فيذّكره إياها في الصلاة حتى يشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله عز وجل فيقوم بها بلا قلب ، فلا يناله من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما ينال المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه فهذا إذا انصرف منها وجد خفة في نفسه وأحس بأثقال قد وضعت عنه فوجد نشاطًا وراحة وروحًا ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها لأنها قرة عينه ونعيم روحه وجنة قلبه ، فالصلاة المقبولة والعمل المقبول أن يصلي العبد صلاة تليق بربه عز وجل(١) .

ثم بين رحمه الله أحوال الناس في الصلاة ودرجاتهم فقال :

والناس في الصلاة على مراتب خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه المفرّط ، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها .

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة ، فذهب مع الوسواس والأفكار .

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها

---

(١) انظر كتاب « الوابل الصيب » : (٢٥ - ٢٧) .

واستغرق قلبه بمراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئًا منها بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها ، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ، ناظرًا بقلبه إليه ، مراقبًا له ، ممتلئًا من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض .

فالقسم الأول : معاقب ، والثاني : محاسب ، والثالث : مكفر عنه ، والرابع : مثاب ، والخامس : مقرب من ربه لأن له نصيبًا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا ، قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة وقرت عينه به في الدنيا .

وقد رُوي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل : « **ارفعوا الحُجُبَ ، فإذا التفت قال : ارخوها** » ، وقد فُسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره فإذا التفت إلى غيره أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرآة ، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فرّ إلى الله فرّ الشيطان ، فإن التفت حضر الشيطان فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة [1] .

وقال : قال الإمام أحمد : إنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم في

---

(١) « الوابل الصيب » : (٢٩) .

الصلاة ورغبتهم في الإسلام على قدر رغبتهم في الصلاة .

فاعرف نفسك يا عبد الله ، احذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للإسلام عندك فإن الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك[١] .

*** وصف ابن القيم لأحد السابقين إذا قام إلى صلاته :**

إن منهج ابن القيم رحمه الله تعالى في الدعوة إلى الصلاة منهج القريب من ربه العالم بعظمته وكبريائه المحب له العارف لحقه وما يليق به وليس ذلك مقتصرًا على فرض الصلاة بل سنرى ذلك في جميع الأركان إن شاء الله .

وتراه دائمًا يوضح حكمة التشريع في الشروط والأركان والواجبات سواء كانت قولية أو فعليه كي تساعد المسلم على معرفة دقائق الأمور في التشريعات مما يزيده يقينًا بكمال شرع الله تعالى وأن هذه التشريعات الإلهية ليست تكليفًا بل هي شفاء ورحمة للمؤمن ، فالعبد إذا أدرك الحكمة من التشريع وعرف الجزاء الجزيل من العليّ العظيم فإن ذلك داعيًا له على إتمام العبادة في أحسن صورة وعلى أتم وجه حتى تؤتي ثمارها المرجوة في الدنيا والآخرة .

وإليك وصف ابن القيم رحمه الله لأحد السابقين كيف يؤدي الصلاة مبتدئًا بالطهارة لأنها مفتاح الصلاة فيقول معلقًا على قوله ﷺ : « **مفتاح الصلاة الطهور** »[٢] :

---

(١) كتاب « الصلاة » لابن القيم : (١٧١) .

(٢) رواه أبو داود « مختصر السنن » (٤٥/١) تهذيب ابن القيم ، قال أبو داود : أخرجه الترمذي ، وقال : هذا الحديث أصح شيء في الباب وأحسنه ، وأخرجه ابن ماجه .

إن مفتاح الصلاة الطهور ، والمفتاح ما يفتح به الشيء المغلق فيكون فاتحًا له والحديث يفيد الحصر وأنه لا مفتاح لها سواه وذلك من طريقين :

أحدهما : حصر المبتدأ في الخبر ، إذا كانا معرفين ، وأنه لا فرد من أفراد ما يفتح به الصلاة إلا الطهور .

والثاني : أن المبتدأ مضاف إلى الصلاة ، والإضافة تعم ، فكأنه قيل جميع مفتاح الصلاة الطهور .

وإذا عرف هذا ، ثبت أن الصلاة لا يمكن الدخول فيها إلا بالطهور ، وهذا دليل على الاشتراط ــ أي اشتراط الطهارة في الصلاة ــ وأن عدم الطهارة يقضي أنه مصدود عنها كالبيت المقفل على من أراد دخوله بغير مفتاح .

وفي الحديث دليل على اعتبار النية في الطهارة بوجه بديع وذلك لأنه ﷺ جعل الطهور مفتاح الصلاة التي لا تفتح ويدخل فيها إلا به ، ومن المعلوم أن ما شرع للشيء ووضع لأجله لابدّ أن يكون الآتي به قاصدًا ما جعل مفتاحًا له ومدخلاً إليه ، ومن المعلوم أن من سقط في ماء وهو لا يريد التطهر لم يأتِ بما هو مفتاح الصلاة[١] .

بل جعل رحمه الله تعالى الطهارة من الأدب مع الله سبحانه وتعالى فقال : فإن ستر العورة من الأدب والوضوء ، وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبيث من الأدب حتى يقف بين يدي الله طاهرًا [٢] .

ويقول رحمه الله موضحًا الحكمة من الوضوء :

---

(١) انظر « تهذيب مختصر سنن أبي داود » : (١/٤٥ ، ٤٨) .

(٢) « مدارج السالكين » : (٢/٤٠٠) .

فتأمل محاسن الوضوء بين يدي الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الأوساخ والمستقذرات ، وتأمل كيف وضع على الأعضاء الأربعة التي هي آلة البطش والمشي ومجمع الحواس التي تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها ، فلما كانت هذه الأعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب ألصق بها وأعلق من غيرها فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها يتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية ، وأوساخ الذنوب والمعاصي وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى بقوله : « **إذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء حتى تخرج من تحت أظفاره** »[1] إلى أن يقول رحمه الله : وجميع مسائل الشريعة كذلك آيات بينات وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغة والعلم المحيط والرحمة والعناية بعبادة وإرادة الصّلاح لهم وقد نبه سبحانه عباده على هذا فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾[2] ، فأخبر سبحانه بأنه لم يأمرهم بذلك حرجًا وتضييقًا عليهم ولكن إرادة لتطهيرهم وإتمام نعمته عليهم ليشكروه على ذلك فله الحمد كما هو أهله [3] .

ويقول رحمه الله : ويستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدي ربه ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول : « أمر الله بقدر زائد على ستر العورة في الصلاة وهو أخذ الزينة فقال تعالى :

---

(١) رواه مسلم في كتاب « الطهارة » برقم (٣٣ ، جـ ٢١٦/١) .

(٢) سورة المائدة الآية : (٦) .

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٤٠٩ - ٤١٠) .

﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾[١].

فعلق الأمر بأخذ الزينة ، لا ستر العورة ، إيذانًا بأن العبد ينبغي له أن يلبس أزين ثيابه وأجملها في الصلاة وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال ، وكان يلبسها وقت الصلاة[٢] .

ثم يصف رحمه الله تعالى وقوف هذا العبد بين يدي ربه بعد إتمام شروط الصلاة فيقول :

ويقف بقلب مخبت خاشع لله قريب منه سليم من معارضات السوء قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان ، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات فيرتع في رياض معاني القرآن ، فاجتمع همه على الله ، وقرت عينه به ، وأحس بقربه من الله قربًا لا نظير له ، ففرغ قلبه له وأقبل عليه بكليته ، وهذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه فإنه سبحانه أقبل عليه أولًا ، فانجذب قلبه إليه بإقباله فلما أقبل ربه خص منه بإقبال آخر أتم من الأول[٣] .

ثم يصف رحمه الله هذا العبد وهو يتفكر في معاني القرآن وعجائب الأسماء والصفات وكيف خشعت جوارحه لعظمتهما فيقول :

إذا قال : « الله أكبر » شاهد كبرياءه ، وإذا قال : « سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إليه غيرك »[٤] شاهد بقلبه ربًا

---

(١) سورة الأعراف الآية : (٣١) .

(٢) « مدارج السالكين » : (٢/٤٠٠) .

(٣) انظر كتاب « الصلاة وحكم تاركها » : (١٧١) .

(٤) رواه مسلم باب حجة من قال : لا يجهر بالبسملة رقم الحديث (٣٩٩ ج١/ ٢٩٩) .

منزهًا عن كل عيب ، سالمًا من كل نقص ، محمودًا بكل حمد ، فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها وغير المعطل لحقائقها .

وإذا قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقد آوى إلى ركنه الشديد واعتصم بحوله وقوته عن عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه .

فإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » وقف هنيهة يسيرة ، ينتظر جواب ربه بقوله : « حمدني عبدي »(١) .

فإذا قال : « الرحمن الرحيم » انتظر الجواب بقوله « أثنى عليّ عبدي » .

فإذا قال : « مالك يوم الدين » انتظر جوابه بقوله « مجدني عبدي » فيالذة قلبه وقرة عينه وسرور نفسه بقول ربه : « عبدي » ثلاث مرات فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحًا وسرورًا بقول ربها ثم يكون لقلبه شهود هذه الأسماء الثلاثة التي هي أصول الأسماء الحسنى وهي : الله والرب والرحمن ، فشاهد من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهًا معبودًا موجودًا مخوفًا لا يستحق العبادة غيره ولا تنبغي إلا له قد عنت له الوجوه وخضعت له الموجودات وخضعت له الأصوات وشاهد من اسمه : « رب العالمين » قيومًا قام بنفسه وقام به كلُّ شيء قد استوى على عرشه وتفرد بتدبير ملكه ، فالتدبير كله بيده ومصير الأمور كلها .

ثم يشهد عند ذكر اسم « الرحمن » جل جلاله ربًا محسنًا إلى خلقه بأنواع الإحسان ، متحببًا إليهم بصنوف النعم ، وسع كل شيء رحمة وعلمًا ، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً فوسعت رحمته كل شيء ومن

(١) هذا وما يليه من حديث رواه مسلم في كتاب « الصلاة » رقم الحديث (٣٩٥) وفي الباب (٣٨جـ١ ص: ٢٩٦).

أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقام بها بين يدي ربه .

فإذا قال : « مالك يوم الدين » فهنا شهد المجد الذي لا يليق لسوى الملك الحق المبين فيشهد ملكًا قاهرًا ، قد دانت له الخليقة ، وعنت له الوجوه وذلت لعظمته الجبابرة وخضع لعزته كل عزيز .

فإذا قال : « إياك نعبد وإياك نستعين » ففيها سرّ الخلق والأمر والدنيا والآخرة وهي متضمنة لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل فأجل الغايات عبوديته ، فعبادته أعلى الغايات وإعانته أجل الوسائل .

ثم يشهد الداعي بقوله : « اهدنا الصراط المستقيم » شدة فاقته وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشدّ فاقة وحاجة منه إليها ألبتة وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه على الوجه المرضي المحبوب للرب تعالى .

ثم يبين أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون (المغضوب عليهم) وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه ، ودون (الضالين) وهم الذين عبدوا الله بغير علم .

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد ، شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين يكون كالختم له ، وافق فيه ملائكة السماء .

ثم يأخذ في مناجاة ربه بذكر كلامه واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وأفضل أذكار الصلاة ذكر القيام ، وأحسن هيئات المصلي هيئة القيام .

ثم شرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه وهو تطامنه

وخضوعه وأنه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته فأفضل ما يقول الراكع على الإطلاق « سبحان ربي العظيم » فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك وعين المبلِّغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمدًا وأوجب سجود السهو على من سها عنها وهذا مذهب الإمام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث ، فَسِرّ الركوع تعظيم الرب - جلّ جلاله - بالقلب والقالب والقول ولهذا قال النبي ﷺ : « **أما الركوع فعظموا فيه الرب** »(١) ثم يرفع رأسه عائدًا وجعل شعار هذا الركن حمدًا لله والثناء عليه وتحميده فافتتح هذا الشعار بقول المصلي « سمع الله لمن حمدهُ » أي سَمِعَ سَمْعَ قبول وإجابة ، ثم شفع بقوله : « ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء » ، ولا يهمل أمر هذه « الواو » في قوله « ربنا ولك الحمد » وهي تجعل الكلام في تقرير جملتين قائمتين بأنفسهما فإن قوله : « ربنا » متضمن في المعنى أنت الرب والملك والقيوم الذي بيده أزمة الأمور وإليه مرجعها ، وقوله : « ولك الحمد » متضمن ذلك معنى قول الموحد ، له والملك وله الحمد ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدرًا وصفة وهو قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود ويملأ ما يخلقه الرب - تبارك وتعالى - فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء من حمده وتمجيده والثناء عليه والاعتراف له بالعبودية والتوحيد .

ثم يكبر ويخر ساجدًا غير رافع يديه لأن اليدين ينحطان للسجود كما ينحط الوجه وشرع السجود على أكمل هيئة وأبلغها في العبودية ،

---

(١) رواه مسلم باب النهي عن قراءة القرآن في الركوع والسجود رقم الحديث (٤٧٩) (٢٠٧ جـ ١/ ٣٤٨).

والسجود سر الصلاة وركنها الأعظم وخاتمة الركعة ، وما قبله من الأركان كالمقدمة له ، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب إلى الله ، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب ، وأمر بالسجود خضوعًا لعظمة ربه وفاطره ، وخشوعًا له وتذللاً بين يديه وانكسارًا له ، فيكون هذا الخشوع والتذلل ردًّا له إلى حكم العبودية ويتدارك ما حصل له من الهفوات والغفلة والإعراض الذي خرج به عن أصله ، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه ، وهو الوجه وقد صار أعلاه أسفله خضوعًا بين يدي ربه الأعلى وهذا غاية خشوع الظاهر فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعًا وخضوعًا وإلقاء باليدين ، ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجدًا لله اعتزل ناحية يبكي ويقول : « **يا ويله ، أمر ابن آدم بالسجود ، فسجد ، فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فعصيت ، فلي النار** »[(١)] .

وشرع للسجود من الثناء على الله ما يناسبه وهو قول العبد « سبحان ربي الأعلى » وكان وصف الرب سبحانه في هذه الحالة في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط إلى أسفل على وجهه فذكر علو ربه في حال سقوطه ولما شرع السجود بوصف التكرار ، لم يكن بدّ من الفصل بين السجدتين ، ففصل بينهما بركن مقصود ، وشرع فيه من الدعاء ما يليق به، ويناسبه ، وهو سؤال العبد المغفرة ، والرحمة ، والهداية ، والعافية ، والرزق ، فيقعد فعل العبد الذليل جاثيًا على ركبتيه كهيئة الملقي نفسه بين يدي سيده راغبًا راهبًا معتذرًا إليه مستعديًا إليه على نفسه الأمارة بالسوء ، ثم شرع له إتمام هذه العبودية مرة بعد مرة إلى إتمام الأربع كما شرع له

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة : (١٣٣) (٨١ جـ١ :٨٧) .

تكرار الذكر مرة بعد مرة لأنه أبلغ في حصول المقصود .

ثم شرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتذلل المستكين جاثيًا على ركبتيه ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وأفضلها عوضًا عن تحية المخلوق للمخلوق إذا واجهه أو دخل عليه فالناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يحيون بها قلوبهم .

وأمر المسلم أن يجعل أطيب التحيات وأزكاها وأفضلها لله ، فالتحية من العبد للحي الذي لا يموت ، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات ، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام .

والصلوات فإنه لا يستحق أحد الصلاة إلا الله عز وجل والطيبات من الكلمات والأفعال والصفات ، والأسماء ، و « **إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا** »[1] .

ولما كان السلام من أنواع التحية ، وكان المسلم داعيًا لمن يجيبه ، وكان الله سبحانه هو الذي يطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم لعبوديته ، شرع بأن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم إليه في هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام فشرع أن يكون خاتمة الصلاة .

فدخل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد والتوحيد وختمها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله ، وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة إذا زادت على ركعتين تشبيهًا لها بجلسة الفصل بين السجدتين ، وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة

---

(١) رواه مسلم في كتاب « الزكاة » رقم الحديث (١٦٥) الرقم العام (١٠١٥) باب الترغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من لا يقبلها (جـ ٢ /٧٠٣) .

أمامها فإن المصلي إذا فرغ من الصلاة جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه فشرع له أمام استعطائه كلمات التحيات مقدمة بين يدي سؤاله فكأن المصلي توسل إلى الله سبحانه بعبوديته ثم الثناء عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة ثم الصلاة على رسوله ثم قيل له : تخير من الدعاء أحبه إليك فذاك الحق الذي عليك وهذا الحق الذي لك ، فشرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته وهو قبل السلام أفضل وأنفع للداعي وهكذا كانت عامة أدعية النبي ﷺ وقد سئل عن أي الدعاء أسمع ؟ فقال : « **جوف الليل وأدبار الصلوات المكتوبة** »[١] ، وقد يراد بدبرها ما بعد انقضائها .

ثم ختمت بالتسليم وجعل تحليلاً لها يخرج المصلي منها كما يخرج بتحليل الحج منه ، وجعل هذا التحليل دعاء الإمام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه ، فيشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الإمام[٢] .

فإذا صلى ما كتب الله جلس مطرقًا بين يدي ربه هيبة له وإجلالاً واستغفره استغفار من تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه[٣] ثم يذكر الله بما شرع من أذكار بعد الصلاة ونوافل من أجل تكميل ما نقص من صلاته إن كان ذلك أو يزيد بها حب الله تعالى له .

وهذا المنهج الذي سلكه ابن القيم من أحسن المناهج في الدعوة إلى الله تعالى حيث بين أسرار هذه العبادة والحكمة من التشريع في أركانها

---

(١) رواه الترمذي باب استحباب الدعاء في الثلث الأخير من الليل رقم (٣٤٩٤ جـ ١٦٧/٩) .
(٢) انظر « كتاب الصلاة » : (١٧١ - ١٨٥) وانظر مثله في كتابه « شفاء العليل » (٢٢٨) .
(٣) « طريق الهجرتين » : (٢١١) .

وواجباتها ومستحباتها ، فقد استخدم في هذا المنهج أسلوب الحكمة وأسلوب الموعظة الحسنة التي ترقق قلب المؤمن وتزيده شغفًا وحبًا في الله تعالى ، وفي ذلك تظهر مقدرة ابن القيم رحمه الله في أنه مربٌّ من الدرجة الأولى وداعية إلى الله على بصيرة من ربه ونور .

*** الركن الثالث : الزكاة :**

بعد أن تحدثنا عن الركن الأول والثاني من أركان الإسلام بقي أن نتحدث عن الركن الثالث من أركان الإسلام ألا وهو الزكاة والتي شرعها الله طهرًا ونماء للمال والنفس وسدًّا لخلة المساكين وقد بين رحمه الله تعالى الحكمة من شرع الزكاة فقال :

وما أحسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والخلّة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف إذا خلّاهم الأغنياء وأنفسهم ، وما فيها من الرحمة ، والإحسان ، والبر ، والطهرة ، وإيثار أهل الإيثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سمات أهل الشح والبخل والدناءة ، فأمرها لا يستريب عاقل في حسنه ومصلحته وأن الآمر به أحكم الحاكمين[1] .

وهذا من تمام الحكمة التي بها قيام مصلحة العالم فإن الله سبحانه وتعالى قسم خلقه إلى غني وفقير ولا تتم مصالحهم إلا بسد خلّة الفقير ، فأوجب سبحانه في فضول أموال الأغنياء ما يسد به خلّة الفقراء[2] .

ويقول في موضع آخر : والمقصود من الزكاة أمور عديدة :

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٤) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢/ ٣٧) .

منها : سد خلة الفقير ، ومنها إقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به ، ومنها شكر نعمته عليه في المال ، ومنها إحراز المال وحفظه بإخراج هذا المقدار منه ، ومنها : المواساة بهذا المقدار لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ ومنها التعبد عند حدود الله وأن لا ينقص منها ولا يغير[1].

فيتضح لنا مما تقدم أن الحكمة من شرع الزكاة لا تعود على سدّ خلة الفقير ومصلحته فقط بل هي في حق المخرج للزكاة أعظم وأفضل ومصلحته أكمل وأتم كما يقول رحمه الله :

وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للمال وصاحبه وقيد النعمة به على الأغنياء فما زالت النعمة بالمال على من أدى زكاته ، بل يحفظه عليه وينميه له ويدفع عنه بها الآفات ويجعلها سورًا عليه وحصنًا له وحارسًا له[2] .

وقال رحمه الله في معرض تعليقه على الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وهو : « **وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا افتدي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم** »[3] .

قال : هذا من الكلام الذي برهانه وجوده ، ودليله وقوعه ، فإن للصدقة تأثيرًا عجيبًا في دفع أنواع البلاء ، ولو كانت من فاجر أو ظالم ، بل من كافر ، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعًا من البلاء وهذا أمر معلوم

(١) « إعلام الموقعين » : (٢/ ٣٧) .

(٢) « زاد المعاد » : (١٤٧/١) .

(٣) «الوابل الصيب»: (٢٢) ، الحديث رواه أحمد: (٢٠٢/٤) والترمذي برقم (٢٨٦جـ٨ ص : ٧٩) .

عند الناس خاصّتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرّون به لأنهم جربوه .

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال : « **الصدقة تطفئ غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء** »[١] ، وكما إنها تطفئ غضب الرب تبارك وتعالى فهي تطفئ الذنوب والخطايا كما يطفئ الماء النار .

وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قدم ليضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية فإن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه .

ولما كان البخيل محبوسًا عن الإحسان ممنوعًا من البر والخير ، كان جزاؤه من جنس عمله فهو ضيّق الصدر ممنوع من الانشراح ، ضيّق العطن، صغير النفس قليل الفرج ، كثير الهم والغم والحزن ، لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب .

والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو كلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوي فرحه ، وعظم سروره ولو لم يكن في الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها كان العبد حقيقًا بالاستكثار منها والمبادرة إليها [٢] .

ويظهر من هذه النصوص التي قدمناها استخدام ابن القيم لأسلوب الترغيب والترهيب وهو ما عرفناه بأسلوب الموعظة الحسنة .

*** الحكمة في مقادير الزكاة :**

ثم بين رحمه الله كمال الشريعة الإسلامية ، التي بهرت العقول

---

(١) رواه الترمذي برقم (٦٤٤ جـ٣ /٢٦) كتاب الزكاة .

(٢) انظر « الوابل الصيب » : (٣٩ - ٤١) .

بحسنها وشهدت فطر العالم بحكمتها وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل ولا أكمل منها وأنه لو اجتمع عقلاء العالم جميعًا على أن يقترحوا شيئًا في هذا الباب لم يستطيعوا أن يقترحوا خيرًا ممّا جاءت به هذه الشريعة وذلك لكمال هديه ﷺ في الزكاة من حيث وقتها وقدرها ونصابها ومن تجب عليه ومصرفها التي تصرف فيه فيقول رحمه الله تعالى :

إن الشارع أوجب الزكاة مواساة للفقراء وطهرة للمال ، وعبودية للربّ ، وتقربًا إليه بإخراج محبوب العبد له ، وإيثار مرضاته ، ثم فرضها على أكمل الوجوه ، وأنفعها للمساكين ، وأرفقها بأرباب الأموال ، ولم يفرضها في كل مال ، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المواساة ويكثر فيها الربح والدّر والنسل ولم يفرضها فيما يحتاج إليه العبد من ماله ولا غنى له عنه كعبيده وإمائه ومركوبه وداره وثيابه وسلاحه بل فرضها في أربعة أجناس من المال : المواشي ، والزروع والثمار ، والذهب والفضة ، وعروض التجارة ، فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم وهي التي تحتمل المواساة دون غيرها .

ثم قسم كل جنس من هذه الأجناس بحسب حاله وإعداده للنماء إلى ما فيه زكاة ، ولا زكاة فيه ، فقسم المواشي إلى قسمين : سائمة ترعى بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة ، فالنعمة فيها كاملة ، والمنّة بها وافرة والنماء فيها كثير فخص هذا النوع بالزكاة ، وإلى معلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دواليبهم وحروثهم وحمل أمتعتهم فلم يجعل في ذلك زكاة فهي كثيابهم وعبيدهم .

ثم قسم الزروع والثمار إلى قسمين : قسم يجرى مجرى السائمة من بهيمة الأنعام في سقيه من ماء السماء بغير كلفة ولا مشقة فأوجب فيه

العشر ، وقسم يسقى بكلفة ومشقة ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير إذ تلك تحتاج إلى العلف كل يوم فأوجب فيه نصف العشر .

ثم قسم الذهب والفضة إلى قسمين : أحدهما ما هو معد للتنمية والتجارة به والتكسب ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها ، وإلى ما هو معد للانتفاع دون الربح والتجارة كحلية المرأة وآلات السلاح التي يجوز استعمال مثلها فلا زكاة فيها .

ثم قسم العروض إلى قسمين : قسم أعد للتجارة ففيه الزكاة ، وقسم أعد للقنية والاستعمال فهو مصروف عن جهة النماء فلا زكاة فيه .

ثم لما كان حصول النماء والربح بالتجارة من أشق الأشياء جعل فيها ربع العشر ، ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تسقى بالكلفة أقل كلفة وأيسر جعله ضعفه وهو نصف العشر ، ولما كان الرِّكاز مالاً مجموعًا محصلاً وكلفة تحصيله أقل ولم يحتج إلى أكثر من استخراجه كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس .

ولما لم يكن كل مال يحتمل المواساة قدّر الشارع لما يحتمل المواساة نُصُبًا مقدرة لا تجب الزكاة في أقل منها ، ثم لما كانت النصب تنقسم إلى مالا يجحف المواساة ببعضه ، أوجب الزكاة منها ، وما يجحف المواساة ببعضه جعل الواجب من غيره كما دون الخمس والعشرين من الإبل .

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال جعلها كل عام مرة .

وإذا تأمل العاقل مقدار الزكاة وجده مما لا يضر المخرجَ فقدُه وينفع الفقيرَ أخذُه .

فانظر إلى تناسب الشريعة الكاملة التي بهر العقولَ حسنُها وكمالُها وشهدت الفطر بحكمتها وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها ، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفطر الألبّاء واقترحت شيئًا يكون أحسن مقترح لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به[١] .

ودائمًا ما نلاحظ منهج ابن القيم رحمه الله في الدعوة أن يوضح مقاصد الشريعة وتناسبها مما يوضح للعبد حسنها وكمالها ، الدال على حكمة وكمال من أنزلها ورأفته ورحمته بعباده وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون وأن مصلحة الخلق في اتباعها والالتزام بتشريعاتها وأنهم لن يجدوا في الدنيا مما أنتجته عقول العقلاء شيئًا يقاربها أو يوازيها في حسن سياستها للمجتمعات البشرية وتناسبها مع مصالحهم .

*** الركن الرابع : الصيام :**

ثم تحدث رحمه الله عن الصوم وتأثيره والمقصود منه وحقيقته فقال :

أما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها ، وتخرجها من شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين ، فإن النفس إذا خليت ودواعي شهوتها التحقت بعالم البهائم فإذا كفت شهوتها لله ضيقت مجاري الشيطان ، وصارت قريبة من الله تترك عاداتها وشهواتها محبة له وإيثارًا لمرضاته وتقربًا إليه ، فيدع الصائم أحب الأشياء إليه ، وأعظمها لصوقًا بنفسه من الطعام والشراب ، والجماع من أجل ربه[٢] .

ويقول رحمه الله تعالى : ولما كان المقصود من الصيام حبس النفس

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (٢/١٠٩ - ١١١) وانظر « زاد المعاد » : (٢/٥ - ٦) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢/٣٨٤) .

عن الشهوات وفطامها عن المألوفات وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الأبدية ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين وتحبس قوى الأعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها .

فهو لجام المتقين وجنة المحاربين ورياضة الأبرار والمقربين وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال فإن الصائم لا يفعل شيئًا وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته وهو سر بين العبد وربه ، والعباد قد يطّلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة ، وأما كونه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بشر[1] .

* **حقيقة الصوم :**

ثم يفسر رحمه الله تعالى حقيقة الصوم وأنه ليس كل من أمسك عن الطعام والشراب يعتبر صائمًا فيقول :

والصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام ، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور ، وبطنه عن الطعام والشراب ، وفرجه عن الرفث .

فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه ، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه ، فيخرج كلامه نافعًا صالحاً ، وكذلك أعماله ، وهذا هو الصوم المشروع لا مجرد الإمساك عن الطعام والشراب .

ففي الحديث الصحيح : « **من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه** »[2] وفي الحديث : « **رب صائم حظه**

(١) انظر « زاد المعاد » : (٢/٢٨ ــ ٢٩) .

(٢) البخاري : باب واجتنبوا قول الزور كتاب الأدب رقم الباب (٥١، جـ ٧/٨٧) والصيام (جـ٢/٢٢٨).

من صيامه الجوع والعطش »[١] .

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام ، وصوم البطن عن الشراب والطعام ، فكما أن الشراب والطعام يقطعه ويفسده ، فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته فتصيره بمنزلة من لم يصم[٢] .

*** تأثير الصوم على العبد في الدنيا والآخرة :**

ثم بين رحمه الله تعالى ما للصوم من تأثير على الصائم وما يعود به عليه من الخير في الدنيا والآخرة فيقول :

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من الصحة ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات ؛ فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾[٣] ، وقال النبي ﷺ : « **الصوم جنة** »[٤] .

وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصوم وجعله وجاء هذه الشهوة[٥] .

وذكر رحمه الله تعالى تأثير الصوم وهو يتحدث عن الأغذية والأدوية

---

(١) « مسند الإمام أحمد » : (٣٧٣/٢) .

(٢) « الوابل الصيب » : (٣٣) .

(٣) سورة البقرة : (١٨٣) .

(٤) مسلم : « كتاب الصيام » باب فضل الصيام رقم (١٦٢) الرقم العام (١١٥١) .

(٥) « زاد المعاد » : (٢٨/٢) .

وذكر بعضًا من فوائده فقال :

منافعه تفوت الإحصاء وله تأثير عجيب في حفظ الصحة وإذابة الفضلات وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ، ولا سيما إذا كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعًا وحاجة البدن طبعًا ، ثم إن فيه من إراحة القوى والأعضاء ما يحفظ عليها قواها ، وفيه خاصية تقتضي إيثاره وهي تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً .

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعًا وشرعًا عظم قلبه وبدنه به[1] .

وقال في تعليقه على قول الرسول ﷺ : « **وآمركم بالصيام فإن مثلَ ذلك مثلُ رجل في عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وإن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك** »[2] .

قال بعد أن ذكر الخلاف في وجود هذه الرائحة من الصائم هل هي في الدنيا أو في الآخرة :

وفصل النزاع في المسألة أن يقال : حيث أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون في يوم القيامة[3] فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال

---

(١) « زاد المعاد » : (٣٣٤/٤) .

(٢) رواه الترمذي برقم : (٢٨٦ جـ ٧٩/٨) ، وأحمد في « المسند » : (٢٠٢/٤) .

(٣) يشير إلى قول النبي ﷺ في الحديث الذي رُوي في « الصحيحين » « **قال الله تبارك وتعالى ، كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك** » اللفظ لمسلم رقم (١١٥١) باب فضل الصيام (٢/ ٨٠٦) كتاب الصيام.

وموجباتها من الخير والشر ، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك ، وكما تظهر فيه السرائر وتبدو على الوجوه وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون[١] فلأنه وقت ظهور العبادة ، ويكون حينئذ طيبها على ريح المسك عند الله تعالى وعند ملائكته ، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد ، فربّ مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى ، وبالعكس فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم ، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا ، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد ، وصار علانية وهكذا سائر الأعمال من الخير والشر[٢].

ومن خلال هذا العرض يتضح منهج ابن القيم التربوي الذي ينص على أن العبادة هي المقوّم الحقيقي لسلوك الإنسان وهي التي تميزه في هذا السلوك عن شبه البهائم وتنقله إلى أن يكون شبيهًا بالكمّل من خلق الله ، وهذا ما يمثله الصوم : فترك عادات النفس ولذتها ومحابها إيثارًا لمرضاة الله من أعظم ما يربي النفس ويزكيها ويسعدها ، وذلك بما يحصل لها من الترك والحبس الذي يكسر سورتها وشهوتها وحدتها ويذكرها بالضعفاء والمساكين، وحبس النفس عن الاسترسال لحكم الطبيعة الذي يجرها في الغالب إلى الهلاك ، فالصوم كالمروض للنفس .

---

(١) يشير إلى قول النبي ﷺ : « **ولخلوف فم الصائم حين يخلف من الطعام أطيب عند الله من ريح المسك** » وهو صحيح وهو بنحوه عند مسلم رقم (١١٥١) .

(٢) « الوابل الصيب » : (٣٧ - ٣٨) .

ناهيك عن الفوائد الصحية والتي شهد بها كل العقلاء من أطباء العالم .

* **الركن الخامس : الحج :**

بعد أن تحدثنا عن أركان الإسلام الأربعة السابقة وبينّا ما فيها من حِكم التشريع وغير ذلك ، بقي أن نتحدث عن الركن الخامس من أركان الإسلام ، وهو الحج ونبين وجوبه والحكمة من تشريعه وفضائل البيت وبركته على ضوء ما قدمه لنا ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول عن قوله تعالى :

﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾[1]:

حج البيت مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله (على الناس) لأنه وجوب ، والوجوب يقتضي (على) ويجوز أن يكون في قوله (ولله) لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق وعلى هذا قضى تقديم المجرور الأول فائدتان : إحداهما : أنه اسم للموجب للحج فكان أحق بالتقديم من ذكر الواجب فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع أحدها : الموجب لهذا الغرض فبدئ بذكره ، والثاني : مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس ، والثالث : النسبة والحق المتعلق به إيجابًا وبهم وجوبًا وأداءً وهو الحج ، الفائدة الثانية : أن الاسم المجرور من حيث كان اسمًا لله سبحانه وجب الاهتمام بتقديمه تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه وتخويفًا من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره[2] .

---

(١) سورة آل عمران : (٩٧) .

(٢) انظر « بدائع الفوائد » : (٢/ ٤٥) .

ثم أتى رحمه الله بعشرة أوجه من هذه الآية تدل على وجوب الحج فقال :

وفي الحج أُتي بهذا النظم الدّال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه :

وهي : أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ، ثم ذكر مَنْ أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها لام الاستحقاق والاختصاص ، ثم ذكر مَنْ أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على ، ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ، ثم نكّر السبيل في سياق الشرط إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسر ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ **ومن كفر** ﴾ أي : بعد التزام هذا الواجب وتركه ، ثم عظم الشأن وأكّد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عمومًا ، ثم أكّد هذا بأداة إن الدالة على التوكيد ، فهذه عشرة أوجه تدل على تأكيد هذا الفرض العظيم[1] .

ويقول رحمه الله في معرض حديثه عن هذه الآية :

ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظّم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها فقال : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركًا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا** ﴾[2] .

فوصفه بخمس صفات ، أحدها : بأنه أسبق بيوت العالم وضع في

---

(١) انظر « بدائع الفوائد » : (٤٥/٢) .

(٢) الآيات من سورة آل عمران : (٩٦ - ٩٧) .

الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة : كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيرًا ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، الثالث : أنه هدى ووصفه بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع : ما تضمنه من الآيات البينات ، الخامس : الأمن لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطَت بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله : ﴿ **وطهر بيتي للطائفين** ﴾[1] لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفًا ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حبًّا له وشوقًا إلى رؤيته ، فهو المثابة للمحبين ، يثوبون إليه ولا يقضون منه وطرًا أبدًا ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا إليه حبًّا وإليه اشتياقًا ، فلا الوصال يشفيهم ، ولا البِعَادَ يسليهم[2] .

* الحكمة من تشريع الحج :

ثم بين رحمه الله شأن الحج ومكانته وأسراره فيقول :

وأما الحج فشأن آخر لا يدركه إلا الحنفاء الذين ضربوا في المحبة بسهم وشأنه أجلّ من أن تحيط به العبارة ، وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل في قوله تعالى : ﴿ **حنفاء لله غير مشركين به** ﴾[3] أي حجاجًا ، وجعل الله بيته الحرام قيامًا للناس ، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه فلو ترك

(١) الآية من سورة الحج : (٢٦) .
(٢) « بدائع الفوائد » : (٢/٤٥ - ٤٦) .
(٣) الآية من سورة الحج : (٣١) .

الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض ، هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس ، فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قيامًا ما زال هذا البيت محجوجًا ، فالحج هو خاصة الحنفية ومعونة الصلاة ، وهو استزارة المحبوب لأحبابه ، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم « لبيك اللهم لبيك » إجابة مُحِب لدعوة حبيبه ، وأما أسرار ما في العبادة من الإحرام ، واجتناب العوائد ، وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة ، والطواف ، والوقوف بعرفة ، ورمي الجمار ، وسائر شعائر الحج فمما شهدت بحسنه العقول السليمة والفطر المستقيمة وعلمت بأن الذي شرع هذه لا حكمة فوق حكمته[١][٢] .

* * *

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٥ - ٣٨٦) .

(٢) انظر « القصيدة الميمية » (ص ٥٣) وما بعدها فقد ذكر أسرارًا في البيت ومكة والحج .

الفصل الثاني :

أهداف الدعوة عند ابن القيم

تمهيد

المبحث الأول : سيادة شرع الله

المبحث الثاني : تقرير مذهب السلف الصالح

المبحث الثالث : تربية الأمة المسلمة



* تمهيـــد :

لا شك أن لكل دعوة من الدعوات ـ بصرف النظر عن شرعيتها وعدم شرعيتها ـ أهدافًا تسعى إلى تحقيقها ، وتحقيق هذه الأهداف هو الطريق الموصل إلى الغاية المنشودة من وراء هذه الدعوة ، وكل عمل بلا أهداف يحكم عليه بالفشل مسبقًا ، لأنك تسعى إلى لا شيء وإلى غير غاية .

أما إذا وضعت الأهداف أمامك استطعت أن ترسم لها الخطة المناسبة التي توصلك إلى غايتك بأقرب الطرق وأسرعها إلى تحقيق الغاية متصورًا جميع العقبات التي تقف أمام تحقيق الغاية وواضعًا لها الحلول المناسبة التي تمهد لك الطريق وتقربك من الغاية .

وهي كالخطة التي يضعها القائد في المعركة قبل أن يخوضها ، بمعرفة خصمه وقوته وعدد جنده والسلاح الذي بحوزته وحصونه ، حتى يتمكن من الوصول إلى غايته بأسرع وقت وبأقل خسائر في الجند والمعدات .

وهكذا فكل دعوة لابدّ لها من أهداف ترمي الوصول إلى تحقيقها من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة .

والمتتبع لابن القيم رحمه الله في دعوته إلى الله من خلال كتبه التي بين أيدينا ومن خلال ما كتب عنه يستطيع أن يصل إلى أنه يسعى لتحقيق أهداف رئيسية ودعائم قوية **وأولها** : سيادة شرع الله تعالى وهو المطلب الأساسي لدعوته ، **وثانيها** : أن تكون هذه السيادة قائمة على ما جاء من الله ورسوله ﷺ والسلف الصالح ، **وثالثها** : تربية هذه الأمة المسلمة على هذا الأساس – أعني الهدف الأول والثاني – ونبذ كل ما يخالف ما جاء

عنهم مما لا يتفق معه .

وجميع هذه الأهداف ترمي إلى الغاية المنشودة وهي الله : رضاه والجنة ، وابن القيم رحمه الله تعالى كغيره من الدعاة المخلصين لهذا الدين والذين جعلوا نصب أعينهم تحقيق الهدف النبيل وهو سيادة شرع الله وهو أساس الدعوة والدين كله ، وهو الهدف الذي من أجله أرسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلق الإنس والجن والجنة والنار ، وهو الهدف الذي قامت به دول وارتفعت وهلكت به أمم وذلت ، لذلك نرى ابن القيم يركز على تحقيق هذا الهدف بكل ما أعطاه الله من قوة وبصيرة وحكمة كي يبصر الناس بجمال هذا الشرع وما يتمتع به من مصالح للعباد ، حتى ينتشر في أرض الله كما أراد الله .

* * *

المبحث الأول :
سيادة شرع الله

سيادة شرع الله في الأرض هدف عظيم سعى ابن القيم رحمه الله إليه وإلى تحقيقه ونشره بين العباد ، وقدم إلى ما قدّم رحمه الله وترك لنا آثاره فيما كتبه من كتب تبين لنا المنهج الذي سار عليه من أجل الوصول إلى هذا الهدف .

فمن يقرأ بعضًا من مؤلفاته في مباحث العقائد والفقه ، يلمس منه نفسًا شفافة لها بصر وعناية بتفهم مقاصد الشريعة ومحاسنها ، وحكمة الأحكام وأسرارها بما يكفي ويشفي ويجعل النفس في راحة وانشراح لما يبينه ويقرره من ذلك وأن هذا هو ما تقتضيه أصول الشريعة المحمدية ، ويوافق روح التشريع .

وهذا من أعظم الأسرار في تفوقه في الدعوة على غيره ومن أبرز خصائصه في التأليف بين معاصريه فمن بعدهم ، وله من المباحث العميقة المستقلة في بيان مقاصد التشريع ما يبعث الدهشة ويشد آصرة الإيمان ويدل على موهبة نادرة وتذوق علمي دقيق .

ولولعه رحمه الله بهذا المنهج أطنب في ذكره في أربعة كتب من مؤلفاته[١] وتمنى من الله المان بفضله أن يفرد كتابًا في محاسن الشريعة

(١) ذكر ذلك ابن القيم في جزء كبير من كتاب « مفتاح دار السعادة » ، وكتاب « شفاء العليل » ، وكتاب « أقسام القرآن » ، و « إعلام الموقعين » ، يقول ابن القيم : =

الإسلامية[١] .

وهذا منهج عظيم في الهداية والإقناع ، فإن الدين الإسلامي يقوم على الإقناع العقلي وحرية الاختيار لذلك يقول الرب تبارك وتعالى : ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** ﴾[٢] فلا يجوز للداعية أن يكره أحدًا على الدخول في الإسلام فلعلمه سبحانه بكمال دينه الذي نزل به الروح الأمين على النبي ﷺ ، وأنه من الكمال ما يكره أصحاب العقول السليمة على تقبله والخضوع له ولسطانه رضا ومحبة .

فلما رأى ابن القيم أن الناس قد تخبطوا في معرفة مقاصد الشرع والحكمة من هذا الشرع وأن بعضهم أنكر الحكمة من شرع الله وعرف ما في ذلك من تنقيص ومذمة لله تعالى ولشريعته السمحة ، وأنهم لم يدركوا مراد الرب سبحانه وأنه لم ينفتح لهم باب الإيمان بالله لعدم معرفتهم ذلك .

شمر عن ساعديه وأخذ في بيان مقاصد الشريعة والحكمة من التشريعات الإلهية التي تفند أقوال هؤلاء الضالين ، وتبعث روح الإيمان واليقين بالله وشرعه القويم .

وهذا منهج في الدعوة كبير الأثر في الناس فمن كان كافرًا رده إلى الإسلام إن كان ذا بصيرة وعقل أما إذ كان مسلمًا أدخله في درجة الإيمان ومن كان مؤمنًا زاده إيمانًا إلى إيمانه ونقله إلى درجة الإحسان .

= عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيساعد على تعليق كتاب يتضمن ذكر بعض محاسن الشريعة وما فيها من الحكم البالغة والأسرار الباهرة التي هي من أكبر الشواهد على كمال علم الرب وحكمته ورحمته . « بدائع الفوائد » : (١٧٩/٢) .

(١) « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » بتصرف قليل : (٦٥ - ٦٦) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (٢٥٦) .

وهذا هدف ابن القيم رحمه الله من ناحية شرع الله وتحقيقه في الناس فإما كافر يسلم وإما مسلم ينتقل إلى درجة الإيمان ، وإما مؤمن ينتقل إلى درجة الإحسان وهي أعلى الدرجات في الدين .

وذلك لا يكون إلا بمعرفة هذا الشرع وأسراره ومبانيه ومقاصده .

*** مقاصد شرع الله :**

أولاً : عبادة الله وحده :

سر هذه الشريعة وركيزتها التي بنيت عليها ، عبادة الله وحده لا شريك له قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾[1] ، يقول ابن القيم رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾:

وسر الأمر والخلق والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب انتهى إلى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب جميع معانيها في التوراة والإنجيل والقرآن ، وجميع معاني هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجميع معاني القرآن في المفصل ، وجميع معاني المفصل في الفاتحة ومعاني الفاتحة في ﴿ **إياك نعبد ، وإياك نستعين** ﴾[2] .

ثم بين رحمه الله تعالى أن جميع الرسل عليهم السلام كانت دعوتهم إلى ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فقال :

فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وعبادته من أولهم إلى آخرهم فقال نوح لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾[3] وكذلك قال هود

---

(١) الآية من سورة الذاريات : (٥٦) .

(٢) « تفسير سورة الفاتحة » : (٦١) .

(٣) سورة الأعراف : (٥٩) .

وصالح وشعيب وإبراهيم[١] قال الله تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت** ﴾[٢] وقال : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾[٣] ، ثم بين رحمه الله أن وصف العبودية هو أكمل وصف وصف الله به خلقه وهو وصف أكرم خلقه وأقربهم إليه وهم أنبياؤه ورسله وملائكته وعباده المصطفون ، قال تعالى : ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون** ﴾[٤] وقال : ﴿**واذكر عبدنا داود** ﴾[٥] وقال : ﴿**واذكر عبدنا أيوب** ﴾[٦] وقال : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب** ﴾[٧] وقال عن سليمان : ﴿ **نعم العبد إنه أواب** ﴾[٨] وقال : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾[٩] وقال : ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده** ﴾[١٠] ، إلى غير ذلك من الآيات والشواهد الدالة على عظم العبودية وأنها روح هذا الشرع وسره الذي لا يمكن أن تتحقق هذه الشريعة إلا به .

ثم يعرف رحمه الله تعالى معنى العبادة والاستعانة فيقول :

العبادة تجمع أصلين : غاية الحب [١١] وغاية الذل والخضوع .

---

(١) الأعراف : (٦٥) – وهود : (٦١) – وهود : (٨٤) .
(٢) سورة النحل : (٣٦) .
(٣) سورة الأنبياء : (٢٥) .
(٤) سورة النساء : (١٧٢) .
(٥) سورة ص : (١٧) .
(٦) سورة ص : (٤١) .
(٧) سورة ص : (٤٥) .
(٨) سورة ص : (٣٠) .
(٩) سورة البقرة : (٢٣) .
(١٠) سورة الفرقان : (١) .
(١١) سبق أن تحدثنا في الفصل الأول عن المحبة واشتقاقها وعلاماتها وغير ذلك (ص: ١٤٨) .

والعرب تقول طريق معبد أي مذلل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًا خاضعًا[١] .

والاستعانة : تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه[٢] .

وقد سبق الحديث عن العبادات وأنها ثمرة الإيمان ، وبينا الحاجة إليها والحكمة منها ويجدر بنا هنا أن نذكر أعظم هذه العبادات وهي ما جمعت في الحديث الذي يرويه عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ ، قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي ﷺ ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال : يا محمد أخبرني عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : **« الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلًا »** قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الإيمان . قال : **« أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره »** قال صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ؟ قال : **« أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك »** قال : فأخبرني عن الساعة . قال : **« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »** قال: فأخبرني عن أماراتها . قال : **« أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان »** قال : ثم انطلق ، فلبثت مليًا ، ثم قال لي : « يا

---

(١) « تفسير سورة الفاتحة » : (٦١) .

(٢) نفس المرجع : (٦٢) .

عمر! أتدري من السائل ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « إنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم »[(١)] .

قال القاضي عياض رحمه الله [(٢)] هذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة ، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه [(٣)] .

والمقصود أن مبنى الشريعة موقوف على (تعريف مواقع رضى الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحي المحض)[(٤)] لذلك لا يكون العبد محققًا للعبادة إلا بأصلين عظيمين :

أحدهما : متابعة الرسول ﷺ .

والثاني : الإخلاص للمعبود .

وأهل الإخلاص والمتابعة هم أهل ﴿ **إياك نعبد** ﴾ حقيقة فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله ، فمعاملتهم

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان رقم الحديث : (٨ جـ ٣٧/١) .

(٢) أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولي قضاء سبتة ثم قضاء غرناطة وتوفي بمراكش مسمومًا سنة (٥٤٤هـ) رحمه الله تعالى له عدة مصنفات أشهرها « الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، و « ترتيب المدارك » . و « شرح صحيح مسلم » ، انظر : ابن خلكان : و « فيات الأعيان » (١/ ٣٩٢ ط ١٢٩٩هـ) بولاق القاهرة .

وانظر عنه بتوسع : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني ، في « أزهار الرياض في أخبار عياض » ، تحقيق مصطفى السقا وغيره : (٢٣/١) منشورات المعهد الخليفي للأبحاث المغربية (ط ١٣٥٨هـ) لجنة التأليف والنشر والترجمة القاهرة .

(٣) من « حاشية صحيح الإمام مسلم » (جـ ٣٧/١) للنووي .

(٤) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٣) .

ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده ، لا يبتغون بذلك من الناس جزاءً، ولا شكورًا ، فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه ، وهو الذي بلى عباده بالموت والحياة لأجله ، قال تعالى : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾[1] .

قال الفضيل بن عياض[2] : هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي ! ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص : ما كان لله ، والصواب : ما كان على السنة ، وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا** ﴾[3][4] ، والعبودية كما يقول ابن القيم مبنية على أربعة قواعد هي :

التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح ، فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع فأصحاب

---

(١) سورة الملك : (٢) .

(٢) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الإمام الشافعي رحمه الله توفي في مكة سنة (١٨٧هـ) رحمه الله ، انظر : « الكاشف » : (٣٨٦/٢) الذهبي : « تذكرة الحفاظ » (٢٤٥/١) دار الباز مكة بدون تاريخ و« حلية الأولياء » (٨٤/٨) سراج الدين عمر بن علي بن الملقن : « طبقات الأولياء » تحقيق نور الدين شريبة (ص : ٢٦٦) الأولى (١٣٩٣هـ) مكتبة الخانجي القاهرة ، و « فيات الأعيان » : (٤١٥/١) .

(٣) سورة الكهف : (١١٠) .

(٤) انظر « تفسير سورة الفاتحة » (ص: ٦٩ – ٧٠) .

﴿إياك نعبد﴾ حقًّا هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذب عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه ، وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينه به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح .

وأعمال الجوارح : كالصلاة ، والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك [(١)] .

ومما سبق يتضح أن مقصد الشريعة الأول هو عبادة الله وحده ، وأن هذه العبادة منقسمة على القلب ، والجوارح ، وعمل القلب أوجب من أعمال الجوارح لتوقفها على عمل القلب ؛ فإنه هو الدافع إليها وهو الذي يتوقف قبول عمل الجوارح على صلاحه وفساده ، فإن كان صالحًا قبل عمل الجوارح وإلا ردّ عليه وحبط عمله .

*** المقصد الثاني : تحقيق مصالح العباد :**

إن المستقرئ لنصوص الشريعة السمحة يجد أنها تدل على تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل ، فتكون

(١) « تفسير سورة الفاتحة » : (٨٧) .

بذلك من النعم التي أنعم الله بها على عباده كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

إن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد[١].

وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ، ولو نظرنا إلى نصوص الشريعة لوجدناها تدل على ذلك ونكتفي بقوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين** ﴾[٢] .

وهذه الرحمة تلاحظ في أن شريعة الله عدل كلّها ، ورحمة كلّها ، ومصالح كلّها ، وحكمة كلّها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ، فليست من الشريعة ؛ وإن أدخلت فيها بالتأويل .

فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله أتم دلالة وأصدقها[٣] .

فإن ابن القيم رحمه الله يوجه المدعو إلى تأمل الشريعة والنظر في مقاصدها ومحاسنها والحِكَم من تشريعاتها ، فإنه سيجد أنها بلغت الكمال الذي لن تقترح عقول العقلاء مثله ، ولا يمكن أن يأتوا بشريعة تحقق مصلحة العباد وسعادتهم في الدارين مثلها ، ولا الشرائع السماوية السابقة فيقول :

إذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية ، والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ، ولا يدرك الوصف حسنها ، ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت ، وكانت على أكمل عقل رجل منهم

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٣/١) .

(٢) سورة الأنبياء : (١٠٧) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٣/١) .

فوقها ، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له ، والحجة والمحتج له ، والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهانًا وآية وشاهدًا على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم والحكمة، وسعة الرحمة والبر والإحسان.

وأنها من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده فلهذا امتن الله على عباده بأن هداهم لها بقوله : ﴿ **لقد مَنَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾[1] ، وقال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا** ﴾ [2] .

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانًا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيئًا خارجًا عن الحكمة بوجه[3] .

وقد بين رحمه الله أن سبب الانحراف في المجتمعات الإنسانية وتدهورها ، وانحلالها من إضاعة هذه الشريعة ، وأن ما يوجد في هذه المجتمعات من لذة وسعادة فمنها وبسببها ، ولولا هذه الرسوم الباقية ، من هذه الشريعة ، وقيام البعض من البشر بها لله وحده لأصاب العالم كارثة تنهيه عن الوجود ، ولكن هذه الرسوم هي التي تحمي العالم بفضل الله ومنته كما يقول رحمه الله :

بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة ، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها ، وحاصل بها ، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها،

---

(١) سورة آل عمران : (١٦٤) .

(٢) سورة المائدة : (٣) .

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٣٧٤ - ٣٧٥) .

ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا، وطوى العالم، وهي العصمة للناس ، وقوام العالم ، وبها يمسك الله السموات والأرض أن تزولا ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطيّ العالم رفع إليه ما بقي من رسومها .

فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم ، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة(١) ، ويقول :

فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول ﷺ والقيام به ، والدعوة إليه ، والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه ، وليس للعالم صلاح بدون ذلك ، ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الأكبر إلا بالعبور على هذا الجسر (٢) .

وفي هذا توجيه للدعاة أن يسيروا على هذا المنهج وهو توضيح ما حوته الشريعة من مصالح للعباد ، وأنها هي المنقذ للبشرية من هاوية البؤس والشقاء ويوضح لهم ذلك بالأمثلة من هذه الشريعة .

*** إهباط آدم عليه السلام لتحقيق هذين المقصدين :**

إن لابن القيم رحمه الله أسلوبه المميز في الدعوة إلى الله تعالى وذلك عندما نراه يتحدث عن الحِكَم الإلهية في الخلق والتدبير والأمر والنهي .

وهاك ابن القيم رحمه الله في أسلوبه هذا وهو يبين لنا الحكمة في تدبير الله عز وجل في إهباط آدم عليه السلام من الجنة وذلك لتحقيق أمور وحكم عديدة أرادها الله سبحانه وتعالى .

من هذه الأمور تكليف آدم وذريته بشرائعه السمحة التي يأمر بها على

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١/٣) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٣) .

ألسنة رسله عليهم السلام ، التي تتضح فيها المقاصد الكريمة في مصلحة العباد وكيف أنه سبحانه وتعالى أعطى آدم وذريته خيرًا مما منعهم منه ، إلى غير ذلك من الحكم الباهرة التي تعجز عقول البشر عن إدراكها كما سنسوق بعضًا منها إن شاء الله تعالى ، توضح لنا الحكمة من إنزال آدم عليه السلام ، وهي الحكم بالشريعة ، وعبادة الله وحده ، وهذه هي مناسبة ذكر هذا المطلب في هذا الفصل .

فيقول رحمه الله تعالى : إن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحِكَم التي تعجز العقول عن معرفتها ، والألسن عن صفتها ، فكان إهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة .

فإن الضد يظهر حسنه الضد ، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها وأيضًا فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم ، وليست الجنة دار تكليف ، فأهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي[1] .

وأيضًا فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلّا بينهم وبين أعدائه وامتحنهم بهم ، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه عنده من أفضل الدرجات ، ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه .

ثم بين رحمه الله تعالى أن لله الأسماء الحسنى مثل الغفور ، الرحيم ،

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٦) .

الخافض ، المعز ، المذل ، المحي ، المميت ، ولابدّ من ظهور آثار هذه الأسماء فاقتضت حكمته أن ينزل آدم وذريته دارًا يظهر فيها أثر هذه الأسماء الحسنى ، فيغفر فيها لمن يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعزّ من يشاء، إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته .

ويذكر منها كذلك أن الله سبحانه أنزلهم إلى دار يكون الإيمان فيها بالغيب هو الإيمان النافع ، وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة، وأيضًا فإن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فيها الطيب والخبيث ، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار يستخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ، وجعل لكلٍّ داره ، إما دار الشقاء وإما دار النعيم كما قال تعالى : ﴿ **ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون** ﴾[1] .

وأيضًا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم ، فاقتضت حكمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعَرّفه ما يجني إجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذرًا وأشد هروبًا ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم ، فاستعدوا له وأخذوا أهبتهم[2] .

وهكذا يستطرد ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكر الحِكَم واحدة تلو الأخرى وسنزيد في ذكر بعض الحِكَم التي ذكرها ابن القيم ، والتي تدل

---

(١) سورة الأنفال : (٣٧) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٦ - ١٠) .

على أنه سبحانه أراد من هذا الأمر تكليف آدم وذريته بشرائعه التي تعبدهم بها ، وإن كان ما سبق من الحكم تدل على ذلك صراحة أو ضمنًا .

فيقول رحمه الله تعالى : فإنه سبحانه الملك الحق المبين ، والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه ذلك [١] .

وأيضًا فإنه سبحانه خلق الخلق لعبادته ، وهي الغاية منهم قال تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [٢] ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم [٣] .

وأيضًا فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره ، ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها ، وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين .

وأيضًا فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه ، وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف[٤] .

وأيضًا فإن الله سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم - أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعًا واختيارًا لا كرهًا واضطرارًا - .

والنبي ﷺ عبدًا نبيًا ، فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٧) .

(٢) الآية من سورة الذاريات : (٥٦) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » : (٩) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » : (١١- ١٢) .

مقاماته : في مقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدي ، فقال تعالى : ﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً** ﴾[١] ، وقال : ﴿ **وأنه لما قام عبد الله يدعوه** ﴾[٢] ، وقال : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا** ﴾[٣] .

فلم يقل برسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه ، وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارًا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله [٤] .

ومن تعداد هذه الحكم يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى أهبط آدم وذريته لتجري عليهم أحكامه وشرائعه التي أرسل بها رسله عليهم السلام وأمرهم بإقامتها والعمل بها وهي - أعني هذه الشرائع - نِعَمٌ أنعم الله بها على عباده وهي تقصد أولاً وآخرًا مصالح العباد في العاجل والآجل .

يقول ابن القيم رحمه الله : ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم ، وهو عهده الذي عهده إليه وإلى نبيه ، وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته قال تعالى عقب إخراجه منها : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾[٥] .

وفي الآية الأخرى قال : ﴿ **اهبطا منها جميعًا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى**

---

(١) سورة الإسراء : (١) .

(٢) سورة الجن : (١٩) .

(٣) البقرة : (٢٣) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » بتصرف : (٨ - ٩) .

(٥) سورة البقرة : (٣٨) .

فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾[١][٢] .

والمقصود أنه سبحانه أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من العهد الذي جعله سببًا موصلًا إليه سبحانه ، ولا يمكن أن تتم مقاصد الشريعة إلا باتباع هذا الهدى الذي أنزله سبحانه وتعالى .

*** المطلب الثاني : ما هو شرع الله ؟**

شرع الله هو دينه ، ودينه هو شرعه الذي ارتضاه لعباده ، وأمرهم باتباعه وعدم الميل عنه ، وهو الإسلام يقول ابن القيم عن دين الله :

وأما دينه فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه[٣] ، وقال عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾[٤] :

الذي جاء به محمد ﷺ ، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم ليس لله دين سواه ، قال تعالى : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾[٥] وقد دل قوله تعالى : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه ، قال أول الرسل نوح : ﴿ **فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين** ﴾[٦] ، وقال إبراهيم وإسماعيل : ﴿ **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن**

---

(١) سورة طه : (١٢٣ - ١٢٦) .
(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٤٤) .
(٣) « التفسير القيم » : (٢٣١) .
(٤) سورة آل عمران : (١٩) .
(٥) سورة آل عمران : (٨٥) .
(٦) سورة يونس : (٧٢) .

ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾[١] وقال يعقوب لبنيه عند الموت : ﴿ **ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك** .. ﴾ إلى قوله تعالى - ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾[٢] وقال موسى لقومه : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين** ﴾[٣] إلى آخر الآيات التي ذكرها من أقوال الأنبياء وغيرهم حتى قال :

فالإسلام دين أهل السموات ، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض ، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه[٤] .

* كيف تعرف محاسن الشرع ؟

إن الداعية يعرف محاسن الشرع من أوامر الله ونواهيه التي تمثل شرع الله التي ارتضاها سبحانه لعباده ، وأرسل بها رسله ، والتي استقر حسنها وكمالها في الفطر والعقول لمصلحة العباد والرحمة بهم في العاجل والآجل.

والتي لم تشرع لمجرد الأمر والنهي فقط ؛ بل إن جميع ما أحله الله فإنما أحله لطيبه وما نهى عنه فلخبثه وسوءه .

وما أمرهم به فلما فيه من المعروف ، وما نهى عنه فلما فيه من المنكر ، والشريعة كلها كذلك فالأوامر يراها العقل السليم خيرًا ، والنواهي يراها العقل السليم منكرًا ؛ وابن القيم رحمه الله يقرر ذلك بعد أن ذكر جملة من محاسن الشريعة في العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والمطاعم والمشارب وتحريم نكاح المحارم وغير ذلك ، ويرد على من يرى أن الأوامر والنواهي إنما صارت معروفًا ومنكرًا بالأمر والنهي من الله سبحانه وأنه لا فرق بينهما إلا بذلك ، وهو يرى أن أوامر الشرع كلها مقبولة ومعقولة

(١) سورة البقرة : (١٢٨) .
(٢) سورة البقرة : (١٣٣) .
(٣) سورة يونس : (٨٤) .
(٤) « التفسير القيم » : (٢١٠ - ٢٠٢) .

ونواهيه كلها مذمومة مرذولة عند العقلاء فجاءت الشريعة تبين الخير للناس وتنهاهم عن الشر ، فجاءت موافقه للعقل فأقر بحسنها ، فيقول رحمه الله :

وهل ركب الله في فطرة عاقل قط أن الإحسان والإساءة والصدق والكذب والفجور والعفة والعدل والظلم بل السجود لله وللصنم سواء في نفس الأمر ولا فرق بينهما ، وإنما الفرق بينهما الأمر المجرد ؟! وأي جحد للضروريات أعظم من هذا ؟! وهل هذا إلا بمنزلة من يقول أنه لا فرق بين الرجيع والبول والدم والقيء ، وبين الخبز واللحم والماء والفاكهة ، والكل سواء في نفس الأمر وإنما الفرق بالعوائد ؟! ثم يزيد رحمه الله الأمر وضوحًا فيقول : وإذا كان لا معنى للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفًا ، ولا للمنكر إلا ما نهي عنه فصار منكرًا بنهيه فأي معنى لقوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾[1] ؟! وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه ؟! وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء فضلاً عن رب العالمين .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ **يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾[2] .

فهذا صريح في أن الحلال كان طيبًا قبل حله ، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه ، ولم يستفد ذلك من نفس الحل والتحريم لوجهين :

أحدهما : أن هذا من أعلام نبوته ﷺ التي احتج الله بها على أهل الكتاب ، فقال : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات**

(١) سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٢) سورة الأعراف : (١٥٧) .

ويحرم عليهم الخبائث ﴾[١] .

الوجه الثاني : ثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل ، فكساه بإحلاله طيبًا آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معًا ، فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ، ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها ، وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به ، ومما يدل على ذلك قوله تعالى : **﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾**[٢] .

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول ، فتعلق التحريم بها لفحشها ، فإن ترتيب الحُكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له ، وهذا دليل في جميع الآيات التي ذكرناها ، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش ، وحرم الخبيث لكونه خبيثًا ، وأمر بالمعروف لكونه معروفًا ، والعلة يجب أن تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيًا عنه ، وكونه خبيثًا هو معنى كونه محرمًا كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمله[٣] .

ومن هذا قوله تعالى : **﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾**[٤] فقوله : **﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾** دليل على أنها بنفسها فحشاء وأن الله

---

(١) سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٢) سورة الأعراف : (٣٣) .

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٧ - ٣٨٩) وما بعدها .

(٤) سورة الأعراف : (٢٨) .

لا يأمر بما يكون كذلك ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله : **﴿ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾**[1] .

فأخبر أنه يتعالى عن الفحشاء بل أوامره كلها حسنة في العقول ، مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور ، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به ! قال تعالى : **﴿ومن أحسن دينًا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفًا واتخذ الله إبراهيم خليلًا﴾**[2] فاحتج سبحانه على حسن دين الإسلام وأنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه ، والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن ، لا مرتكبًا للقبيح ، وهذا احتجاج منه على أن دين الإسلام أحسن الأديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر ، وأنه بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال ، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد ، بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه[3] .

وهكذا يستطرد ابن القيم رحمه الله بذكر الأدلة الدالة على أن هذه الشريعة مركوز حسنها في العقول ، وأن كل ما أمر به الشارع أو نهى عنه إنما هو حسن لذاته أو قبيح لذاته .

مما يدل على حسن شريعتنا وأن الخير كل الخير في اتباعها والشر كل الشر في الابتعاد عنها ، ولا يمكن أن تحل أزمة هذا العالم الذي نعيش فيه وفي هذا العصر خاصة ـ أعني جميع الأزمات في عصرنا سواء كانت دينية

---

(١) سورة الأعراف : (٢٩) .

(٢) سورة النساء : (١٢٥) .

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٣٩٢ - ٣٩٣) .

أو نفسية أو اجتماعية أو عرقية وغير ذلك من الأزمات ـ إلا بهذا الدين الذي لا يمكن لعاقل قادر على ضبط نفسه وهواه أن ينكر ذلك لأنه قد حوى كل المحاسن ونبذ كل قبيح ومذموم ، فلم يحرم علينا سبحانه طيبًا كما فعل مع اليهود وأنه حرم عليهم الطيبات بسبب ظلمهم ، فلله الحمد من قبل ومن بعد .

* * *

المبحث الثاني

من أهداف دعوته : تقرير مذهب السلف

تقرير مذهب السلف الصالح ، ونشره بين الأمة ، وإيضاح أسسه ، والدفاع عنه ، من أهم أهداف دعوة ابن القيم رحمه الله تعالى ، ولا يخفى ذلك على من له أدنى اطلاع على كتبه رحمه الله بل ذلك من أعظم ما كانت تهدف إليه دعوته .

فلقد تجرد رحمه الله للدعوة باسم مذهب السلف ، وأخذ ينافح عنهم ويوضح أصولهم ويرد على كل من خالفهم هو وسلفه ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

ولم يكونا أول من قام بتلك الدعوة بل كانا خلفاء لسلف من الدعاة الصالحين الذين ساروا على هذا الطريق أمثال الأئمة الأربعة وبعدهم أكثر الحنابلة وغيرهم كثير .

ولكن قد يسأل سائل ، ما هو المقصود بمذهب السلف الذي يدعيه كثير من أهل المذاهب ؟

وكل يدعي وصلًا بليلى   وليلى لا تقر لهم بذاك

قال ابن القيم رحمه الله عن أبي المظفر السمعاني :[1]

---

(١) أبو المظفر منصور بن عبد الجبار بن أحمد التميمي السمعاني ، مفسر من العلماء بالحديث من أهل مرو مولدًا ووفاة ، كان مفتي خراسان ، توفي رحمه الله سنة (٤٨٩هـ) من مصنفاته : « تفسير السمعاني » ، و « الانتصار لأصحاب الحديث والمنهاج لأهل السنة » وغيرها ، انظر : أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني: « الانتصاب » (ص: ٣٠٧-٣٠٨) طبعة مرغليوت سنة (١٩١٢)=

كل فريق من المبتدعة يعتقد أن ما يقوله هو الحق الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه لأن كلهم يدعون شريعة الإسلام ، ملتزمون في الظاهر شعارها ! يرون أن ما جاء به محمد هو الحق غير أن الطرق تفرقت بهم بعد ذلك وأحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ .

فزعم كل فريق أنه هو المتمسك بشريعة الإسلام ، وأن الحق الذي قام به رسوله ﷺ هو الذي يعتقده وينتحله[١] .

فلابدّ من التحقيق في المسألة ليتضح لنا من هو الواصل حقًّا فلو رجعنا إلى معاجم اللغة لوجدنا أن الكلمة مأخوذة من سَلَفَ ، يَسْلُفُ أي مضى ، والقوم السّلاّفُ : المتقدمون ، وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسُلاّف .

والسلف أيضًا من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل ، واحدهم سالف ، ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه :

مضوا سلفًا قصد السبيل عليهم وصرف المنايا بالرجال تقلّبُ

أراد أنهم تقدموا وقصد سبيلنا عليهم أي نموت كما ماتوا فنكون سلفًا لمن بعدنا كما كانوا سلفًا لنا[٢] .

إذًا فالسلف المتقدمون الذين حازوا قصب السبق في الفضل والعلم ، فيكون سلف هذه الأمة مَنْ تقدم مِنْ أهل الفضل والعلم ، وهم الركيزة الأولى التي ننتمي إليهم وهم أصحاب محمد ﷺ الذين تلقوا العلم عنه بلا

= ليدن « سير أعلام النبلاء » (١١٤/١٩) ، و « وفيات الأعيان » (٣٠١/١) .

(١) « مختصر الصواعق المرسلة » : (٥١٧) .

(٢) انظر « لسان العرب » : (١٥٩/٩) .

واسطة وتربوا على يديه كما يصفهم ابن القيم بقوله :

أنهم حازوا قصبات السّباق ، واستولوا على الأمور ، فلا طمع لأحد من الأمة بعدهم باللحاق ، ولكن المبرز من اتبع صراطهم المستقيم واقتفى منهاجهم القويم ، والمتخلّف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال ، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال ، فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها ؟ وأي خطة رشد لم يستولوا عليها ؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذبًا صافيًا زلالاً وأيدوا قواعد الإسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان ، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان .

وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا ، وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين سندًا صحيحًا عاليًا .

وقالوا : هذا عهد نبينا إلينا وقد عهدنا إليكم ، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم ، فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ، ثم سلك تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد[1] .

وعلى ذلك فأهل الحديث المتبعين لآثار النبي ﷺ هم الذين يمثلون السلف على الحقيقة لأنهم هم الذين اقتفوا أثرهم وسلكوا سبيلهم ، وهذا هو رأي ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يدلل على ذلك ويستشهد لصحة قوله، وأنه لا يمكن أن يكون غيرهم هم المقتفون لآثار السلف ، ويذكر الأسباب ، ونحن سوف نذكر المستفاد من أقواله رحمه الله ، فيقول :

ولما كانت الدعوة إلى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المصلحين

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٨/١) .

وأتباعه من العالمين ، كما قال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين** ﴾(١) ، وكان التبليغ عنه من عين تبليغ ألفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين :

أحدهما : حفاظ الحديث وجهابذته والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الإسلام ، الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله ، وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله حتى ورد مَنْ سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافية من الأدناس لم تشبها الآراء تغييرًا ، ووردوا فيها عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا(٢) .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر قول السمعاني السابق في أن كلًّا يدعي أنه على الحق وغيره على الباطل قال :

غير أن الله تعالى أبى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفًا عن سلف وقرنًا عن قرن إلى أن انتهوا إلى التابعين ، وأخذه التابعون عن أصحاب النبي ﷺ وأخذه الصحابة عن رسول الله ﷺ ، ولا طريق إلى معرفة ما دعا إليه رسول الله ﷺ الناس من الدين المستقيم والصراط القويم إلا هذا الطريق الذي سلكه أصحاب الحديث .

وأما سائر الفريق فطلبوا الدين بغير طريق لأنهم رجعوا إلى معقولهم وخواطرهم وآرائهم فإذا سمعوا شيئًا من الكتاب والسنة عرضوه على معيار

(١) الآية من سورة يوسف : (١٠٨) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٨/١) .

عقولهم فإن استقام لهم قبلوه ، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردوه ، فإن اضطروا إلى قبوله حرفوه بالتأويلات البعيدة والمعاني المستكرهة فحادوا عن الحق وزاغوا عنه ونبذوا الدين وراء ظهورهم وجعلوا السنة تحت أقدامهم.

أما أهل السنة فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم عرضوه على الكتاب والسنة فإن وجدوه موافقًا لهما قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم له ، وإن وجدوه مخالفًا لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة[1] .

ثم بين رحمه الله تعالى ما هو السبب الذي جعله يرى أن أهل الحديث هم أهل السنة وهم المقتفون لأثر السلف وإن تباعدت المدة بينهم فيقول :

ومما يدل على أن أهل الحديث على الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولها إلى آخرها ، قديمًا وحديثًا وجدتها مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار ، في باب الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون ، قلوبهم في ذلك على قلب واحد ونقلهم لا ترى فيه اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما ، وإن قلّ ، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد وجرى على لسان واحد وهل على الحق دليل أبين من هذا ؟! قال تعالى : ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا** ﴾[2] .

وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب

(١) « مختصر الصواعق المرسلة » : (٥١٧) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٨٢) .

والسنة وطريق النقل ، فأورثهم الاتفاق والائتلاف وأهل البدع أخذوا الدين من عقولهم فأورثهم التفرق والاختلاف[1] .

فيكون المراد بالسلفية هو اتباع طريق السلف الصالح من هذه الأمة المسلمة الذين هم أهل السنة والجماعة والاجتماع على سنة رسول الله وآثاره ظاهرًا وباطنًا واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وتنفيذ وصية المصطفى ﷺ في قوله : « **عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة** »[2] « فهم الذين يعتقدون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ﷺ ولا يقدمون شيئًا عليهما ألبتة »[3] ، وهم الذين اتبعوا ما جاء به النبي ﷺ ولم يتعدوه ، ولقد سمى الله سبحانه ما أنزله على رسوله روحًا لتوقف الحياة الحقيقية عليه ، ونورًا لتوقف الهداية عليه قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده** ﴾[4] ، وقال عز وجل : ﴿ **وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا** ﴾[5] .

فلا روح إلا فيما جاء به ولا نور إلا في الاستضاءة به فهو الحياة

---

(١) « مختصر الصواعق المرسلة » : (٥١٨) .

(٢) رواه الترمذي وقال : حديث صحيح وأخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه « تحفة الأحوذي » (٢/ ٤٤٢) .

(٣) انظر « عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي » د. صالح بن عبد الله العبود (ص : ١٦٠ط) الأولى الجامعة الإسلامية : (١٤٠٨) .

(٤) سورة غافر : (١٥) .

(٥) سورة الشورى : (٥٢) .

والنور والعصمة والشفاء [١] .

ويقول رحمه الله وهو يتحدث عن منهج الرعيل الأول وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان : أنهم في ذلك بنبيهم مقتدون وعلى منهاجه سالكون قال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[٢] .

﴿ **فمن اتبعني** ﴾ إن كان عطفًا على الضمير في ﴿ **أدعوا إلى الله** ﴾ فهو دليل أن أتباعه هم الدعاة إلى الله ، وإن كان عطفًا على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم ، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين ، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله وقد شهد سبحانه لمن يرى أن ما جاء به من عند الله هو الحق لا آراء الرجال ، بالعلم فقال تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذين أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿**أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى** ﴾[٤] فمن تعارض عنده حقائق ما جاء به وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه ، أو قدحت في كمال معرفته وإيمانه به لم يكن من الذين شهد الله لهم بالعلم ، فكيف يكون الداعي إلى الله على بصيرة والذي وصفه الله بأنه سراج منير وبأنه هاد إلى صراط مستقيم وأن من اتبع النور الذي أنزل معه فهو المفلح لا غيره ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن[٥] .

---

(١) « الصواعق المنزلة على طائفة الجهمية والمعطلة » (٦٢/١) .

(٢) سورة يوسف : (١٠٨) .

(٣) سورة سبأ : (٦) .

(٤) سورة الرعد : (١٩) .

(٥) « الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة » (٦٣/١ - ٦٤) .

ويزيد الأمر وضوحًا بوجوب التمسك بالكتاب والسنة فيقول :

ولا يستقر للعبد قدم في الإسلام حتى يعقد قلبه وسره على أن الدين كله لله لا رب سواه ولا متبوع غيره ، وأن كلام غيره معروض على كلامه ، فإن وافقه قبلناه لا لأنه قاله بل لأنه أخبر به عن الله ورسوله وإن خالفه رددناه وأطرحناه ، ولا يعرض كلامه صلوات الله وسلامه عليه ، على آراء القياسيين ولا عقول الفلاسفة والمتكلمين ولا على سياسة الولاة الحاكمين والسلاطين ، ولا أذواق المتزهدين المتعبدين ، بل تعرض هذه كلها على ما جاء به عرض الدراهم المجهولة على أخبر الناقدين فما حكم بصحته منها فهو المقبول وما حكم برده فهو المردود والله الموفق للصواب[١] .

وبعد هذا العرض يتبين أن السلف هم أصحاب رسول الله ﷺ وتابعوهم ومن تبعهم بإحسان ، وأنهم متعلقون بالكتاب والسنة لا يرون الحق في غيرهما أبدًا ولا يخالفونها إلى رأي أحد مهما كان حاله كما بين لنا ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى .

وبعد هذا نستطيع أن نحكم على كل من ادعى أنه من السلف بوزن قوله وفعله بالقرآن والسنة فإن وافقهما ولم يخالفهما فإنه صادق الدعوى .

ويقول ابن القيم رحمه الله في « قصيدته النونية » ناصحًا الأمة بمنهج السلف وكتبهم وما يجب نحوهم فيقول :

يا من يريد نجاته يوم الحساب ... من الجحيم وموقد النيران

اتبع رسول الله في الأقوال والأعما ... ل لا تخرج عن القرآن

وخذ الصحيحين اللذين هـ ... ما لقصد الدين والإيمان واسطتان

---

(١) « الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة » (١٦٥/١) .

واقرأهما بعد التجرد من هوى ... وتعصب وحمية الشيطان
واجعلهما حكمًا ولا تحكم على ... ما فيهما أصلا بقول فلان
واجعل مقالته كبعض مقالة الأ ... شياخ تنصرها بكل أوان
وانصر مقالته كنصرك للذي ... قلدته من غير ما برهان
قدر رسول الله عندك وحده ... والقول منه إليك ذو تبيان
ماذا ترى فرضًا عليك معينًا ... إن كنت ذا عقل وذا إيمان
عرض الذي قالوا على أقواله ... أو عكس ذا فذانك الأمران
هي مفرق الطرقات بين طريقنا ... وطريق أهل الزيغ والعدوان[(١)]

ويترجح مذهب السلف على غيره من عدة وجوه :

أولاً : لأنهم أخذوا عن الرسول ﷺ مباشرة وهم الصحابة وأخذ عنهم التابعون .

ثانيًا : لتمسكهم بما أمر الله به ورسوله من كتاب وسنه وعدم الخروج عليهما أو تحكيم غيرهما ما وجدوا إليهما سبيلاً .

ثالثًا : لتمكنهم من الرد على أيّ معطل وإلجامه بالحجة .

رابعًا : عدم الاضطراب في أقوالهم مما يؤدي إلى الراحة النفسية للمؤمنين والثقة بالله تعالى .

خامسًا : لأنهم أرجح عقولاً فكلما تقدم الزمان نقص في أهل الخير كما قال المصطفى : « **خير القرون قرني ثم الذين يلونهم** » .... الحديث .

سادسًا : موافقة أقوالهم للعقل والفطرة بلا تعقيد .

---

(١) « القصيدة النونية » : (٢/ ٢٢١) .

سابعًا : اشتهارهم بالورع والجدّ وقوة الصدع بالحق وهذا لا يصدر إلا عن صاحب حق .

* * *

المبحث الثالث

الهدف الثالث من أهداف الدعوة عند ابن القيم
تربية الأمة المسلمة [1]

* **تمهيـــد :**

تربية الأمة المسلمة من الأهداف الجليّة في دعوة ابن القيم رحمه الله يستطيع الوقوف عليها كل من أجال بصره فيما حوته كتبه التي بين أيدينا فقد امتلأت بقواعد التربية الإسلامية ، وسيجد أنه يقف بين يدي أحد فضلاء وكبار المفكرين المسلمين ، الذين أولوا التربية عنايتهم وجل اهتمامهم .

وذلك ليس غريبًا على داعية مثل ابن القيم لأنه يدرك أن التربية جزء لا يتجزء من الإسلام فالتربية هي « تنمية فكر الإنسان ، وتنظيم سلوكه ، وعواطفه على أساس الدين الإسلامي ، وبقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة »[2] .

إذًا الارتباط بين التربية والإسلام وثيقة حتى أن التربية لا تكون صحيحة النتائج إلا إذا بنيت قواعدها على الأسس والتشريعات الإلهية ، لأن التربية تطبيق للشرع الذي أمر الله به على الإنسان من أجل تنظيم سلوكه ،

---

(١) راجع الحديث عن منهجه في « إصلاح الأمة » : (ص ٥٢١) .

(٢) « أصول التربية الإسلامية وأساليبها » : (٢٦) لعبد الرحمن النحلاوي طبع دار الفكر الطبعة الأولى (١٣٩٩) .

والارتقاء به عن درجة البهيمية ، ورفع مستوى الجماعة بحيث يكون المجتمع مثاليًا كما أراده الله سبحانه ، إضافة إلى أنه سبحانه إنما أرسل رسوله ﷺ لتزكية النفوس وكمالها كما بين ذلك في كتابه الكريم فقال ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾(١) ، وقوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾(٢) .

من أجل ذلك نجد ابن القيم رحمه الله قد جعل تربية الأمة من أهداف دعوته وركز عليها أيما تركيز ، فقلما تجد كتابًا من كتبه يخلو من فائدة تربوية إذا لم يكن بمجموعه كتاب تربية ، لقد أجلى للأبصار السليمة طريق الحق ، وحذر الأمة من الشيطان ومكائده وبين لهم دسائسه وكيفية التخلص منه ، وقسم القلوب وبيَّن أمراضها وكيفية علاجها وتزكيتها ، وقسم النفوس وبيَّن تأثيرها حتى أنه يخيل للقارئ أن ابن القيم طبيب قلوب ، استطاع أن يكشف عليها ويشخص ما بها من أمراض ويصف العلاج الناجح لها .

ومن ثم فإن كل مطّلع على آثار ابن القيم يستطيع أن يصنف نفسه من أيّ طبقات المكلفين هو ، وأيّ الأمراض يحمل ، أم أنه صحيح معافئ فيزداد يقينًا وعافية بما يقرأه من كتب هذا المفكر العظيم .

وكل ذلك بأسلوب سلس ، وترتيب بارع ، وأدلة قاطعة ، يستسيغها الكبير والصغير تؤدي بمن يطلب الحق إلى سبيل السلامة .

---

(١) الآية من سورة الجمعة : (٢) .

(٢) سورة الشمس الآيات : (٩ - ١٠) .

* **مصادره في التربية :**

لكل مفكر ومربٍ مصادره الخاصة التي يثق بها ويطمئن إليها ، وله من الرجال من يتخذه استاذًا له يستأنس بقوله ويستشيره فيما خفي عليه .

وهكذا فإنه يوجد من مفكري المسلمين الذين برزوا في الجانب التربوي والأخلاقي قد اعتمدوا في مصادرهم على الأفكار الفلسفية من يونانية وغيرها من تلك الفلسفات العقلية البحتة التي نقدها ابن القيم نقدًا حادًّا وبين نقاط الضعف فيها .

أما ابن القيم رحمه الله فمصادره الخاصة التي يطمئن إليها ويثق بها فهي كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل ، وسنة رسوله المصطفى ﷺ .

أما أساتذته وقدوته فهم محمد ﷺ وأصحابه ومن سار على أثرهم من سلف هذه الأمة ، لذا نرى أن مصادره في التربية لم تخرج عن ذلك بل هذا من أبرز خصائص منهجه في الدعوة إلى الله تعالى ، وهي من خصائص المدرسة السلفية التي تولى نشرها بين الأمة .

بل يرى رحمه الله أن كمال السعادة في الحياة الطبيعية الصحيحة لا يمكن أن تتم إلا باتباع ما جاء عن الله ورسوله ، ويعتبر من جاوزهما أن حياته غير نافعة بل هي إلى حياة الحيوان أقرب فيقول :

إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ، فمن لم يحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات ، فالحياة الحقيقية الطيبة حياة من استجاب لله وللرسول ظاهرًا وباطنًا ، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة

الرسول فإن كل ما دعا إليه فيه الحياة[١] .

وقد نعى رحمه الله تعالى على كل من أعرض عن الكتاب والسنة ، وطلب الهدى والرشد في غيرهما من أقوال الرجال الذين نَظّرُوا العلوم والأمور بعقولهم القاصرة التي كثيرًا ما تستند في نتائجها على العواطف ، والأهواء والشهوات .

فقال وهو يصف تلك القلوب الضالة :

لكن عضت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها .

واعجبًا لها ! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ونصوص حديث نبيه المعصوم ؟! أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب ، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من الكتاب والسنة ؟![٢] .

وهكذا نرى ابن القيم دائم الالتزام بالكتاب والسنة في جميع مصادره سواء كانت تربوية أو عقدية أو فقهية وغيرها ، لذلك يقول رحمه الله في « قصيدته الميمية » :

والسنة الغراء كن متمسكًا ... هي العروة الوثقى التي ليس تفصم

تمسك بها مسك البخيل بماله ... وعض عليها بالنواجذ تسلم

ودع عنك ما قد أحدث الناس بعدها ... فمرتع هاتيك الحوادث أوخم

وهيئ جوابًا عندما تسمع الندا ... من الله يوم العرض ماذا أجبتم

(١) كتاب « الفوائد » لابن القيم : (١٠٠) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » : (٨/١) .

به رُسْلي لما أتوكم فمن يكن أجاب سواهم سوف يخزى ويندم[١]

*** نظرة ابن القيم لتربية الأمة :**

عرفنا أن التربية جزء لا يتجزأ من الإسلام لأن التربية هي محاولة تطبيق الشرع الذي أمر الله به من أجل تنظيم سلوك الإنسان والارتقاء به فيكون بذلك قد حقق عبادة الله وحده في اتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه ، وهذا هو الهدف الأسمى الذي يسعى لتحقيقه من وراء تربيته ، إضافة إلى أن التربية تجعل من الأمة أمة قوية في دينها آمنة في وطنها يسودها الحب ويغمرها التراحم وفي نفس الوقت هي قوية مرهوبة الجانب من قبل أعدائها بعيدة عن البدع والانحلال الخلقي .

لهذا نرى أنه رحمه الله قد أولى التربية جلّ اهتمامه فأكثر تصانيفه رحمه الله تدور حول التربية فإذا نظرنا إلى كتبه مثل « **كتاب الفوائد** » الذي أودع فيه من كنوز الحكم والمواعظ التربوية ما يَرِّق له قلب كل عاقل، أما كتابه « **الداء والدواء** » والمسمى - بـ « **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي** » - وهو عبارة عن جواب لسؤال سائل ابتلي ببليّة وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ولم يوضح السائل بليّته ، فأجابه رحمه الله بجواب كاف شاف ؛ فكان هذا الكتاب كما عنون له رحمه الله تعالى ، قد ضمنه من أدوية النفوس ما لا تجده في غيره ، ظهرت فيه براعة المربي العظيم الذي عرف النفوس وأمراضها وكيفية علاجها ، والغريب في الأمر أنه رحمه الله استطاع أن يعرف علة الرجل السائل ووصف له ولغيره العلاج الصحيح الذي لا يبتغي غيره .

---

(١) « القصيدة الميمية » : (٢٠٢) .

أما كتابه « **إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان** » الذي أطنب فيه بذكر القلوب وقَسّمَها إلى صحيح وسقيم وميت وبين أمراضها وكيفية علاجها .

حيث إنه يرى رحمه الله أن القلب هو المتصرف في عزم الإنسان على الاستقامة والزيغ لأنه ملك الجوارح كلها ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديه ولا يستقيم لها شيء حتى تصدر عن قصده ونيته .

لذلك بيّن لنا أقسام هذه القلوب ليعرف القارئ قلبه من أي القلوب هو، وحذرها من الأعمال السيئة لأن مدارها على فساد قصد القلب وكيف أن فساد العمل يعرّض القلب للقسوة فيزداد مرضًا على مرضه حتى يموت .

ثم بيّن بعد ذلك مكائد الشيطان التي يكيد بها بني آدم ليحذره منه وهو الباب الذي من أجله ألّف الكتاب[١] .

أما كتابه « **حادي الأرواح** » فقد قصد من تأليفه بشارة أهل السنة لما أعد لهم في الجنة فإنهم المستحقون للبشرى في الدنيا والآخرة وقد وصف فيه الجنة وأبوابها وسعتها وما أعد الله فيها من ملذات ومطاعم ومشارب وحور عين وغير ذلك مما يحدو بالمؤمن ويدفعه إلى الطمع فيها والرغبة إليها رغبة في لقاء ربه عز وجل ، ولا يتحقق ذلك إلا بأن يكون المؤمن خاضعًا لأوامر ربه تربي عليها ، وتأدب بها .

وهكذا كتابه « **مدارج السالكين** » و « **الوابل الصيب** » وغيرها من كتبه القيمة ولم نقصد من ذلك الحصر وإنما أردنا أن نبين مدى اهتمامه رحمه

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » (١/٥) وما بعدها .

الله تعالى بهذا الهدف الذي كان يسعى لتحقيقه في دعوته المباركة .

وسوف نتحدث إن شاء الله تعالى عن تربيته ومنهجه في التربية عندما نصل إلى الباب الثاني بالتفصيل في موضعه .

* * *

الفصل الثالث

صفات الداعية



* **الداعية المسلم :**

هو الوحيد الذي لا يمكنه تحقيق مراده ومبتغاه ممن يدعوهم قبل أن يحقق في ذاته صفات الكمال النفسية والتي تكمن في الأخلاق والعبادات والمعاملات التي دعا إليها الإسلام ، فالإسلام عبارة عن دعوة إلى الكمال الإنساني في كل شيء .

ألا ترى أن الدعوة إلى عبادة الله وحده من أعلى مراتب الكمال الإنساني ، لأنه في تحقيق ذلك يكون حرًا طليقًا من عبادة الخلق والذل لهم ويكون بذلك سعيدًا مطمئن النفس منشرح الصدر متغلبًا على الصعاب لأنه سار على وفق فطرته التي جبل عليها وشعوره الكامن في قرارة نفسه .

وكذلك دعوته إلى العبادات فيها راحة للنفس ، ألم تسمع قول النبي ﷺ « **يا بلال أرحنا بالصلاة** »[١] « **وكان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة** »[٢] ، وكذلك الزكاة وما فيها من مواساة ذوي الحاجات والمسكنة والتآلف والتكامل الاجتماعي والصوم وما فيه من كف للنفس عن شهواتها وكذلك جميع العبادات والمأمورات .

فإن كل مأمور به راجح المصلحة وإن كان مكروهًا للنفوس قال تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾[٣] ، فبين أن الجهاد الذي أمر به وإن كان مكروهًا للنفوس شاقًا عليها فمصلحته راجحة وهو

---

(١) « مسند الإمام أحمد » : (٣٦٤/٥) ، برقم (٢٣١٣٧) وأبو داود في الأدب (٧٨) .

(٢) رواه الإمام أحمد في « المسند » : (٣٠٦/١) بنحوه .

(٣) سورة البقرة الآية : (٢١٦) .

خير وأحمد عاقبة ، فالشر الذي فيه مغمور بالنسبة إلى ما تضمنه من الخير.

وهكذا كل منهي عنه فهو راجح المفسدة وإن كان محبوبًا للنفوس موافقًا للهوى فمضرته ومفسدته أعظم مما فيه من المنفعة ، واللذة مغمورة مستهلكة جنب مضرته كما قال تعالى : ﴿ **وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾(١) .

وكذلك دعوته إلى جميع الأخلاق الحميدة فكل خلق حميد عرفه الإنسان دعا إليه الإسلام ، وكل خلق ذميم ذمته العقول والفطر الإنسانية نهى عنه وأمر باجتنابه ولا يجادل في ذلك إلا مكابر عنيد .

فتأمل الحكمة الباهرة في هذا الدين والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت ، وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها ، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أدركت حسنها وشهدت بفضلها(٢) .

والمراد أن الشريعة الإسلامية دعت الناس إلى الكمال الإنساني وليس من المعقول أن يحاول أحد من العقلاء أن يجمع الناس على رأي يراه وهو أبعد الناس عنه وعن التقيد به وبقوانينه ، وكذا الداعية لا يمكن أن يدعو الناس إلى الكمال الذي يريده الله سبحانه وتعالى من عباده وهو أبعد الناس عنه .

قال الشاعر :

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) سورة البقرة : (٢١٩) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ٣٧٤) .

لذلك فإن الداعية يجب أن تكون له صفات كمالية نفسية ، تدعو الناس إلى طاعة أمره والتخلق بأخلاقه قال تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا** ﴾[(١)] .

وهذه الصفات والأخلاق كثيرة جدًّا لا ندعي أن أحدًا يستطيع أن يلم بها ويبلغ الكمال وإنما ما لا يدرك كله لا يترك جله ، ونريد أن نجمل هنا أهم الصفات التي لا يمكن للداعية أن ينجح بغيرها .

أولًا : العلم

العلم مفتاح كل شيء كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله لذلك أولاه عناية كبيرة لأن صفات الداعية تدخل تحت هذا الأساس فلا يمكن أن تتحقق الصفات والأخلاق الفاضلة إلا من هذا الطريق .

ولذلك عنون في كتابه « مفتاح دار السعادة » بقوله :

« الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه »[(٢)] .

وذكر أكثر من مائة وخمسين فائدة على فضل العلم وشرفه ، وذكر مراتب العلم وحكمه ، وغير ذلك مما يحدو بالداعية إلى الحرص على تعلم العلم ، والمقصود بالعلم هنا عند ابن القيم هو :

الموروث عن عبده ورسوله وخليله وحبيبه الذي بعثه لذلك داعيًا ،

---

(١) الأحزاب : (٢١) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٦٣/١) ويحسن بطالب العلم أن ينظر في الكتاب وما قاله ابن القيم رحمه الله .

وأقامه على هذا الطريق هاديًا وجعله واسطة بينه وبين الأنام ، وداعيًا لهم بإذنه إلى دار السلام ، وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعيًا إلا أن يكون مبتدئًا منه ومنتهيًا إليه .

فالطرق كلها إلا طريقه ﷺ مسدودة فحقّ على من كان في سعادة نفسه ساعيًا وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا أن يجعل هذين الأصلين مدار أعماله وأقواله[(١)] .

فلا بد أن يكون الداعية عالمًا بشرع الله ليدع إلى الله على بصيرة وبرهان حتى لا يَضِل أو يُضِل .

وليكون داخلًا في قوله تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني** ﴾[(٢)] . وليستطيع أن يدافع عن دعوته ويقنع خصمه ، وكم من داع كان جاهلًا فحصل من المضرة عليه وعلى ما يدعو إليه شيء كبير لأنه يهزم أمام الباطل لقلة ما معه من العلم بالحق ، ولهذا لا يجوز تمكين مثل هؤلاء الجهال من الدعوة كما لا يجوز تمكين الصبيان من الجهاد[(٣)] .

لهذا يجب على الداعية أن يتعلم العلوم الشرعية لأنه بذلك يدرك جميع صفات الكمال المطلوبة للداعية كما يقول ابن القيم :

« صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة » .

ثم يقرر رحمه الله تعالى أن القدرة والإرادة تابعة للعلم بقوله :

« والإرادة فرع العلم لأنها تستلزم الشعور بالمراد فهي مفتقرة إلى العلم

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٦١/١) .

(٢) الآية من سورة يوسف : (١٠٨) .

(٣) «رسالة في الدعوة إلى الله» للشيخ محمد الصالح العثيمين من منشورات الجامعة الإسلامية (ص٢١).

في ذاتها وحقيقتها والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة ، والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منها [١] .

ومن ثم يكون العلم إمام العمل وقائدًا له ، والعمل تابعًا له ومؤتمًا به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتديًا به فهو غير نافع لصاحبه[٢] .

فإذا كان رحمه الله تعالى يرى أن العلم هو إمام الخير والصلاح والنجاح للعامل فإنه يرى أن الجهل إمام كل شر وبلاء وفساد فيقول :

« إن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته وإن قدّر سلامته اتفاقًا نادرًا ، فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء » [٣] .

ويقول : « لا ريب أن الجهل أصل كل فساد ، وكل ضرر يلحق العبد في دنياه وآخرته فهو نتيجة الجهل » .

ثم يوضح هذا بأمثلة توضح للداعية كيف أن الجهل بالعلوم الشرعية قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله فيقول :

قال المزني[٤] : رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « إن

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١/١٠٥) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١/ ١٠٦) .

(٣) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١/ ١٠٧) .

(٤) أبو عبد الله بكر بن عبد الله المزني إمام قدوة واعظ حجة فقيه حدث عن المغيرة بن شعبة وابن عباس وابن عمر وغيرهم وروى عنه آخرون كان من المتعبدين وأهل الفضل في الدين شديد التواضع توفي سنة (١٠٦هـ) .

انظر : « طبقات خليفة »: (ص ٢٠٧) و « مشاهير علماء الأمصار » (ص٩٠) و « حليه الأولياء» (٢/٢٢٤).

الشياطين قالوا لإبليس : يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد ، والعالم لا نصيب منه ؟ قال : انطلقوا ، فانطلقوا إلى عابد فأتوه في عبادته ، فقالوا : إنا نريد أن نسألك فانصرف ، فقال إبليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال : لا أدري ، فقال : أترونه كفر في ساعة ؟ ثم جاءوا إلى عالم في حلقته يضحك أصحابه ويحدثهم فقالوا : إنا نريد أن نسألك ، فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال : نعم ، قالوا : كيف؟ قال : يقول كن فيكون . فقال : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد عليّ عالمًا كثيرًا » [١] .

فاحذر أيها الداعيةُ : الجهلَ ، فإنك في أشرف مقامات العبد فيجب عليك أن تحمي نفسك بسياج العلم حتى لا تكون هدفًا للحاقدين الناقمين وحتى ترتفع عن مصاف الجهال والجاهلين .

وابن القيم يرى أن الدعوة لا تؤتي ثمارها المرجوة إلا بالعلم كما يقول :

« وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها ، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه ، بل لابد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي [٢] .

وقد أوضح رحمه الله تعالى أن شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها، ثم بيّن أن العلم المفروض تعلمه ضربان:

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١/٩٠) .

(٢) نفس المرجع : (١/١٩٥) .

* **أحدها فرض عين لا يسع جهله وهو أنواع :**

(أ) – علم أصول الإيمان الخمسة ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها .

(ب) – علم شرائع الإسلام ، واللازم منها : علم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

(جـ) – علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية ، وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون** ﴾[(١)].

(د) – علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصًا وعمومًا ، والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف الناس ومنازلهم ، فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وهكذا .

وثانيها فرض الكفاية : فهو كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه بسقوطه عن البعض[(٢)] .

فانظر أيها الداعية ماذا يجب على كل مسلم بعينه معرفته والعلم به إضافة إلى ما يتعلق بهذه الفروض من شروط ومبطلات فما الظن بالداعية إلى الله سبحانه وتعالى وما يجب أن يكون عليه من علم؟ وقد بين رحمه الله تعالى مراتب العلم لطالب العلم وكيف أن تحت هذه المراتب من كنوز

(١) سورة الأعراف : (٣٣) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » (١/١٩٨ – ١٩٩) .

العلم ومراعاتها تفتح للعبد أبواب العلم والهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها[١] .

فقال : وللعلم ست مراتب :

أولها : حسن السؤال .

ثانيها : حسن الإنصات والسماع .

ثالثها : حسن الفهم .

رابعها : الحفظ .

خامسها : التعليم .

سادسها : وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة حدوده .

ذكر بعض فضائل العلم :

وقد ذكر ابن القيم بعض فوائد العلم يجدر بنا أن نذكر بعضًا منها لتكون حافزًا للداعية على طلب العلم والتعلم حيث يقول :

١- أفضل الخلق عند الله الأنبياء والرسل وأشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم في أممهم فإن العلماء يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم .

٢- أن كل صفة مدحٍ مدحَ الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته .

٣- أن النفس تزكو وتشرف بجمع العلم وتحصيله .

٤- أن العلم يثمر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١/٢١٣ ، ٢١٤) .

وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة .

٥- أن بقاء الدين والدنيا ببقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين .

٦- أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما .

٧- أن الله سبحانه وتعالى نفى التسوية بين العالم وغيره كما نفى التسويه بين الخبيث والطيب .

٨- أن العالم مشتغل بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة ؛ فنفس تعلمه وتعليمه عبادة[١] .

إلى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى مما يثير في نفس الداعية المخلص حب هذه الصفة والتعليق بها والاستزادة من علم القرآن والسنة .

فإن الداعية لا بد أن يسأل ، وقد حرم الله عليه الكذب ولعن الله الكاذبين ، وخاصة الكذب على الله سبحانه وتعالى والقول عليه بغير علم قال تعالى : ﴿ **ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع قليل ولهم عذاب أليم** ﴾[٢] .

*** الجوانب المهمة في بصيرة الداعية :**

قال تعالى : ﴿ **قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني**

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة : (١/ ١٠١، ١٤٧ ، ١٦٤، ١٩٥، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٨ ، ٢٢٤) .

(٢) الآيات من سورة النحل : (١١٦ : ١١٧) .

وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾[1] . والبصيرة في اللغة : عقيدة القلب وقيل : البصيرة الفطنة ، تقول العرب : أعمى الله بصائره ، أي فطنه[2] .

والبصيرة هي الحجة [3] ، فإن انعدام البصيرة والفطنة والحجة هي انعدام للعلم لأن العلم يجعل الإنسان بصيرًا فطنًا ذا حجة ، فتفسير ابن القيم السابق يعني أن دعوة الرسول ﷺ ومن اتبعه من المؤمنين تكون على علم ويقين .

ولكن بماذا يكون عالمًا ؟ أو بمعنى آخر بماذا تكون البصيرة ؟ والجواب : أن البصيرة تكون في أمرين هما :

أولاً : أن يكون على بصيرة في حال الدعوة والدعاة السابقين .

ثانيًا : أن يكون على بصيرة في حال من يدعوه .

وإليك إيضاح هذا الأمر :

أولاً : أن يكون على بصيرة في حال الدعوة أو بمعنى آخر أن يكون على بصيرة في أمر دينه الذي يدعو إليه فيكون ذا علم وكفاءة ولديه الحجه والبرهان ، لأنه يفترض فيه أنه سيجادل وسيحاج وسيبطل دعوى الخصم وسيتحدث إلى أقوام مختلفين في ثقافاتهم ونفسياتهم وطبقاتهم وما يدينون به وما يعتقدون .

فلابد أن يكون على بصيرة من أمره حتى يستطيع أن يعطي كل واحد حقّه من هؤلاء الأصناف المتباينة من الناس ؛ ويقتضي هذا أن يعرف ما يدعو إليه ، وما هدفه ، وما غايته ، وما منهجه ووسائله ؟ إذا عرف كل

---

(١) الآية من سورة يوسف : (١٠٨) .

(٢) انظر « لسان العرب » : (٤/٦٥) .

(٣) « مختار الصحاح » : (٥٤) .

هذا استطاع أن يدعو وهو على بصيرة ولذلك كان الرسول ﷺ يعد إعدادًا عن طريق الوحي .

والبصيرة في الدين كما يراها الداعية ابن القيم أنها : نور يقذفه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأي العين فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل وتضرره بمخالفتهم(١) .

ثم بعد ذلك يبين رحمه الله تعالى مراتب البصيرة التي تقوي إيمان الداعية وتجعله على بصيرة في أمر دينه وربه سبحانه وتعالى فيقول إنها ثلاث درجات :

أحدها : البصيرة في الأسماء والصفات :

وهي أن لا يتأثر إيمانك بشبهه تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشبه والشكوك في وجود الله ، وعقد هذا أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويًا على عرشه متكلمًا بأمره ونهيه ، بصيرًا بحركات العالم علويه وسفليه ، سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم ، عليمًا لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات والأرض ، بصيرًا يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ..

وتفاوت الناس في هذه البصيرة بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبوية وفهمها .

ثانيًا : البصيرة في الأمر والنهي :

وهي تجريده عن المعارضة بتأويل ، أو تقليد ، أو هوى ، فلا يقوم

(١) « مدارج السالكين » : (١/ ١٣٩) .

بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله، والأخذ به ، ولا تقليدًا يريحه عن بذل الجهد في تلقي الأحكام من مشكاة النصوص .

ثالثًا : البصيرة في الوعد والوعيد :

وهي أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت خيرًا أو شرًا ، عاجلاً أو آجلاً في دار العلم ودار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب إلهيته وربوبيته وعدله وحكمته ، فإن الشك في ذلك شك في إلهيته وربوبيته بل شك في وجوده ؛ فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك ولا يليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة ، وإرسالها هملاً ، وتركها سدى .

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية ، ولهذا كان الصحيح أن الجزاء معلوم بالعقل وإنما اهتدي إلى تفاصيله بالوحي [١] .

فعلى الداعية أن يتبحر في أمر دينه ويتقنه حتى يكون على بصيرة ومن ثم فإن عليه أن يكون على بصيرة في أحوال الدعاة السابقين فكل رسول زوده الله سبحانه بعاقبة السابقين سواء كانوا مؤمنين أو مكذبين ، تلك سنة الله فساق له القصص ممن سبق وما جرى عليهم وما هي عاقبتهم وما سبب ذكر هذا القصص لهم قال تعالى : **﴿وكلًا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين ﴾**[٢] .

إذًا في معرفة قصص الدعاة السابقين : تثبيت لفؤاد الداعية وفيها حق

---

(١) انظر « مدارج السالكين » : (١٣٩/١ - ١٤٠) .

(٢) سورة هود : (١٢٠) .

وموعظة وذكرى للدعاة ، فالبصيرة بمآلهم تعطي الداعية دفعة وثقة بالله عز وجل ، وتصور له الحياة التي سيواجهها مع المدعو ، وما هي ردود فعلهم؟ وكيف يواجه هذه الردود ؟ وما هي الأساليب التي اتبعها أولئك الدعاة ؟ وما هي وسائلهم ؟ حيث إن المدعو لم يتغير ولم يتبدل طبعه وخلقه ، فيستفيد الداعية ممن سبقه من الدعاة .

ثانيًا : البصيرة في حال من يدعو :

يقال : إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فإذا أراد الداعية أن يدعو قومًا فإنه يجب عليه أن يعرف حالتهم الاعتقادية والمادية والاقتصادية حتى يستطيع أن يستخدم لهم الأسلوب المناسب ويتخذ لهم الوسيلة الناجحة .

فإنه ليس من المعقول أن يذهب الداعية إلى قوم لا يجدون قوت يومهم ويحثهم على الزهد والإنفاق في سبيل الله ، ولا يذهب الداعية إلى قوم قد أحاط بهم العدو من كل جانب ويحضهم على كثرة العبادة والزواج ويترك الجهاد .

بل يجب على الداعية أن يتعرّف على علّة القوم وما يحيط بهم ثم يصف لهم العلاج لأن الداعية كالطبيب لابد أن يشخص المرض ثم يصف العلاج الصحيح .

فالداعية ينظر في حال من يدعوهم فإن كانوا أطفالًا استخدم لهم الأسلوب المناسب وإن كانوا شيوخًا كذلك أو نساء .

كما يجب عليه التعرف على العادات والتقاليد في الناحية الاجتماعية

فإن هذه العادات والتقاليد تعدي بعضها بعضًا وتؤثر على الفطرة سلبًا وإيجابًا والأعراف والتقاليد أنواع ، منها : ما له أصل ديني ومنها : ما ليس له أصل إلا الوراثة أو يكون دخيلًا على المجتمع ، كما يجب أن يعرف الموقع الجغرافي فإن له أثرًا على سلوك المجتمع فإن البلاد الصحراوية وشدة ما يلاقيه ساكنيها من الحر والبرد وضيق العيش يُكوّن مزاج ساكنيها ، بعكس البلاد ذات المناخ المعتدل فإنه يوفر لهم راحة في المعيشة ، ويكسبهم طمأنينة وسكونًا إلى حد ما ، فمثل هؤلاء يميلون إلى النقاش الهادئ والنفس الطويل ، بعكس سابقيهم الذي يتطلب أن يكون الداعية هادئ البال واسع الصدر .

وهكذا الدعوة في البلاد الزراعية غير الدعوة في البلاد التي تعتمد على رعي الأغنام والإبل والأبقار ، وكذا في البلاد الفقيرة غير البلاد الغنية ، فيجب على الداعية أن يكون بصيرًا في حال من يدعو(١) .

ثانيًا : الإخلاص

الإخلاص قوة إيمانية تنبعث من أعماق المؤمن الذي عرف ربه حقيقة وأدرك معنى صفاته وإفضاله عليه ، فمن عرف ربه بلغ هذه المنزلة العظمى التي هي لبّ هذا الدين ، وما يصاحبه ويوجبه من عمل بأن يكون الداعي إلى العمل بالدعوة كما يقول ابن القيم :

« رغبة العبد في الله ، ومحبتّه له ، وطلبه مرضاته والقرب منه والتودد

---

(١) انظر ذلك في كتاب « نشر الدعوة مكانًا وزمانًا » للدكتور : محمد زين الهادي العرمابي ، دار العاصمة الرياض . و « هداية المرشدين » : (ص١٠٠) .

إليه وامتثال أمره بحيث لا يكون الباعث له حظًّا من حظوظ الدنيا بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الأعلى(١) .

لأنه سبحانه لا يقبل إلا الخالص لوجهه الخالي من جميع شوائب الشرك والنفاق والرياء والمطامع كما بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾(٢) .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ **قل الله أعبد مخلصًا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه** ﴾(٣) . وقال له : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين** ﴾(٤) ، وقال : ﴿ **الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا** ﴾(٥) .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ذكر هذه الآيات الدالة على وجوب الإخلاص المناقشة التي دارت مع أحد السلف وهو الفضيل بن عياض عندما سئل عن آية ﴿ **الملك** ﴾ قال : هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا عليّ ، ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : « إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة » ثم قرأ قوله تعالى ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملًا صالحًا ولا**

---

(١) « رسالة إلى كل مسلم » لابن القيم : (ص٣٥) .
(٢) سورة البينة الآية : (٥) .
(٣) سورة الزمر الآيات : (١٤ - ١٥) .
(٤) سورة الأنعام الآيات : (١٦٢ - ١٦٣) .
(٥) سورة الملك الآية : (٢) .

يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾[١][٢] .

ثم ذكر رحمه الله الأدلة الواردة في السنة المطهرة .

ففي « الصحيح » عن النبي ﷺ قال : « **ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : إخلاص العمل ، والنصيحة لولاة المسلمين ، ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم** »[٣] .

وسئل رسول الله ﷺ عن الرجل : يقاتل رياءا، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية : أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[٤] .

وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى : « **أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه** »[٥][٦] .

إلى غير ذلك من الأدلة الصريحة في وجوب الإخلاص مما ذكر رحمه الله ، ثم نقل رحمه الله تعالى بعد ذلك عدة تعاريف للإخلاص فقال :

قيل : هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة .

وقيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال بعضهم : الإخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدًا غير الله ،

---

(١) سورة الكهف الآية : (١١٠) .

(٢) « مدارج السالكين » : (٢/٩٣) .

(٣) « سنن ابن ماجه » كتاب المناسك الباب (٧٦) (ص ١٠١٦) .

(٤) رواه البخاري في كتاب الجهاد الباب الخامس عشر (٣/ ٢٠٦) .

(٥) « صحيح مسلم » كتاب الزهد رقم الحديث (٤٦) باب تحريم الرياء (٤/ ٢٢٨٩) .

(٦) « مدارج السالكين » : (٢/٩٤) .

ولا مجازيًا سواه ، وقال صاحب « المنازل »[١] : الإخلاص : تصفية العمل من كل شوب .

أي لا يمازج عمله ما يشوبه من إرادات النفس : إما طلب التزين في قلوب الخلق ، وإما طلب مدحهم وقضاء حوائجه ، أو غير ذلك من العلل والشوائب .

ثم أجمل القول رحمه الله تعالى في قوله وعقد متفرقاتها فقال :

إرادة ما سوى الله بعمله كائنًا من كان [٢] ، وبعد أن فرغ رحمه الله تعالى من ذكر التعاريف الواردة في الإخلاص أخذ يبين العوارض والآفات والعوائق التي تعترض عمل الداعية وقد تفسده وتحرمه الإخلاص وتثبطه عن العمل وهي :

(١) رؤيته عمله وملاحظته .

(٢) طلب العوض عليه .

(٣) رضاه به وسكونه إليه .

ولكنه رحمه الله تعالى لا يغفل عن وضع الحل لتلك العوارض وكيفية الخلاص منها حتى يكون الداعية على بينة من أمره فيقول : فالخلاص من رؤية عمله أن يشاهد مِنّة الله عليه ، وفضله وتوفيقه ، وأنه بالله لا بنفسه ، وأنه إنما أوجب عملَه مشيئةُ الله لا مشيئته هو كما قال تعالى : ﴿ **وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين** ﴾[٣] .

فالنفس جاهلة ظالمه ، وطبعها الكسل وإيثار الشهوات ، فالخير الذي يصدر منها هو من الله وبه ، لا من العبد ولا به كما قال تعالى : ﴿**ولولا فضل الله**

---

(١) « مدارج السالكين » : (٢/٩٦) .

(٢) نفس المرجع : (٢/٦٥) .

(٣) سورة التكوير الآية : (٢٩) .

عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدًا ولكن الله يزكي من يشاء﴾[١] .

فكل خير في العبد فهو فضل الله ومنه ، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقة كرؤيته لصفاته الخلقية من سمع وبصر وصحة وسلامة أعضاء ، فالكل مجرد عطاء الله فالذي يخلّص العبد من هذه الآفة معرفة نفسه ومعرفة ربه .

أما الآفة الثانية وكيفية الخلاص منها وهي طلب العوض عن عمله :

علم العبد أنه عبد محض ، والعبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضًا ولا أجرة ، إذ هو يخدمه بمقتضى عبوديته ، فما يناله من سيده من الأجر والثواب تفضل منه وإحسان إليه ، لا معاوضة .

أما الذي يخلصه من الآفة الثالثة وهي : رضاه بعمله وسكونه إليه فهو أمران :

الأول : مطالعة عيوبه وآفاته ، وتقصيره فيه ، وما فيه من حظ النفس وحظ الشيطان ، فقلّ عمل من الأعمال إلا وللشيطان فيه نصيب كما قال المصطفى ﷺ عن التفات الرجل في صلاته : **« هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »**[٢] ، وأما حظ النفس فلا يعرفه إلا أهل البصائر .

الثاني : علمه بما يستحق الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها ، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقًّا ، وأن يرضى بها لربه ، ويستحي من مقابلة الله بعمله[٣] .

---

(١) سورة النور الآية : (٢١) .

(٢) « صحيح البخاري » كتاب الأذان الباب (٩٣ ، جـ١ ص ١٨٣) باب الالتفات في الصلاة .

(٣) « مدارج السالكين » بتصرف : (٢/٩٦ - ٩٨) .

ثالثًا : الصبر

نظرًا لأهمية الصبر في حياة الداعية ، والصبر والدعوة جزءان لا ينفصل أحدهما عن الآخر ، فإن الداعية طالب مستدعٍ ومن كان هذا حاله فلابد من جهد وكَدٍّ وتعب ومشقة ، وهذا حال طلاب الدنيا فإنا نرى بعضهم يبذل حياته في سبيل تحقيق رغباته فما بالك بالداعية الذي يدعو في خط معاكس لرغبات النفس الأمارة بالسوء ؟! فهو يدعو إلى سمو النفس بترك الرذائل والشهوات والرغبات ، والعمل على ما هو ضدها ، فالنفس ميالة للدعة والشهوة وحب الذات ، فيحدث الصدام بين الداعية والمدعو مما يؤدي إلى معاداته ومحاربته ، هذا أولاً .

ثانيًا : أن الله سبحانه وتعالى سن سنة في الدعاة وأنهم سيعادون ويحاربون ويؤذون كما حدث لجميع الدعاة وهذا جانب يجب أن يفطن له الداعية .

ثالثًا : الدعوة عبادة والعبادة قرينة الابتلاء لذلك فإن الداعية سيواجه من أعداء الدعوة والإسلام ما سيواجهه منهم ، وعند ذلك تكمن أهمية الصبر .

وعندما أدرك ابن القيم رحمه الله تعالى أهميته بادر إلى الترغيب فيه وتوضيح معالمه فذكره في عدد من كتبه بل إنه أفرد له كتابًا قيما أسماه **«عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»** ، أودعه من كنوز الصبر وأسراره وآفاته وما يتعلق به من الحيثيات ما لا تجده في غيره ، ونحن هنا سوف نذكر ما يتعلق بالداعية من أمور الصبر مما يفيد الداعية ويعينه على السير في دعوته إلى الله بدون عائق ، وذلك حسب المنهج الذي سار عليه ابن القيم الذي قال :

« بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بتعيينه للحق الذي يدعو إليه وبصيرته به وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله باحتمال مشاق الدعوة وكفّ النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته ، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة الذين يهدون بأمره تعالى »[١].

وقد عرّف ابن القيم رحمه الله تعالى الصبر فقال :

« الصبر في اللغة هو الحبس والكف »

وفي الاصطلاح : هو حبس النفس عن الجزع والتسخط ، وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش[٢] .

وأما عن حقيقة الصبر : فهو خلق فاضل من أخلاق النفس ، يتمنّع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها[٣] .

*** الداعية والصبر :**

قال تعالى : **﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾**[٤] .

فكل مؤمن مبتلى إلا أن الداعية يكون ابتلاؤه من جهتين : من جهة إيمانه ، ومن جهة أنه داعية إلى الله تعالى ، وهذا ما نلاحظه في حياة الدعاة وعلى رأسهم أنبياء الله عليهم أفضل الصلاة والتسليم . وقد بين ابن

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١٣٥/٤) .
(٢) « مدارج السالكين » : (١٦٢/٢) .
(٣) « عِدة الصابرين » : (٢٩) .
(٤) سورة العنكبوت الآيات : (١ - ٢) .

القيم رحمه الله أن هذا الابتلاء رحمة بالدعاة واختبار ، يحصل لهم به الكمال النفسي والعاقبة الحميدة حيث قال :

« إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته ، بما ساقهم به إلى أجلّ الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه ، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة ، فصورته ابتلاء وامتحان وباطنه فيه الرحمة والنعمة ، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان .

فإذا تأملت حال أبينا آدم عليه السلام وما آلت إليه محنته من الاصطفاء والاجتباء والتوبة والهداية .

وكذلك أبينا الثاني نوح عليه الصلاة والسلام وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل .

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء تأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله ونصر دينه إلى أن اتخذه الله خليلًا لنفسه .

ومحنته بذبح ولده فإن الله جازاه بأن بارك في نسله وكثر حتى ملأ السهل والجبل .

وهكذا يستمر رحمه الله تعالى بذكر كثير من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم ويبين الحكمة من وراء ابتلائهم وما ساقه الله لهم من النعم والفوز في النهاية حتى وصل إلى نبينا محمد ﷺ .

فقال : وتأمل سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم ، وخوف ، وغنى ، وفقر ، وأمن ، وإقامة في وطنه ، وظعن عنه ، وتركه لله ، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان ، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أوذي ولم يحتمل في الله ما احتمله .

فلم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم فإن الله تعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمرًا أو فعله لوجهه ، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعاف مضاعفة .

فله سبحانه الحكم في ابتلاء أنبيائه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته ، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء[1] .

فمما تقدم يتضح لنا من قول ابن القيم رحمه الله تعالى أنه لا يمكن للداعية أن ينال مراده ويكون إمامًا يقتدى به إلا أن يمر بجسر الابتلاء ، فاعلم أيها الداعية أن الابتلاء شرط في دعوتك وحياتك فاحسب لذلك حسابه وأعدّ له العدة .

---

(١) « مفتاح دار السعادة » بتصرف : (١/ ٣٧١ - ٣٧٤) .

* منهج القرآن الكريم في الصبر :

بعد أن اتضح لك الأمر وأن الداعية لا يمكنه الوصول إلى مبتغاه إلا أن يمر بجسر الابتلاء فإن هذا الابتلاء يحتاج إلى وسيلة يستطيع بها أن يذلل هذه العقبات التي لا مفر منها ، ولابد أن تقع بأمر الله وفرضه فإنه سبحانه قد دلنا على السبيل الأمثل لاجتيازها وتذليلها حتى يصل إلى بر السلامة .

ألا وهو الصبر الذي وضح لنا القرآن الكريم عواقبه وفضله بالترغيب فيه والنهي عن ضده وقد ركز ابن القيم على ذلك وذكر بشارات القرآن للصابرين وأنواع الصبر وغير ذلك كما قال : قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعًا [١] .

وقد ذكر ابن القيم أكثر من عشرين نوعًا من أنواع الصبر التي وردت في القرآن الكريم[٢] ، من حيث الأمر به ، والنهي عما يضاده ، وتعليق الفلاح به ومضاعفة أجر الصابرين وغير ذلك من الأنواع ، وذكر رحمه الله تعالى بشارات القرآن الكريم للصابرين فقال :

« ولقد ضمن الوافي الصادق لأهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب ، وأخبر أنه معهم بهدايته ونصره العزيز وفتحه المبين فقال تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾[٣] .

وأخبر إنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو لو كان ذا تسلط

---

(١) « عدة الصابرين » : (٩٨) .
(٢) نفس المرجع السابق .
(٣) سورة الأنفال الآية : (٤٦) .

فقال تعالى ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا إن الله بما يعملون محيط** ﴾[١] .

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره وتقواه وصّلاه إلى محل العزّ والتمكين فقال تعالى : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[٢] .

وأخبر عن محبته لأهله ، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى : ﴿ **والله يحب الصابرين** ﴾[٣] . ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى : ﴿ **وبشر الصابرين اللذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون** ﴾[٤][٥] .

ومن هذه البشارات وهذا الاهتمام من الرب تبارك وتعالى بترغيب المؤمن في الصبر تتضح لنا عظمة هذه الصفة المباركة ومكانتها في حياة الداعية وأنها من أجلّ مقامات الإيمان .

بل هي نصف الدين كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر . قال تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾[٦] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : (١٢٠) .

(٢) سورة يوسف الآية : (٩٠) .

(٣) سورة آل عمران الآية : (١٤٦) .

(٤) سورة البقرة الآية : (١٥٥- ١٥٧) .

(٥) « عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين » : (١٨ - ١٩) .

(٦) سورة سبأ الآية : (١٩) .

ثم يوضح رحمه الله الأمر فيقول :

وهو أن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية فإن كان في نعمة ففرضها الشكر والصبر ، أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها ، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التي تسلبها وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها .

وإن كان في بلية ففرضها الصبر والشكر أيضًا ، أما الصبر فظاهر ، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه في تلك البلية فإن لله على العبد عبودية في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا[(١)] .

أقسام الصبر :

بعد أن عرفنا عظم الصبر وحاجة الداعية إليه ، بقي أن نعرف أقسامه باعتبار متعلقه وبماذا يتعلق الصبر وعلى ماذا نصبر ؟

وقد بين ابن القيم أن الصبر باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام فقال :

(١) صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها .

(٢) صبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها .

(٣) وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها .

فالأولان : صبر على ما يتعلق بالكسب ، وللعبد فيها نصيب من نفسه لأنه صبر اختياري .

أما الثالث : فهو صبر على ما لا كسب للعبد فيه ولا اختيار فيه .

---

(١) انظر « طريق الهجرتين وباب السعادتين » : (٢٦٥) و « عِدة الصابرين » : (٢٣) .

والأولان أكمل من الثالث، والأول أكمل من الثاني، ولذلك كان صبر يوسف عليه السلام عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجبِّ لأنها أمور جرت عليه بغير اختياره وليس له حيلة فيها غير الصبر، أما صبره الآخر فهو اختياري ، ومحاربة للنفس لا سيما وقد توفرت دواعي الموافقة ، من شباب ، وغربة ، وعزوبة ، وعبودية ، والمرأة جميلة ، وذات منصب وسيدته ، وغياب الرقيب ، وهي الداعية له ، وقد توعدته بالسجن والصغار، ومع هذه الدواعي كلها صبر اختيارًا وإيثارًا لما عند الله .

وأما أفضلية الأول على الثاني ، فإن الصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل ، فإن مصلحة فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه من مفسدة وجود المعصية[1] .

* **الأسباب المعينة على الصبر :**

لا شك أن لابن القيم رحمه الله منهجًا خاصًا في الدعوة فإنه إذا دعا إلى شيء يذكر جميع الجوانب التي تكتنف موضوعه ، وعندما تحدث عن الصبر وفضله وآفاته فإنه لم ينس أن يذكر الأسباب التي تعين الداعية على أن يتمسك بهذه الصفة الفاضلة بل تدفعه على أن يتصف بهذه الصفة لما ذكره من الأسباب التي تدفعه دفعًا إن كان صاحب عقل إلى أن يكون من الصابرين ، فقد ذكر رحمه الله تعالى :

« أن الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة :

أحدها : علم العبد بقبحها ورذالتها ، وأن الله حرمها ونهى عنها

---

(١) انظر « مدارج السالكين » : (١٦٣/٢) .

حماية عن الدنايا والرذائل كما يحمي الوالد الشفيق ولده عما يضره .

والثاني : الحياء من الله سبحانه ، فإن العبد متى علم بنظره إليه وأنه بمرأى منه ومسمع - استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه .

والثالث : مراعاة نعمه عليك وإحسانه إليك ، فإن الذنوب تزيل النعم ولابد فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة كما قال تعالى : ﴿ **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾[1] .

وفي مثل هذا قيل :

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن المعاصي تزيل النعم

الرابع : خوف الله وخشية عقابه ، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده .

الخامس : محبة الله ، وهي من أقوى الأسباب في الصبر عن مخالفته ومعصيته فإن المحب لمن يحب مطيع .

السادس : قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها ، والضرر الناشئ منها من سواد الوجه ، وظلمة القلب ، وضيقه وغمّه ، وحسرته وألمه ، والقسوة والحيرة في أمره ، وتخلي وليه وناصره عنه ، وتولي عدوه المبين له وغير ذلك من العواقب الوخيمة التي تصيب العاصي .

السابع : وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : وهو ثبات شجرة الإيمان في قلبه فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتم وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر .

---

(١) سورة الرعد الآية : (١١) .

ثانيًا : الصبر على الطاعات :

وقد بين رحمه الله أن الصبر على الطاعات ينشأ من معرفة هذه الأسباب السابقة .

وكذلك من معرفة ما تجلبه الطاعات من العواقب الحميدة والآثار الجميلة ومن أقوى الأسباب التي تعين على الصبر على الطاعة هي الإيمان بالله ومحبته سبحانه وتعالى فكلما قوي داعي الإيمان والمحبة في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه .

ثالثًا : الصبر على البلاء :

ثم بين رحمه الله أن الصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة :

أحدها : شهود جزائها وثوابها .

ثانيًا : شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها .

ثالثًا : شهود القدر السابق الجاري بها وأنها مقدرة في أم الكتاب فجزعه لا يزيده إلا بلاءًا .

الرابع : شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم** ﴾[1] .

قال علي بن أبي طالب : ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة .

الخامس : أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه إليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به ، وأن يعلم عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم وحسن تأثيره قال تعالى : ﴿ **وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم**﴾[2] .

---

(١) سورة الشورى الآية : (٣٠) .

(٢) سورة البقرة الآية : (٢١٦) .

وذكر غير ذلك من الأسباب التي أنصح كل مسلم بمراجعتها وتفحصها في مرجعها الأصلي[١] .

رابعًا : التواضع

قال الله تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا** ﴾[٢] . أي بسكينة ووقارًا متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين .

وفي « مسلم » عن رسول الله ﷺ : « **إن الله أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد** »[٣] .

والتواضع كما حكاه ابن القيم عن الجنيد: هو خفض الجناح ولين الجانب[٤].

وهو أن يمشي المؤمن بين الناس هونًا ، وأن يخفض جناحه لمن يلقاه ، وأن لا يتعالى على الناس بمنصب أو جاه ، وأن يأكل مع الفقير والغني أي طعام كان ، إلى غير ذلك من أوجه التواضع ؛ ولك أيها الداعية برسول الله أسوة حسنة وهو الذي لو شاء أن تكون له جبال مكة ذهبًا لجعلها الله ، وهو الذي دان له جميع العرب ومع ذلك كان :

يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، ولم ينتقم لنفسه أبدًا ، وكان في بيته في خدمة أهله ، وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويحلب الشاة لأهله ، ويأكل مع الخادم .

---

(١) انظر « طريق الهجرتين » (ص ٢٧٠ - ٢٧٧) .

(٢) سورة الفرقان الآية : (٦٣) .

(٣) رواه مسلم في كتاب « الجنة » برقم (٢٨٦٥) باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار : (٤/٢١٩٨) .

(٤) « مدارج السالكين » : (٢/٣٤٠) .

وكان ﷺ هين المؤنة لين الخلق ، كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بسامًا متواضعًا من غير ذلة ، جوادًا من غير سرف ، رقيق القلب رحيمًا بكل مسلم خافض الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم[١] .

من أجل ذلك وصل ﷺ إلى ما وصل إليه من محبة الناس له ، والرغبة فيه من الصغير والكبير حتى أصبح من رأه بديهة هابه ، فإن من تواضع لله رفعه[٢] ، وصدق من قال :

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه إلى طبقات الجوّ هو وضيع

واعلم أيها الداعية أنك تعمل لتكسب أولاً رضى الله سبحانه في تنفيذ أمره ، وثانيًا جمهور الناس لينضموا إلى جانب ما تدعو إليه ؛ ولا يمكنك أن تحصّل أحد الكسبين إلا بالتواضع .

وكم من داعية لم يقبل من كلامه شيء لما يرى فيه الناس من كبر وأنفة .

وبعد أن ذكر رحمه الله التواضع وما يجلبه هذا الخُلق من حب الناس والرفعة والكرامة ، ذكر نقيضه وما يجلبه من البغض والكراهة لصاحبه في الدنيا ، والنار والعياذ بالله في الآخرة ألا وهو خُلُق الكبر فقال :

« أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين : الكبر والحرص ، فكان الكبر ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه ، وذنب آدم على نبينا وعليه السلام كان من الحرص والشهوة فكان عاقبته التوبة والهداية .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » : (٢/٣٤١ - ٣٤٢) .

(٢) اقتباس من قول النبي ﷺ من الحديث في « مسلم » برقم (٢٥٨٨ : ٤/٢٠٠١) .

فأهل الكبر والإصرار ، والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس ؛ فجعل الله النار دار المتكبرين كما قال تعالى : ﴿ **فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين** ﴾(١) ، وقال : ﴿ **أليس في جهنم مثوى للمتكبرين** ﴾(٢) وقال رسول الله ﷺ : « **لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر** »(٣)(٤).

*** درجات التواضع :**

ثم ذكر رحمه الله درجات التواضع نقلًا عن الهروى فقال : وهو على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى :

التواضع للدين ، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولًا ، ولا يتهم للدين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً .

وبعد ذلك أخذ يحلل هذه الدرجة فقال : إن التواضع للدين هو : الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ والاستسلام له والإذعان ، وذلك بثلاثة أشياء :

الأول : أن لا يعارض شيئًا مما جاء به بشيء من المعارضات الأربع السارية في العالم المسماة : بالمعقول ، والقياس ، والذوق ، والسياسة .

الثاني : أن لا يتهم دليلًا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة ، أو ناقص الدلالة ، أو قاصرها ، أو أن غيره كان أولى منه ، ومتى عرض

(١) سورة النحل : (٢٩) .
(٢) سورة الزمر : (٦٠) .
(٣) رواه مسلم في « الصحيح » كتاب الإيمان برقم (١٤٧) باب تحريم الكبر وبيانه : (١/ ٩٣) .
(٤) انظر « مدارج السالكين » : (٢/٣٤٥) .

له شيء من ذلك فليتهم فهمه ، وليعلم أن الآفة منه ، والبلية فيه كما قيل .

وكم من عائب قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم

وإذا رأيت من أدلة الدين ما يشكل عليك وينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمته وشرفه استعصى عليك ، وأن تحته كنزًا من كنوز العلم ولم تؤت مفتاحه بعد .

الثالث : أن لا تجد إلى خلاف النص سبيلًا ألبته ؛ لا تقليدًا لشيخ ولا لرأي يراه إذا ما وجد النص الصريح .

الدرجة الثانية :

أن ترضى لما رضي الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا ، وأن لا ترد على عدوك حقًّا ، وأن تقبل من المعتذر معاذيره .

يقول رحمه الله عن هذه الدرجة :

إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا ، أفلا ترضى أنت به أخًا ، فعدم رضاك به أخًا - وقد رضيه سيدك الذي أنت عبده عبدًا لنفسه - عين الكبر .

قوله : « وأن لا ترد على عدوك حقًّا » ، أي لا تصح لك درجة التواضع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض ، وإذا لم ترد عليه حقه ، فكيف تمنعه حقًّا له قبلك ؟

وأما « قبولك من المعتذر معاذيره » أي من أساء إليك ثم جاء يعتذر من إساءته ، فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقًّا كانت أو باطلاً

وتكل سريرته إلى الله تعالى كما فعل رسول الله مع المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزو .

الدرجة الثالثة :

« أن تتواضع للحق ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة ورؤية حقك في الصحة ، وعن رسمك في المشاهدة » .

يقول رحمه الله : « التواضع » بأن تخدم الحق سبحانه ، وتعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره لك لا على ما تراه من رأيك ولا يكون الباعث لك داعي العادة .

وأما « نزوله عن رؤية حقه في الصحبة » فمعناه أن لا يرى لنفسه حقًّا على الله لأجل عمله فإن عبوديته مع الله بالفقر المحض ، والذل والانكسار ، وأن عدم رؤية العبد لنفسه حقًّا على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه وجعله حقًّا لعبده[1] .

خامسًا : الزهد

قال تعالى : ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾[2] ، وقال : ﴿**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾[3] .

وقال : ﴿ **قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى** ﴾[4] .

---

(١) « مدارج السالكين » بتصرف : (٢/٣٤٧ - ٣٥٢) .

(٢) سورة النحل الآية : (٩٦) .

(٣) سورة الحديد الآية : (٢٠) .

(٤) سورة النساء الآية : (٧٧) .

وقال : ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجًا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى﴾[١] .

يقول ابن القيم :

القرآن الكريم مملوء من التزهيد في الدنيا ، والإخبار بخستها وقلتها وانقطاعها ، وسرعة فنائها ، والترغيب في الآخرة ، والإخبار بشرفها ودوامها فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قبله شاهدًا يعاين به حقيقة الدنيا والآخرة ويؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار[٢] ، ثم يبين رحمه الله تعالى أقوال الناس في الزهد وبين أن كلًّا أشار إلى ذوقه ونطق عن حاله وذكر قول شيخ الإسلام في الزهد بأنه « ترك ما لا ينفع في الآخرة » .

وقال : هذه العبارة من أحسن ما قيل في الزهد وأجمعها[٣] .

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه ، الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام ، والثاني : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين .

والذي أجمع عليه العارفون أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخذه في منازل الآخرة ، وعلى هذا صنف المتقدمون كتبهم كـ « الزهد» لعبد الله بن المبارك وللإمام أحمد وغيرهم ولا يتم اسم الزهد لأحد حتى يزهد في ستة أشياء :

---

(١) سورة طه الآية : (١٣١) .

(٢) « مدارج السالكين » : (١٠/٢) .

(٣) « مدارج السالكين » : (١١/٢) .

المال ، والصور ، والرياسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما دون الله[(١)] .

وقد بين رحمه الله أنِ الزهد لا يعني رفضها وتحريمها وأنها تنافي الزهد ودلل على ذلك بأن داود وسليمان عليهما السلام أزهد أهل زمانهما ولهما من المال والملك والنساء ما لهما ، وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق ، وله تسع نسوة ، وكان علي بن أبي طالب والزبير وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الأموال وذكر غيرهم من سلف هذه الأمة .

ثم بين أحسن ما قيل في الزهد من كلام فقال :

ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك[(٢)] .

والمراد منك أيها الداعية : « التجرد عن المطامع ، والزهد في الدنيا لا أعني به زهدًا نصرانيًا ولا زهدًا رهبانيًا ، ولا رهبانية في الإسلام ولكن الدعوة تحتاج إلى شيء من سمو النفس ، وعلو الهمه ، والتجرد عن المطامع ، والزهادة في المناصب والوظائف الكبيرة .

فإن من توجهون إليهم الدعوة إذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم وفيما وسع الله به عليهم فإنهم يشكون في إخلاصكم ويكونون حربًا عليكم » [(٣)] .

وقد أكثر رحمه الله تعالى من الصفات والأخلاق الحميدة التي يجب

---

(١) « مدارج السالكين » : (٢/١١) .
(٢) « مدارج السالكين » : (٢/١٣) .
(٣) « حكم الدعوة وصفة الدعاة » أبو الحسن الندوي (ص٢٥) .

توفرها في الداعية بصفته خليفة رسول الله ﷺ الذي حمل مشاعل الأخلاق كلها .

فتحدث عن العفة ، التي تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله على الحياء وهو رأس كل خير ، وتمنعه من الفحشاء والبخل والكذب والنميمة والغيبة ، وتحدث عن الشجاعة النفسية : التي تحمله على عزة النفس وإيثار معالي الأخلاق ، والشيم ، وعلى البذل ، والندى الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته .

وتحمله على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة شجاعته يمسك عنانها ويكبحها بلجامها عن النزع والبطش كما قال النبي ﷺ : « **ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب** »[1] .

إلى غير ذلك من الأخلاق الفاضلة التي تحدث عنها رحمه الله تعالى من العدل والأناة والرفق والحلم والرحمة[2] .

سادسًا : الصدق

الصدق منجاة للعبد ومنبع الثقة ، وهو صفة لازمة للمؤمن لا تنفك عنه قال النبي ﷺ « **يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب** »[3] . وهذا لأن الكذب من أسقط الصفات وأقبحها واتفق عقلاء العالم على قبحها وهبوط صاحبها عن مصاف الرجولة .

ويكفي فيه إهانة وخزيًا أن يشير الناس إليك بالكذب ، وأن يأتي من

---

(١) رواه البخاري كتاب « الآدب » باب الحذر من الغضب (٧٦: ٩٩/١) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » : (٣٢٠/٢) .

(٣) رواه أحمد في « المسند » برقم (٢٢٢٢٤- ٢٥٢/٥) .

عرف بهذه الصفة يومًا بكلام صدق فيكذبه الناس ، وأنها من صفات المنافقين .

يقول ابن القيم رحمه الله عن الصدق :

« هو الطريق الأقوم الذي مَنْ لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان ، مَنْ نطق به علت على الخصوم كلمته فهو روح الأعمال ومحك الأحوال » [١] .

ومن أعظم صفات النبي ﷺ التي كانت تقف عثرة في طريق أعدائه أنهم لم يستطيعوا أن يكذبوه بما جاء به لاتصافه عندهم بهذه الصفة الكريمة ومعرفته بها ، وهي في نفس الوقت كانت دليلًا على صدق ما جاء به وإيمان الكثير من الناس بسببها .

وقد أمر سبحانه أهل الإيمان أن يكونوا مع الصادقين فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾[٢] ، وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال : ﴿ **ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم** ﴾[٣] والإيمان أساس الصدق والنفاق أساس الكذب[٤] ، والصدق مرتبط بالإيمان والتقوى كما قال الرسول ﷺ : « **إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل**

---

(١) « مدارج السالكين » : (١٧٩/٢) .

(٢) الآية من سورة التوبة : (١١٩) .

(٣) الآية من سورة الأحزاب : (٢٤) .

(٤) انظر « مدارج السالكين » : (٢/ ٢٨٠) .

ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا »[١] .

وابن القيم رحمه الله بين أن الصدق ليس مقتصرًا على الصدق في القول فقط بل إن الصدق يكون في ثلاثة أمور هي :

(١) صدق في الأقوال . (٢) وصدق في الأعمال . (٣) وصدق في الأحوال :

فالصدق في القول : هو استواء اللسان على الأقوال وعدم التحريف فيها والزيادة والنقصان مما يصور الكلام بغير ما قصد منه أو يختلق قولًا يريد به شرًا .

وأما الصدق في الأعمال : هو استواء الأفعال على الأمر والمتابعة ، لما جاء به المصطفى ﷺ .

وأما الصدق في الأحوال : هو استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص لله وإفراغ الوسع وبذل الطاقة ، فبذلك تخرج جميع أنواع الكذب سواء كانت قولية أو عملية من أعمال القلب أو الجوارح[٢] .

*** أخلاق الداعية :**

لا شك أن الاخلاق والصفات متلازمة ومترابطة ، فإن الخلق إذا استحكم في الشخص أصبح صفة له فمثلاً خلق الصدق ، أو الحلم ، أو التواضع إذا كان خلقًا ملازمًا للإنسان فإنه يصبح صفة لازمة له فنقول هذا موصوف بالصدق أو الحلم أو التواضع .

وهذا ما قصدناه في صفات الداعية السابقة ، أما هنا فنريد أن نوضح

(١) رواه البخاري في كتاب « الأدب » رقم الباب (٦٩ جـ ٩٥/٧) .

(٢) انظر « مدارج السالكين » : (٢: ٢٨١) .

أخلاق الداعية عمومًا التي تمثل الدين وهي حسن الخلق الذي يقول عنه ابن القيم أنه « بذل الجميل وكف القبيح » . ويذهب إلى أن الدين كله خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين [١] .

وسوف نتعرف على هذه الأخلاق من منطلق معيار السلوك الإنساني الذي تمثل في سلوك النبي ﷺ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهذا أقرب الوسائل في ترقية الأخلاق الإنسانية لمن أراد أن يرتفع إلى مصاف الأولياء والصالحين .

*** التأسّي بالنبي ﷺ :**

اعلم أيها الداعية أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتأسي بنبيه محمد ﷺ بقوله: ﴿**لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا**﴾[٢] . ووصفه سبحانه بقوله : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم**﴾[٣].

وأنت أيها الداعية مأمور بتطبيق منهج القرآن الكريم وتشريعاته والرسول ﷺ يمثل الصورة الكاملة الشاملة الحية الخالدة للقرآن والإسلام وفي « الصحيحين » أن هشام بن حيكم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت : « كان خلقه القرآن فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا » [٤] .

« حقًا إن النبي ﷺ كان الترجمان الحي لفضائل القرآن والصورة المتحركة لتوجيهاته الخالدة »[٥] .

---

(١) انظر « مدارج السالكين » : (٢/٣٢٠) .

(٢) الآية من سورة الأحزاب : (٢١) .

(٣) الآية من سورة القلم : (٤) .

(٤) رواه مسلم كتاب « صلاة المسافرين » رقم الحديث (١٣٩ : ١/ ٥١٣) .

(٥) « القدوة الصالحة »: (ص ٣٤) لحسني أدهم جرار، طبع دار الضياء عمان الطبعة الأولى (١٤٠٥هـ).

وأيضًا فإنك أيها الداعية في عمل مجد وفي تعرض للبلاء والمحن ، لن تجد مثلًا أحسن من رسول الله ﷺ في تحمله وصبره وحلمه وجهاده ولن تجد أفضل منه عليه السلام في مواجهة الأعداء وتحمل جميع المشاق حتى وصل إلى ما وصل إليه .

والداعية خليفة رسول الله وهو قدوة الداعية الذي يجب أن يتأسى به ويقتبس أخلاقه وشمائله لذلك سوف نتجول بك أيها الداعية في إحدى حدائق ابن القيم الغَنّاء التي تشرح النفوس وتسمو بها علّك أيها الداعية تقطف ثمارها وتستفيد منها .

وذلك عندما يصف رحمه الله ما جبل الله عليه رسوله ﷺ من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم فيقول :

كان أعلم الخلق ، وأعظمهم أمانة ، وأصدقهم حديثًا وأجودهم وأسخاهم وأشدهم احتمالًا وأعظمهم عفوًا ومغفرة ، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا كما وردت صفته في التوراة « محمد عبدي ورسولي سميته المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء ، وأفتح به أعينًا عميًا ، وأذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا حتى يقولوا : لا إله إلا الله »[1] ، فهو أرحم الخلق وأرأفهم بهم ، وأعظم الخلق نفعًا لهم في دينهم ودنياهم ، وأفصح خلق الله ، وأحسنهم تعبيرًا عن المعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزه الدالة على المراد ، وأصبرهم في مواطن الصبر وأصدقهم في مواطن اللقاء ، وأوفاهم بالعهد والذمة وأشدهم تواضعًا وأعظمهم مكافأة على

(١) رواه البخاري في كتاب « البيوع » (٥٠) والإمام أحمد برقم (٦٦٢٣: جـ٢ ص ١٧٤) .

الجميل بأضعافه وأقوم الخلق بما يأمر به ، وأتركهم لما ينهى عنه ، وأوصل الخلق لرحمه[١] .

قال علي رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أجود الناس صدرًا وأصدقهم لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ »[٢] .

يقول ابن القيم رحمه الله عن تفسير هذه المعاني العظيمة والصفات الجليلة :

إن قوله : « كان أجود الناس صدرًا » أراد به ، بر الصدر وكثرة خيره وأن الخير يتفجر منه تفجرًا كما قال بعض أهل العلم : ليس في الدنيا كلها محل أكثر خيرًا من صدر رسول الله ﷺ قد جمع الخير بحذافيره وأودع في صدره .

وقوله : « أصدق الناس لهجة » ، هذا مما أقر له به أعداؤه المحاربون له ولم يجرب عليه أحد من أعدائه كذبة واحدة قط ، دع شهادة أوليائه كلهم له بذلك ، فقد حاربه أهل الأرض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم وليس أحد منهم يومًا من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة .

قوله : « ألينهم عريكة » ، يعني سهلًا لينًا قريبًا من الناس ، مجيبًا لدعوة من دعاه ، قاض لحاجة من استقضاه ، جابرًا لقلوب من سأله لا يحرمه ولا يرد خائبًا ، إذا أراد أصحابه منه أمرًا وافقهم عليه وتابعهم فيه ،

---

(١) « جلاء الأفهام » : (١١٦) .

(٢) رواه الترمذي في كتاب « الشمائل » مطولاً رقم : (٦) .

وإن عزم على أمر لم يستبد دونهم بل يشاورهم ، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم .

وقوله : « أكرمهم عشرة » ، أي أنه يعاشر جليسه أتمها وأحسنها وأكرمها فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في مقاله ، ولا يطوي عنه بِشْرَه ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة ونحوها ، فكانت عشرته لهم احتمال أذاهم وجفوتهم جملة ، لا يعاقب أحدهم ولا يلومه ولا يباديه بما يكره ، من خالطه يقول : (أنا أحب الناس إليه) ، لما يرى من لطفه به ، وقربه منه وإقباله عليه واهتمامه بأمره ، وتضحيته له ، وبذل إحسانه واحتمال جفوته فأي عشرة كانت أو تكون أكرم من هذه العشرة ؟!

وقد اتصف بصفتين خص الله بهما أهل الصدق والإخلاص وهما الإجلال والمحبة فكان قد ألقى عليه هيبة منه ومحبة فكان كل من يراه يهابه ويجله ، ويملأ قلبه تعظيمًا وإجلالًا وإن كان عدوًّا له فإذا خالطه وعاشره كان أحب إليه من كل مخلوق[1] .

وقد وصفه أحد الشعراء بقوله :

دع ما ادعته النصارى في نبيهم ... واحكم بما شئت مدحًا فيه واحتكم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف ... وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

فإن فضل رسول الله ليس له ... حد فيعرب عنه ناطق بفم

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... وأنه خير خلق الله كلهم

---

(١) انظر ذلك في كتاب « جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام » لابن القيم : (١١٨ - ١٢٠) .

وهذا حق فإن وصف رسول الله أو ذكر أخلاقه وما جبل عليه من خلق لا يستطيع أحد الإعراب عنه ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وإنما ذكرنا هذه الأخلاق والصفات له من أجل توضيح الأمر للداعية عساه أن يحاول الاقتداء به ، وإن كنا لا ندعي أن أحدًا يستطيع أن يجاريه في صفاته ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله ، والله المستعان وعليه التكلان .

* * *



الفصل الرابع

أساليب الدعوة

ووسائلها عند ابن القيم



* تمهيـــد :

قبل أن أبين الأساليب والوسائل التي استخدمها ابن القيم في الدعوة إلى الله ، أحب أن أوضح سبب الخلط الذي يجده الناظر في كتب الدعوة التي عنون لها بطرق الدعوة ، أو مناهج الدعوة ، أو أساليبها أو وسائلها فإنه يجد أن جميع الكُتَّاب يتحدثون عن موضوع واحد ، ولكن العناصر والأهداف والوسائل والأساليب قد اختلفت وتباينت قربًا وبعدًا وهذا راجع إلى اشتراك هذه المسميات في المدلول اللغوي فلو رجعت إلى كتب اللغة(١) ، لوجدت أن هذه الأسماء تعود في معناها إلى « الطريق » أما الوسيلة فهي ما يتوصل به إلى هذا الطريق .

وعلى هذا يكون مرادهم أن يبينوا الطريق الأمثل الذي يمكن الداعية أن يدعو إلى الله به سالكًا أقرب الطرق إليها وأحسنها .

والمثالية في هذا الطريق وتصور الأمثل فيه اختلف من كاتب إلى كاتب متأثرًا بالنزعات المذهبية والاعتقادية والاجتماعية والثقافية التي يعيشها الكاتب أو الجماعة التي ينتسب إليها مما أدى إلى اختلاف مناهجهم ووسائلهم وأساليبهم .

---

(١) « المنهج » في كتب اللغة على وزن مذهب و « المنهاج » : الطريق الواضح ، ونهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه أي سلكه . انظر « لسان العرب » (٢/٣٨٣) و « مختار الصحاح » (٦٨١) والأسلوب الطريق والوجه ، والمذهب ، يقال : أنتم في أسلوب سوء ، ويجمع: أساليب ، والأسلوب الطريق تأخذ فيه ، والأسلوب بالضم : الفن يقال : أخذ فلان في أساليب من القول : أي أفانين منه. « لسان العرب » : (١/٤٧٣) .

وأما الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير ، والجمع الوسل الوسائل وهي في الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويقترب به ، نفس المرجع : (١١/ ٧٢٥) .

ومرادي في هذا التمهيد أن أبين الوسائل والأساليب المساعدة التي تهدف إلى خدمة الدعوة ونجاحها من فنون القول والعرض ، وكيفية توصيل الدعوة ، وهذه في الغالب ليس عليها كبير معول لو اختلفت وأدخل بعضها ببعض لأنها تصب في بوتقة واحدة هي خدمة الدعوة وأهدافها ، ولما بينها من الترابط ودخول بعضهما في الآخر وذلك مثل الخطابة فإن جعلتها وسيلة من وسائل الدعوة ، فإن الخطبة تحمل في طياتها الأساليب من وعظ وإرشاد وترغيب وترهيب وحكمة وغير ذلك .

وكذلك فإن الداعية عندما يجعل من أخلاقه وصفاته وأعماله الخيرة أسلوبًا من أساليب دعوته وجذب المدعو إلى الاقتداء به ، فإن القدوة الحسنة تكون في نفس الوقت وسيلة من وسائل دعوته يتوصل بها إلى جذب المدعو إلى الاقتداء به ومعرفة الإسلام عن طريق هذا العمل ، فأصبحت القدوة في هذا الموضوع أسلوبًا ووسيلة في نفس الوقت ، فيتضح من ذلك أن بينهما عمومًا وخصوصًا وأن أحدهما لو أفرد دخل فيه مسمى الآخر وهكذا .

ومما ينبغي أن يتفطن له الداعية أن الأساليب والوسائل من أهم مقومات نجاح الدعوة إلى الله ويجب عليه أن يهتم بها وأن لا يهملها ، فكم رأينا من دعوة باطلة كانت الأساليب والوسائل سببًا في انتشارها وذيوعها مع بطلانها وفسادها ، وكم رأينا من دعوة صالحة حسنة بقيت عند أهلها ودعاتها ولم تتعداهم ، لعدم معرفتهم للأساليب والوسائل الحسنة .

وكذا يجب على الداعية أن يتحرى في الوسائل ويبحث عنها ويرى في الدعوات والدعاة ووسائلهم فيأخذ كل ما رآه حسنًا يؤدي إلى غرضه من الدعوة إذا كانت موافقة لشرع الله ، ولا يقول أن هذه وسيلة فلان أو

علان وهو ساقط في المنهج أو الاعتقاد فنحن لا نطالبك أيها الداعية بأخذ كل ما جاء عنه بل نطالب بأخذ الوسيلة الفعالة في نجاح الدعوة من أي شخص بشرط أن لا تخالف قواعد الإسلام .

فإن المغريات في العصر الحاضر قد كثرت وتفنن العلم في إخراج مسليات ولهو ، قد صرفت قلوب الناس عن الحق فلابد في معرفة الأساليب والوسائل التي تجاري هذا الزحف وتجذب إليها المدعو .

* * *

أولاً : الأساليب وهي

١ - أسلوب الحكمة

٢ - أسلوب الموعظة

٣ - أسلوب الجـدل

٤ - أسلوب الجهـاد



أساليب الدعوة

يرى ابن القيم رحمه الله أن القرآن الكريم ودعوته جمعت أساليب الدعوة وبينتها وهي نوعان : قولية وفعلية ، فأما الأساليب القولية فقد جمعتها الآية الكريمة وهي قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[1] ، وأما الفعلية فهي الجهاد في سبيل الله تعالى .

فيقول رحمه الله :

المنتفع بالآيات من الناس نوعان :

أحدهما : ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج بأن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع ذكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط ، لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبًا فيه فهو قد أدركه مجملًا . ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملًا .

النوع الثاني : من ليس له هذا الاستعداد والقبول فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه ، وأحضره قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله ، وهذه طريقة أكثر المستجيبين ، ولهم نوع ضرب الأمثال ، وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها ، فالأولون هم

---

(١) سورة النحل الآية : (١٢٥) .

الذين يدعون بالحكمة ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا وإلا فالمجالدة فهؤلاء لابد لهم من جدال أو جلاد .

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهذه الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك** ﴾، الآية فهؤلاء المدعوون بالكلام ، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله[١] .

ويقول رحمه الله في موضع آخر عن تفسير قوله تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك** ﴾ ، أن الله سبحانه جعل مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق .

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة ، والقابل الذي عنده غفلة وتأخر يدعى بطريق الموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة ، والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن .

ثم يبين أن هذا هو المعنى الصحيح لتفسير هذه الآية وينقد المقلدين الذين حاولوا تفسير هذه الآية على أصول الفلسفة الخارجة عن الأصول الإسلامية فيقول :

هذا هو الصحيح في معنى الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان : أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص ، والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة الكلام ، والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢١٧) .

المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول الفلسفة وهو مخالف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة[1] .

فيتضح مما تقدم أن ابن القيم لا يستخدم في الدعوة من الأساليب إلا ما استخدمه القرآن الكريم فأساليب القرآن هي :

أسلوب الحكمة ، وأسلوب الموعظة ، وأسلوب المجادلة ، وأسلوب الجهاد .

وسوف نتطرق لشرح هذه الأساليب ، ولمن تستخدم كما وضح ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى .

* * *

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١٩٥) .

أسلوب الحكمة

ورد ذكر الحكمة في القرآن الكريم بمعانٍ متعددة فقد أمر بها نبيه وأمته باستخدامها في دعوتهم لله سبحانه وذكر أنبياءه مقرونين بالحكمة والحكم وأنه آتاهم الحكمة والحكم وقرن إيتاءهم الحكمة بالكتاب وقد اختلفت أقوال العلماء في ذكر المراد منها ، وسأبين معناها في اللغة والاصطلاح حتى نعرف المقصود بهذا الأسلوب الرباني .

والحكم في اللغة : مصدر قولك : حكم بينهم يحكم أي قضى ، والحكيم العالم المتقن للأمور ، وأحكمت الشيء فاستحكم أي صار محكمًا[1] .

وفي الاصطلاح :

« هي مصدر من الإحكام وهو الإتقان في قول أو فعل ، فكتاب الله حكمته وسنة نبيه حكمته وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة ، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه فقيل للعلم : حكمة لأنه يمتنع به »[2] .

قال ابن القيم :

« قال ابن قتيبة[3] ، والجمهور : الحكمة إصابة الحق والعمل به وهي

---

(١) « الصحاح » للجوهري : (١٩٠٢/٥) .

(٢) « الجامع لأحكام القرآن » : (٣٣٠/٣) .

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري : أبو محمد من أئمة الأدب ولد ببغداد وسكن الكوفة، ولي القضاء وله من المصنفات الكثيرة من اشهرها : « تأويل مختلف الحديث » ، و « أدب الكاتب » ، =

العلم النافع والعمل الصالح »[1] .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من أقوال السلف في معنى الحكمة :

وأحسن ما قيل في الحكمة : أنها معرفة الحق والعمل به والإصابة في القول والعمل[2] .

كما أنه بين أن الحكمة في القرآن الكريم تأتي مفردة ومقترنة فالمفردة كقوله تعالى : ﴿ **يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا** ﴾[3] ، والمقرونة كقوله تعالى : ﴿ **وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم** ﴾[4] .

فالمفردة فسرت بالنبوة وعلم القرآن ، وفسرت بالقرآن والفهم فيه ، وفسرت بالقرآن والعلم والفقة ، وقد بينا أن ابن القيم قد اختار أنها معرفة الحق والعمل به ، والإصابة في القول والعمل أما المقرونة بالكتاب فهي السنة[5] .

وعلى هذا فالحكمة هي وضع الشيء في موضعه اللائق به سواء كان قولًا أو فعلاً قال ابن القيم :

« فالحكمة إذًا : فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي في الوقت

= و « المعارف » ، و « المعاني » و « عيون الأخبار » و « الأمة والسياسة » وغيرها كثير توفي ببغداد سنة (٢٧٦ هـ) رحمه الله انظر « وفيات الأعيان » (٢٥١/١) و « الإعلام » (١٣٧/٤) .

(١) « مفتاح دار السعادة » .

(٢) « مدارج السالكين » : (٤٩٨/٢) .

(٣) الآية من سورة البقرة : (٢٦٩) .

(٤) الآية من سورة النساء : (١١٣) .

(٥) « مدارج السالكين » : (٤٩٨) .

الذي ينبغي ، والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه فالرجل الكامل من له إرث كامل من أبيه ونصف الرجل كالمرأة لها نصف ميراث والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله [(١)] .

كما أنه يرى أن الرجل لا يكون حكيمًا إلا بفهم القرآن ، والفقه في شرائع الإسلام وحقائق الإيمان [(٢)] . وذلك لأن كتاب الله وسنة نبيه قد جمعت جميع معاني الحكمة فكل عمل يمكن أن يعمله الإنسان ويقوله ويوصف بأنه حكيم فإن في الكتاب والسنة ، ما يفوق معناه ووصفه ؛ فالله سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، وشريعته أحكم الحكمة على الحقيقة .

والحكمة تجمع أساليب الدعوة كلها من وعظ وجدل وقوة وحجة وإبطال دعوى الخصم واستدلال وغير ذلك لأن معناها الشامل اسم لكل العلوم ، ومن هنا كانت صفة للأنبياء عليهم السلام لأنهم استخدموا جميع الأساليب الدعوية التي أمرهم الله باستخدامها .

فعلى ذلك تكون الحكمة هي معرفة ما جاء عن النبي ﷺ من الكتاب والسنة وما يتعلق بهما من علوم شرعية ، فتكون الدعوة بالحكمة بما ورد فيها من علوم تغني الداعية المتبصر عن أي شيء سواهما ، لأن شريعة الإسلام لم تترك صغيرًا ولا كبيرًا إلا أوضحته كل الإيضاح .

وعلى هذا فإن خير ما يستخدمه الداعية من الحكمة هو ما ورد في القرآن الكريم أو في سنة النبيّ محمد ﷺ ففيها أرقى أنواع الحكمة ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ **وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى** ﴾[(٣)] ،

---

(١) « مدارج السالكين » : (٢/٤٩٩) .

(٢) نفس المرجع : (٢/٤٩٨) .

(٣) سورة النجم الآية : (٣ - ٤) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « **أوتيت جوامع الكلم** »[1] ، فهما يصلحان أن يدعى بهما جميع الطبقات في المجتمع الإنساني كما سنرى ذلك إن شاء الله من عرض لاحق .

*** لمن يستخدم أسلوب الحكمة ؟**

عرفنا فيما سبق أن ابن القيم يرى أن أسلوب الحكمة يدعى به القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه ، وهذا هو صاحب الفطرة السليمة والعقل الرشيد الذي يعرف الإسلام وأنه هو الحق بمجرد اطلاعه على تعاليم الإسلام ومعانيه الباهرة التي تبهر العقول الصحيحة فتخضعها إلى سلطانها والإيمان بها لمعرفتها إياها بفطرتها التي أدركت حسنها وكمالها وهذه أعظم أنواع الهداية بالإسلام وأكثرها ، وهي درجة هداية الكمّل من البشر أصحاب العقول النيرة والفطر المستقيمة ، فتحكم تلك العقول وتقضي عليها باتباعها فهي حاكمة عليها فإذا ما سيطرت عليها وتغلغلت في أعماقها صبغت هذه العقول فوصفتها بالحكمة ، فتلتقي هذه العقول الفطرية مع الإسلام الفطري .

*** الإسلام دين الفطرة :**

قال تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾[2] .

وفي « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي

---

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ لمسلم في كتاب المساجد رقم الحديث (٥٢٣) : (١/ ٣٧١) والبخاري في كتاب التعبير باب : (١١: جـ٨/ ٧٢) .

(٢) الآية من سورة الروم : (٣٠) .

ﷺ أنه قال : « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة جمعاء هل ترى فيها جدعاء** »[١] ، والفطرة هي دين الإسلام كما قرر ذلك ابن القيم في كتابه « شفاء العليل » وقال:

« قال شيخنا : والدلائل على ذلك كثيرة ولو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام لما سألوا عقيب ذلك : أرأيت من يموت من أطفال المشركين ؟ لأنه لم يكن هناك ما يغير الفطرة [٢] .

وبعد أن ذكر الأدلة وأقوال السلف الدالة على أن الفطرة المراد بها الإسلام بين أن ذلك لا يعني أنه خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام ، لقربه ومحبته ، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ، ومحبته ، وإخلاص الدين له ، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء ، بحسب كمال الفطرة ، إذا سلمت من المعارض ، فكل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره ، وإقراره له بربوبيته ، وادعائه له بالعبودية فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة .

ويقول أن كل حركة إرادية فإن الموجب لها قوة في المريد فإذا أمكن في الإنسان أن يحب الله ويعبده ويخلص له الدين كان فيه قوة تقتضي ذلك إذ الأفعال الإرادية لا يكون سببها إلا من نفس الحي المريد الفاعل ولا يشترط في إرادته إلا مجرد الشعور بالمراد فما في النفوس من قوة المحبة له إذا شعرت به تقتضي حبه إذا لم يحصل معارض[٣] ، ويصدقه قوله تعالى : ﴿ **فإذا ركبوا في**

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز : (١٠٤/٢) .

(٢) انظر « شفاء العليل » : (٢٨٦) .

(٣) نفس المرجع : (٢٨٩) .

الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾[١] . وهذه الآية دالة على أن إرادة الكافر من ربه النجاة تدل على قوة في المريد مركوزة في فطرته إلا أن المعارض موجود فيها وعندما ذهب المعارض رجع إلى ما هو مركوز في فطرته وهو اللجوء إلى الله وحده .

فالفطرة السليمة هي الباقية على ما خلقت عليه غير متأثرة بمؤثرات خارجية ويبقى الإنسان على ما خلق عليه من صفاء الطبع ونقاء السريرة .

والإسلام دين الفطرة وهو الموافق لها ، لذلك سمى الله سبحانه ما كمل به موجبات الفطرة بذكرى وجعل رسوله مذكرًا فقال : ﴿**فذكر إنما أنت مذكر ﴾**[٢] . وقال : ﴿ **فذكر إن نفعت الذكرى ﴾**[٣] ، وقال : ﴿ **فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾**[٤] .

وهذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكرًا لهم بما هو مركوز في فطرهم من معرفته ومحبته وإيثاره على غيره ، فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل ، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها، وهكذا شأن الشرائع التي جاءت بها الرسل فإنها أمر بمعروف ونهي عن منكر وإباحة طيب وتحريم خبيث وأمر بعدل ونهي عن ظلم، وهذا كله مركوز في الفطرة، وكمال تفصيله وتبيينه موقوف على الرسل[٥].

---

(١) الآية من سورة العنكبوت : (٦٥) .

(٢) سورة الغاشية الآية : (٢١) .

(٣) سورة الأعلى : (٩) .

(٤) سورة الدخان : (٥٨) .

(٥) انظر « شفاء العليل » : (٣٠٢) .

فصاحب هذه الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالفلسفات والمذاهب الباطلة يدعى بطريقة الحكمة أي بوحي الله وكتابه كما يقرر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

« ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفى بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره من مواضع شتاته ، بل قلبه واع ذكي قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الإسلام إليه فقط ، لكمال استعداده وصحة فطرته ، فإذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبًا فيه ، فهو قد أدركه مجملًا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً ، وهذا حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل ، كما هي حال الصديق الأكبر رضي الله عنه[١] .

فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ويأباه يدعى بطريق الحكمة[٢] ، لأن من مدلولات الحكمة أنها مواعظ القرآن كما قال تعالى : ﴿ **وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾[٣] ، يعني ، مواعظ القرآن الكريم[٤] .

مما تقدم نستطيع أن نقول : إن مراد ابن القيم من الحكمة هنا هو ما أوحاه الله إلى رسوله ﷺ سواء من الكتاب أو السنة كما يقول ذلك الطبري[٥] ولأن الإسلام هو دين الفطرة والقرآن مليء بالآيات الكريمات التي

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١٩٤/١) .

(٢) نفس المرجع : (١/ ١٩٤) .

(٣) البقرة : (٢٣١) .

(٤) مصلح بيومي « ادع إلى سبيل ربك » (ص : ٥٨) .

(٥) « تفسير الطبري » : (١٩٤/٨) .

توقظ الفطرة في الإنسان يقول تعالى : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون** ﴾(١) .

العرب قوم فطريون :

وكذلك فإن نبينا محمدًا ﷺ بعث في العرب، والعرب قوم فطريون على فطرتهم التي خلقهم الله عليها وإذا نظرنا لهم وللأمم التي تحيط بهم لوجدناهم كما هم ، لا يعرفون الفلسفة ولا المذاهب المعتمدة على هذه الفلسفات العقلية التي سفهت العقول في مجال الغيب ، بل وصفهم الرب سبحانه بالأمية وهي أمة لا تعرف القراءة والكتابة فقال عنهم : ﴿ **هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾(٢) .

فهم أميون لا يعرفون من علوم الفلسفة وغيرها شيئًا ، وهم في ضلال من الوثنية وعبادة الأصنام والعقائد الفاسدة ، ولكنهم مع ذلك أقرب إلى الاستجابة لدعوة التوحيد من غيرهم من الأمم المجاورة من الروم والفرس والمصريين والبراهمة وغيرهم ، إذ أنهم لم يكن لهم عقيدة مستقرة كما لم يكن لهم عادات وتقاليد في نظم الحكم لا تتسع للحرية والنظم الاجتماعية التي جاء بها القرآن ، بل كانت عقائدهم في الأوثان غير متغلغلة في أعماق نفوسهم ، كعقائد النصارى في الثالوث وعقائد الفرس في النار والصابئه في النجوم (٣) . وغيرهم من الأمم تغلغلت وثنيتهم بعقائد وفلسفة يصعب إخراجهم منها لأنها أفسدت فطرتهم .

---

(١) سورة العنكبوت : (٦١) .

(٢) الآية من سورة الجمعة : (٢) .

(٣) « الوحدة الإسلامية » (ص : ٢٩) للإمام أبو زهرة دار الفكر العربي بالقاهرة .

إضافة إلى أن القرآن الكريم بين أنهم يؤمنون بالله تعالى خالق كل شيء وحده وأنه يفعل ما يريد ولكنهم عبدوا تلك الأصنام لتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى زلفى ، لذلك فإنا نجد أن منهم قومًا موحدين على دين أبيهم إبراهيم عليه السلام ، وفيهم التمرد على الأصنام كما قال قائلهم :

أربٌّ يبول الثعبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

والقرآن الكريم دائمًا يحرك فيهم الفطرة ويذكرهم بما يشعرون في كيانهم ، كما قال تعالى : ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾(١) ، وقوله ﴿ **وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون وفي السماء رزقكم وما توعدون فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون** ﴾(٢) .

فالقرآن يطالبهم بالنظر في أقرب الأشياء إليهم التي يرونها ويحسونها في كل ساعة وليس لهم غنىً عنها ولا تغيب عن حسهم هذه الموجودات.

من أجل ذلك نرى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه وغيره كثير من الصحابة آمنوا بمجرد سماع القرآن الكريم لما فيه من صدق وما فيه من علوم توافق ما يشعرون به في قرارة نفوسهم مما غرسه الله سبحانه وتعالى في فطرهم .

وإرسال الرسول محمد ﷺ في العرب فيه من الحكمة الإلهية العظيمة ، لأن العرب أكثرهم ما يزالون على الفطرة ، والقرآن الكريم هو الموافق للفطرة لأجل ذلك آمنوا به وصدقوه ونصروه ونشروا دينه في مشارق الأرض ومغاربها .

فعلى الداعية أن يتحرى في المدعو حتى يعرف الأسلوب المناسب الذي

---

(١) سورة الغاشية : (١٧ - ٢٠) .

(٢) الذاريات : (٢٠ - ٢٣) .

يدعو به من يواجهه ، فإن وجد صاحب الفطرة السليمة دعاه بأسلوب الحكمة ، وهو أسلوب فيه من البساطة وعدم التعقيد في القول ما فيه .

لأن المدعو الذي أمامه يحتاج فقط إلى تحريك ذلك الشعور الكامن في قرارة نفسه لذلك نرى القرآن الكريم يخاطب العرب بأسهل الأساليب وأوضحها وأقربها إلى فهم المعنى والمراد ، وأقربها إلى حياته اليومية مثل تحريك الله تعالى فطرتهم بأمره سبحانه لهم بالنظر إلى الإبل والجبال وتذكيرهم بنعمه السابغة عليهم ، وغير ذلك مما لا غنى لهم عنه ، فجعلهم يقفون عند كلامه سبحانه ينظرون إليه بنظر المتبصر الذي لا ينكر الحق ، لأن الإسلام أمر بمعروف ونهي عن منكر وهو الموافق للفطرة السليمة .

قال ابن القيم ـ عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾[1] ـ :

دلت الآية على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم ، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الإنكار ، كما أن ما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه .

كما قال بعض الأعراب وقد سئل : بما عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال : ليته أمر به .

فهذا الأعرابي قد أقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبيح ما نهى عنه

---

(١) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

حتى كان في حقه من أعلام النبوة [١] .

فيظهر من ذلك أن الحكمة هي شرع الله تعالى المتمثل بالكتاب والسنة وما جاء فيها من تعاليم ومعانٍ تجعل صاحب الفطرة السليمة يؤمن بها .

وهذا لا يعني أن الفطرة السليمة وقف على العرب فقط بل إنها عامة في العرب وغيرهم ، ولا يزال كثير من شعوب الأرض إلى الآن فطرية تحتاج إلى سماع أحكام الإسلام النيرة كي تقودهم إلى الإيمان بالله لموافقتها فطرتهم ، كما هو حال كثير من شعوب إفريقيا ، وبعض شعوب شرق آسيا وغيرهم ، ولكنها في تلك الأزمان كانت أقرب الشعوب إلى الفطرة .

والذين وقفوا أمام الدعوة الإسلامية في ذلك العصر فإن معوقات الفطرة دفعتهم لذلك ، والتي ذكرها القرآن الكريم كحب الرياسة والزعامة والكبر والعظمة وعدم حب مجالسة الفقراء والعبيد من الذين آمنوا ، واتباع الآباء والأجداد وغير ذلك .

* * *

---

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢/ ٣٨٨) .

أسلوب الموعظة

عرفنا فيما سبق من قول ابن القيم رحمه الله أن المستجيب لدعوة القرآن نوعان فالأول : الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه وقلنا أنه صاحب الفطرة السليمة والعقل الرشيد وتحدثنا عنه وبقي أن نعرف النوع الثاني الذي قال عنه ابن القيم :

« من ليس عنده هذا الاستعداد والقبول فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين ، ولهم نوّع ضرب الأمثال ، وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة »[١].

ويقول في موضع آخر : والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر يدعى بطريق الموعظة الحسنة وهي : الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرهبة[٢] ، قال في « اللسان » : الوعظ : النصح والتذكير بالعواقب ، قال ابن سيده : هو تذكيرك للإنسان بما يلين قلبه من ثواب وعقاب[٣] .

* **مجالها :**

ومن هذه النصوص يتبين أن مَنْ يدعى بطريق الموعظة نوعان :

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢١٧) .

(٢) نفس المرجع : (١٩٤) .

(٣) « لسان العرب » : (٧/ ٤٦٦) .

أحدهما : مستجيب قابل عنده نوع غفلة وتأخر وهو المسلم الذي ألهته الدنيا وزخرفها والهوى عن محاب الله ومراضيه وهذا الأسلوب يخصهم أكثر من غيرهم .

الثاني : صاحب العقل السليم المفكر الذي يدله على الحق من عباد الله جميعًا لأنهم هم الذين نوّع لهم ضرب الأمثال وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والأجوبة عنها .

والمراد بالموعظة هي مواعظ القرآن الكريم التي امتلأ بها القرآن الكريم كقوله تعالى : ﴿ **وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾[١] ، وقال تعالى : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾[٢] ، وقال : ﴿ **أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم** ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ **ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر** ﴾[٤] وقوله : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾[٥] ، وقوله : ﴿ **قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين**﴾[٦]، وغير ذلك من آيات الوعظ التي خاطب الله سبحانه وتعالى فيها الناس على اختلافهم ، منهم المؤمن ومنهم الكافر والمنافق وغير ذلك مما يدل على أن أسلوب الموعظة ليس خاصًا بالمؤمنين بل إنه خطاب للمؤمنين

---

(١) سورة البقرة : (٢٣١) .

(٢) سورة النحل الآية : (٩٠) .

(٣) سورة النساء الآية : (٦٣) .

(٤) سورة الطلاق الآية : (٢) .

(٥) سورة آل عمران الآية : (١٣٨) .

(٦) سورة الشعراء الآية : (١٣٦) .

ومن له عقل مميز يتأثر بالمواعظ المشهودة والمسموعة على السواء .

ولكنها في حق المؤمن أوضح وهي به أخص فالمؤمن لا يدعى إلا بهذا الأسلوب فإنك لا تدعوه لأن يؤمن بوجود الله أو وحدانيته فهو مؤمن بوجوده ووحدانيته ولكنه غفل عن هذا الوجود ونسى عظمة الخالق فعصى فهذا يذكّر بهذا الأسلوب الذي يرده إلى معرفة الخالق بأسمائه وصفاته وعظمته ويذكره بها حتى يعود إلى رشده .

كما بين رحمه الله أنواع الموعظة وأنها نوعان :

أحدهما : عظة بالمسموع :

وهي الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد والنصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحي إليهم ، وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد في مصالح الدين والدنيا .

ثانيًا : عظة بالمشهود :

وهي الانتفاع بما يشاهده في العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ، ومجاريه ، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله[١] .

والمطلّع على أسلوب ابن القيم في دعوته بهذا الأسلوب فإنه يجد أنه استخدم هذه الأنواع في دعوته بالموعظة وقد اهتم بها في خطبه وكتاباته وبين أنواعها كما أثر عنه الكثير من المواعظ التي تدل على تمكنه من الوعظ والإرشاد وكما سنرى ذلك في دعوته بهذا الأسلوب إن شاء الله .

* * *

---

(١) « مدارج السالكين » : (٤٧٨) .

أنواع الموعظة

أولاً : العظة بالمسموع

وهي ما يلقيه الداعية المتمكن من المواعظ والنصائح المؤثرة التي تستميل جمهور المدعوين إلى الاستجابة أو تنفرهم وتزجرهم عن ارتكاب المنهيات التي تؤدي بهم إلى الهلاك وهذه المواعظ اسم يدخل تحته أنواع من الأساليب الوعظية كالترغيب والترهيب ، وضرب الأمثال والقصة فإن هذه المسميات داخلة في مسمى الموعظة وجميعها وردت في القرآن الكريم كما أن ابن القيم كداعية بصير قد أولاها أهمية كما سنبينها كلًّا على حدة .

أولًا : الترغيب والترهيب :

هو الاسم الجامع للموعظة كما بينه ابن القيم في تعريفه وهو أنواع إما ترغيب في جنس الطاعات كقوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾[1] ، أو ترغيب في أنواع الطاعات : أي أنك ترغب في نوع واحد من طاعة الله كقوله تعالى : ﴿**إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾[2] .

وإليك ابن القيم وهو يرغب في نوع من أنواع الطاعات وهو الجهاد وكذلك يبين ترغيب القرآن الكريم فيه فيقول :

« المجاهدون في سبيل الله هم جند الله الذي يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الإسلام ويحمي بهم حوزة الدين ، قد بذلوا

---

(١) سورة النحل الآية : (٣٠) .

(٢) سورة العنكبوت الآية : (٤٥) .

أنفسهم في محبة الله ونصر دينه وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها ، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم ، والداعي إلى الهدى والداعي إلى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد والحض عليه قال تعالى في سورة الصف : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم** ﴾ ، فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة الدال عليها رب العالمين فقال : ﴿ **تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم** ﴾ ، فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال : ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ ، يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة ، فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ ؟ فقال ﴿ **يغفر لكم ذنوبكم** ﴾ ، ومع المغفرة ﴿ **يدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم** ﴾ ، فكأنها قالت هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا ؟ فقال : ﴿ **وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين** ﴾[(١)] ، فلله ما أحلى هذه الألفاظ وألصقها بالقلوب ! وما أعظمها جذبًا لها وتيسيرًا إلى ربها ! [(٢)] ، ولله ما اجمل كلام ابن القيم وتذوقه لكلام ربه ومعرفة لطائفة ومعانيه فهذا فضل الله ، والله يؤتي فضله من يشاء .

كما أن الترهيب كذلك يكون ترهيبًا من جنس المعاصي كقوله تعالى: ﴿ **قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون** ﴾[(٣)] .

---

(١) سورة الصف الآيات : (١٠ - ١٣) .

(٢) « طريق الهجرتين » : (٣٥٥) .

(٣) سورة الأعراف الآية : (٢٨) .

وقوله تعالى : ﴿ **فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين** ﴾[(١)] ، وقوله تعالى : ﴿**مـا أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾[(٢)] .

وكذلك الترهيب من أنواع المعاصي كقوله تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلًا** ﴾[(٣)] .

كما أنه بين أن طريقة القرآن الكريم في الترغيب والترهيب أن يذكر العلم والقدرة تهديدًا أو تخويفًا لترتيب الجزاء عليهما كقوله تعالى : ﴿ **قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم** ﴾ وقوله : ﴿ **أرأيت إن كذّبَ وتولى ألم يعلم بأن الله يرى** ﴾، وليس المراد به مجرد الإخبار بالعلم والقدرة ولكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء[(٤)] .

وقد يكون الترغيب والترهيب في ذكر قصة من قصص القرآن الكريم كما سنبين ذلك إن شاء الله .

ثانيًا : ضرب الأمثال :

ضرب المثل داخل في مسمى الموعظة لما فيه من تحريك العواطف وإثارة كوامن النفس « ومن المعارف المتواضع عليها عند علماء البلاغة والنقد أن المعاني المجردة أضعف وسائل التعبير لأنها تؤدي معانٍ عابرة لا تعلق في النفس كثيرًا ولا تثير في الشخص حركة أو انفعالًا ، أما الطرق التي تثير الشخص ، وتثبّت المعنى في النفس ، وتقرره في الذهن فهي التي تحدد

---

(١) سورة الزخرف : (٥٥) .

(٢) سورة النساء الآية : (٧٩) .

(٣) سورة الإسراء الآية : (٣٢) .

(٤) « التبيان في أقسام القرآن » : (٤٠) .

المعنى في صورة ، وتقرنه بمثال »[١] .

وقد اعتنى ابن القيم رحمه الله بالأمثال في كتاباته وخاصة أمثال القرآن الكريم .

وضمن كتابه الكبير « **أعلام الموقعين** » جزءًا منه وقد أفرده في كتاب سمي « **الأمثال في القرآن الكريم** » ، وقد أدرج فيه الأمثال في القرآن الكريم وشرح معانيها ووضح مواقع التشبيه والقياس ؛ وقد اتضح حسه البلاغي فيها ؛ ومدى تعمقه فيها يكشف لنا عن بلاغة هذه الأمثال ، وما تحمله من معانٍ وتأثيرات وأحكام وكان القصد من ذكرها بيان صحة القياس وأنه أصل من أصول الشريعة الإسلامية وقد استدل على صحته بقول عمر رضي الله عنه لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه : (ثم الفهم الفهم فيما أدلي إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق)[٢]. وبين رحمه الله أن الصحابة متفقون على القول بالقياس ولم ينكروا هذا الخطاب ثم بين أن القرآن الكريم قد ذكر القياس وأرشد الله تعالى عباده إليه في غير موضع من كتابه فقاس النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان ، وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات ، كما قاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم ، وضرب الأمثال ، وصرفها في الأنواع المختلفة ، وكلها أقيسة عقلية ينبه بها عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال قياسات يعلم منها حكم المثل

---

(١) « ابن القيم وحسه البلاغي » : (١٦٦) عبد الفتاح لاشين ط : دار الرائد العربي بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٢هـ) .

(٢) « « إعلام الموقعين » » : (١/ ١٣٠) .

من الممثل به ، وقد اشتمل القرآن على بضعة وأربعين مثلًا[١] .

* **تعريف المثل :**

عرف ابن القيم المثل بأنه :

تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الآخر [٢] .

وبين أن ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والفرق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما[٣] .

وبين مقصود الشارع من ضرب الأمثال فقال :

« ضَرَبَ الأمثال لعباده في غير موضع من كتابه ، وأمر باستماع أمثاله ، ودعا عباده إلى تعقلها ، والتفكير فيها والاعتبار بها هذا هو المقصود بها » [٤] .

كما رغب رحمه الله في تعلم أمثال القرآن ومعرفة مراميها عندما قال :

« وأمثال القرآن لا يعقلها إلا العالمون » مستندًا في ذلك إلى قوله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون** ﴾[٥] ، وكان بعض السلف إذا قرأ مثلًا لم يفهمه يشتدّ بكاؤه ويقول : لست من العالمين[٦] ،

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١/ ١٣٠) .

(٢) « أمثال القرآن » : (١٧٤) وكذا إعلام الموقعين منتخب من الإعلام .

(٣) « إعلام الموقعين » : (١/ ١٣١) .

(٤) « إعلام الموقعين » : (١/ ١٩٥) .

(٥) سورة العنكبوت الآية : (٤٣) .

(٦) « شرح القصيدة النونية » : (١/ ١٣) .

فهو يرغب المؤمنين في تعلم أمثال القرآن حتى لا يكون من الجاهلين كما أنه قال :

« إن من عقل أمثال القرآن الكريم وعرف مراميها فإنه يكون عالمًا بعلم تعبير الرؤيا لأن أمثال القرآن الكريم كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستدلال لأن أصول التعبير الصحيحة إنما أخذت من مشكاة القرآن » ثم يوضح الأمر بأن من رأى سفينة في منامه فإنها تعبر بالنجاة مستدلًا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **فأنجيناه وأصحاب السفينة** ﴾[1] ، والخشب بالمنافقين ، والحجارة بقساوة القلب ، وأكل لحم الرجل بغيبته ، والمفاتيح بالكسب[2] .

فالمثل هو زيادة في الكشف عن المعاني فأنت أيها الداعية عندما تشبه الشي المعقول بالمحسوس ، فإن ذلك يجعل لهذا المعقول وقعًا في القلب ورسوخًا ، فإن المعنى الثابت في العقل يسانده بعد ذكر المثال الخيال والتصور مما يزيد المعنى ثباتًا ورسوخًا .

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد نارًا** ﴾[3] ، بعد ذكره تعالى حقيقة صفة المنافقين : عقّبها بضرب المثال زيادة في الكشف وتتميمًا للبيان ، ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبايا المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد[4] .

---

(١) سورة العنكبوت الآية : (١٥) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (١/ ١٩٣ ، ١٩٤) .

(٣) سورة البقرة الآية : (١٧) .

(٤) « الكشاف » للزمخشري : (١/ ٣٧) .

كما أن ابن القيم رحمه الله تعالى قد أدرك عظيم تأثير المثال ، ومدى تقريبه المعقول من المشهود فأكثر من ذكر الأمثلة التي تصور للعقل وتقربه من الحق وقال في مقدمة « القصيدة النوينية » :

وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل والمشبه والموحد ذكرناها قبل الشروع في المقصود فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل لتقريبها المعقول من المشهود ومن هذه الأمثال قوله :

« شجرة المعطل شجرة الزقوم ، فالحلوق السليمة لا تبلعها ، وشجرة المشبه شجرة الحنظل ، فالنفوس المستقيمة لا تتبعها ، وشجرة الموحد طوبى يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها »(١) .

قال عن الغيرة على دقيق العلم وما لا يدركه فهم السامع إن ذُكِرَ له :

المسألة الدقيقة اللطيفة التي تبذل لغير أهلها كالمرأة الحسناء التي تهدى إلى ضرير مقعد(٢) .

ومثال غض البصر وكيف أنه يورث في القلب نورًا وصحة وفراسة لأنه أمسك بصره عن المحرمات ونفسه عن الهوى فأطلق الله له نور بصيرته .

قال : إن القلب كالمرآة والهوى كالصدأ فيها فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه(٣) .

* **القصة :**

القصة من ضروب الموعظة وهي عبارة عن ترغيب وترهيب ، فالقصة حكاية

---

(١) انظر « القصيدة النونية » : (١/١٣) .

(٢) « روضة المحبين » : (٣١٢) .

(٣) « إغاثة اللهفان » : (١/ ٤٨) .

تَحْكِي ما جرى على فرد أو جماعة وما نالهم في النهاية من حسن الجزاء والنعيم والذكر الحسن ، لما قدّم من عمل صالح أرضى به الخالق وأصلح به شئون الخلق، أو تروي ما انتهى إليه أمر المخالف الذي هَمُّهُ إرضاء نفسه وإشباع رغباته واتباع هواه من عقاب مؤلم سواء في الدنيا أو الآخرة .

ولم يكن القصص في القرون الأولى مذمومًا لأن فنونه إنما كانت ترجع إلى الكتاب والسنة قال ابن الجوزي [١] : كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء ، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير[٢] ، عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس وتعلق بهم العوام والنساء ، فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن[٣] ، وقد كثر كلام العلماء في القصص وبينوا أنه محمود ومذموم فالمحمود ما اشتمل عليه القرآن الحكيم وما صح في الكتب الصحيحة من كتب السنة والتفاسير الموثوق بها .

والمذموم ما عدا ذلك من قصص الأمم السابقة التي يتطرق إليها

---

(١) أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي علامة عصره في التاريخ والحديث مولده ووفاته ببغداد له حوالي ثلاثمائة مصنف منها « الأذكياء ، و أخبارهم » و « روح الأرواح » و « مناقب عمر بن عبد العزيز »، و « المدهش » ، و « صولة العقل على الهوى » و « تلبيس إبليس » و« المنتظم في تاريخ الملوك والأمم »، وغيرها كثير توفي رحمه الله سنة (٥٩٧هـ) ، انظر: «وفيات الأعيان» (١/ ٢٧٩) « مفتاح السعادة » : (١/٢٥٤ - ٢٥٥) .
أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي : « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » (٦/١٧٤ - ١٧٦ ، ١٣٥٥ هـ) دار الكتب المصرية القاهرة .

(٢) عبيد بن عمير بن قتادة بن سعيد متفق على توثيقه أخرج له الجماعة كان قاضي أهل مكة في زمانه كان ابن عمر يجلس إليه ويقول : لله درّ أبي قتادة ، ماذا يأتي به ، انظر : « التهذيب » (٧/٧١) ، و « تاريخ الثقات » : (١٠٨٢) .

(٣) « تلبيس إبليس » (ص١١٨) تحقيق محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن بالقاهرة عام (١٩٩٠م).

الاختلاف من زيادة ونقصان فإن ذلك مما يندر صحته خصوصًا ما ينقل عن بني إسرائيل مما لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، فهذا من المذموم لما فيه من الكذب فإن من فتح الباب على نفسه اختلط عليه الصدق والكذب . قال الإمام أحمد بن حنبل : ما أحوج الناس إلى قاص صادق كانت القصة من قصص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقًا صحيح الرواية فلست أرى به بأسًا[١] .

وقد ذكر الباري تبارك وتعالى القصص في كتابه المبين في كثير من سوره وقد نوع أساليب القصة من سورة إلى سورة ، وكان مقصوده سبحانه من ذكر هذه القصص العظة والعبرة قال تعالى : ﴿ **لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثًا يفترى** ﴾[٢] . وقال : ﴿ **وكلًّا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾[٣] .

فالرب سبحانه ذكر القصة في كتابه لما فيها من العظة والعبرة وتذكير الخلق لأن ما حدث للسابقين حق ، إضافة لما فيه من تثبيت للنبي والذين آمنوا معه فالقصة من أهم ما يجب على الدعاة اليوم أن يسلكوها في مواعظهم لأنه أسلوب يعتمد على الخطابة والتصوير وإظهار النتائج وهي غالبًا مما يرسخ في ذهن السامع ويجذب قلبه ، ولنا في كتاب الله ودعوته أسوة حسنة قال تعالى : ﴿ **نحن نقص عليك أحسن القصص** ﴾[٤] .

فعليك أخي الداعية بالقصص القرآني فإن له من المميزات عن غيره

---

(١) انظر « هداية المرشدين » : (٨٧) .

(٢) سورة يوسف الآية : (١١١) .

(٣) سورة هود الآية : (١٢٠) .

(٤) سورة يوسف الآية : (٣) .

الكثير فإنه حق من عند الله فهو واقعي وكذلك فإن تنوع أسلوبه من سورة إلى سورة في القصة الواحدة والانتقال في خطابه من أسلوب الخبر إلى الإنشاء إلى الاستفهام معجز بليغ لا تجده في غيره ، والله سبحانه هو الذي خلق النفوس ويعلم ما يؤثر فيها وما يوقظها من غفلتها فعليك أخي الداعية به وبكل ما صح عن النبي ﷺ وما رُوي في كتب التفاسير الموثوق بها فإن فيها ما يغنيك ويشبع رغبة الجمهور ويوقظ في الحي منهم المشاعر النبيلة ويَرسَخَ في عَقَولِهم .

وإليك ابن القيم رحمه الله وهو يقص علينا قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه وما فيها من بلاغه واستعارة ورمز إلى معاني الإسلام يقول :

« لما قضي في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك ، فلما علاه بالحق لم يكن له جواب إلا القيد ؛ وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرّفوه ، وبه أجاب فرعونُ موسى ﴿ **لئن اتخذت إلهًا غيري** ﴾[1] ، وبه أجاب الجهميةُ الإمامَ أحمد لما عرضوه على السياط ، وبه أجاب أهلُ البدع شيخَ الإسلام حين استودعوه السجن ، فنزل به ضيف ﴿ **ولنبلونكم** ﴾ فنال بإكرامه مرتبة « سلمان منّا أهل البيت » فسمع أن ركبًا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو إدراك مطلب السعادة ، فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود ، فوقف نفسه على خدمة الأدلاء وقوف الأذلاء ، فلما أحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الأعلام على نبّوة نبينا وقالوا : إن زمانه قد أظل فاحذر أن

(١) سورة الشعراء الآية : (٢٩) .

تضل، فرحل مع رفقة لم يرفقوا به ﴿ **وشروه بثمن بخس دراهم معدودة**﴾[(١)]، فابتاعه يهودي بالمدينة ، فلما رأى الحرة توقد حر شوقه ، فبينما هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير ، وسلمان في رأس نخلة وكاد القلق يلقيه لولا أن الحزم أمسكه كما جرى يوم ﴿ **إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها** ﴾ [(٢)] ، فعجّل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول :

خليلي من نجد قفا بي على الربا فقد هب من تلك الديار نسيم

فصاح به سيده : مالك انصرف إلى شغلك ، فقال :

كيف انصرافي ولي في داركم شغل ؟ !

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الأصل فوافقه ، وسلمان إذا سئل عن اسمه قال : عبد الله ، وعن نسبه قال : ابن الإسلام، وعن ماله قال : الفقر ، وعن حانوته قال : المسجد ، وعن كسبه قال : الصبر ، وعن لباسه قال : التقوى والتواضع ، وعن فخره قال : سلمان منّا ، وعن قصده قال : يريدون وجهه ، وعن دليله في الطريق قال إمام الخلق وهادي الأئمة[(٣)] ، وكذا قصة ذي البجادين رضي الله عنه وإسلامه[(٤)] ، فابن القيم رحمه الله تميز في قصصه عن الإسفاف وذكر القصص التي فيها مبالغة وتخيل .

وأما عن مواعظه رحمه الله تعالى ، فهي كثيرة جدًّا ، يكفي العاقل

---

(١) سورة يوسف الآية : (٢٠) .

(٢) سورة القصص الآية : (١٠) .

(٣) انظر « الفوائد » : (٤٧ - ٤٨) .

(٤) نفس المرجع والصفحة .

منها كتابه «الجواب الكافي» ، فإنه بمجموع ما زخر به من أدوية هي مواعظ مليئة بالآيات والأحاديث المشتملة على الترغيب والترهيب وبيان الحكمة من التحريم وغير ذلك ونسوق بعض المواعظ المأثورة عنه مما يدلنا على أن ابن القيم من أعظم الوعاظ والدعاة الذين عرفوا وتبصروا بأصول المدعوين فيقول رحمه الله :

« ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهي منافية لمصلحة العالم في حفظ الأنساب ، وحماية الفروج ، وصيانة الحرمات ، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه ، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر ولهذا قرنها الله سبحانه في كتابه ، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله : ﴿ **والذين لا يدعون مع الله آلهًا آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثامًا يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانًا إلا من تاب** ﴾[1] ، فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجبه بالتوبة والإيمان والعمل الصالح وقال تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلًا** ﴾[2] ، فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذي تناهى قبحه حتى اشتد فحشه في العقول ، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا وعذاب وخزي ونكال في الآخرة .

ولما كان ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج فإن الحوادث مبدؤها من البصر كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ،

(١) سورة الفرقان الآية : (٦٨) .

(٢) سورة الإسراء الآية : (٣٢) .

فتكون نظرة ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ولهذا قيل : من حفظ هذه الأربعة حفظ دينه[(١)] .

ويقول في موعظة له عنون لها بقوله : الدنيا خداعة قال :

ميزت بين جمالها وفعالها فإذا الملاحة بالقباحة لا تفي
حلفت لنا أن لا تخون عهودنا فكأنها حلفت لنا أن لا تفي

السير في طلبها سير في أرض مسبعة ، والسباحة فيها سباحة في غدير التمساح ، المَفْرُوحُ بِهِ منها هو عين المحزون عليه . آلامُها متولدة من لذّاتِها ، وأحزانها من أفراحها ، تزخرفت الشهوات لأعين الطباع فغضّ عنها الذين يؤمنون بالغيب ووقع تابعوها في بيداء الحسرات ، فـ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾[(٢)] .

وهؤلاء يقال لهم ﴿ **كلوا وتمتعوا قليلًا إنكم مجرمون** ﴾[(٣)] .

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيها الهوى طلبًا لحياة الأبد ، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبه العدو منهم في زمن البطالة ، وكلما أمرت لهم الحياة حلي لهم تذكر ﴿ **هذا يومكم الذي كنتم توعدون** ﴾[(٤)(٥)] .

وهذا غيض من فيض من مواعظه رحمه الله تعالى سقناها للاستدلال على طريقته في الوعظ وعلى مصادره التي يعتمد عليها من كتاب وسنة

---

(١) « الجواب الكافي » بتصرف : (١٧٦) .
(٢) سورة البقرة الآية : (٥) .
(٣) سورة المرسلات الآية : (٤٦) .
(٤) سورة الأنبياء الآية : (١٠٣) .
(٥) « الفوائد » بتصرف : (٥٣) .

وما أثر عن السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

كما يتضح من هذه المواعظ حسن استشهاده بالشعر فإن الشعر من أعظم ما يؤثر في نفوس الناس فيا حبذا لو يستشهد الداعية بأبيات الشعر الصحيحة المأثورة ، فإن فيها من الحكمة والتأثير الشيء الكثير ، واستخدام ابن القيم للشعر يدل على سعة علمه بهذا الفن وحسن استدلاله به فإذا اطلعت على بعض كتاباته واستشهاداته ظننت أن هذا البيت وضع لخدمة هذا النص لابن القيم فحسب [١] .

* * *

(١) انظر كتابه « روضة المحبين » وغيره .

النــوع الثاني

العظة بالمشهود

تكلمنا فيما سبق عن النوع الأول وهو العظة بالمسموع وبقي أن نبين النوع الثاني وهو العظة بالمشهود فيقول عنها ابن القيم أنها :

الانتفاع بما يشاهده في هذا العالم من مواقع العبر وأحكام القدر ، ومجاريه وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله[١] .

وموقع المشاهدة والعبرة إما أن يكون في التفكر والتبصر في خلق الله عز وجل ، وإما أن يكون بالاعتبار من مشاهدة آثار الأمم السابقة وما حلّ بهم بسبب العصيان وعدم قبول الدعوة .

ولا يمكن ذلك إلا بالنظر إلى آثار أفعال الرب سبحانه وتعالى والاستفادة لأصحاب العقول الواعية المتفكرة التي تغوص في أعماق الأشياء وتستنتج العبر من المشاهدات .

كما بين ذلك ابن القيم عند وصفه المدعو بالموعظة فقال :

« بأنه إذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله »[٢] .

إذًا لابد من التفكر والنظر في آيات الله سبحانه وتعالى كما أنه يبين

---

(١) « مدارج السالكين » : (٤٧٧) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (٢١٧) .

أن النظر في الآيات نوعان :

أولاً : نظر إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلًا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا النظر يشارك الإنسان فيه غيره من الحيوان وليس هو المقصود من الأمر .

ثانيًا : أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيتجول في أقطارها وملكوتها[١] ، كما يقول رحمه الله :

فاعلم أن التفكر : طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هو حاصل منها ، وهذه حقيقة ، فإنه لو لم يكن ، ثمّ أراد أن يكون موردًا للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق فيه محال ، وتلك المواد ، هي الأمور الحاصلة ، فالمتفكر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده ، فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به ، وأبصر به مواقع الفعل ، والترك ، وما ينبغي إيثاره ، وما ينبغي اجتنابه ، فآيات الله تعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عمي قلبه ، ويتذكر بها من غفلته[٢] .

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته إلى النظر والتفكر والتدبر في خلقه والتبصر بما حوله وأمام عينيه ليوقع الإنسان على الإيمان به وبرسوله كقوله تعالى : ﴿ **كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ﴾[٣] . وقال : ﴿ **كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون** ﴾[٤] ، وقال : ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾[٥] ، وقال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم**

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٢٣٦) .

(٢) نفس المرجع السابق : (٢٦٨) .

(٣) سورة البقرة الآية : (٢١٩) .

(٤) سورة يونس الآية : (٢٤) .

(٥) سورة الرعد الآية : (٣) .

يتفكرون ﴾[١] ، وغير ذلك من الآيات التي تدل وتبين أن الله سبحانه وتعالى يطالب الإنسان بالتفكر في آياته وملكوته ، كما حثهم على عقل آياته والوقوف عند حكمها كقوله : **﴿ كذلك يحي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون ﴾**[٢] . وقال : **﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾**[٣] .

وعن البصر والبصيرة قال تعالى : **﴿ قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدًا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾**[٤]. وقال : **﴿ قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ ﴾**[٥] .

وقال سبحانه عن التذكر : **﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾**[٦] ، وقوله : **﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾**[٧] ، وغير ذلك من الآيات التي ملئ بها القرآن الكريم وكلها تدور حول عمل العقل وما يجب أن يكون

---

(١) سورة الحشر الآية : (٢١) .

(٢) سورة البقرة الآية : (٧٣) .

(٣) سورة البقرة الآية : (١٦٤) .

(٤) سورة القصص الآية : (٧٢) .

(٥) سورة الأنعام الآية : (١٠٤) .

(٦) سورة الزمر الآية : (٢٧) .

(٧) سورة الرعد : (١٩) .

عليه من نظر وتبصر وتعقل وتذكر وتفكر مما يوجب للمتأمل والناظر فيما دعا الله إليه في هذه الآيات الوقوع على العلم بالله تعالى وبوحدانيته وبصدق رسوله وكمال حكمته .

أولاً : الموعظة بالمشاهد من آيات الخلق

وابن القيم هذا الداعية البصير أدرك قيمة هذا الأسلوب وعظمته وأنه من طرق الهداية إلى هذا الدين القويم فأولاه عناية خاصة فاقت الوصف وشغلت حيِّزًا كبيرًا من كتبه يحسن بالداعية أن يرجع إليها[1] ، فإنها تزيد من إيمانه وتطلعه على أسلوب يدعو به طبقات المتميزين من البشر وهم أصحاب العقول الراجحة والعلماء الأفذاذ سواء كانوا علماء في الفلك ، أو في الطب ، أو في الفزياء ، أو في الجيلوجيا ، أو في علم الطبيعة ، وفي أي علم من العلوم الأخرى ، وهذا ما يعرف بالأسلوب العلمي أو المنهج العلمي .

فإذا عرف الداعية ما ورد في القرآن الكريم من الآيات واستخدم هذه الآيات مع كل شخص في تخصصه فإنه يؤمن بالله بشرط أن يجرد عقله عن الموانع ويطلب الحق لا غير فإن القرآن موافق لكل الاكتشافات الحديثة التي تحدث عنها القرآن قبل اكتشافها بأكثر من عشرة قرون ويزيد ، بل إنهم لم يكتشفوا إلا القدر القليل جدًّا منها وهذا ما يقرره ابن القيم عند قوله :

« وهذه الجمادات ، والحيوانات ، المختلفة الأشكال ، والمقادير ، والصفات ، والمنافع ، والقوى والأغذية ، والنباتات التي هي كذلك فيها من الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه ، وتجربته على مر الدهور ومع ذلك

---

(١) انظر في ذلك الموضوع كتاب « مفتاح دار السعادة » من ص (١٩٤ إلى ص ٣٥٠) وانظر « شفاء العليل » (ص ٢٣١) وما بعدها وانظر « التبيان في أقسام القرآن » : (من ١٨٥ إلى ٢٦٠) .

لم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله » ثم يقول :

« وتنويع مخلوقاته وحدوثها شيئًا بعد شيء من أظهر الدلالات على ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه فتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالى : ﴿ **وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾[1]. وقوله: ﴿ **هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾[2]، وقال: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير**﴾[3] .

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على اختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها فنبه على الاشتراك والاختلاف[4] ، فنبه سبحانه العقول البصيرة إلى مفعولاته المختلفة في الصفات والأشكال والألوان والأذواق والكبر والصغر وكيف أن جميع هذه المخلوقات خلقت من ماء وتعيش على الماء وتموت بفقدانه إن ذلك لمن أعظم الأدلة على توحيد الله تعالى كما يقول ابن القيم :

« وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل

---

(١) الآية من سورة الرعد : (٤) .

(٢) الآية من سورة النحل : (١٠ - ١١) .

(٣) الآية من سورة النور : (٤٥) .

(٤) انظر « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » (ص: ٢٣١) .

فَيُعْلَمُ ، إحاطة قدرة واحدة ، وعلم واحد ، وحكمة واحدة ، أعني بالتنوع ، من قادر واحد ، حكيم واحد بجميع هذه الأنواع وأضعافها مما لا تعلمه العقول البشرية كما قال : ﴿ **ويخلق ما لا تعلمون** ﴾[١] . وقال ﴿ **فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون** ﴾[٢] ، فجميع غايات فعله وحكمة خلقه إلى غاية واحدة هي منتهى الغايات ، وهي إلهية الحق التي كل إلهية سواها فهي باطلة ومحال ؛ فهي غاية الغايات ثم ينزل منها إلى غاية أخرى وهي وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة إلى ما دونها وأن إلى ربك المنتهى ومفعولاته وهي آثار أفعاله ، وأفعاله آثار صفاته ، وصفاته قائمة به ، والمقصود العلم بإحاطة علم واحد ، من عالم واحد ، وفعل واحد ، من فاعل واحد وقدرة واحدة من قادر واحد وحكمة واحدة من حكيم واحد بجميع ما فيه على اختلاف ما فيه واجتمعت غايات فعله وأمره إلى غاية واحدة وذلك على توحيد الإلهية والربوبية النظام الواحد والحكمة الجامعة للأنواع المختلفة مع ضدها وتعذرها ، ودل افتقار بعضها إلى بعض وتشبك بعضها ببعض ومعاونة بعضها ببعض وارتباطه على أنها صنع فاعل واحد ورب واحد »[٣] .

وهذا مثال واحد مما ذكره ابن القيم رحمه الله من الأمثلة الكثيرة في الدعوة إلى الله بالموعظة بالمشهود من خلق الله تعالى وكيف أن هذا الخلق والترابط من أعظم الأدلة على توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ، فهذا الخلق يستدل به على جميع أنواع التوحيد ، بل وأركان

---

(١) الآية من سورة النحل : (٨) .

(٢) الآية من سورة الحاقة : (٣٨ - ٣٩) .

(٣) انظر « شفاء العليل » : (٢٣٢) .

الإيمان المذكورة في الحديث من : « **إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره** » إذا جرّد العقل من الأهواء والمصالح .

ثانيًا : أفعاله سبحانه بالأمم السابقة :

أما الموعظة بالمشهود من أفعاله سبحانه بالأمم السابقة المكذبة لرسله فقد أكثر سبحانه وتعالى من ذكرها في القرآن الكريم قاصدًا منها النظر في فعله وقوته وحكمته في التدمير والهلاك لكل طاغية لا يرضخ إلى أوامره ونواهيه ، وأن ذلك جزاء كل مكذب معاند ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون** ﴾[1] ، وقوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارًا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾[3] ، وغير ذلك من الآيات التي أمر الله تعالى عباده فيها بالسير في الأرض والنظر في آثار وعواقب الأمم السالفة ليعتبروا بذلك قبل أن يحل بهم ما حل بغيرهم يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك :

« ومن الآيات التي أوقعها الله سبحانه وتعالى بالأمم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لأمره ، وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى : ﴿ **وعادًا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم** ﴾[4] . وقال في قوم لوط : ﴿ **وإنكم لتمرون**

---

(١) الآية من سورة يوسف : (١٠٩) .

(٢) الآية من سورة غافر : (٨٢) .

(٣) الآية من سورة محمد : (١٠) .

(٤) الآية من سورة العنكبوت : (٣٨) .

عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[١] ، وقال : **﴿ وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين ﴾**[٢] ، أي ديار هاتين الأمتين لبطريق واضح يمر به السالكون . ثم يقول : فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا عدة له ولا عدد ولا مال فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته ويحذرهم من بأسه ونقمته فتتفق كلمتهم ، أو أكثرهم ، على تكذيبه ، ومعاداته ، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، ويخسف بغيرهم الأرض تارة ، ويهلك آخرين بالريح ، وآخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ ، وآخرين بالصواعق ، وينجو داعيهم ومن معه ، والهالكون أضعاف أضعافهم عددًا وقوة ومنعة ومالًا .

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كل هواديا
ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا – إن كانوا على الحق ـ وهم أكثر عددًا وأقوى شوكة[٣].

ثالثًا : ما يحدثه الله فيها في كل وقت :

كما أن الموعظة بالمشهود لا تقف عند هذا الحد من الأشياء المبصرة من خلق الله السابق وتدمير الله سبحانه وتعالى الأمم السابقة المكذّبة ، بل إن الآيات الدالة على عظمة الخالق وقدرته ووحدانيته وربوبيته تتجدد كل يوم ، فما نراه من الكوارث التي تسمى بالكوارث الطبيعية ـ كما يسميها من لا يؤمن بالله وقدرته ـ من زلازل وبراكين وأعاصير وأمراض فتاكة تدمر

---

(١) الآيات من سورة الصافات : (١٣٧ - ١٣٨) .
(٢) الآيات من سورة الحجر : (٧٨ - ٧٩) .
(٣) « التبيان في أقسام القرآن » : (١٨٩) .

قرى بكاملها وتزيلها عن الوجود ، هي آيات وعقوبات من الله سبحانه ينبه بها عباده المتقين وغيرهم إلى قوته وعظمته كي يرجعوا إليه بسبب ما كسبوه من جرائم حيث يقول سبحانه : ﴿ **وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير** ﴾[١] .

وقد نبه ابن القيم رحمه الله إلى ذلك فقال :

« ومن الآيات التي في الأرض مما يحدثه الله فيها كل وقت ما يصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوّتهم يحدثها الله سبحانه وتعالى في الأرض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الآيات التي قاربت عصر الرسل حتى كأن أهل كل قرية يشاهدون ما يشاهده الأولون أو نظيره كما قال : ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** ﴾[٢] ، وهذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن ، بل لابد أن يُري الله سبحانه أهل كل قرية من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الأرض أعظم مما ذكر وأكثر فنبه باليسير منها على الكثير »[٣] .

* * *

(١) الآية من سورة الشورى : (٣٠) .
(٢) الآية من سورة فصلت : (٥٣) .
(٣) « التبيان في أقسام القرآن » : (١٨٩ - ١٩٠) .

أسلوب الجدل

بعد أن تحدثنا عن أسلوب الحكمة وأنه لصاحب القلب الواعي المدرك الذي يكتفي بأدنى تنبيه فيهتدي ثم بينا أسلوب الموعظة وأنه لدعوة من عرف الحق ولكنه غفل عنه .

بقي أن نعرف الصنف الثالث من المدعوين وهم المعارضون المتكبرون الجاحدون للإسلام وما جاء به ، فهؤلاء يدعون بالمجادلة وهم الملحدين والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين .

والجدل في اللغة هو : اللدد في الخصومة والقدرة عليها ، وقد جادله مجادلة وجدالاً ، ورجل جَدِل ومَجدل ومجدال : شديد الجدل ، يقال : جادلت الرجل فجدلته جدلاً : أي غلبته ، ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام ، وجادله : أي خاصمه مجادلة وجدالاً والاسم (الجدل) وهو شدة الخصومة (١) .

وفي الاصطلاح : « المفاوضة والمغالبة لإلزام الخصم الحجة قال صاحب « المصباح المنير » ـ بعد أن ذكر المعنى اللغوي للجدل ـ : ثم استعمل (الجدل) على لسان حملة الشرع في مقابل الأدلة لظهور أرجحها » (٢) .

والجدل من الأساليب الدعوية التي نهجها ابن القيم في دعوته

---

(١) « لسان العرب » : (١١/ ١٠٥) .

(٢) « المصباح المنير » : (٩٣) ..

وتستخدم للمعارض الجاحد فقال :

« وأما المعارضون المدعوون للحق فنوعان : نوع يدعون بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا ، وإلا فالمجالدة ؛ فهؤلاء لابدّ لهم من جدال أو جلاد ، فهم يدعون بالكلام فإن لم يجد فالجلاد فإنهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله » [(١)] .

وقال رحمه الله في رده على من نفى الجدال في الدين وأنه لا حجاج فيه مستدلًا بقوله تعالى : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾[(٢)] ، قال :

« وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لا يدري ما يقول ، وأن الدين لا احتجاج فيه ، كيف والقرآن مِنْ أوله إلى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل ، قطعية يقينية ، وأجوبة لمعارضتهم ، وإفساد لأقوالهم بأنواع الحجج والبراهين وإخبارًا عن أنبيائه ورسله بإقامة الحجج والبراهين وأمرًا لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن ؟ ! وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج وإفساد حجج الخصم ؟

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، وقد ناظر النبي ﷺ جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج ، حتى عدل بعضهم إلى محاربته بعد أن عجزوا عن ردّ قوله وكسر حجته ، واختار بعضهم مسالمته ومتاركته ، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر ، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم ، وأخذها بكظمهم وأسرها لنفوسهم وما استجاب له من استجاب إلا بعد أن وضحت له

---

(١) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٢١٧) .

(٢) الآية سورة الشورى : (١٥) .

الحجة ، ولم يجد إلى ردها سبيلًا ، وما خالفه أعداؤه إلا عنادًا منهم وميلًا إلى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع ؛ فما قام الدين إلا على ساق الحجة .

ثم بعد أن بين رحمه الله تعالى أن الاحتجاج جائز ، بل إن الدين قائم عليه أخذ في بيان قصد الشارع تبارك وتعالى في قوله : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾[1]، وأنها تعني أنه لا خصومة ، فإن الرب واحد ، فلا وجه للخصومة فيه ، ودينه واحد ، قد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبقى للاحتجاج والمخاصمة فائدة ، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر الحق وعانده المخالف وتركه جحودًا وعنادًا لم يبقى للاحتجاج فائدة[2] .

* * *

(١) الآية من سورة الشورى : (١٥) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٤٥٣) .

الجدل ممدوح ومذموم

فالممدوح : ما كان بنية خالصة وجرى بطريقة سليمة وأدى إلى الخير، أو يقال: هو كل جدال أيّد الحق وأفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح[١].

قال ابن القيم في قوله تعالى : ﴿ **وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾:

« يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ولينه ، وحدته ورفقه ، فيكون مأمورًا بمجادلتهم بالحال التي هي أحسن .

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود ، وأوصله إلى المطلوب؛ والتحقيق أن الآية تتناول النوعين[٢] ، ودعوة القرآن الصريحة ترشدنا إلى هذا النوع من الجدل وتبين أصوله وآدابه فقال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[٣] ، وقال تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم** ﴾[٤] .

ومن الأدلة على صحة هذا الجدل ما كان يحدث بين الصحابة رضوان الله عليهم ورسول الله ﷺ من الجدل ولم ينكر عليهم ذلك إذ كان لطلب المصلحة والحق ، مثل جدال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله

---

(١) « مناهج الجدل في القرآن الكريم » : (٤٥) ، د . عوض زاهر الألمعي ط الثانية (١٤٠٠) مطابع الفرزدق .

(٢) « مدارج السالكين » : (٤٧٩/١) .

(٣) سورة النحل الآية : (١٢٥) .

(٤) سورة العنكبوت الآية : (٤٦) .

عنهما مع الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب [١] . وكما حدث من جدال الصحابة وعمر لرسول الله ﷺ في صلح الحديبية[٢] .

كما أن الجدال مع أهل الإلحاد والمشركين وأهل البدع لابد منه قال شيخ الإسلام ابن تيمية « فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكن أعطى الإسلام حقه ولا وفى بموجب العلم والإيمان ولا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين » [٣] .

قال ابن القيم في فقة قصة وفد نجران وهو يستخلص فوائدها :

« ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم ، بل استحباب ذلك ، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته مِنْ إسلام مَنْ يُرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم إلا عاجز عن إقامة الحجة ، فليولِّ ذلك إلى أهله ، وليخل بين المطي وحاديها ، والقوس وباريها »[٤] .

* * *

---

(١) انظر « زاد المعاد » : (٢٧٣/٣) .

(٢) انظر « زاد المعاد » : (٢٩٤/٣) .

(٣) « درء تعارض العقل والنقل » لشيخ الإسلام : (٣٥٧/١) .

(٤) « زاد المعاد » : (٦٣٩/٣) .

الجدل المذموم

وهو : كل جدال ظاهر الباطل أو أفضى إليه[١] .

قال تعالى : ﴿ **ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق** ﴾[٢] . وقال : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد** ﴾[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « **أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم** »[٤] .

وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة وجميعها ظاهرة في دلالتها على الجدال بالباطل وهو ما قرره أكثر علماء هذه الأمة .

لأنه لا تعارض بين النصوص التي تأمر بالجدل والتي تنهى عنه ، فالجدل الذي أمر الله به غير الذي نهى عنه يقينًا فتحمل نصوص الأمر على الجدال بالحق ونصوص النهي على الجدال بالباطل ، كما أن ابن القيم يرى أن تقديم العقل على النقل من المجادلة بالباطل كما قال :

« ومن أعظم الجدال في آيات الله جدل من يعارض النقل بالعقل ثم يقدمه عليه فإن جداله يتضمن أربعة مقامات :

إحداها : أنه يبين أن الأدلة النقلية من الكتاب والسنة لا تفيد علمًا ولا يقينًا .

---

(١) « مناهج الجدل في القرآن الكريم » : (٥٧) .

(٢) سورة الكهف الآية : (٥٦) .

(٣) سورة الحج الآية : (٣) .

(٤) رواه البخاري : (١٠١/٣) .

الثاني : أن ظاهرها يدل على الباطل والتشبيه والتمثيل .

ثالثها : أن صريح العقل يخالفها .

الرابع : أنه يتعين تقديمه عليها ، ولا يصل إلى هذه المقامات إلا بأعظم الجدال[(١)] .

كما أنه بين في مجمل القول في الجدل الممدوح والمذموم بقوله :

فأما المناظرة فتنقسم إلى محمودة ومذمومة ، والمحمودة نوعان ، والمذمومة نوعان وبيان ذلك : أن المناظر إما أن يكون عالمًا بالحق وإما أن يكون طالبًا له ، وإما أن لا يكون عالمًا به ولا طالبًا له وهذا الثالث هو المذموم ، وأما الأولان فمن كان عالمًا بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشدًا طالبًا للحق أو تقطعه أو تكسره إن كان معاندًا غير طالب للحق ولا متبع له أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق .

ثم يبين أن لمناظرة المبطل فائدتين : إحداهما : أن يُرَدّ عن باطله ويرجع إلى الحق ، الثانية : أن ينكفّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذي معه باطل[(٢)] .

* * *

(١) « الصواعق المرسلة » : (٣/ ١١٣٠) .

(٢) نفس المرجع السابق : (٤/ ١٢٧٥) .

جدل القرآن الكريم

يرى ابن القيم أن جدل القرآن الكريم أحسن الحجج وأقوى البراهين لمن أراد مناظرة الطوائف الضالة فيقول :

« وليس أحسن من حجج القرآن ومناظراته للطوائف فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبّره ورزق فهمًا فيه ، وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج ـ وهي طريقة أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل والمعقولات ـ فهي أقرب شيء تناولًا وأوضح دلالة وأقوى برهانًا وأبعد من كل شبه وتشكيك » [١] . كما سنسوق مثلاً من جدال القرآن الكريم لإثبات ما قاله ابن القيم رحمه الله وهو :

ما سلكه إبراهيم عليه السلام مع قومه وأبيه لإبطال معبوداتهم الأصنام، وأراد أن يبرهن على ذلك ببرهان عملي جدلي وهو صاحب الحجة القوية كما قال تعالى : ﴿ **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم** ﴾[٢] .

وقد حكى الله سبحانه وتعالى الصراع الفكري الذي دار بين إبراهيم وأبيه وقومه وكذا الصراع العملي في سورة الأنبياء فقال عز وجل من قائل : ﴿ **ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنّا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون** ﴾ ، إلى قوله : ﴿ **قالوا حرّقوه وانصروا**

---

(١) « الصواعق المرسلة » : (٤/ ١٢٧٦) .

(٢) سورة الأنعام الآية : (٨٣) .

آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم ﴾[١] . فقد بين لنا الباري سبحانه أنه أعطى إبراهيم رشده وهداه لوجوه الصلاح قبل موسى وعيسى وكان موضع رضى الله وهو يناقش قومه ويحاججهم وكان أول سؤال منه عن تلك التماثيل التي يعبدونها من دون الله ، وهذا تجاهل منه لأصنامهم وتغالب ليحقر آلهتهم ، فكان جوابهم عن ذلك أن ﴿ **قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين** ﴾ ، وهذه شبهة أعداء الرسل جميعًا ، ما دام ذلك عمل الآباء والأجداد فكيف نحيد عنه ، وهي عادة في التخلص من دعوة الحق ، لقد عمدوا إلى العقول فعطلوها وإلى الأسماع فأصموها قال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون** ﴾[٢] ، فأجابهم عليه السلام بقوله ﴿ **لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين** ﴾ لأنكم لا تعتمدون على دليل ، بل على التقليد واتباع الهوى فتعجبوا من صنيعه معهم ، وحسبوا أنه قال ما قال على وجه المداعبة والمزاح ، لا على سبيل الجدّ فقالوا له : ﴿ **أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين** ﴾ فأخبرهم أن ربهم رب السموات والأرض الذي خلقهما على غير مثال سابق هو الذي يستحق العبادة وأنا شاهدٌ على ذلك بالحجج والبراهين لأني لست مثلكم أقول ما لا أقدر على إثباته ، ثم لم يكتف نبي الله إبراهيم بإنكاره على قومه عبادة الأصنام ، وتضليلهم وسلفهم بل أقسم بتحطيم أصنامهم والكيد لها بعد ذهابهم عنها ووجود الفرصة المناسبة فقال: ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين** ﴾ ، وفي عيد من أعيادهم أرسل إليه ملكهم أن غدًا عيدنا فاخرج معنا فوجد الفرصة مواتية لتنفيذ ما

---

(١) سورة الأنبياء الآية : (٥١- ٦٨) .

(٢) سورة البقرة الآية : (١٧٠) .

رآه نافعًا في إلزامهم الحجة وكانوا يعتقدون في النجوم وأن لها تأثيرًا في العوالم الأرضية كما أنهم يتشاءمون من السقيم وهو من به مرض الطاعون- خوفًا من العدوى فبدأ بتنفيذ الخطة كما حكى الباري قصته في سورة الصافات قال تعالى : ﴿ **فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين** ﴾(١). «وكان ذلك منه عليه السلام تورية وتعريضًا كما قال للملك لما سأله عن سارة : « هي أختي » ويعني أخوة الدين، وهكذا قوله: «إني سقيم » من معاريض الكلام لأن من كُتِبَ عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت، كما أن رجلًا مات فَجْأَة فالتفّ عليه الناس فقالوا: مات وهو صحيح فقال أعرابي: أصحيح مَنِ الموت في عُنُقِهِ، فإبراهيم عليه السلام صادق »(٢).

وبعد أن نفذ خطته ، واستقام له ما أراد ، بدأ العمل كما بينه الرب تبارك وتعالى فقال : ﴿ **فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون** ﴾(٣) ، وهذا تهكم واستهزاء منه عليه السلام لأنهم أنزلوها منزلة من يعقل وهو يعلم عليه السلام أنها لن تأكل من القرابين ولن تنطق فما كان منه عليه السلام إلا أن ﴿ **جعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون** ﴾(٤) أخذ يجذهم صنمًا بعد صنم حتى صارت قطعًا صغيرة عدا صنمهم الأكبر تركه بدون جذ والحكمة التي أرادها إبراهيم عليه السلام من إبقائه كي يدور الجدال حوله ويجري الاستجواب له ومعرفة المعتدي على جيرانه ولعلهم يرجعون إليه ليسألوه لماذا تتحمل الإهانة للأصنام وأنت مطرق

---

(١) سورة الصافات الآيات : (٨٨ - ٩٠) .

(٢) انظر « الجامع لاحكام القرآن » للقرطبي (١٥ / ٩٢) و « الكشاف » للزمخشري (٣٠٤/٣) .

(٣) سورة الصافات الآيات : (٩١ - ٩٢) .

(٤) سورة الأنبياء : (٥٨) .

ساكت ؟ ولماذا لا ترد عنهم ذلك الأذى الذي حل بهم ؟ ولعل ذلك المنطق يقودهم إلى الإله الحق وكل هذا نكاية من إبراهيم بتلك الأصنام وفضح لمعتقدات أبيه وقومه في عبادتهم للجمادات التي لا تنطق ولا تملك أن تدفع عن نفسها الأذى فكيف تدفعه عن غيرها ؟ فنفذ إبراهيم عليه السلام حجته العملية ثم جاء أبوه وقومه يهرعون إلى آلهتهم فوجدوها على تلك الحال المخزية فدار بينهم نقاش وحوار كما قال تعالى : ﴿ **قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون** ﴾ ، فلما أتي بإبراهيم واجتمعوا حوله وقلوبهم تكاد تميز من الغيظ بدءوا بتوجيه السؤال إليه فقالوا : ﴿ **أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم** ﴾ ومن طرائف ما ذكره بعض المفسرين وأصحاب السير أن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنامهم ووضع الفأس في عنق الصنم الأكبر الذي أبقى عليه زيادة في التنكيل والتسفيه لتلك الآلهة ولهذا قال في جوابه : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ وهذا المنهج الذي سلكه عليه السلام في عمله هذا هو المنهج الجدلي الحي المتفاعل مع طوايا النفس وكوامن الضمير وهو طريق الإلزام والإفحام فقد ساق الجواب من واقع معتقداتهم ليبرهن لهم أن تلك المعبودات ما تصلح للعبادة ، وإتيان الدليل من واقع ما يعتقده الخصم أبلغ في الإلزام والإفحام ، وفرق بين سوق الدليل لمن يطلب الرشد ويبحث عن الحقيقة وبين سوقه للمعاند فيساق لقطع حجاجه وإبطال شبهاته .

أما الطريق الإلزامي الذي يتضمنه جوابه فهو :

١- نسبة الفعل إلى كبير أصنامهم في قوله : ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾، ومن المعلوم لديهم أنه جماد لا يتحرك ولا يفعل شيئًا من العدوان فالإلزام

أنه مادام كذلك فأي مظهر من مظاهر الألوهية في هذا الصنم .

٢- أمرهم بتوجيه السؤال إلى الأصنام المكسرة : مَنْ فعل بها ذلك؟ ومن المعلوم أنها لا تنطق فهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها وبالتالي لا تملك الإفصاح ، فهل بقي لها ميزة من مميزات الألوهية تستحق بها العبادة ؟ !

وكان قوله عليه السلام ﴿ **فاسألوهم إن كانوا ينطقون** ﴾ بمنزلة صيحة عليهم بددت أفكارهم وأربكت لجاجتهم فبقي الحوار دائرًا في قرارات أنفسهم فقالوا ﴿ **إنكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون** ﴾ ، فألزمهم بالحجة والبرهان ووبخهم على سفاهة أحلامهم وتفاهة معبوداتهم فقال : ﴿ **أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون** ﴾[1] .

وهذه صورة من صور جدل القرآن الكريم بين الرب فيها جدال إبراهيم عليه السلام مع المشركين وكيف فنّد حججهم وألزمهم الحجة بكلام منطقي وعمل منطقيّ بعيد عن التعقيد والإبهام بل في أسلوب مقنع سلس يفهمه الكبير والصغير ولا تجد أفضل منه في إقناع المشركين أبدًا .

* * *

---

(١) انظر « مناهج الجدل » : (١٦٧ - ١٦٨) ، وانظر « دعوة الرسل إلى الله تعالى » لمحمد أحمد العدوي (ص ٥٣) .

نظرة ابن القيم للجدل

عرفنا أن ابن القيم رحمه الله يرى أن الجدل من الأساليب الدعوية التي لا يمكن للداعية المتمكن العالم بالشرع وطرقه من الاستغناء عنه بل إنه يرى أنه حق من حقوق الله على عبيده كما قال :

« ومن بعض حقوق الله على عباده رد الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان » [(١)] ، بل إنه يذهب إلى أكثر من ذلك وهو أن عدم مناظرة الملحدين قد تسبب الطعن في الدين بسبب عجز بعض المسلمين من إلجام الجاحد الحجة وإيضاح المراد فقال رحمه الله :

وقد انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين فلم يصادف عنده ما يشفيه ، ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه ، وظن المسلم أنه بضربه بداوية ، فسطا به ضربًا وقال : هذا هو الجواب ، فقال الكافر : صدق أصحابنا في قولهم : إن الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب[(٢)] . ومن أجل هذه المسائل ألّف كتابه « **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى** » ، فهو يرى أن الجدل الممدوح يمنع هذه المقالة وغيرها عن دينه ، كما أنه يرد المبطل عن باطله ويرده إلى الصواب إضافة إلى أن جداله ينكف شره وعدوانه ويبين للناس أن الذي معه باطل[(٣)] .

من أجل ذلك يرى المطلع على تراثه الذي بين أيدينا أنه قد حشد بالمناظرات

---

(١) (٢) « هداية الحيارى » : (١٢) .

(٣) « الصواعق المرسلة » : (٤/ ١٢٧٥) .

مع أهل البدع والأهواء ونقل بعض المناظرات التي دارت بين أهل السنة والمبتدعة[١] فقال في أحد كتبه : مناظرة جرت بين جبري وسني جمعهما مجلس مذاكرة، وقال في موضع آخر: مناظرة بين قدري وسني[٢]، ثم تراه كيف يسوق شبههم شبهة بعد شبهة ثم يفندها واحدة بعد الأخرى معتمدًا في تفنيد شبههم على الكتاب والسنة ويذكر قواعدهم التي اعتمدوا عليها وكيف أنها تخالف العقل والنقل الصحيح وكثيرًا ما يضرب أقوال المبتدعة بعضهم ببعض ويبين أن هذا المبتدع قد أفسد حجة هذا بمقتضى قوله .

إن المطلع على ما كتبه ابن القيم يرى ذلك كثيرًا في كتاباته ، ويرى كيف أنه يلزم الخصم الحجة بالبراهين القاطعة التي تضع الحجر في فيه ولا يستطيع بعدها إلا الإذعان أو الإعراض والمكابرة والهروب من الواقع كما فعل مع أحد علماء أهل الكتاب بعد أن ناظره ابن القيم وألزمه الحجة فلم يجد جوابًا وقال حدثنا في غير هذا [٣] .

وها نحن نسوق لك إحدى مناظراته رحمه الله تعالى التي ذكرها في كتابه « **هداية الحيارى** » قال :

« وقد جرت لي مناظرة بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة ، فقلت له في أثناء الكلام : أنتم بتكذيبكم محمدًا ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة . فعجب من ذلك وقال : مثلك يقول هذا الكلام! فقلت له : اسمع الآن تقريره ، إذا قلتم أن محمدًا ملك ظالم قهر الناس بسيفه وليس برسول من عند الله ، وقد أقام ثلاثًا وعشرين سنة

---

(١) انظر « هداية الحيارى » : (٩٠) .

(٢) انظر « شفاء العليل » : (١٣٩ ، ١٥٢) .

(٣) «هداية الحيارى»: (٨٩) ، وانظر «زاد المعاد»: (٣/٦٣٩) وانظر «التبيان» (ص١١٢) تزيد عن هذه.

يدعي أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة ، ويقول أنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني ونساءهم وغنيمة أموالهم وقتل رجالهم ، ولم يكن من ذلك شيء ، وهو يدأب في تغيير دين الأنبياء ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم ، فلا يخلو إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه ، أو تقولوا أنه خفي عنه ولم يعلم به ، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل وكان مَنْ علم ذلك أعلم منه ، وإن قلتم بل كان ذلك كله بعمله ومشاهدته واطلاعه عليه فلا يخلو إما أن يكون قادرًا على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك ، أو لا ، فإن لم يكن قادرًا فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافي لربوبيته وإن كان قادرًا وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلي كلمته ، ويجيب دعاءه ويمكنه من أعدائه ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له ، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذي لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء فضلاً عن رب الأرض والسماء ، فكيف وهو يشهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه وهذه عندكم شهادة زور وكذب ؛ فلما سمع ذلك قال : معاذ الله أن يفعل الله هذا بكذاب مفتر بل هو نبي صادق مَنِ اتبعه أفلح وسعد، قلت : فما لك لا تدخل في دينه ؟ قال : إنما بعث إلى الأميين الذين لا كتاب لهم أما نحن فعندنا كتاب نتبعه . قلت له : غلبت كلّ الغلب ، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله إلى جميع الخلق وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم ، وقاتل اليهود والنصارى وهم أهل كتاب وإذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به ، فأمسك ولم يجد جوابا » [(١)] .

(١) «هداية الحيارى»: (٨٩) ، وانظر «زاد المعاد»: (٦٣٩/٣)، وانظر «التبيان» (ص ١١٢) تزيد عن هذه.

من أساليب الدعوة :

الجهاد في سبيل الله

* **مكانته وفضله :**

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام وقبته ، وأهله أعلى الناس قدرًا في الدنيا والآخرة ورسولنا ﷺ في الذروة العليا منه ثم أصحابه رضوان الله عليهم الذين حازوا قصب السبق فيه وجاهدوا في الله حق جهاده بالنفس والمال فكانوا المثل الأعلى لنا في الشجاعة والإقدام وبذل النفس والنفيس لوجه الله ، فلم يتم فتح في عصر من العصور بالسرعة والقوة مثل ما تم في عصر رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم ، مع ما في هذه الحروب من المزايا التي لا توجد في غيرها من الأمن على الأديان والنساء والصبيان والشيوخ والرهبان والصوامع والبيع والحرث والنسل والأموال ، ما أمن فيها الناس في تلك العصور المجيدة التي لم تشهد الدنيا عدلها وصلاحها ، وإنه لمن أعجب العجب أن يأمن الناس على دينهم وعرضهم ومالهم في ظل دولة غازية تخالفهم في الدين والعقيدة أكثر من أمنه في قومه وأهله .

وما كان ذلك إلا بسبب تعاليم الإسلام السمحة وأحكام الجهاد التي لم تشهد الدول والشعوب سابقة مثلها .

ومن حكمة الله سبحانه أنه لم يفرض على المسلمين الجهاد أول الأمر حتى استقر رسول الله ﷺ في المدينة وأيده الله بنصره واشتد الجناح فأذن

لهم حينئذ في القتال ولم يفرضه عليهم فقال تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾[١] .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾[٢] .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة[٣] ، فقال تعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾.

قال شيخ الإسلام عن تعظيم الرب لأمر الجهاد :

وأكد الإيجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية وذم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال : ﴿ **قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين** ﴾[٤] ، والأمر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب أكثر من أن يحصر ، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الإنسان وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمرة ومن الصلاة التطوع والصوم التطوع

---

(١) الآيات من سورة الحج : (٣٩ - ٤٠) .

(٢) الآية من سورة البقرة (١٩٠) .

(٣) النظر « زاد المعاد » : (٣/ ٦٩ - ٧١) .

(٤) الآية من سورة التوبة : (٢٤) .

كما دل عليه الكتاب والسنة إلى أن قال :

وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الأعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، وهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره في الدين والدنيا ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة فإنه مشتمل على محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال على ما لا يشتمل عليه عمل آخر[1] .

وقد بين النبي ﷺ فضل الجهاد ونقل ابن القيم رحمه الله من أحاديثه الدالة على عظم الجهاد وفضله فقال :

« لقد حرك الداعي إلى الله ، وإلى دار السلام النفوس الأبية ، والهمم العالية وأسمع منادي الإيمان مَنْ كانت له أذن واعية ، وأسمع الله من كان حيًا ، فهزه السماع إلى منازل الأبرار ، وحدا به في طريق سيره ، فما حطت به رحاله إلا بدار القرار فقال : **« انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا إيمانًا بي ، وتصديق برسلي أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمه أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل »**[2] وقال : **« لغدوة في سبيل الله أو روحه خير من الدنيا وما فيها »**[3] ، وقال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : **« أيما عبد من عبادي خرج مجاهدًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، ضمنت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته أن أغفر له أو أرحمه وأدخله الجنة »**[4] . وقال : **« جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في**

---

(١) « مجموع فتاوي شيخ الإسلام » : (٢٨ / ٣٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري : (١/ ١٤) باب الجهاد من الإيمان .

(٣) اخرجه البخاري : (٣/٢٠٢) كتاب «الجهاد» باب الغدوة والروحة وأخرجه مسلم برقم (١٨٨٠) .

(٤) أخرجه النسائي : (٦ /١٨) في الجهاد .

سبيل الله باب من أبواب الجنة ينجي الله به من الهم والغم »[١] .

وقال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة »[٢] .

وقال : « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار »[٣] .

وقال : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها »[٤] .

إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في فضل الجهاد ومكانته وقد أفرد رحمه الله أبوابًا مطوله في أحكام الجهاد، وهدي النبي ﷺ في جهاده وغزواته ، وفضل الجهاد وما يترتب على الشهادة في سبيل الله ، وكتب رحمه الله كتابًا كبيرًا يتألف من جزئين أسماه « أحكام أهل الذمة » وما يتعلق بهم وبمعاملتهم ، كما ألف كتابًا أسماه « الفروسيه » ، ذكر فيه فنون الحرب ، والرمي ، والركوب ، وغير ذلك . ننصح المسلم بالرجوع إليها لما فيها من إثارة حماس المسلم للجهاد في سبيل الله لينال الدرجة العالية وليتمكن من معرفة أحكام الجهاد وفنونه .

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في « مسنده » : (٣١٤/٥) من حديث عبادة بن الصامت .

(٢) أخرجه البخاري : (٣/ ٢٠١) باب درجات المجاهدين في الجنة .

(٣) بنحوه في الترمذي باب فضائل الجهاد (٨) والإمام أحمد في « مسنده » : (١٥٦/٢) .

(٤) رواه البخاري في كتاب « الجهاد » برقم (٧٣ : ٣/ ٢٢٤) .

كيف يكون الجهاد من طرق الدعوة ؟

لا شك أن فائدة الدعوة من الجهاد ترتكز في جانبين أساسيين ، الأول : هو الدفاع عن الدعوة من الاعتداء عليها أو على أهلها من أن يقهروا أو يذلوا أو يمنعوا من الدعوة ، والجانب الثاني : هو النشر والذيوع لها في البلاد المفتوحة التي يتسنى لها بعد الفتح الاطلاع عن كثب وبدون عوائق على تعاليم الإسلام ومن ثم الاقتناع والإيمان فطرق الدعوة بمجملها تنقسم إلى قسمين : أولاً قولية ، ثانيًا فعلية .

فالقولية : هي ذكر الحجج والبراهين والأساليب السالفة الذكر .

والفعلية : والمقصود بها الجهاد في سبيل الله لنشر الدعوة وترتكز على البدن والمال ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سنعرفه في الباب الثالث .

كما أن هذه الطرق يجب أن لا يتقدم أحدها على الآخر فالقول مقدم على الفعل وذلك مقتبس من منهج النبي ﷺ فإنه بدأ الدعوة بالقول وهو كذلك حتى بعد القوة والنصر ، فإنه يبدأ بالدعوة بالقول كما كان منه في مكاتبة الملوك وإرسال الدعاة ؛ فإن أعياه ذلك لجأ إلى الجلاد .

ويبين ذلك ابن القيم وأن ذلك هو فعل النبي ﷺ وهو الدعوة بالهدى الذي جاء به فإذا أعياه ذلك لجأ إلى الجلاد . فقال :

« بُعث ﷺ بالكتاب الهادي ، والسيف الناصر بين يدي الساعة حتى يعبد الله سبحانه وحده لا شريك له » [1]، كما يزيد الأمر وضوحًا بقوله:

---

(١) « الفروسية » لابن القيم : (ص٢) .

« فإن الله أقام هذا الدين بالحجة والبرهان والسيف والسنان فكلاهما في نصره أخوان شقيقان وكلاهما شجيع لا يتم إلا بشجاعة القلب وثبات الجنان »[١] .

أما عن ترتيب هذه الأساليب فيقول :

« وأما المعارضون فنوعان : نوع يدعى بالمجادلة بالتي هي أحسن فإن استجابوا ولا فالمجالدة فهؤلاء لابدّ لهم من الجدال أو الجلاد ، فهم يدعون بالكلام فإن لم يجد فالجلاد فإنهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله »[٢] .

بل يرى رحمه الله أن هذه الأساليب من حقوق الله سبحانه وتعالى على عبيده كي يردوا على الطاعنين في كتاب الله وسنة رسوله فيقول :

« ومن حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتاب الله ورسوله ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان ، والسيف والسنان والقلب والجنان »[٣] .

كما أن عدم معرفة هذا التسلسل في أساليب الدعوة وترتيبها على ما يجب أن تكون عليه يسبب الطعن في الإسلام والمسلمين ، وقد نقد ابن القيم رحمه الله الدعاة الذين لم يتسلسلوا في الأساليب لجهلهم بالدين مما سبب الطعن في الإسلام وانتشار مقالة « الإسلام قام بالسيف » فقال ابن القيم :

« انتهى إلينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين ،

---

(١) « الفروسية » لابن القيم : (ص ٢) .
(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١/٢١٧) .
(٣) « هداية الحيارى » : (١١٢) .

فلم يصادف عنده ما يشفيه ولا وقع دواؤه على الداء الذي فيه ، وظن المسلم أنه يضربه بداوية فسطا به ضربًا وقال : هذا هو الجواب . فقال الكافر : صدق أصحابنا في قولهم : إن دين الإسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب . فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب ، وضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب ، فشمر المجيب ساعد العزم وقام لله قيام مستعين به مفوضًا إليه ، ولم يقل مقالة العجزة الجهال : (إن الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال) ، وهذا فرار من الزحف ، وإخلاد إلى العجز والضعف ، وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة وإزاحة للعذر ﴿ **ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة** ﴾[1] ، والسيف إنما جاء منفذًا للحجة ، مقومًا للمعاند ، وحدًّا للجاحد ، قال تعالى : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز** ﴾[2] ، فدين الإسلام قام بالكتاب الهادي ، ونفذه السيف الماضي .

فما هو إلا لوحي أو حدّ مرهف يقيم ضباه أخدعي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل[3]

ومن هذا النص يتبين توجيه ابن القيم رحمه الله للدعاة وأنه يجب عليهم الدعوة إلى الله بدءًا بالحكمة والموعظة الحسنة ثم ينتقلون إلى المجادلة بالتي هي أحسن ، فإن أعياهم ذلك انتقلوا إلى الجهاد بالسيف ، وذلك دليل على أن الإسلام لم يقم بالسيف بل بالكتاب والميزان ، والسيف إنما هو منفذ للحجة ، ومقوم للمعاند وحد للجاحد وليس إرغامًا له على

(١) الآية من سورة الأنفال : (٤٢) .
(٢) الآية من سورة الحديد : (٢٥) .
(٣) « هداية الحيارى » : (١٢) .

الإسلام فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **لا إكراه في الدين** ﴾.

وليس أدلّ على ذلك من بقاء اليهود والنصارى في البلاد الإسلامية المفتوحة إلى يومنا هذا بل إن اليهود لم يشهدوا أمنًا واستقرارًا على أنفسهم وأموالهم إلا في ظل الحكومة الإسلامية فكيف يتجرأ من يقول أن الإسلام قام بالسيف مع النهي عن قتل الشيوخ والصبيان والنساء والرهبان وكل من لم يقاتل ولم يمنع من نشر الإسلام ؟ إذن فما هي الحِكَمُ من شرع الجهاد ؟ سوف نذكر بعض الحِكَمِ مما اقتبسناه من كلام ابن القيم رحمه الله .

الحِكَمُ مِن شرع الجهاد

أولاً : رفع الظلم عن المسلمين :

يقول ابن القيم :

لما رمت العربُ واليهودُ الرسولَ ﷺ وأصحابَه عن قوس واحدة وشمروا كلهم عن ساق العدواة والمحاربة وصاحوا بهم من كل جانب أذن الله لهم حين ذلك بالقتال فقال : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير** ﴾[1][2] .

ثانيًا : الدفاع عن النفس والمال والعرض :

يقول ابن القيم :

وكذلك فرض عليهم القتال بعد ذلك دفاعًا عن النفس لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم[3] ، فقال : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم** ﴾[4] .

---

(١) الآية من سورة الحج : (٣٩) .

(٢)(٣) انظر « زاد المعاد » : (٣/٧٠) .

(٤) الآية من سورة البقرة : (١٩٠) .

ثالثًا : نشر الإسلام :

لا شك أن هناك بلادًا واسعة في أرض الله لم يصلها الإسلام بسبب ما فرضه على أهلها سلاطين القهر والتسلط ، فوجب الجهاد لفك القيود والحصار عن أهل البلاد المفتوحة كي يتسنى لهم سماع كلام الله ودعوة الإسلام يقول ابن القيم :

وهو الذي يقصده سادات المؤمنين الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى فيكون الدين كله لله [١] ، ويقول شيخ الإسلام :

أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين وأما من لم يكن من أهل الممانعة والمقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى فلا يقتل عند جمهور العلماء ، إلا أن يقاتل بقوله أو فعله لأن القتل هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال تعالى : ﴿**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾[٢] ، وذلك أن الله أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى : ﴿**والفتنة أكبر من القتل**﴾[٣] ، أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفّار من الشر والفساد ما هو أكبر منه ، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مضرة كفره إلا على نفسه[٤] .

---

(١) « الفروسية » لابن القيم .

(٢) الآية من سورة البقرة : (١٩٠) .

(٣) الآية من سورة البقرة : (٢١٧) .

(٤) انظر « مجموع فتاوي شيخ الإسلام » : (٢٨ / ٣٥٤) .

رابعًا : أن الجهاد في سبيل الله فيه من الخير للإسلام والمسلمين وغيرهم ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ويمثل ذلك ابن القيم رحمه الله بغزوة بدر فيقول :

ما حصل يوم بدر عند مجيء المشركين بالحد والحديد والشوكة وانتصار المسلمين عليهم وما حصل من الهدى والإيمان والخير للمسلمين وغيرهم فكم من رِبْعٍ أصبح أهلًا للإيمان وقد فتحت لأولي النهى من باب، وصلوا منه إلى الهدى والإيقان ، وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ الشيطان وأعوانه ، وتلك المفسدة التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدًّا بالنسبة إلى مصالحها وحكمها هي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب بالنسبة للمصلحة العامة (١) .

خامسًا : أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يعبد بأنواع العبودية ، ومن أعلاها وأجلها عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه ، والجهاد في سبيله وبذل مهج النفوس في مرضاته ومعارضة أعدائه وهذا النوع هو ذروة سنام العبودية وأعلى مراتبها وهو أحب أنواعها إليه وهو موقوف على ما لا يحصل بدونه لتحصل بذلك محابه على أتمّ الوجوه وتقرب أوليائه إليه ، لجهاد أعدائه ومعارضتهم وإذلالهم وكبتهم ومخالفة سبيلهم فتعلو كلمته ودعوته على كلمة الباطل (٢) .

سادسًا : لولا الجهاد ما نال أهله درجة الشهادة والله يريد أن يتخذ من عباده شهداء ولما ظهر من يقدم محبة خالقه وفاطره على نفسه وأهله

---

(١) انظر « شفاء العليل » : (٢٢٣) .

(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة .

وولده[١] ، فقد شرع الله سبحانه الجهاد ليكتشف المحب الحقيقي من غيره قال ابن القيم :

« ولما كثر المدّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينة على صحة الدّعوى فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجي ، فتنوع المدعون في الشهود فقيل لا تثبت هذه الدعوى إلا بينة ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾[٢] . فتأخر الخلق كلهم وثبت أتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينة وقيل لا تقبل العدالة إلا بتزكية ﴿**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم** ﴾[٣] ، فتأخر أكثر المدّعين للمحبة وقام المجاهدون فقيل لهم : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** ﴾[٤] .

فإن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فسلموا ما وقع عليه العقد ، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين ، فلما رأى التجار عظمة المشتري ، وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع عليه ومقدار الكتاب الذي أثبت فيه العقد عرفوا أنّ للسلعة قدرًا وثمنًا ليس لغيرها فرأوا أن من الخسران المبين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس تذهب لذتها وشهوتها[٥] .

سابعًا : ذكرنا هذه الحكم القليلة لمعرفة عظمة الجهاد وبركته والذي خفي علينا أكثر وأعظم فقد قال ربنا سبحانه وتعالى : ﴿ **كتب عليكم القتال**

---

(١) « شفاء العليل » : (٢٢٥) .
(٢) الآية من سورة آل عمران : (٣١) .
(٣) الآية من سورة المائدة : (٥٤) .
(٤) الآية من سورة التوبة : (١١١) .
(٥) « زاد المعاد » بتصرف : (٣/٧٢ - ٧٤) .

وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] .

فبين سبحانه أن ما أمرهم به ، يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعة لهم والتي اقتضت أن يختاره ويأمرهم به ، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم أو لنفور الطبع فهذا علمه بما في عواقب أمره بما لا يعلمونه وذلك علمه بما في اختياره من خلقه ما لا يعلمونه[2] .

حُكْمُ الجهاد

لقد بين ابن القيم رحمه الله أقوال العلماء في حُكْمَ الجهاد ـ وهو جهاد الكفار ـ وبين أن منهم من يقول أنه فرض عين ومنهم من يقول أنه فرض كفاية على المشهور ثم قال :

« والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإما بالمال ، وإما باليد فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع ، أما الجهاد بالنفس ففرض كفاية »[3] .

وهذا الحكم من ابن القيم في عموم حكم الجهاد والجنس ، إلا أنه لم يقف عند هذا الحد ، فإن حكم الجهاد يختلف باختلاف الأحوال فهناك أحوال يكون فيها المسلم مطلوبًا ، أو يستنفر الإمام المسلمين أو يتعدى على بلاد المسلمين أو يكون المسلم طالبًا فالحكم يختلف من حال إلى حال .

(١) الآية من سورة البقرة : (٢١٦) .

(٢) « شفاء العليل » : (٣٣) .

(٣) انظر « زاد المعاد » : (٧٢/٣) .

يقول ابن القيم :

« فمن المعلوم أن المجاهد قد يقصد دفع العدو إذا كان المجاهد مطلوبًا والعدو طالبًا ، وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء إذا كان طالبًا والعدو مطلوبًا ، وقد يقصد كلاً الأمرين ، فالأقسام الثلاثة يؤمر المؤمن فيها بالجهاد ، وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب فإنه يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه كما قال تعالى : ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا** ﴾[١] ، فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبًا ولهذا يتعين على كل أحد ، فيجاهد فيه العبد بأذن سيده وبدون إذنه والولد بدون إذن أبويه ، والغريم بدون إذن غريمه ، وهذا جهاد المسلمين يوم أحد والخندق ، ولا يشترط في هذا الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون فإنهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين ، وكان الجهاد واجبًا عليهم لأنه جهاد وضرورة ودفع ، لا جهاد واختيار ، ومعلوم أن الجهاد الذي يكون فيه الإنسان مطلوبًا لا طالبًا أوجب من الجهاد الذي هو فيه طالبًا لا مطلوبًا. أما الجهاد الخالص فهو الواجب وجوبًا كفائيًا[٢] ، ويقول رحمه الله في موضع آخر :

« الإمام إذا استنفر الجيش لزمهم النفير ولم يجز لأحد التخلف إلا بإذنه ولا يشترط في وجود النفير تعيين كل واحد منهم بعينه بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه وهذا أحد المواضع الثلاثة التي يصير الجهاد فيها فرض عين ، والثاني : إذا حضر العدو البلد ، والثالث : إذا

(١) الآية من سورة الحج : (٣٩) .

(٢) انظر « الفروسية » : (٢٨) .

حضر بين الصفين ، ومنها وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس [1] .

وسائل الدعوة

عرفنا أن الوسيلة هي ما يتوصل بها إلى الشيء ويتقرب إليه فالوسائل ما يستعين بها الداعية على تبليغ دعوته .

وهي قسمين : **أحدها** : وسائل تبليغ وهي ركائز التبليغ التي استخدمها الدعاة إلى الله تعالى قديمًا وحديثًا وعلى رأس مستخدميها المصطفى ﷺ وهي التعليم والخطابة ، والكتابة والقدوة الحسنة وما يدخل تحت ذلك من محاضرات وندوات ونحوه .

ثانيًا : الوسائل المساعدة على التبليغ وهذه الوسائل لا تنفك عن سابقتها مثل التلفاز والمذياع والمسرح وغير ذلك ، فإن جميع ما يحصل من التبليغ عن طريق هذه الوسائل لابد أن يكون مندرجًا تحت تلك الوسائل السابقة .

وابن القيم قد استخدم الأصول الثابتة في التبليغ بالنسبة للوسائل حيث أن ظروف العصر الذي عاش فيه لا تسمح له بأكثر من ذلك وسوف نتعرف على هذه الوسائل التي استخدمها ابن القيم وهي :

أولاً : التعليم :

التعليم من أقوى الوسائل الدعوية إيجابية لما فيه من تمكن الداعية من المدعو وسيطرته عليه بما يتيح للداعية الفرصة ببث روح الإسلام وأفكاره وتعاليمه وحدوده في المتعلم لأن التعليم لا يكتفي بنشر الكليات الحقة والمتعارف عليها فقط كأن يقول المعلم أن الإسلام صالح لكل زمان

---

(١) « زاد المعاد » : (٥٥٨/٣) .

ومكان، بل لابد أن يفصّل له الإسلام وتشريعاته ويبين له أنواع الحكم من التشريع ومواقع الخير التي تنقضي في أوامره وتبين له أنواع المعاطب والأدناس والحيرة الحاصلة لمن ابتعد عن تعاليمه ، وكلما يزيد المدعو اقتناعًا بهذا الدين القويم .

ولا يكتفي المعلم الناجح بذلك بل لابدّ أن يحمل من يعلمه على التمسك بهذه المبادئ الحية وأن يصوغ سلوكه على نحوها ، حتى يتربى تربية إسلامية فيتعلم ويعمل في نفس الوقت كما فعل المربي والداعية الأول عليه أفضل الصلاة والتسليم مع أصحابه رضي الله عنهم فكانوا مصابيح يستنار بنورهم ومعلمين يسمع لقولهم وهداة يقتفى أثرهم .

وهذه الطريقة من أهم المبادئ التي يجب على الداعية المعلم أن يحتذيها وأن يحاول أن يربط كل ما يعلمه تلاميذه أو سامعيه بشئون الحياة التي يعيشها لكي يرى آثار ما علمه في الناس مباشرة أو بعد حين حتى يكون التعليم نافعًا وأقوى رسوخًا في الأذهان لأن التعليم والتعلم وسيلة وليس غاية وإنما غاية التعليم هي الآثار الناتجة في المتعلم وتأثيرها على سلوكه وأعماله .

فالمعلم النابه هو الذي لا يعتمد قياسه الآثار التعليميه في المتعلم كالحفظ وقوة الذاكرة فقط بل يجب أن ينظر إلى الآثار السلوكية ومدى تطبيقه لما علمه لأن الحفظ وقوة الذاكرة لا ينفعان بدون الآثار السلوكية التي تطرأ عليه بعد معرفته الحقيقة واقتناعه بها .

وإن كان الحفظ وقوة الذاكرة من الأهمية الكبرى في العمل ، فإن العمل يحتاج إلى علم يرشده إلى ما فيه الخير الموافق لما رسمته الشريعة والمرضي لله تبارك وتعالى في جميع العبادات كما أن المؤمن مطالب بالدعوة

وهي كذلك تحتاج إلى علم .

وهذا ما بينه ابن القيم رحمه الله تعالى فإنه يرى أن غاية كمال الإنسان ونهاية كماله في هذه الحياة أربع مراتب إذا استكملها بلغ نهاية الكمال :

أحدها : معرفة الحق .

ثانيها : عمله به .

ثالثها : تعليمه من لا يحسنه .

رابعها : صبره على تَعَلُّمه والعمل به وتعليمه .

ثم بين رحمه الله تعالى كيف أن الله تعالى جمع هذه المراتب الأربعة في سورة العصر فقال :

فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم الذين عرفوا الحق بالتعليم وصدقوا به ، فهذه مرتبة وهي مرتبة الحفظ واليقين ، ثم تأتي المرتبة الثانية وهي (وعملوا الصالحات) وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، وهذه مرتبة الآثار السلوكية التي طرأت عليه بعد معرفة الحق ، ثم يذكر المرتبة الثالثة وهي (وتواصوا بالحق) وصّى بعضهم بعضًا تعليمًا وإرشادًا ، ثم تأتي المرتبة الرابعة وهي (وتواصوا بالصبر) صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضًا بالصبر عليه والثبات ، وهذه نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملًا في نفسه مكملًا لغيره وكماله إصلاح قوتيه العلمية والعملية[1] .

فبين رحمه الله أن الكمال لا يكون للإنسان إلا من طريقين ، الطريق

---

(١) « مفتاح دار السعادة » بتصرف (ص ٧٤) .

الأول : وهو كمال النفس ، والثاني : تكميل الغير ثم بين رحمه الله أن كمال النفس يكون من طريقين : إصلاح القوة العلمية والعملية .

ثم وضح ذلك بقوله :

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها ويجتنب أسباب الهلاك ، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف فيكشف له النور أمرين : أعلام الطريق ومعاطبها .

وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية فإن السير هو عمل المسافر وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح[1] ، وهو مقصد الإسلام .

أما عن الشطر الآخر فهو تكميل غيره بالتعليم والإرشاد والصبر على ذلك كله ، إذًا فإن الكمال لا يحصل إلا بالتعليم والإرشاد إذا أراد أن يصل المسلم إلى غاية الكمال .

وقد ذكر ابن القيم قسمًا كبيرًا في كتابه « مفتاح دار السعادة » بين فيه فضل العلم والتعليم وذكر ما يزيد على مائة وخمسين وجهًا في فضلهما لأن كمال العبد يتوقف عليها كما بينا ذلك سابقًا .

وقال رحمه الله :

« إن بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل ونصحه لكل من اجتمع به

---

(١) « طريق الهجرتين » : (١٨٣) .

قال تعالى إخبارًا عن المسيح عليه السلام : ﴿ **وجعلني مباركًا أينما كنت** ﴾[١]، أي معلمًا للخير داعيًا إلى الله مرغبًا في طاعته فهذه من بركة الرجل »[٢] .

وقد كان رحمه الله مباركًا في تعليمه سواء كان ذلك من خلال ما كتبه ووصل إلينا أو من تلاميذه النابغين فإن بركته ما زالت تدرّ على طلاب العلم إلى وقتنا الحاضر ، ينهلون من علومه العذبة وأفكاره التي تتغلغل في أعماق من يسامر ما كتبه ويقايس بينها وبين الحقائق المحسوسة .

وإذا كان هذا حالنا معه بعد مرور ستة قرون ، فما بالنا بمن تلقوا عنه مشافهة وبلا واسطة وسمعوا منه ونظروا إلى ملامح وجهه وهو يعلمهم وعرفوا عنه من الزهد وكثرة العبادة ما عرفوا ، فإن ذلك أرجح في الفائدة والتأثير في المتعلم ، أضف إلى ذلك معالجته لمشاكل عصره والتي يعيشها مجتمعه وقد عرفوا خطرها وأذاها على المجتمع ، إلى جانب علمه الغزير المتنوع وفكره الثاقب .

فالتدريس من ابن القيم نتيجة حتمية لعلمه الجم وبراعته ونبوغه وقد أخذ عنه العلم جمع غفير من كبار الحفاظ ومشاهير العلماء من الحنابلة وغيرهم كالحافظ ابن رجب الحنبلي والمحدث البارع الذهبي الشافعي ، وعلامة التفسير والفقه والحديث الحافظ ابن كثير الشافعي وغيرهم[٣] ، وقد

---

(١) سورة مريم الآية : (٣١) .

(٢) « رسالة إلى كل مسلم » لابن القيم (ص : ٥) .

(٣) « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » (ص ٣٨) .

ذكر تلامذته وتدريسه بالصدرية[١]، فقال ابن كثير في ذكر حوادث ثلاث وأربعين وسبعمائة : وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدرية صاحبنا الإمام العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي إمام الجوزية[٢] .

ثم بين أنه بعد وفاته بشهر تولى التدريس مكانه ابنه عبد الله عوضًا عن أبيه رحم الله الجميع[٣] ، وهذا يدل على أنه ما زال قائمًا على التدريس بهذه المدرسة حتى وفاته فإذا كانت وفاته في عام (٧٥١هـ) ، فإن مدّة تدريسه فيها حوالي ثمان سنوات .

وقد أفصح عن ذلك رحمه الله في « قصيدته الميمية » التي أظهر فيها من التواضع والذل والتقصير لله تعالى فقال :

بني أبي بكر جهول بنفسه ... جهول بأمر الله أنى له علم

بني أبي بكر غدًا متصدرًا ... يعلم علمًا وهو ليس له علم[٤]

---

(١) المدرسة الصدرية كانت بدرب يقال له « درب الريحان » بجوار قرية القاضي جمال الدين المصري ومحلها كان دارًا لصدر الدين أسعد بن عثمان التنوخي (ت ٦٥٧ هـ) فجعلها مدرسة ووقف لها أوقافًا واليوم محيت آثارها وصارت دورًا من أشهر مدرسيها : ابن القيم رحمه الله ، وفخر الدين البعليكي (٦٦٨هـ) ، وشمس الدين بن عبد الهادي (ت٧٤٤هـ) ، وبرهان الدين ابن القيم (ت٧٦٧هـ) ، وغيرهم انظر : عبد القادر بن محمد النعيمي : « الدارس في تاريخ المدارس » تحقيق جعفر الحسيني (٢ / ٨٦ - ٩١ ط ١٩٤٨م) مطبعة الترقي دمشق . الشيخ عبد القادر بدران : « منادمة الأطلال ومسامرة الخيال » - بعناية محمد زهير الشاويش (ص٢٣٩ - ٥٤٢ ط الأول ١٣٧٩هـ) على نفقه الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني منشورات المكتب الإسلامي دمشق .

(٢) « البداية والنهاية » لابن كثير : (١٤/ ٢٠٢) .

(٣) نفس المرجع : (١٤/ ٢٣٥) .

(٤) « التقريب لفقه ابن القيم » : (١/ ٤١) نقلًا عن العلامة الصفدي « الوافي بالوفيات » (٢/٢٧١) ولم أجد الأبيات في « القصيدة الميمة » .

وقال عنه الذهبي :

« وكان من عيون أصحاب ابن تيمية وأفتى ودرس وناظر وصنف وأفاد »[1] .

وعبارة الذهبي تفيد أن تعليم ابن القيم رحمه الله لم يقف عند حد التدريس بل كان يعلم عن طريق الفتوى وعن طريق المناظرة والتصنيف .

* * *

(١) « العبر » للذهبي (١٥٥/٤) الطبعة الأولى دار الكتب العلمية .

ثانيًا : الخطابة

الخطابة فن قديم عرفها العرب وغيرهم في جاهليتهم ، وكانت الظروف القائمة في ذلك العصر تحتم عليهم هذه الوسيلة فهي السبيل الأكثر انتشارًا والأقوى تأثيرًا من أجل نشر المبادئ والقيم والمذاهب وإثارة حماس الجمهور لفكرة أو حرب وغير ذلك .

وأول من كتب في هذا العلم اليونان بل هم مستنبطو قواعده ومشيدو أركانه وأول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون ، وذلك في عام (٤٠٠) قبل الميلاد ثم جاء من بعدهم أرسطو الذي جمع قواعده وضم شوارده في كتاب أسماه « الخطابة » فكان أصلًا لذلك العلم[1] ، مع أن الخطابة اشتهرت عند العرب في الجاهلية وقد وردت إلينا بعض الآثار التي تروى عن خطبائهم وهذا لا يعني أن العرب في جاهليتهم لم يعرفوا الخطابة إلا بعد أن وصلتهم من اليونان وغيرهم فإذا كانوا أول من كتب فيها فيعني أنهم كتبوا أصولها وقواعدها وأسسوا ركائزها . وأما الخطابة بمفهومها العام فلا أعتقد أن مجتمعًا من المجتمعات الإنسانية يستغني عنها ، لأنها تفرض نفسها ، عليهم لحاجتهم إليها . ولو كان ذلك بدون معرفة أُسسها العلمية فإنها تؤدي غرضها وإن لم تصل إلى درجة الخطابة المبنية على الأسس العلمية « فنجد أن بعض القبائل قد تميزت في الخطابة عن غيرها من القبائل

---

(١) انظر كتاب « الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب » لمحمد أبو زهرة (ص١٢) دار الفكر العربي الطبعة الثانية .

العربية . فلإياد وتميم في الخطب خصلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله ﷺ هو الذي روى كلام قس بن ساعدة وموقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذي رواه لقريش والعرب ، وهو الذي عجب من حسنه وأظهر من تصويبه ، لاحتجاجه للتوحيد ، ولإظهاره معنى الإخلاص وإيمانه بالبعث[١] .

إلا أن الخطابة بعد الإسلام تغيرت فزادها الإسلام بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من محاكاة أسلوب القرآن واقتباس الآيات القرآنية ، وقد كان للقرآن نحو هذا التأثير في الشعر أيضًا) لكن الخطابة أوسع مجالاً للاقتباس فأخذ الخطباء يرصعون خطبهم بالآيات ، تمثلاً أو إشارة أو تهديدًا ، كما أن للحديث النبوي نحو هذا التأثير ، إضافة إلى أن الإسلام قد فتح المجال للخطابة فأوجب عليهم خطبًا تقال على المنابر في المناسبات الإسلامية كالجمع والأعياد ، ولا سيما أن المساجد هي المكان المناسب للخطابة والذي يجتمع فيه المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة ولا تجد مكانًا أصلح منها للخطابة .

كما أن الخطابة ازدادت قوة ووقعًا في النفوس بنهضة المسلمين في الحروب وانتصارهم في أكثر مواقعها فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم ، فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحذت قرائحهم بما شاهدوه فبلغت الخطابة عندهم مبلغًا قلما سبقهم فيه أحد من الأمم التي تقدمت بلاغة وإيقاعًا وتأثيرًا[٢] .

فوائد هذه الوسيلة :

لا شك أن للبلاغة تأثيرًا شديدًا في المواطن وقد كانت الخطابة من

---

(١) « البيان والتبيين » للجاحظ الطبعة الرابعة مكتبة الخانجي بمصر : (١/ ٥٢) .

(٢) انظر «تاريخ التمدن الإسلامي» لجرجي زيدان مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة (١٩٠٤م: ٣/٩٩).

جملة ما ساعد على نشر الإسلام بين الناس وكثيرًا ما توقف فتح بلد أو حصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوة وتسري في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع أو الهجوم وفي أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على إيرادها كما أن الذي ساعد الحجاج بن يوسف على القضاء على التمرد في العراق واخضاعهم لصولة عبد الملك هو قوة عارضته وتأثير خطبه في نفوس رجاله والسامعين[١].

فعندما صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فقال : عليّ بالناس، فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لأحتمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها ، وإني لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى ثم قال :

إن أمير المؤمنين كب كنانته ثم عجم عيدانها فوجدني أمرّها عودًا وأصلبها عمودًا فوجهني إليكم ، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقد الضلال وسننتم سنن الغي ، أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل[٢] ... إلخ .
فانظر إلى هذه الخطبة وكيف أنها جعلت الحصى الذي بأيدي أهل العراق يريدون أن يرجموه به كيف تساقط من أيديهم رعدة وخوفًا وكيف أن رجلاً جاء باثني عشر رجلًا إلى العراق التي عرفت بكثرة الفتن والشقاق قد

(١) « تاريخ التمدن الإسلامي » لجرجي زيدان مطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة (١٩٠٤م): (٣/١٠٠).
(٢) انظر « تاريخ الطبري » : (٦/٢٠٢) و « البيان والتبيين » (٢/٣٠٧) .

خضعت له وأذعنت خوفًا منه وما ذلك إلا لبلاغته وقوة شكيمته وتأثير خطبه فيهم .

والخطابه أيضًا تهدئ الثائرين وتوقظ الغافلين الذاهلين وتنهي الاضطراب وهذا جميعه يتجلى في خطبة قصيرة قالها الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ عندما كان خبر موته كالصاعقة نزلت على رءوس الناس وغشيهم الذهول واضطرب أحكم الناس وأعقلهم لما جاء به رسول الله وأعرفهم بكتاب الله وسنته وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قام خطيبًا يهدد ويتوعد كل من قال بموت رسول الله وأن النبي ﷺ سيرجع كما رجع موسى وفي غمرة هذا الذهول والاضطراب وقف الصدّيق يخطب في الناس فقال :

أيها الناس مَنْ كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لا يموت وتلا قوله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[1]، فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها الصديق ذلك اليوم وأخذ الناس يرددونها في أفواههم .

أما عمر رضي الله عنه فيقول : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى وقعت على الأرض[2] ، وهكذا ينهي الصديق هذا الذهول والاضطراب والمحنة التي كادت أن تؤدي بالناس إلى الهلاك بدون أي كلفة وبخطبة قصيرة أجلت الأمور وأنهت النزاع .

أضف إلى ذلك أن الخطابة وسيلة تربوية وتعليمية وتثقيفية وإعلامية ،

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (١٤٤) .

(٢) انظر « سيرة ابن هشام » دار الكتب المصرية القسم الثاني (ص٦٥٥) .

وأمر ونهي تزكي النفوس ، وتفض المنازعات وترفع الحق وتزهق الباطل .

ابن القيم والخطابة

لما كانت الخطابة محاكاة لجمهور الناس وهم يميلون إلى السماع أكثر من ميلهم إلى القراءة وعرفنا ما فيها من الفوائد وعظيم مكانتها في الدعوة وما فرضه الله على هذه الأمة من الخطابة فإن ابن القيم قد اهتم بتوضيح قواعد الخطابة ، وكيفية الخطبة ، وآدابها ، وآداب السامع لها ، والحالة التي يجب أن يكون عليها الخطيب ، وكل ما ذكره رحمه الله تعالى عن الخطابة كان يترسم فيه المنهج الذي سار عليه صاحب البلاغة والبيان والحجة المصطفى ﷺ .

وقد اتخذ رحمه الله الخطابة وسيلة من وسائل دعوته فقد ذكر مترجموه ذلك عنه فقال المراغي : « هو الأصولي المحدث النحوي الأديب الواعظ الخطيب » [١] ، وقال ابن كثير : « أقيمت الجمعة بالجامع الذي أنشأه نجم الدين بن خليلخان تجاه باب كيسان من القبلة وخطب فيه الشيخ الإمام العلامة شمس الدين بن قيم الجوزية » [٢] ، وكانت مصادره في وعظه وخطبه أن يعتمد آيات القرآن الكريم والسنة النبوية وما أثر عن السلف الصالح من هذه الأمة[٣]، وهذا منهجه رحمه الله في جميع أموره.

ولم يخرج عن هذا المنهج عندما تحدث عن الخطابة فإنه نظر في قدوته

---

(١) « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » : (٣١) . نقلا عن « الفتح المبين » للمراغي .

(٢) « البداية والنهاية » : (١٤/ ١٧٤) .

(٣) انظر كتابه « الفوائد » فإنه حافل بالمواعظ والخطب بهذا المنهج .

ولمس مواطن فعله في خطبته فجعلها قواعد يسير عليها من أراد أن يسمو بنفسه ويجعل من خطبته قولًا يحتذى به وأمرًا يستجاب ونهيًا ينتهى عنه مستندًا في ذلك على ما ورد وصح عن النبي ﷺ .

فبين الهيأة التي يجب أن يكون عليها الخطيب فذكر أن الخطيب لابّد أن يحتفل بهيئته الخارجية حتى لا يستهجن من قبل الجمهور فإن النفوس جبلت على حبّ الهيئة الحسنة وحسن المنظر والهندام حتى أن النعمان بن المنذر عندما دخل عليه ضمرة بن ضمرة - وهو الشاعر الخطيب الفارس - ورأى من دمامته ما رأى قال النعمان « تسمع بالمعيدي لا أن تراه »[1] .

والنبي ﷺ أعرف في طباع الناس من أجل ذلك كان يلبس في خطبه الجامعة : « أجمل الثياب فكان له حله يلبسها للعيدين والجمعة ومرة كان يلبس بردين أخضرين ، ومرة بردًا أحمر وليس هو أحمر مصمتًا كما يظنه بعض الناس »[2] وقال النبي ﷺ عندما سأله أصحابه بقولهم: إن أحدنا يحبّ أن يكون ثوبه نظيفًا ونعله نظيفًا فقال: «**إن الله جميل يحب الجمال**»[3].

أما عن خروج بعض الخطباء إلى المسجد فإنه يبين أن النبي ﷺ لم يكن خروجه مثل خروج بعض الخطباء بمراسيم خاصة ولباس خاص مقنن بل كان يخرج : « من غير شاويش يصيح بين يديه، ولا لباس طيلسان ولا طرحة ولا سوادًا »[4]، وكأنها مراسيم كانت تفعل في زمانه رحمه الله.

ثم بين أن الخطبة تكون على الأرض أو على المنبر أو على البعير أو

---

(١) « البيان والتبيين » : (١/ ١٧١) .

(٢) « زاد المعاد » : (١/ ٤٤١) .

(٣) رواه مسلم في « كتاب الإيمان » برقم (١٤٧ جـ ١ / ٩٣) .

(٤) « زاد المعاد » : (١/ ٤٢٩) .

الناقة كما ورد عن النبي ﷺ ، ومن سنته ﷺ أن يأخذ الخطيب عصًا أو قوسًا يتوكأ عليه وهو على المنبر[١] .

وقد نقد رحمه الله تعالى من يقول بأن النبي ﷺ يعتمد على السيف في خطبه فقال :

ولم يكن يأخذه بيده سيفًا ولا غيره وإنما كان يعتمد على قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر ، وكان في الحرب يعتمد على القوس وفي الجمعة يعتمد على عصا ، ولم يحفظ عنه أنه اعتمد على سيف ، وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائمًا ، وأن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف ، فمن فرط جهله فإن لا يحفظ عنه بعد اتخاذه المنبر أنه كان يرقى بسيف ولا قوس[٢] .

والمحفوظ أنه توكأ على العصا وعلى القوس ، والدين إنما قام بالوحي وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك ، ومدينة النبي ﷺ التي كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف[٣] ، وأما عن وقت الخطبة فقد بين أن الخطبة ليس لها وقت معين فإن النبي ﷺ كان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم[٤] .

أما عن مضمون الخطبة : فالمعروف أن الخطبة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء : مقدمة ، وعرض ، وخاتمة فأما المقدمة فبين رحمه الله تعالى أنه لم يثبت عن النبي ﷺ أنه خطب خطبته إلا افتتحها بحمد الله حتى خطبة

---

(١) « زاد المعاد » : (١/ ٤٢٩) .
(٢) « زاد المعاد » : (١/ ٤٢٩) .
(٣) نفس المرجع : (١/ ١٩٠) .
(٤) نفس المرجع : (١/ ١٨٩) .

العيدين، والاستسقاء ، فإنه يحمد الله ويثني عليه بما هو أهله ، ثم يقول «من يهد الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له وخير الحديث كتاب الله وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار » .

وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناء والتشهد « أما بعد »[١] .

وثبت عنه أنه قال : « كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء »[٢].

أما عن العرض فيبين أن المصطفى ﷺ كانت خطبته تزخر بالآيات القرآنية : وكان كثيرًا ما يخطب بالقرآن وفي « صحيح مسلم » عن أم هشام بنت حارثة قالت : ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس[٣] .

وكان عليه الصلاة والسلام : يعلّم أصحابه في خطبته قواعد الإسلام والشرائع ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين[٤] .

وكان يكثر الذّكر ، ويقصد الكلمات الجوامع[٥] ، وقد أوتي جوامع الكلم ، ثم بين رحمه الله ما يشتمل عليه العرض من خطب النبي ﷺ ونقد أساليب الخطباء الذين تركوا منهج النبي ﷺ وبين الفرق بين الفريقين فقال عن خطب النبي :

وهي تقرير لأصول الإيمان ، من الإيمان بالله ، وملائكته، وكتبه ،

---

(١) « زاد المعاد » : (١/ ٤٢٦) .

(٢) رواه الترمذي في « السنن » برقم (١١٠٦) في باب النكاح .

(٣) رواه مسلم « باب تخفيف الصلاة والخطبة » رقم الحديث (٨٧٣) المجلد الثاني (ص٥٩٥) .

(٤) رواه البخاري في « كتاب الجمعة باب من جاء والإمام يخطب » (رقم : ٣٣ ج١/ ٢٣٣) .

(٥) انظر « الزاد » : (١/ ٤٢٦) .

ورسله ، ولقائه ، وذكر الجنة والنار ، وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيمانًا وتوحيدًا ومعرفة بالله وأيامه ، لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورًا مشتركة بين الخلائق ، وهي النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا الأمر لا يحصل في القلب إيمانًا بالله ، ولا توحيدًا له ، ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيرا بأيامه ، ولا بعثًا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة ، غير أنهم يموتون ، وتقسم أموالهم ويبلي الترابُ أجسامهم ، فياليت شعري أي إيمان حصل بهذا ؟ وأي توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟ !

ومن تأمل خطب النبي ﷺ ، وخطب أصحابه ، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه ، وأيامه التي تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذي يحببهم إليه فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ، ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم . ثم طال العهد وخفي نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر ، رسومًا تقام من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سننًا ، لا ينبغي الإخلال بها ، وأَخَلّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر ، وعلم البديع ، فنقص بل عدم حظ القلوب منها ، وفات المقصود بها[1] .

بعد أن بين رحمه الله تعالى مضمون خطب المصطفى ﷺ وأصحابه

---

(١) « زاد المعاد » : (١/ ٤٢٣) .

ونقد الخطباء الذين ابتعدوا عن منهج النبي ﷺ بين مدار خطب النبي بالجملة فقال :

وكان مدار خطبه على حمد الله والثناء عليه بألائه ، وأوصاف كماله ومحامده وتعليم قواعد الإسلام ، وذكر الجنة والنار والمعاد ، والأمر بتقوى الله ، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه فعلى هذا كان مدار خطبه[(١)] .

أما عن الخاتمة فإن النبي ﷺ كان يختم خطبته بالاستغفار[(٢)] وبين رحمه الله أن النبي ﷺ كان يَقصّر الخطبة ويطيل الصلاة ، وكان يقول : **« إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته ، مئنة من فقهه »**[(٣)(٤)] .

هكذا كان النبي ﷺ يفعل في خطبه ولم يكن يطيل الخطبة كما يفعل بعض الخطباء وإذا سألته عن سبب إطالته ، قال : (إنها فرصة يجتمع هذا الكم من الناس) ، وهذا الأمر فيه نظر :

أولاً : لأنه مخالفة لفعل المصطفى ﷺ .

وثانيًا : أن هؤلاء الناس منهم الكبير والضعيف وذا الحاجة ، والخطبة خاصة ولا يجوز للسامع أن يخرج من المسجد حتى تنتهي الصلاة فأنت أجبرته على شيء يكرهه لعذر من الأعذار .

فينبغي على الخطيب أن يقتدي بسنة نبيه ، وإذ كان يريد أن ينفع الناس فيبين للناس في أثناء الخطبة أن من أراد أن يستزيد مما قلناه فعليه البقاء في المسجد بعد الصلاة حتى يسمع ما أراد أو يسأل عمّا أراد . فإنه

(١) « زاد المعاد » : (١/ ١٨٨) .

(٢) نفس المرجع : (١/ ١٨٧) .

(٣) رواه مسلم في « كتاب الجمعة » برقم : (٨٦٩ جـ ٢/٥٩٤) .

(٤) « الزاد » : (١/ ٤٢٧) .

بذلك يقتدي بسنة نبيه ، ويريح المسلمين ، وينفع المريدين والله أعلم .

كما يجب على الخطيب أن يحضّر خطبته بنفسه إن استطاع ولا يكتفي بالنقل من غيره ، فإن الظروف وما يحدث في الأيام والليالي والمستجدات من الأمور والمنكرات تتجدد وتظهر وتغيب وتختلف من حال إلى حال ومن وقت إلى وقت ، كما يجب أن يكون عارفًا بفنون الخطابة ، عارفًا بسامعيه وما يلائمهم ، مع سعة الاطلاع والثقافة العالية بالشريعة الإسلامية .

كما يجب على الخطيب أن يكون مقتنعًا بالفكرة التي يقولها صادقًا مع ربه قاصدًا رضاه وانتفاع الجمهور حتى يكون الكلام مقبولًا مسموعًا فإن الخطبة إذا خلت من الحماس الداخلي بما يقوله واقتناعه به فإنه لا يفيد غيره .

قال عامر بن قيس[1] : الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان ، وقال الحسن البصري رحمه الله ـ وسمع رجلًا يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرقّ عندها فقال له ـ : « إن بقلبك لشرًا أو بقلبي »[2] .

من أجل ذلك كان النبي ﷺ مؤثرًا في الناس قابلين دعوته منصتين لقوله ومقتنعين به راضين ، وكل ذلك بسبب الإيمان العميق ، والحماس

---

(١) هو أبو عبد الله عامر بن قيس التميمي قدوة زاهد ، من عباد التابعين ، رآه كعب الأحبار فقال : هذا راهب هذه الأمة . كان يقرئ الناس توفي رحمه الله تعالى في زمن معاوية رضي الله عنه ، وقبره ببيت المقدس انظر : « حلية الأولياء » : (٢/٨٧) « وسير اعلام النبلاء » : (٤/ ١٥) ، « وطبقات القراء » للجزري : (١/ ٣٥٠) .

(٢) « البيان والتبيين » : (١/ ٨٤) .

الصادق ، والاقتناع التام بما يقوله لذلك يظهر ذلك على ملامح وجهه عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وقد بدأ ابن القيم رحمه الله عند ذكره هدي النبي ﷺ في خطبه بدأ بذكر الحالة النفسية وما يظهر على جسده الشريف من تغيّر من تأثير هذه الحالة فقال :

« كان إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيش يقول صبّحكم مسّاكم »[(١)(٢)].

* **القلم :**

هو رأس الوسائل الدعوية وأكثرها نفعًا واستمرارية في النفع ، وهو العمل الذي لا ينقطع عن العبد فضله وأجره إن كان في الخير ، يقول ابن القيم :

ويكفي فيه فضلًا امتداح الرب تبارك وتعالى له وإقسامه به في كتابه وأن كتب الله لم تكتب إلا به وامتن سبحانه على عباده بأنه ﴿ **علم بالقلم** ﴾[(٣)(٤)] ، وإقسامه سبحانه به في قوله ﴿ **ن والقلم وما يسطرون** ﴾[(٥)] ، وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بكتابة الوحي من كتاب الله ، وأباح لهم كتابة حديثه وكان ﷺ يكاتب الملوك كل ذلك يدل على أنه وسيلة دينية .

قال ابن القيم في ذكر جلالة الكلمة والتي تتركب من حروف يسطرها القلم عند حديثه عن الحروف المقطعة في أوائل السور :

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها إذ هي

---

(١) رواه مسلم في « كتاب الجمعة » برقم (٨٦٧) باب تخفيف الصلاة والخطبة .

(٢) انظر « الزاد » : (٤٢٦/١) .

(٣) الآية من سورة العلق : (٤) .

(٤) انظر « التبيان في أقسام القرآن » : (١٣٣) .

(٥) الآية من سورة القلم : (١) .

مباني كلامه وكتبه التي هدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه ، وأسماءه، وصفاته ، وأفعاله ، وأمره ، ونهيه ، ووعيده ، ووعده ، وعرفهم بها الخير ، والشر والحسن والقبح[(١)] ، كما بين أن مصالح العباد قامت به وبفضله كما قال :

فأقسم الله سبحانه بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه ، وكتب به الوحي ، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم وقامت به مصالح العباد ، في المعاش، والمعاد ، فوطدت به المماليك ، وأمنت به السبل والمسالك[(٢)] .

ويوضح رحمه الله أن الكتابة بالقلم زيادة على ما ذكر من شرفها فإنها أصلح الوسائل للدعاة والوعاظ فإنها خطيب لهم في كل زمان ، وهو طبيب للقلوب ، وسلاح بيد الداعية يستطيع به كسر الجنود العظيمة ويكسر بأس كل شديد فيقول عن القلم :

أقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه ، وأنفعه لهم وأنصحه ، وواعظًا تشفي مواعظه القلوب من السقم ، وطبيبًا يبرئ بإذنه من أنواع الألم ، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد[(٣)] .

وهذه الفضائل لا تحصل إلا للداعية صاحب العقل الحصيف ، فالقلم بكاتبه كما أن السيف بضاربه فالقلم معبّر عما في العقل كما يقول ابن

---

(١) « التبيان في أقسام القرآن » : (١١٧) .

(٢) نفس المرجع : (١٢٨) .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

القيم فعلى ما في العقل من فضل يجود به القلم فقال :

والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع فينسج حلل المعاني في طرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم[١] ، ويودعها حكمه فتصير بواد الفهوم ، والأقلام نظام للأفهام ، كما أن اللسان بريد القلب ، فالقلم بريد اللسان وبريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت[٢] .

أضف إلى هذه المزايا الكريمة أن يتميز عن الوسائل الأخرى بأن الفكر والدعوة التي تضمنها القلم لا تقتصر على أهل الزمان كما في اللسان « فاللسان مقصور على القريب الحاضر ، والعلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن مثله للقائم الراهن ، والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه إلى غيره »[٣] .

وهذا ما يعبر عنه قول الشاعر :

الخط يبقى زمانًا بعد كاتبه وكاتب الخط تحت الأرض مدفونا

كما أن الكتابة أفضل من التعليم بالمشافهة ، لأن المعلم يشافه عددًا من المتعلمين بينما القلم يشافه فيه من الخلق ما لا يحصيهم إلا الله سبحانه وتعالى ما دام الخط باقيًا .

والخط يمكّن صاحبه من تلافي الأخطاء وانتقاء العبارات والأفكار والاستعارة ممّا ورد في الكتب حتى يكون في أحسن صورة .

والمراد أن نبين أن للكتابة من الخير للداعية ، والمدعو والكاتب

---

(١) الوشي من الثياب مخلط الألوان ، والمرقوم أي بينت حروفه بعلاماتها من الترقيم ، وهذا يعني أنه كتاب متعدد المعاني واضح الحروف والألفاظ : انظر « لسان العرب » مادة وشي ، ومادة رقم .

(٢) « التبيان في أقسام القرآن » : (١٢٩) .

(٣) « البيان والتبيين » للجاحظ : (١/ ٨٠) الطبعة الرابعة مطبعة الخانجي بمصر .

والقارئ، وزادتها في هذا العصر الطباعة وانتشارها ما يزيد من أهميتها بالنسبة للداعية كوسيلة فعّالة له مما يجب على الداعية المشاركة بجميع الوسائل المطبوعة من كتاب وصحيفة ومجلة وغيرها فإنها واسعة الانتشار رخيصة الثمن وهي لذلك قابلة للتداول بين جميع الطبقات .

رُتَبُ الأقلام :

بين ابن القيم رحمه الله رتب الأقلام وأن بعضها حاكم والبعض محكوم له وإن الأقلام التي فيها مصالح العالم اثنا عشر قلمًا هي :

أولاً : وهو أعلاها وأجلها قَدْرًا ، قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق .

ثانيًا : قلم الوحي الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وهي الأقلام التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعلم خدم لهم وإليهم الحل والعقد .

ثالثًا : قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمتفقهين وهذا القلم أيضًا حاكمًا غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الأموال والدماء والفروج .

رابعًا : قلم طب الأبدان التي تحفظ بها الصحة الموجودة ويرد إليها صحتها المفقودة ؛ وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان .

خامسًا : التوقيع عن الملوك ونوابهم وسياسة الملك فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة .

سادسًا : قلم الحساب وهو الذي نضبط به الأموال ومستخرجها

ومصروفها فإذا كذب وظلم فسد أمر المملكة .

سابعًا : قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق وتنفذ به القضايا وتراق به الدماء ويقطع الخصومات وبينه وبين التوقيع عن الله عموم وخصوص وهو قائم بالصدق والعدل .

ثامنًا : قلم الشهادة الذي تحفظ به الحقوق وتصان به عن الإضاعة وتحول بين الفاجر وإنكاره .

التاسع : قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام وتفسيره وتعبيره وما أريد منه وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين ويعتمد طهارة صاحبه ونزاهته وأمانته وهو مؤيد بالنور الإلهي مع معرفة بأحوال الخلق .

العاشر : قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو الذي يضبط الحوادث ويتنقل من أمة إلى أمة ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتى كأن السامع يرى ذلك ويشاهده ، يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك وتشاهده ببصرك .

الحادي عشر : قلم اللغة وتفاصيلها من شرح معاني الألفاظ وتصريفها وأسرار تراكيبها .

الثاني عشر : القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، وتهافتهم وخروجهم عن الحق ودخولهم في الباطل ؛ وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام ، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل المحاربون لأعدائهم ، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال ، وأصحاب هذا القلم

حرب لكل مبطل وعدو لكل مخالف للرسل ؛ فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن [١] .

استخدام ابن القيم لهذه الوسيلة

اهتم ابن القيم بهذه الوسيلة وكتب وصنف التصانيف المفيدة ولولا فضل الله ثم هذه الوسيلة الفعالة لما وصل إلينا هذا التراث العظيم مما حفلت به المكتبات الإسلامية من كتب السلف رحمهم الله ، والتي هي الأساس للعلوم الإسلامية بعد كتاب الله وسنة رسوله ، ومن هذه المصنفات ما كتبه ابن القيم رحمه الله خدمة للدعوة الإسلامية . وسيلة باقية يتعاقبها الأجيال تلو الاجيال ، إضافة إلى استخدام الوسائل الأخرى ولكن التآليف «موطن الجمال والجلال والجاذبية الغريبة في حياة ابن القيم العلمية اللامعة المتألق نجمها على مدى سبعة قرون يتجاذبها الناس بالدرس والفحص والقراءة والإقراء ويكفي أنها بالجملة محل إعجاب من أنصاره وخصومه على حدٍّ سواء »[٢] .

لِـمَا رأوا فيها من الحق المعتمد على الكتاب والسنة إضافة إلى تلك الروح الربانية في كتاباته التي تتحرى مواقع رضى الرب سبحانه وتعالى وتوضيح مقاصد شرعه ، مما يبعث في النفس القناعة في حسن هذه التشريعات التي تتمشى مع طبيعة الإنسان فلا يجد القارى لكتبه رحمه الله التعصب لغير أمر الله ورسوله مما يبعث الراحة له ولما كتبه .

---

(١) « التبيان في أقسام القرآن » بتصرف : (١٢٩ - ١٣٢) .

(٢) « التقريب لفقه ابن القيم » : (١/ ٥٩) بكر أبو زيد .

وقد تتبع أحد الباحثين[1] ، ما كتبه ابن القيم وحاول جمعه من واقع ما اطلع عليه من مصنفاته أو ذكره رحمه الله في بعض كتبه وما ذكره بعض أصحاب كتب التراجم ونسبوه إليه ، ثم حذف المكرر وما نسب إلى ابن القيم عن طريق الخطأ فظهر له أنها ست وتسعون مؤلفًا هذا من غير ما لم يستطع الوقوف عليه مما كتبه رحمه الله ، منها ما هو مجلد ومنها ما هو مجلدان وثلاث وأربع وسبع ومنها ما هو رسالة .

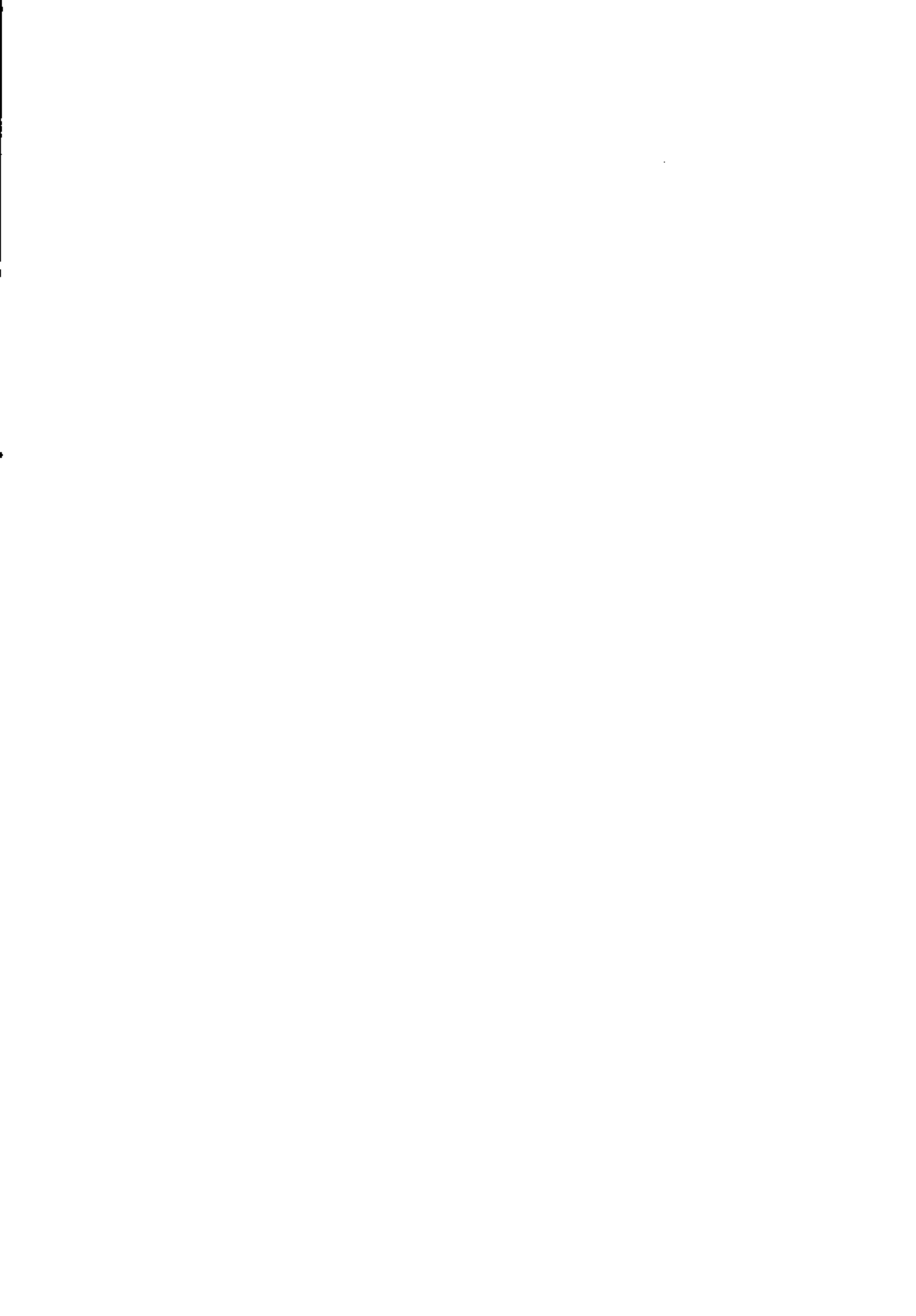
وقد تنوعت فنونها فمنها في التفسير والحديث والسيرة واللغة والأدب والتربية والزهد والعقيدة والعلوم الكونية والطبية وغير ذلك من الفنون مما يدل على سعة علمه واطلاعه .

وهذا ما تحتاج إليه الدعوة الإسلامية ، تحتاج إلى داعية مثل ابن القيم قد تبحر في كثير من العلوم لأن الدعوة تحتاج إلى كل ما يوصل إلى المدعو وتقنعه سواء كان ذلك تشريعًا أو اعتقادًا أو حياة اجتماعية أو تربوية وغيرها فإن الدعوة تحتاج إلى جميع هذه الأمور .

* * *

(١) هو بكر بن عبد الله أبو زيد في كتابه « ابن القيم الجوزية حياته وآثاره » (ص ١١٤) وما بعدها .



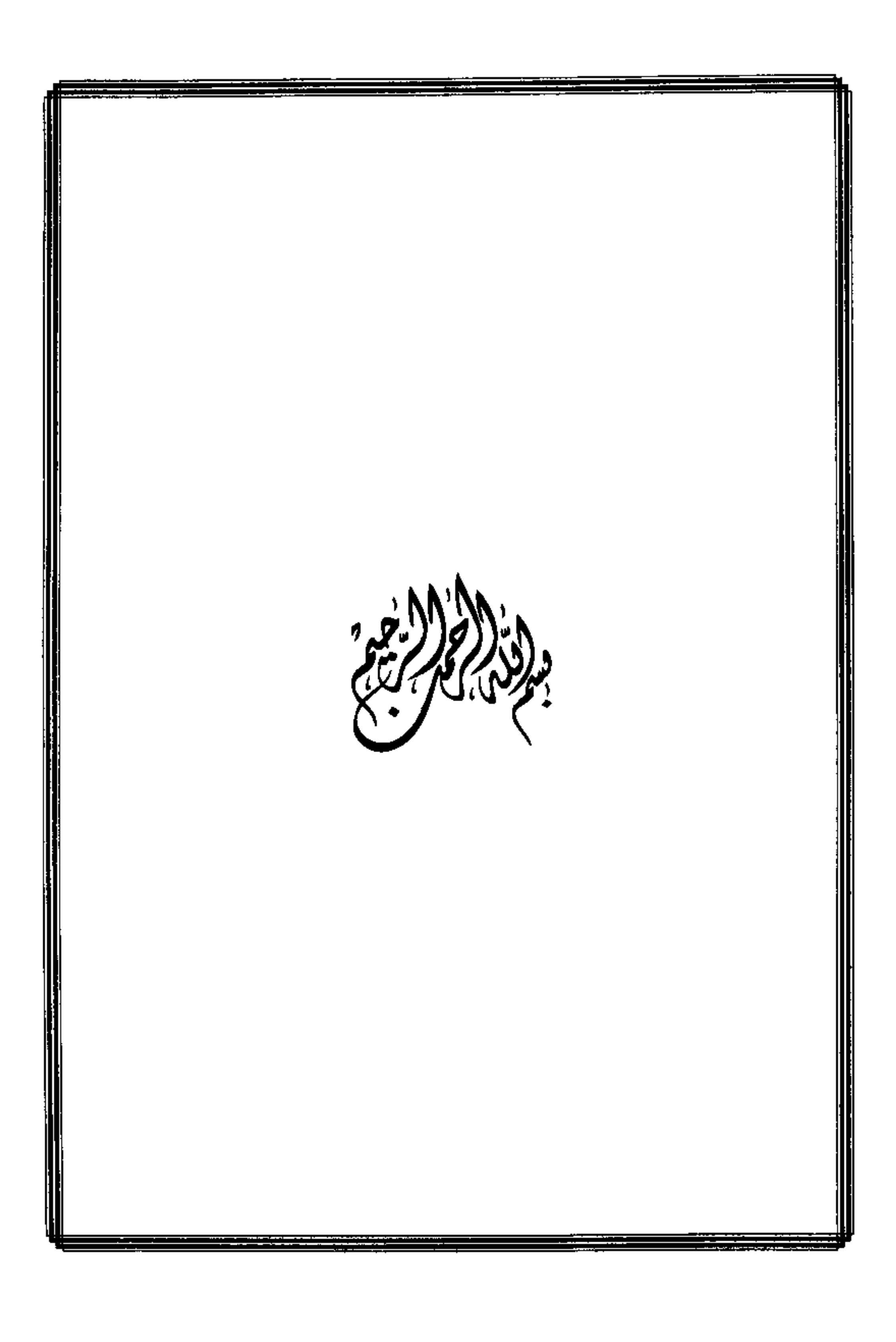




منهج ابن القيم

في

الدعوة إلى الله تعالى


بسم الله الرحمن الرحيم

منهج ابن القيم في الدعوة إلى الله تعالى

د. أحمد بن عبد العزيز الخلف

رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في قسم الدعوة
بالجامعة الإسلامية تحت إشراف
فضيلة الدكتور فتح الرحمن عمر

المجلد الثاني

أضواء السلف

الطبعة الأولى

١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

مكتبة أضواء السلف - لصاحبها علي المزني

الرياض - شارع سعد بن أبي وقاص - بجوار بنده - ص ب ١٢١٨٩٢ - الرمز ١١٧١١
ت ٢٣٢١٠٤٥ - محمول ٠٥٥٤٩٤٣٨٥

الموزعون المعتمدون لمنشوراتنا

المملكة العربية السعودية : مؤسسة الجريسي .
مصر : مكتبة الإمام البخاري بالإسماعيلية ـ ت ٣٤٣٧٤٣ / ٠٦٤
باقي الدول : دار ابن حزم ـ بيروت ـ ت ٧٠١٩٧٤

الباب الثاني

منهجه في الأسس العلمية

في مجال الدعوة

الفصل الأول : في مجال الأصول الاعتقادية

الفصل الثاني : في مجال الفروع الشرعية

الفصل الثالث : في مجال إصلاح المجتمع

الفصل الأول :

منهجه في

مجال الأصول الاعتقادية



الفصل الأول : منهجه في مجال الأصول الاعتقادية[١]

العقيدة في اللغة مأخوذة من (عَقَدَ) يقال : عقدت الحبل عقدًا فانعقد والعقدة ما يمسكه ويوثقه ومنه قيل : عقدت البيع وعقدت اليمين و(اعتقدت) كذا (عقدت) عليه القلب والضمير حتى قيل : العقيدة ما يدين الإنسان به وله عقيدة حسنه سالمة من الشك[٢] .

والعقيدة أو الاعتقاد عند علماء الإسلام يراد به : الحكم الجازم الذي يعقد الإنسان قلبه عليه بغير تردد أو شك .

وأصطلح كثير من علماء الإسلام على إطلاق اسم (التوحيد) على مجمل الأمور التي يجب أن يعتقدها الإنسان وذلك مأخوذ من أهم أصل في هذه الأصول وهو (التوحيد) الذي تضمنته كلمة (لا إله إلا الله)[٣] .

والتوحيد أساس هذا الدين فلابد للداعية أن يبتدأ به ، فلا يمكن لداعية أن يدعو أحدًا بشيء من التشريع قبل أن تتمكن هذه العقيدة منه وأن يعقد قلبه على أركان الإيمان ويذعن لها وهي الواردة في حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي ﷺ فقال : « **الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره** »[٤] .

---

(١) سبق أن بينا في الباب الأول طرفًا من باب الاعتقاد وهو في إثبات وجود الله وإثبات وحدانيته وإثبات نبوة نبينا محمد ﷺ وبينا منهج ابن القيم في ذلك راجع (ص : ٨١) وراجع في الباب الثالث محاربته لعواد القبور (ص ٦٥٤) .

(٢) انظر « المصباح المنير » : (٤٢١) ، و« لسان العرب » (٢٩٨/٣) .

(٣) « العقيدة أولًا لو كانوا يعلمون » محاضرة للدكتور « عبد العزيز القاري » : (ص١٠) الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ) مكتبة الدار بالمدينة المنورة .

(٤) رواه البخاري في « كتاب الإيمان » (١/ ٣٧) .

فيجب على الإنسان أن يؤمن بهذه الأركان ويعرفها معرفة صحيحة ويعقد قلبه عليها ، ونظرًا لأهمية العقيدة في ملتنا وما يترتب عليها من نسبة صاحبها نسبة صحيحة إلى هذا الدين وعدم نسبته إليه ، مكث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في مكة ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى هذه العقيدة الصحيحة ويبطل كل ما يعارضها ، فإذا نظرنا إلى ما نزل عليه من التشريع في مكة فإنه شيء لا يذكر بالنسبة للكم الهائل من آيات القرآن الكريم التي تقرر العقيدة وتوضح مفهومها .

ومن هنا يجب على دعاة المسلمين أن يعطوا هذا الأمر حقه من العناية فيكون هو أول ما يدعون إليه وأعظم ما يحرصون على تركيزه وتوضيحه وتصحيحه اقتداءً بنبيهم عليه السلام ، لأن العقيدة الصحيحة التي تنبثق منها العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح ، وهي التي تضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق ، وتحمل التضحيات في سبيله عندما يطلب من المسلم أن يؤديها وكل ما نراه من التذبذب والتخلي عن طريق الحق مرده ضعف هذه العقيدة وعدم تمكنها من قلب المسلم[(١)] .

وابن القيم رحمه الله - لأهمية هذا الموضوع - قد أولاه عناية خاصة استغرقت كل جهوده وكتاباته ، فلا تجد كتابًا من كتبه إلا وقد تحدث فيه عن العقيدة وما يجب أن تكون عليه ، فهو يرى أن أساس مطالب الرسالة جميعًا وزبدة رسالة الرسل معرفة المعبود سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وإثبات محابه من الأفعال والأقوال فقال :

إنه لا حياة للقوب ، ولا نعيم ، ولا لذة ، ولا سرور ، ولا أمان ، ولا طمأنينة ، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته

---

(١) « المنهج الحركي للسيرة النبوية » : (٣٠/١) للكاتب منير الغضبان ، الطبعة الثانية مكتبة المنار الأردن .

وأفعاله ، ويكون أحب إليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته ، ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ، ومن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعًا ، وأن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو المخوف المحبوب المطاع .

ولما كان مفتاح الدعوة الإلهية معرفة الرب تعالى ، قال أفضل الداعين إليه سبحانه لما بعث معاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن : « **إنك ستأتي قومًا أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة** »[(١)] .

فأساس دعوة الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريف الطريق الموصلة إليه ، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه .

ثانيهما : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع[(٢)] .

---

(١) « صحيح مسلم » (١/ ٥١) كتاب « الإيمان » باب الدعاء إلى الشهادتين .

(٢) « الصواعق المرسلة » : (١/١٥٠) .

ومن هذا النص يبين لنا ابن القيم عظيم شأن العقيدة وأنها هي الأساس الذي بعث من أجله الرسل وهي باب سعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة ، ثم أنه يبني مسائل التشريع على أساس العقيدة الصحيحة التي جاء بها المصطفى ﷺ .

وهو في نفس الوقت يرد على من ينتسب إلى مقام الدعوة ويهون من شأن العقيدة ويزعم أنها تفرق بين المسلمين ويكتفي في باب الدعوة ، إلى الدعوة إلى التشريع والعبادات فقط .

والمسلم يتعجب من هذا القول لأنه مخالف للواقع والمحسوس ، فأين هو من ترابط الصحابة رضوان الله عليهم وما كان بينهم من الود والتراحم والألفة والمحبة ؟ وهل كان ذلك إلا بسبب اتفاقهم على اعتقاد واحد وإيمان برب واحد ؟ إلا إذا كان المراد من قولهم أنها تفرق بين المؤمن والكافر حتى لو كانت بين الابن وأبيه ، نقول : نعم ، لأن المؤمن لا يمكن أن يكون بينه وبين كافر مودة أو ألفة وكيف تكون مودة وهذا يؤمن بالله ويحبه ، وهذا ملحد بالله عدو له ؟ إن الإيمان الصحيح يمنع ذلك ، ومثال هذا ، أن الإنسان منا إذا اطلع على أحد من الناس وهو يعادي أحد والديه أو ابنه أو من يحب ويخالف أمره ويناصبه كل عداء فإن فطرة الإنسان تمنعه من محبة ذلك الشخص وموالاته ، فكيف بمن تعلق قلبه بحب الله ورسوله ؟ فإنه يكون أكثر من ذلك ألماً وحسرة وعداءً للكافر ويقابل هذا البغض للكافر حب المؤمنين ومودتهم لبعضهم .

فنص ابن القيم هذا يرد عليهم من الوجهين ،

أما الوجه الأول : فهو إثباته أن الرسل إنما أرسلوا لبناء العقيدة

الصحيحة في نفوس البشر .

والثاني : أن ما قمتم بالدعوة إليه ـ وهي الأمور التشريعية ـ فإنها لا تتم على الوجه المطلوب إلا بالخوف والرجاء والمحبة والطاعة للمعبود فإن هذه الأمور تابعة لمعرفة المعبود الذي يجب أن تصرف له هذه العبادات فإذا كنت لا تعرف المعبود بصفاته وأسمائه وأفعاله الدالة على عظمته وكبريائه فإنك لن تقدره حق قدره ، وبالجملة فإن التشريعات تابعة للعقيدة والعقيدة أولاً ، والله وليّ التوفيق .

*** موقفة من الفرق**

مضى عصر النبوة والصحابة رضي الله عنهم متفقون والرسول ﷺ المصدر الوحيد الذي يستمد الصحابة منه معرفتهم الاعتقادية وغيرها ومن ثم فلم يكن هناك خلاف في الرأي لأنهم إذا أشكل عليهم أمر قصدوا رسول الله ﷺ فأجلى لهم الأمر وأخذوا عنه القول بالقبول المطلق لتمكّن الإيمان من قلوبهم وخضوعهم لله ورسوله ، فساد في ذلك العصر وحدة لم تَشُبْها فرقة[1] .

---

(١) لم يكن هذا التصديق المطلق في الاعتقاد من الصحابة عن شغل شاغل عن المعرفة والتدبر وترك هذا الباب عن همتهم وعنايتهم باشتغالهم بالعبادة والزهد والجهاد كما يتوهمه من قصر فهمه وإجلاله للصحابة وقد رد ابن القيم على من قال بهذا القول وبين أن ذلك تنقيص في قدر الصحابة فقال في رده على من قال بهذا القول : وهذا من أبين المحال وأبطل الباطل بل كانت عنايتهم في هذا الباب فوق كل عناية وذلك بحسب حياة قلوبهم ومحبتهم لمعبودهم ومنافستهم في القرب منه ، فمن في قلبه أدنى حياة أو محبة لربه وإرادة لوجهه فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته هو أكبر مقاصده ولا فرح للقلوب الصحيحة بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه فكيف يمكن مع قيام هذا المقتضى الذي هو من أعظم المقتضيات أن يتخلف عنه أثره في خيار الأمة وسادات أهل العلم والإيمان ؟! فكيف يظن بهم الإعراض عن مثل هذا الأمر العظيم والغفلة عنه أو التكلم بخلاف الصواب فيه واعتقاد الباطل؟ ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزلة، وورثة الصابئين وأفراخ اليونان ـ =

وسار الصحابة رضي الله عنهم على تلك السيرة في العقيدة وعقيدتهم الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وما فيها من بيان وتفصيل في الأمور الاعتقادية وأسماء الله وصفاته لا يتعرضون إليها بتعطيل ولا تأويل ولا تمثيل ولا تشبيه إنما إيمان مطلق وتنزيه خالص للخالق جل وعلا عن المخلوق وكلهم آمنوا بقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾[1].

*** نشأة الفرق**

ثم نتركك مع ابن القيم وهو يفصل لنا جزءًا من نشأة الفرق ، وكيف أن قوى الباطل تكالبت على أهل السنة والجماعة مع بيان تثبيت الله تعالى لهم ونصرهم على عدوهم ، ويبين سبب نصرهم ، وسبب ضلال مخالفيهم ، فيقول :

فمضى الرعيل الأول في ضوء نور الرسالة ، لم تطفئه عواصف الأهواء ، ولم تلتبس به ظلم الآراء ، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم ، فلما كان في أواخر

= الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك - أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف بها ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والإيمان والفضل - وهل يقول هذا إلا غبي جاهل لم يقدر قدر السلف ، قال شيخنا - ابن تيمية - : وإنما أتي هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي مجرد الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها واعتقدوا أنهم بمنزلة الأميين الذين قال الله فيهم : ﴿ **ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني** ﴾ [سورة البقرة : ٧٨] ، وأن طريقة المتأخرين هي استخراج معاني النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستنكر التأويلات فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقالة التي مضمونها نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف . انظر « الصواعق المرسلة » : (١/ ١٦٦ - ١٦٤) .

(١) الآية من سورة الشورى : (١١) .

عصرهم حدثت الشيعة[١] ، والخوارج[٢] ، والقدرية[٣] ، والمرجئة[٤] ، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأئمة ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية ، بل كانوا للنصوص معظمين ، وبها مستدلين ولها على العقول والآراء مقدمين ، ولم يدع أحد منهم أن عنده عقليات تخالف النصوص وإنما أتوا من سوء الفهم فيها ، والاستبداد بما ظهر لهم منها ، دون من قبلهم ، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر ورموهم بالعظائم وتبرأوا منهم ،

---

(١) الشيعة هم الروافض الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية وقدموه على جميع الصحابة ويطعنون في خلافة الخلفاء الثلاثة ويكفرونهم وأكثر الصحابة ويعتقدون أن الإمامة في أولاد الحسين بن علي بعد الحسن بن علي ويعتقدون بعصمة أئمتهم ولهم أقوال كثيرة منحرفة ، انظر « مقالات الإسلاميين » (٦٥/١) ، و « الملل والنحل » (١٤٦/١) .

(٢) الخوارج : سموا بهذا الاسم لخروجهم على الإمام علي رضي الله عنه ونزلوا بأرض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون أصحاب الكبائر ويقولون أنهم مخلدون في النار كما يقولون بالخروج على أئمة الجور وأن الإمامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعليًا رضي الله عنهما وطلحة والزبير وعائشة ويعظمون أبا بكر وعمر ، انظر « الفصل في الملل والأهواء والنحل » (٢/ ١١٣) ، و « الملل والنحل » للشهرستاني (١/ ١٥٤) ، « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » (ص١٥٠ ط ١٣٩٨هـ) للفخر الرازي شركة الطباعة الفنية المتحدة بالعباسية .

(٣) سموا بذلك لقولهم في القدر وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق أفعاله استقلالاً فأثبتوا خالقًا مع الله ولذا سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة لأن المجوس قالوا بإثبات خالقين النور والظلمة وهم يقولون أن الله لا يقدر على مقدورات غيره وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر ، انظر « الملل والنحل » للشهرستاني : (١/ ٥٤) .

(٤) المرجئة سموا بذلك لقولهم بالإرجاء وأصل الإرجاء التأخير وذلك لأنهم أخروا الأعمال عن مسمى الإيمان وقيل : من إعطاء الرجاء حيث قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة وقيل : تأخير حكم صاحب الكبيرة إلى الآخر فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا ، انظر « الملل والنحل » (١/ ١٨٦) و « الفصل في الملل والنحل » (١١٣/٢) ، و « اعتقادات فرق المسلمين والمشركين » (ص١٠٧ - ١٠٨) للفخر الرازي (ط١٣٩٨هـ) .

الوعيد ، ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة ، وأخمد تلك الكلمة ، ونصر السنة نصرًا عزيزًا ، وفتح لأهلها فتحًا مبينًا ودُعي إليها في كل بادٍ وحاضر، وصنف في ذلك الزمان في السنة ما لا يحصيه إلا الله .

ثم انقضى ذلك العصر وأهله ، وقام بعدهم ذريتهم يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله على بصيرة إلى أن جاء ما لا قِبل لأحد به وهم جنود إبليس حقًّا المعارضون لما جاءت به النصوص بعقولهم وآرائهم من القرامطة[1] والباطنية[2] والملاحدة[3] ودعوتهم إلى العقل المجرد ، وأن أمور الرسل تعارض المعقول فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام بالقول والفعل، فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى وكسروا عسكر الخليفة مراراً وقتلوا الحاج قتلاً ذريعًا وانتهكوا حرمة مكة ، وقلعوا الحجر الأسود واستفحل أمرهم وعظمة بهم الرزية واشتدّت بهم البلية ، وأصل طريقتهم أن

---

(١) هم أتباع حمدان القرمطي الذي صار إليه أحد دعاة الباطنية ودعوه إلى معتقدهم فقبل الدعوة ثم صار يدعو الناس إليها وضل بسببه خلق كثير وكان ظهورهم سنة (٢٨١هـ) في خلافة المعتضد وغزو مكة ودخولها سنة (٣١٧هـ) واقتلعوا الحجر الأسود وقتلوا المسلمين في الحرم وقد أعيد الحجر الأسود إلى مكة سنة (٣٣٩هـ) على يد أبي إسحاق إبراهيم بن محمد المزكي النيسابوري رحمه الله ، انظر: «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص: ١٢٢) .

(٢) الباطنية سموا بذلك لأنهم يقولون أن للنصوص ظاهرًا وباطنًا ولكل تنزيل تأويلًا ويدخل فيهم القرامطة والخرمية والمزدكية والإسماعيلية والنصيرية والدروز وهم يعتقدون أن الإله لا يوصف بوجود ولا عدم ولا معلوم ولا مجهول واتفقوا على إنكار القيامة والمنقول عنهم الإباحة المطلقة ورفع الحجاب واستباحة المحضورات وإنكار الشرائع وهم ينكرون ذلك إذا نسب إليهم ، انظر : «الملل والنحل» للشهرستاني (٢٩/٢ ، ٣٢) «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص : ١١٩) .

(٣) الملاحدة جمع ملحد ولحد في الدين العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه وحاد عنه ومعنى الإلحاد في اللغة الميل عن المقصد ويلحدون يعترضون والإلحاد الشك في الله ، انظر : «لسان العرب» (٣/ ٣٨٩) مادة : لحد .

الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل ، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ، وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام في الشرق والغرب وكاد الإسلام أن ينهد ركنه بعد أن استولى أهلها على كثير من البلاد وبناء مدينة القاهرة وإقامتهم على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم وأتباعهم وصنف في زمانهم « رسائل إخوان الصفا » ، و « الإرشادات » ، و « الشفا » ، وكتب ابن سينا[١] فإنه قال : كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية .

وعطلت في زمانهم السنة والآثار جملة إلا في الخفية بحث يكون قارؤها وذاكرها وكاتبها على أعظم خطر ، فأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين ، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما لا يصل إليه أحد من أهل السنة ولا يطمع فيه .

حتى استنقذ الله الأمة والملة من أيديهم في أيام نور الدين[٢] وابن أخيه صلاح الدين[٣] فأبل الإسلام من علته بعدما وطن المسلمون أنفسهم على

---

(١) هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيه الأصولي الملقب بسيف الدين الآمدي ولد سنة (٥٥١هـ) ونسبته إلى آمد وهي مدينة كبيرة في ديار بكر مجاورة لبلاد الروم صنف مصنفات كثيرة منها : « أبكار الأفكار في علم الكلام » و « رموز الكنوز » و « منتهى السؤال في علم الأصول » ، انظر : « وفيات الأعيان » (٢٩٣/٣ ، ٢٩٤) .

(٢) نور الدين هو : محمد بن زنكي بن أقسنقر أبو القاسم الملقب بالملك العادل ولد سنة (٥١١هـ) في حلب وهو أعدل ملوك زمانه وأجلهم كان مداومًا على الجهاد يباشر القتال بنفسه وكان من المماليك جده من موالي السلجوقيين توفي في قلعة دمشق سنة (٥٦٩هـ) رحمه الله ، انظر : « البداية والنهاية » : (٢٩٤/١٢ ، ٢٩٥) ، و « الأعلام » (١٧٠/٧) .

(٣) صلاح الدين : هو يوسف بن أيوب بن شادي أبو المظفر صلاح الدين الأيوبي الملقب بالملك الناصر من أشهر ملوك الإسلام ولد سنة (٥٣٢هـ) بتكريت كان قائدًا مظفرًا وملكًا مهيبًا اهتم بدفع =

العراء وانتعش بعد طول خمول ، وعلت كلمة الإسلام والسنة وأذن بها على رؤوس الأشهاد واستنقذ بيت المقدس من عبدة الصليب ونادى المنادي يا عباد الله لا تنكلوا عن الجهاد فإنه أبلغ الزاد ليوم المعاد فعاش الناس في ذلك النور مدة حتى استولت الظلمة على بلاد المشرق وطفئ نور النبوة والوحي وقدموا العقول والآراء والسياسة والأذواق على الوحي ، فظهرت فيهم الفلسفة والمنطق وتوابعها فبعث الله عليهم عبادًا أُولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وعاثوا في القرى والأمصار وكاد الإسلام أن يذهب اسمه وينمحي رسمه ، وعالم هذه الفرقة الذي يرجعون إليه وزعيمهم شيخ شيوخ المعارضين بين الوحي والعقل وإمامهم في وقته نصير الكفر والشرك الطوسي[1] فرام إبطال السمع بالكلية وإقامة الدعوة الفلسفية وجعل الإشارات بدلًا عن السور والآيات ، وقال هذه عقليات قطعية برهانية قد عارضت تلك النقليات الخطابية واستعرض أهل القرآن والسنة على السيف فلم يبق منهم إلا من أعجزه قصدًا ، لإبطال الدعوة الإسلامية ، وجعل مدارس المسلمين وأوقافهم للنجسة السحرة والمنجمين والفلاسفة والملاحدة والمنطقيين ورام إبطال الآذان وتحويل الصلاة إلى القطب الشمالي فحال بينه

= غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام حتى أجلاهم من البلاد الإسلامية وتوفي سنة (٥٨٩هـ) ، انظر : « البداية والنهاية » : (٤٠٣/١٣) . « الأعلام » (٢٢٠/٨) .

(١) هو أبو جعفر محمد بن محمد بن الحسين نصير الدين الطوسي ، فيلسوف كان رأسًا في العلوم العقلية ، علامة بالأرصاد والمجسطي والرياضيات علت منزلته عند هولاكو فكان يطيعه بما يشير به عليه وهو الذي حرضه على غزو بغداد وقتل الخليفة العباسي المعتصم بالله وجميع أفراد أسرته ، كان عنده خزانة كتب هائلة صنف في علم الكلام وشرح الإشارات لابن سينا توفي بغداد سنة (٦٧٢هـ) انظر: عماد الدين إسماعيل أبو الفداء «المختصر في أخبار البشر» (٢٢٣/٢ط ١٢٨٥هـ) المطبعة الوهبية بالقاهرة، والحافظ ابن كثير «البداية والنهاية» (٢٦٧/١٣) والمقريزي «السلوك لمعرفة دول الملوك» نشر محمد مصطفى زيادة الجزء الأول القسم الثاني (ص ٦١٤ط ١٩٣٦م) دار الكتب المصرية .

وبين ذلك من تكفل بحفظ الإسلام ونصره وهذا كله من ثمرة المعارضين بين الوحي والعقل وتقديم العقل على السمع ولتكن قصة شيخ هؤلاء القديم منك على ذكر كل وقت فإنه أول من عارض بين العقل والنقل ، وورّث هذا الشيخ تلامذته هذه المعارضة فلم يزل يجري على الأنبياء وأتباعهم منها كل محنة وبلية ، وأصل كل بلية في العالم ـ كما قال محمد الشهرستاني - من معارضة النص بالرأي وتقديم الهوى على الشرع ، ثم إنه خرج مع هذا الشيخ المتأخر أشياء لم تكن تعرف قبله جست[١] العميدي[٢] وحقائق ابن عربي[٣] وتشكيكات الرازي[٤] وقام سوق الفلسفة والمنطق وعلوم أعداء الرسل حتى فرحوا وصارت الدولة والدعوة لأرباب العلوم .

ثم نظر الله لعباده وانتصر لكتابه ودينه ، وأقام جندًا تغزو ملوك هؤلاء بالسيف والسنان وجنودًا تغزو علماءهم بالحجة والبرهان ، ثم نبغت نابغه

---

(١) « جست » كلمة فارسية معناها البحث وقد أصبحت تطلق على نوع من أنواع الخلاف وقد تضم الجيم ، انظر : هامش و « فيات الأعيان » (٤/ ٢٥٧) تحقيق إحسان عباس .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد العميدي السمرقندي أبو حامد كان إمامًا في فن الخلاف والجدل وخصوصًا الجست وهو أول من أفرده بالتصنيف وصنف في هذا الفن طريقة مشهورة بأيدي الفقهاء وهي الطريقة العميدية وله أيضًا « النفائس والإرشاد » ، توفي ببخارى سنة (٦١٥) ، انظر : « وفيات الأعيان (ص ٢٥٧٤) ، و « الأعلام » : (٧/ ٢٨) .

(٣) ابن عربي : هو محمد بن علي بن محمد بن عربي أبو بكر الحاتمي ، الطائي الأندلسي المعروف بمحيي الدين بن عربي ولد سنة (٥٦٠هـ) من القائلين بوحدة الوجود له كتب منها « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » و « التعريفات » و « ديوان شعر » توفي في دمشق سنة (٦٣٨هـ) . انظر : « ميزان الاعتدال » للذهبي ط دار المعارف بيروت ، توزيع الرئاسة العامة للإفتاء .

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي البكري أبو عبد الله فخر الدين الرازي يقال له ابن خطيب الري ولد في الري سنة (٥٤٤هـ) من كتبه «مفاتيح الغيب» تفسير القرآن الكريم (٨) مجلدات و «معالم أصول الدين» و « أساس التقديس » وغيرها ، توفي في هراه سنة (٦٠٦هـ) ، انظر : « البداية والنهاية » (١٣/ ٥٣، ٥٤) ، و « الأعلام » (٦/ ٣١٣) .

منهم في رأس القرن الثامن فأقام الله لدينه شيخ الإسلام أبا العباس أحمد ابن تيمية قدس الله روحه ، فأقام على غزوهم مدة حياته باليد والقلب واللسان وكشف للناس باطلهم وبين تلبيسهم وتدليسهم وقابلهم بصريح المعقول وصحيح المنقول وشفى واستشفى وبين مناقضتهم ومفارقتهم لحكم العقل الذي به يدلون وإليه يدْعُون وأنهم أترك الناس لأحكامه وقضاياه فلا وحي ولا عقل فأرداهم في حفرهم ورشقهم بسهامهم وبين أن صحيح معقولاتهم خدم لنصوص الأنبياء شاهد لها بالصحة[1] .

لقد طوى ابن القيم في هذا النص لنا السنين وبين لنا الفرق المنتسبة إلى الإسلام وقسم افتراقهم إلى مراحل تتابعت ، كل مرحلة تزيد عن سابقتها جرءة وبعدًا عن الحق .

فالمرحلة الأولى : وهي ما حصل من الفرقة في عصر أواخر الصحابة بعد فتنة عبد الله بن سبأ وظهور الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة وهم في نظره - رحمه الله - في تلك المرحلة أقرب إلى الحق ممن يليهم وذلك أن عندهم - مع بعدهم عن الحق - تعظيمًا للنصوص واستدلالاً بها وتقديمًا لها على العقول والآراء .

كما أنه يرى أنهم في هذه المرحلة انحرفوا عن الحق بسبب سوء الفهم وخروجًا عن التقليد وفي هذه المرحلة كان الإسلام في منعة وقوة لوجود القرون المفضلة التي استطاعت بفضل الله محاربتهم بشتى الوسائل حتى انطفأت بدعتهم وظهر الحق وكان الناس عنقًا واحدًا في مسائل العقيدة ، وإن كان ما يزال لهم أثر في نفوس أهل الأهواء .

---

(١) « الصواعق المرسلة » بتصرف قليل : (١٠٦٩/٣ إلى ١٠٨٠) .

* **المرحلة الثانية :**

وهي أوائل المائة الثالثة وذلك في عصر عبد الله المأمون الذي عرّب كتب اليونان ، بعد غلبة جماعة الجهمية عليه وعلى رأسهم بشر المريسي[١] الذين أظلوا المأمون وحشوا بدعتهم في قلبه وعقله حتى دعا الناس إليها وعاقبهم على تركها وحمل الناس على اعتناقها حتى انتشرت بدعة التجهم في الأمصار .

ولكن الله ثبّت أقوامًا من أهل السنة على الإيمان فنافحوا عنها مع شدة البلاء والأذى وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل حتى قمع الله تلك البدعة .

ومع غلبة هؤلاء الجهمية لم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص مع دندنتهم حولها لأن الإسلام في ظهور وقوة وسوق الحديث نافقة ورؤوس السنة على وجه الأرض[٢] .

المرحلة الثالثة : وهي أمرّ وأنكى من المراحل السابقة وهذه المرحلة تبدأ

---

(١) أبو عبد الرحمن بشر بن غياث المريسي ، فقيه معتزلي عارف بالفلسفة يرمى بالزندقة وهو رأس الطائفة المريسية القائلة بالإرجاء كان قصيرًا دميم المنظر ، وسخ الثياب ، وافر الشعر كبير الرأس والأذنين توفي سنة (٢١٨هـ).

انظر : أبو منصور عبد القاهر البغدادي : « الفرق بين الفرق » بعناية : محمد بدر (ص١٩٢، ط ١٩٢٨م) مطبعة المعارف القاهرة ، وانظر « وفيات الأعيان » (٩١/١) ، « والنجوم الزاهرة » (٢/ ٢٢٨) ، الخطيب البغدادي : « تاريخ بغداد » (٥٦/٧) دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) في هذه المرحلة كان رؤوس السنة على وجه الأرض وهم الإمام أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وأبو زرعة وابن ماجه وأبو داود والترمذي وابن أبي الدنيا وغيرهم من أئمة الحديث أمثال يحيى بن معين ، وعلي بن المديني وغيرهم رحمهم الله جميعًا .

تقريبًا في أوائل القرن الرابع وأواخر الثالث وذلك عندما تمكن القرامطة وأصبحت لهم دولة وأفسدوا في الأرض وانتهكوا حرمات المسلمين وناصروا الدعوات الباطلة كدعوة المهدي الذي ظهر بالمغرب وهو جد الفاطميين الذين نشروا الباطنية والإلحاد والفلسفة وألغوا النصوص فجرى على أهل السنة منهم كل بلاء كما شرح ذلك ابن القيم رحمه الله في النص السابق حتى استنقذ الله الأمة على يد نور الدين وصلاح الدين ثم انتعش أهل السنة قليلاً ثم إنتكست الأمور بعد ذلك حتى جاء شيخ الإسلام ابن تيمية الذي اتخذ منهجًا خاصًا في محاربة هؤلاء المبتدعة والانتصار لأهل السنة .

*** أسباب افتراق الفرق كما يراها ابن القيم :**

كما أن ابن القيم بين في هذا النص أن هذه الفرق التي تشكلت وانحرفت عن الجادة الصحيحة كان له أسبابه الجوهرية التي فتحت الطريق أمام هذه الفرق في الظهور على الساحة وتكون كيان لها ، وهذه الأسباب كما يراها ابن القيم هي :

أولاً : الابتعاد عن الكتاب والسنة كما ركز على ذلك ابن القيم فكلما كان هجر الوحي أكثر كل ما كانت الفرقة أبعد عن الإسلام وأهله كما فعل الباطنية الملاحدة في دعوتهم إلى العقل المجرد وأن أمور الرسل تعارض المعقول وإذا تعارض العقل والنقل قدم العقل .

وكما نقل قول الشهرستاني في أن أصل كل بلية في العالم هي من معارضة النص بالرأي وتقديم الهوى على الشرع ، بل يرى رحمه الله أن البعد عن الوحي واتباع علوم المعطلة من فلاسفة وغيرهم هدم الأديان

السابقة كما بين ذلك بقوله :

استمر الأمر على عهد موسى كليم الرحمن على التوحيد وإثبات الصفات وتكليم الله لعبده موسى إلى أن توفي عليه السلام ، ودخل الداخل على بني إسرائيل ورفع التعطيل رأسه بينهم وأقبلوا على علوم المعطلة وقدموها على نصوص التوراة فسلط الله عليهم من أزال ملكهم وشردهم من أوطانهم كما هي سنة الله فيمن أعرض عن وحيه وتعوضه بكلام الملاحدة ، كما سلط الله النصارى على بلاد المغرب لما ظهرت فيها الفلسفة والمنطق ، وكذلك لما ظهر ذلك في بلاد المشرق وسلط الله عليهم عساكر التتار فأبادوا أكثر البلاد الشرقية وكذلك في أواخر المائة الثالثة لما اشتغل أهل العراق بالفلسفة وعلوم أهل الإلحاد سلط عليهم القرامطة الباطنية فكسروا عسكر الخليفة عدة مرات[١] .

كما بين ابن القيم أن أصل الخلاف بين أهل السنة وأهل البدعة هو البعد عن الوحي حيث يقول في قصيدته النونية : -

يا قوم تدرون العداوة بيننا ... من أجل ماذا في قديم الزمان

أنا تحيزنا إلى القرآن والنقل ... الصحيح مفسر القرآن

وكذا إلى العقل الصريح وفطرة ... الرحمن قبل تغير الإنسان

والله ما اجتمعت لديكم هذه ... أبدًا كما أقررتم بلسان[٢]

ثانيًا : سوء الفهم للكتاب والسنة ، والاستبداد بالرأي ، وظن الكفاءة في النفس وترك منهج السابقين مما أدى إلى انحرافهم كما حدث من

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » : (٢/٢٦٩) .

(٢) « النونية » : (٢/١٨٣) .

الخوارج فإن سبب بدعتهم الجهل وسوء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ثالثًا : مناصرة الولاة لهذه الفرق وإجبار الرعية على اعتناق ما يرونه فإن ذلك فتح المجال للمغرضين وأصحاب الأهواء بإظهار ما يبطنونه بلا خوف وهذا ما حدث من المأمون والمعتصم والواثق حيث ظهرت المبتدعة وتحكمت في رقاب الناس .

رابعًا : الحقد على الإسلام ومحاولة إبطاله والتشكيك فيه وإفساده بالمكائد والانتساب إلى الإسلام وهو منهم براء ، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر واجتهدوا في هدم الإسلام والفتك بالمسلمين وهذا ما حدث من عبد الله بن سبأ وأمثاله فأكثر هذه الفرق كان لمؤسسيها نصيبًا من الحقد على الإسلام وإخراج بدعهم لتضليل العامة ، وإحياء لما في نفوس البعض من كدر الجاهلية لموافقته ما يخالج نفوسهم .

خامسًا : اتباع الهوى والشهوات ولا يمكنهم تنفيذ هذا إلا بإدخال العقائد الفاسدة في هذا الدين القويم حتى يتمكنوا من مطلبهم ، وهؤلاء كبعض المتصوفة المتحللين والشعراء الماجنين وأمثالهم كثير .

*** المنهج الذي ارتضاه ابن القيم وسار عليه :**

المطّلع على ما كتبه ابن القيم في المسائل الاعتقادية يجد أن له منهجًا مميزًا في هذا الباب فيجد أنه ناصر قومًا وأيدهم ، وذكر أصول أقوالهم بالدليل العقلي والنقلي وجادل قومًا ورد عليهم بعد أن بين أصول أقوالهم وفسادها من وجه الشرع والعقل واللغة وهذا يدلّ على مدى ثقافته واطلاعه الواسع على تلك المذاهب .

والمهم أن جمع هذا الكم من المعرفة لم يكن مجرد ثقافة أو لبيان

المقدرة على الرد والجدل بل كان بحث مريض يتحرى العلاج في كل ما أصابه فهو باحث عن الحق طالب له ليروي نهم نفسه وحيرتها وهذا ما بينه في قصيدته النونية وهو ينصح الأمة بقوله :

يا طالب الحق المبين ومؤثرًا ... علم اليقين وحجة الإيمان
اسمع مقالة ناصح خبر الذي ... عند الورى قد شبّ حتى الآن
ما زال مذ عقدت يداه إزاره ... قد شدّ مئزره إلى الرحمن
وتخلل الفترات للعزمات أمر ... ملازم لطبيعة الإنسان
طاف المذاهب يبتغي نورًا ... ليهديه وينجيه من النيران
وكأنه قد طاف يبتغي ظلمة ... الليل البهيم ومذهب الحيران(١)

ويقول في موضع آخر :

يا قوم والله العظيم نصيحة ... من مشفق وأخ لكم معوان
جربت هذا كله ووقعت في ... تلك الشباك وكنت ذا طيران
حتى أتاح لي الإله بفضله ... من ليس تجزيه يدي ولساني(٢)

فهذا صوت ابن القيم وهو ينصح القوم الذين لم يهتدوا إلى طريق الرشاد يبين لهم حاله وكيف أنه كان طوافًا يسعى بين الناس يبتغي الهداية والنور لينجو من عذاب الله ولكنه كلما طلب النور من أحد وقع في ظلمة تزيد من حيرته وشقائه فمثله في تنقله بين هذه المذاهب المنحرفة كمثل المستجير من الرمضاء بالنار .

فالفرق التي كانت تهيمن على الناس في عصره سواء كانوا جهمية أو

---

(١) « القصيدة النونية » : (٢/ ٢٣٩) .

(٢) نفس المرجع : (١/ ٣٦١) .

فلاسفة أو متكلمين وغيرهم يتطاحنون فيما بينهم وقد وصفهم ابن القيم بقوله:

وأما إذا نظرت إلى أهل البدع رأيتهم متفرقين مختلفين شيعًا وأحزابًا ، لا تكاد تجد اثنين منهم على طريقة واحدة في الاعتقاد ، يبدع بعضهم بعضًا ، بل يرتقون إلى التكفير ، يكفر الابن أباه ، والأخ أخاه ، والجار جاره وتراهم أبدًا في تنازع وتباغض واختلاف ، تنقضي أعمارهم ولم تتفق كلماتهم **﴿ تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾**[1] أوما سمعت بأن المعتزلة مع اجتماعهم في هذا اللون يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي علي الجبائي[2] وابنه - أبا هاشم[3] وأصحابه وكذلك سائر رؤوسهم وأصحاب المقالات منهم إذا تدبرت أقوالهم وكذلك الخوارج والروافض فيما بينهم وسائر المبتدعة كذلك[4] .

كل ذلك وابن القيم رحمه الله يتجول في هذه المدارس المتحيرة يبتغي

---

(١) الآية من سورة الحشر : (١٤) .

(٢) أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجبائي ، من أئمة المعتزلة ورئيس علماء الكلام في عصره ، وإليه نسبت الطائفية الجبائية ، وهو الذي أغوى أهل خوزستان وله من البدع الفاحشة ما لا يحصى مات سنة (٣٠٣هـ) ومن مصنفاته نحو أربعين ألف ورقة في علم الكلام وتفسير في مائة جزء ، انظر: « الفرق بين الفرق » : (١٦٧) ، والشهرستاني في « الملل والنحل » (١/٧٣- ٧٨، ط ١٣٧٥هـ) مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، وانظر: الإمام أبو المظفر الاسفرائيني «التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين »، تحقيق وتخريج الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري (ص ٥٢ ط الأولى ١٩٤٠م) نشر عزت العطار الحسيني مكتبة الثقافة الإسلامية القاهرة، وانظر زهدي حسن جار الله : « المعتزلة » (ص : ١٤٩ ط ١٣٦٦هـ) منشورات النادي العربي في يافا مطبعة مصر، القاهرة .

(٣) أبو هاشم عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبائي ، عالم بالكلام ، له آراء انفرد بها ، وتبعه فرقة سميت «البهشمية» نسبة إلى كنيته «أبي هاشم» مات سنة (٣٢١هـ) من مصنفاته «الشامل» ، و« تذكرة العالم » انظر «التبصرة في الدين» (ص٥٣) ، و « الفرق بين الفرق » (ص١٦٩) و« وفيات الأعيان » (١/ ٢٩٢)، و «تاريخ بغداد»: (١١/ ٥٥)، و «الملل والنحل»: (١/٧٣-٧٨).

(٤) « مختصر الصواعق المرسلة » : (٥١٨) .

إرواء نفسه وإبعاد علله التي تراكمت عليه من الشك والحيرة وعدم الطمأنينة والراحة .

حتى أراد الباري جل وعلا أن يزيح ما ران على قلبه فأرسل له سبحانه هادي الإرشاد بعد التوفيق وهو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الذي قدم إلى دمشق عام (٧١٢هـ) بعد غياب سبع سنين عنها وابن القيم يتلمس النور في هذه الظلمات ، وما لبث شيخ الإسلام أن استقر بها حتى أخذ يمارس واجبه الذي فرضه عليه بارئه فاشتغل بسائر العلوم ونشر العلم وصنف الكتب وأفتى الناس بالكلام والكتابة والاجتهاد في الأحكام الشرعية بما أدى إليه اجتهاده بموافقة الأئمة وبخلافهم تارة أخرى[1] فملأ الأسماع وصار حديث أهل الإسلام في كل مكان بما آتاه الله من المواهب النادرة والتفنن في علوم الإسلام ، فسمع به ابن القيم واتصل به ، وكان شيخ الإسلام قائد المدرسة السلفية في ذلك العصر ومجدد بنائها ، فسمع منه ابن القيم وعايش هذا الاتجاه الفكري الانقلابي على التقليد والطائفية والمذاهب الكلامية ، والتخبطات العقائدية بالأمة إلى ما كان عليه السلف الصالح وردًّا لكل نزاع في ذلك إلى الله ورسوله .

كل ذلك لابدّ أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير ، وابن القيم يعيش في مرحلة الطلب ولديه من الهمة والعلم والذكاء والألمعية ما يؤهله لإدراك حسن هذا المنهج وأنه الطريق الوحيد لإزاحة ما ران على قلبه من الحيرة والتخبط وأن ذلك هو الطريق السوي والمشرع الروي ، فما كان لابن القيم أن ينفلت عن هذا الخير المرسل بل تعلق بالشيخ وثنى ركبتيه في حلقات درسه ينهل من معارفه وعلومه ، ودامت هذه الملازمة ستة عشر

---

(١) انظر « البداية والنهاية » : (١٤ / ٦٧) .

عامًا وهي مدة حياة الشيخ بعد عودته إلى أن توفي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

فصار لهذه الصحبة والملازمة الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين اتجاهه الجديد وتغذية مواهبه وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنة والرد إلى الله ورسوله .

حتى صار أبرز تلاميذ شيخ الإسلام فلا يكاد يذكر اسم الشيخ إلا ويذكر تلميذه وسرى نور هذين المعلمين في المعمورة بسعة العلم وأصالة الفكر والتجديد ودعوة الناس إلى الصراط المستقيم(١).

لقد أثر شيخ الإسلام في ابن القيم فكان سبب هدايته بعد أن كان حائرًا فلذلك يقول عنه :

حبر أتى من أرض حران فيا أهلا بمن قد جاء من حران
فالله يجزيه الذي هو أهله من جنة المأوى مع الرضوان
أخذت يداه يدي وسار فلم يرم حتى أراني مطلع الإيمان(٢)

بل يرى رحمه الله أن شيخه هو الذي نصر الكتاب والسنة ورفع رؤوس أهل السنة بعد أن كانوا أذلاء يتوارون عن القوم ، وقد حاربهم بسلاحهم الذي يتطاولون به على أهل السنة وهو سلاح العقل والمنطق فقال:

نصر الإله ودينه وكتابه ورسوله بالسيف والبرهان
أبدى فضائحهم وبين جهلهم وأرى تناقضهم بكل زمان
وأصارهم تحت الحضيض وطالما كانوا هم الأعلام للبلدان
ومن العجائب أنه بسلاحهم أرداهم تحت الحضيض الدان

---

(١) انظر « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » بتصرف : (٧٨) .

(٢) « القصيدة النونية » : (١/ ٣٦١) .

كانت نواصينا بأيديهم فما ... منّا لهم إلا أسير عان
فغدت نواصيهم بأيدينا فما ... يلقوننا إلا بحبل أمان
وأتت جنودهم التي صالوا بها ... منقادة لعساكر الإيمان(١)

وبعد وفاة هذا الشيخ الجليل نذر نفسه أن يسير في الدعوة على منهجه وطريقته ونصره لمذهب السلف الصالح ثم أعلن منهجه في الدعوة إلى الاعتقاد فأعلن العهود والمواثيق بينه وبين ربه على غزو كل ضال مضل بكل ما أوتي من وسائل فقال :

لأجاهدن عداك ما أبقيتني ... ولأجعلن قتالهم ديداني
ولأفضحنهم على رؤوس الملا ... ولأفرين أديمهم بلساني
ولأكشفن سرائرًا خفيت على ... ضعفاء خلقك منهم ببياني
ولأحملن عليهم بعساكر ... ليست تفر إذا التقى الزحفانِ
بعساكر الوحيين والفطرات ... والمعقول والمنقول بالإحسانِ
حتى يبين لمن له عقل من الأولى ... بحكم العقل والبرهانِ(٢)

لقد أتم رحمه الله تعالى عهده مع ربه فجمع الجيوش الإسلامية الممثلة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما صح من أقوال سلف هذه الأمة وما عقله العقل وما فطر عليه الخلق فغزا بها المعطلة والجهمية وغيرهم من المبتدعة ، فأنزلها صواعق على رؤوسهم وفضح سرائرهم حتى حكم أهل العقل والبرهان بهزيمة المبتدعة وانتصار جند الله ، وهذا التقديم لحياة ابن القيم وكيفية تنقله بين حلقات العلم على تنوعها حتى وصوله إلى حلقة شيخ الإسلام له علاقة قوية بتكوين منهجه الذي سار عليه في دعوته إلى

---

(١) « القصيدة النونية » : (١/ ٣٦١) .
(٢) نفس المرجع : (١/ ٤٢٩) .

الأمور الاعتقادية بعد أن عرف خبايا الانحراف وأسبابها وعرف الحبل المتين الذي يمكن للعبد أن يشتد به فهو سبيله إلى النجاة لا غير ، فكانت أصوله في الدعوة إلى التوحيد ثلاثة أصول :

الأصل الأول : الاعتماد على أدلة الكتاب والسنة .

الأصل الثاني : كشف الستار عن مذهب السلف وبيان حسنه وراحة النفس إليه وقوته وبيان أنه الأصوب مع عدم الاختلاف والاضطراب فيه والدفاع عنه .

الأصل الثالث : فضح سرائر المبتدعة والرد عليهم وبيان مذهبهم بالمنقول والمعقول .

وسوف يكون الحديث عن هذه الأصول مع إيضاح منهج ابن القيم الذي نهجه من أجل النهوض بهذه الأمة وتبصيرها فيما هو من أهم مقومات حياتها في الدنيا والآخرة .

أولًا : الاعتماد على الأدلة من الكتاب والسنة[1]

من أعظم ما ميز مدرسة السلف عن غيرها اعتمادهم على الكتاب والسنة وعدم النظر إلى غيرهما إذا وجد النص لأن الله سبحانه بين فيهما كل شيء تحتاجه البشرية في دنياها وآخرتها ووصفهما بأنهما روح وشفاء لما في الصدور قال ابن القيم عند قوله تعالى ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول** ﴾[2] :

نكرة في سياق الشرط تعم كل ما تنازع فيه المؤمنون من مسائل الدين

---

(١) راجع ماسبق : (ص : ٢٣٥) وما يأتي (ص : ٦٢٧) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٥٩) .

دقه وجله ، جليله وخفيه ولو لم يكن في كتاب الله وسنة رسوله بيان حكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا لم يأمر بالرد إليه إذ من الممتنع أن يأمر تعالى بالرد عند النزاع إلى من لا يوجد عنده فصل النزاع .

ومنها أن الناس أجمعوا أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته[١].

ويقول عمّا جاء به المصطفى ﷺ : فلا روح إلا فيما جاء به ولا نور إلا في الاستضاءة به فهو الحياة والنور والعصمة والشفاء والنجاة والأمن ولا يقبل الله من أحد دينًا يدين به إلا أن يكون موافقًا لدينه[٢] .

وقد بين رحمه الله أنه لا يستقر للعبد قدم في الإسلام حتى يعقد قلبه وسره ، على أن الدين كله لله لا رب سواه ، ولا متبوع غير رسوله ، وأن كلام غيره يعرض على كلامه فإن وافقه قبلناه ، لا لأنه قاله بل لأنه أخبر به عن الله وإن خالفه رددناه وطرحناه ، ولا يعرض كلامه صلوات الله وسلامه عليه على آراء القياسيين ولا عقول الفلاسفة والمتكلمين ولا على سياسة الحاكمين والسلاطين ولا أذواق المتزهدة والمتعبدة بل تعرض هذه كلها على ما جاء به عرض الدراهم المجهول حالها على أخبر الناقدين فما حكم بصحته منها فهو المقبول وما حكم برده فهو المردود[٣] .

ومن هذه النصوص يتبين لنا مدى تعظيم ابن القيم لنصوص الكتاب والسنة وتمسكه بها وعدم الميل عنها بل إنه شن حملة شديدة هو وشيخه ابن تيمية في كتابه « الصواعق المرسلة » الذي اعتمد فيه على كتاب شيخه

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١/٤٩) .

(٢) انظر « الصواعق المرسلة » : (١/ ١٥٢) .

(٣) « الصواعق المرسلة » : (١/ ٣٠٨) .

« درء تعارض العقل والنقل » ، على الذين يدّعون أن النقل يخالف العقل فردوا عليهم من جميع الوجوه وكسروا هذا الطاغوت ـ كما سماه ابن القيم رحمه الله ـ وأثبتوا بأن العقل لا يمكن أن يخالف النقل بحال من الأحوال فمن أراد أن يشفي غليله في هذه المسألة فليرجع إلى هذين الكتابين ، والمراد أنه لا يرى الحق فيما خالفهما ألبتة فهما مقدمان على كل قول من أي قائل ، أما من قدم قول غيرهما عليهما فماذا يقول عنه ابن القيم ؟ قال :

فمن تعارض عنده حقائق ما جاء به وآراء الرجال فقدمهما عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته أو إيمانه به لم يكن من الذين شهد الله لهم بالعلم ولا يجوز أن يسمى بأنه من أهل العلم[١] ومن انتفت عنه هذه الصفة فهو على ضدها أي أنه من أهل الجهل ومن كان بهذه المثابة فلا يجوز لأحد أن يقتدي به أو يأخذ قوله .

وقال عن أهل السنة ومنهجهم في العلم والمعرفة أنهم جعلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلها وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم عرضوه على الكتاب والسنة فإن وجدوه موافقًا لهما قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم له وإن وجدوه مخالفًا لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة ورجعوا بالتهمة على أنفسهم فإن الكتاب والسنة لا يهديان إلا إلى الحق[٢].

قال ابن القيم رحمه الله :

كن في أمورك كلها متمسكًا بالوحي لا بِزَخَارف الهذيان

---

(١) « الصواعق المرسلة » (١/ ١٥٥) .

(٢) « مختصر الصواعق المرسلة » : (٥١٧) .

وانظر كتاب الله والسنن التي جاءت عن المبعوث بالفرقان
واضرب بسيف الوحي كل معطل ضرب المجاهد فوق كل بنان[(١)]

ثانيًا : بيان مذهب السلف بطريق العرض :

كثيرًا ما نرى ابن القيم رحمه الله تعالى ينقل لنا صورًا من اعتقاد السلف وينسبه إلى إجماع الأمة قاصدًا إطلاع الأمة على نفس اعتقاد السلف فمثلاً يقول :

ما اجتمعت عليه الأمة من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة : أن الله - سبحانه وتعالى - موصوف بأن له علمًا وقدرة وإرادة ومشيئة أحاط علمًا بجميع ما بدا قبل كونه وفطر الأشياء بإرادته ، وقوله : ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون**﴾[(٢)] وأن كلامه صفة من صفاته ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته ، وأسمعه كلامه لا كلامًا قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، وأن يديه غير نعمته في ذلك وفي قوله سبحانه : ﴿ **ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ** ﴾[(٣)].

وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائيًا والملك صفًّا صفًّا لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وأنه يرضى ويحب التوابين ، ويسخط على من كفر به ، ويغضب ولا يقوم شيء لغضبه ، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه ، وأنه في كل

---

(١) « القصيدة النونية » : (٤٩/١) .

(٢) سورة يس الآية : (٨٢) .

(٣) سورة ص الآية : (٧٥) .

مكان بعلمه ، وأن لله سبحانه كرسيًا كما قال تعالى : ﴿ **وسع كرسيه السموات والأرض** ﴾[(١)] وكما جاءت به الأحاديث أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء .

وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لا يضاهون في رؤيته كما قال عز وجل في كتابه ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾[(٢)] ، وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان ، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين ، والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان ، والإيمان بالقدر خيره وشره وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصى عِلْمَه ، وأن مقادير الأمور بيده ، ومصدرها عن قضائه ، تفضل على من أطاعه ، فوفقه وحبب الإيمان إليه ، وزينه في قلبه ، فيسره له ، وشرح له صدره ، ونور له قلبه ، فهداه ﴿ **ومن يهد الله فما له من مضل** ﴾[(٣)] وخذل من عصاه وكذبه ، فأسلمه ، ويسره فحجبه ، وأضله ﴿ **ومن يضلل فلن تجد له وليًا مرشدًا** ﴾[(٤)] وكل ينتهي إلى سابق علمه لا محيص لأحد عنه ، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح ، يزيد ذلك بالطاعة ، وينقص بالمعصية ، نقصًا عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان ، ولا قول إلا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنة ، وأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب وإن كان كبيرًا ، ولا يحبط الإيمان غير الشرك بالله تعالى كما قال

---

(١) سورة البقرة الآية : (٢٥٥) .

(٢) سورة القيامة الآية : (٢٢ - ٢٣) .

(٣) سورة الزمر الآية : (٣٧) .

(٤) سورة الكهف الآية : (١٧) .

سبحانه : ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾[١].

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ، وأن الخلق ميتون بآجالهم ، فأرواح أهل السعادة باقية منعمة إلى يوم القيامة ، وأرواح أهل الشقاء في سجن معذبين إلى يوم القيامة ، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأن عذاب القبر حق ، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ، ويضغطون ويسألون ، ويثبت الله منطق من أحب تثبيته ، وأنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون كما بدأهم يعودون حفاة عراة غرلاً ، وأن الأجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة لتجازى ، والجلود التي كانت في الدنيا والألسنة والأيدي والأرجل التي تشهد عليهم يوم القيامة على من تشهد عليه منهم ، وتنصب الموازين لوزن أعمال العباد فأفلح من ثقلت موازينه وخاب وخسر من خفت موازينه ، ويؤتون صحائفهم فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا ومن أوتي كتابه بشماله فأولئك يصلون سعيرًا ، وأن الصراط جسر مورود يجوزه العباد بقدر أعمالهم ، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم ، وقوم أوبقتهم أعمالهم فيها يتساقطون وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الإيمان ، وأن الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين ، ويخرج من النار بشفاعة رسول الله ﷺ قوم من أمته بعد أن صاروا فيها حممًا يطرحون في نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل .

والإيمان بحوض رسول الله ﷺ ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ، ويُذادُ عنه من غيّر وبدّل ، والإيمان بما جاء من خبر الإسراء بالنبي ﷺ إلى

---

(١) سورة الزمر الآية : (٦٥) .

السموات على ما صحت به الروايات ، وأنه ﷺ رأى من آيات ربه الكبرى ، وبما ثبت من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام حكمًا عدلًا يقتل الدجال ، وبالآيات التي بين يدي الساعة من طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة وغير ذلك مما صحت به الروايات ، ونصدق بما جاءنا عن الله تعالى في كتابه ، وثبت عن رسوله ﷺ وأخباره ونوجب العمل بحكمه ، ونؤمن ونقر بمشكله ومتشابهه ونَكِلُ ما غاب عنا من حقيقة تفسيره إلى الله تعالى ، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به ، وكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره كل من عند ربنا .

(وأن أفضل القرون قرن الصحابة رضي الله عنهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) [١] كما قال النبي ﷺ ، وأن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي وقيل : عثمان وعلي ويُكَفُّ عن التفضيل بينهما ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن الأنصار ومن جميع الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة والكف عن ذكر الصحابة إلا بخير وأنهم أحق أن تذكر محاسنهم ، ونلتمس لهم أفضل مخارجهم .

والسمع والطاعة لأئمة المسلمين وكل من ولي أمر المسلمين عن رضىً أو عن غلبة واشتدت وطأته من برّ أو فاجر ، فلا يخرج عليه جارَ أو عدلَ ، ونغزو معه العدو ونحج معه البيت ودفع الصدقات إليهم مجزية إذا طلبوها ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين[٢].

كما أنه في كتابه « اجتماع الجيوش الإسلامية » نقل قول السلف في

---

(١) وقد رواه الإمام البخاري في كتاب « فضائل الصحابة » (باب١ جـ٤ / ١٨٩) .

(٢) « اجتماع الجيوش الإسلامية » بتصرف : (٨٣ – ٨٦) وانظر « حادي الأرواح » (٢٩٣) .

العلوّ مع ذكر الأدلة من الآيات والأحاديث وما صح من أقوال سلف هذه الأمة، وكما في نونيته « الكافية الشافية » .

وغير ذلك من النصوص التي يقصد من ذكرها إيضاح مذهب السلف كما أنه بين في بعض الأحيان القاعدة التي يسير عليها السلف في اعتقادهم، لأن وضع القاعدة وتأصيلها من الأمور التي تمنع التذبذب والاختلاف من مسألة إلى أخرى ومثل ذلك ما ذكره من القواعد التي بنى عليها أهل السنة أصولهم فيما قابل الوحي من الألفاظ المجملة أو المعاني المتشابهة فقد بين أنهم يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل ويرد ما يتنازع الناس فيه إليه فما وافقه كان حقًّا وما خالفه كان باطلًا ، وإذا ورد عليهم اللفظ المشتبه مما ليس في القرآن ولا السنة لم يتلقوه بالقبول ، ولم يردوه بالإنكار حتى يستفصلوا قائله عن مراده فإن كان موافقًا للعقل والنقل قبلوه وإلا ردوه ، فقاعدتهم في هذه المسألة تنبني على أصول :

أحدها : بيان أن ما جاء به الوحي هو الهدى والحق واليقين .

ثانيها : بيان أن ما يقدر من الاحتمالات المعارضة الظاهرة وحقيقته باطل لغة .

ثالثها : بيان أن ما يدعى أنه معارض لذلك من العقل فهو باطل .

رابعها : بيان أن العقل موافق له معاضد ، لا معارض مناقض[1] .

لقد قصد ابن القيم رحمه الله من هذا العرض وغيره لاعتقاد السلف تثقيف الأمة وتعريفها بما يجب أن تعتقده وتؤمن به مبينًا لهم الأسس والقواعد التي ينبني عليها اعتقادهم لأن تأصيل القواعد هو الركيزة لعدم الإختلاف والتباين .

وأعتقد أن السبب في اختلاف القول عند البعض من مسألة إلى مسألة

---

(١) « الصواعق المرسلة » : (٣ / ٩٩٢) .

في باب الاعتقاد هو عدم معرفة قاعدة يسير عليها في تأصيله للمسائل فتجده يقول بقول ما ، ثم يخالفه في قول آخر مع أن القول الآخر لازم له فتجده يتخبط مثلاً في إثبات بعض الصفات لله وينفي أخرى ، فلو عرفوا قواعد السلف لما حصل لهم هذا التخبط .

وهذه النقول من ابن القيم في كتبه هي حقيقة ما يعتقده رحمه الله في جانب التوحيد ويؤمن به وتأسيس المنهج والأصول وهذا الدفاع وما أصابه بسببه هو من أجل الدفاع عن هذه المعتقدات ونشرها بين الأمة ، وعدم إنكار شيء منها أو تأويله عن ظاهره مع الإيمان بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

الدفاع عن منهج السلف ورد المطاعن الموجهة إليهم وإلى مصادرهم :

لا شك أن المبتدعة عندما أرادوا نشر بدعتهم أخذوا في الطعن في مصادر السلف التي كانوا يعتمدون عليها اعتمادًا كليًا فادعوا أنها لا تقوم بالحاجة في باب الاعتقاد فهي ظواهر تفيد التشبيه وقالوا : إن كلام الله وكلام رسوله أدله لفظية لا تفيد علمًا ولا يحصل منها يقين ، وقالوا : إن آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها ، وقالوا : إن أخبار الرسول ﷺ الصحيحة التي رواها العدول وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد العلم وغايتها أنها تفيد الظن ، وقالوا : إذا تعارض العقل ونصوص الوحي ، أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحي[1] .

لقد رأى ابن القيم رحمه الله تعالى أن ذلك من أعظم الطعن في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه والطعن في

(١) « الصواعق المرسلة » : (٢/ ٦٣٢) .

رسول الله ﷺ وسننه المطهره وأنها طواغيت عمدت لهدم الإسلام فقال عنها :

فهذه الطواغيت الأربعة ، هي التي فعلت بالإسلام ما فعلت وهي التي محت رسومه ، وأزالت معالمه ، وهدمت قواعده ، وأسقطت حرمة النصوص من القلوب ونهجت طريق الطعن فيها لكل زنديق وملحد ، فلا يحتج عليه المحتج بحجة من كتاب الله أو سنة رسوله ، إلا لجأ إلى طاغوت من هذه الطواغيت واعتصم به واتخذه جنة يصد به عن سبيل الله .

والله تعالى بحوله وقوته ومَنّه وفضله قد كسر هذه الطواغيت طاغوتًا طاغوتًا ، على ألسنة خلفاء رسله وورثة أنبيائه فلم يزل أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض ويرجمونهم بشهب الوحي وأدلة المعقول ، ونحن نفرد الكلام عليها طاغوتًا طاغوتًا[1] .

لقد قام رحمه الله بكسر هذه الطواغيت ونافح عن كتاب الله وسنة رسوله بالأدلة ورد المطاعن المزعومة حولها بالمعقول والمنقول فلم يدع لهم شبهة إلا وقد فندها ولم يترك طعنًا إلا ونزه الكتاب والسنة عنه فمن أراد الاطلاع على ذلك فليرجع إلى كتابه الكبير « الصواعق المرسلة » .

وقال رحمه الله تعالى ردًّا عليهم في دعواهم عدم الكفاية وأنها لا تقوم بالحاجة في باب الاعتقاد بقوله :

إن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم ، وأتم عليهم به نعمته ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق ، وأرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب ونصبت عليه القبلة ، وأسست عليه الملة وهو باب الإيمان

---

(١) « الصواعق المرسلة » : (٢/ ٦٣٢) .

به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبسًا مشتبهًا حقه بباطله ، ولم يتكلم فيه بما هو الحق ، بل تكلم بما ظاهره الباطل ، وكيف يكون أفضل الرسل وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه مبينًا له بأكمل البيان ؟ مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته ، ومع كونه أفضل ما اكتسبته النفوس ، ومن المحال أن يكون أفضل الرسل قد علّم أمته آداب البول قبله ، وبعده ، ومعه ، وآداب الوطء والطعام والشراب ويترك أن يعلمهم ما يقولون بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل .

ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات ، ومستنكرات المجازات ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم وتوجبه آراؤهم .

هذا وهو القائل : « **تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك** »[١] .

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأحاديث الدالة على أن النبي ﷺ لم يدع شيئًا حتى بينه ووضحه أتم توضيح[٢] ، وقد قسم رحمه الله الناس بالنسبة إلى نصوص الوحي إلى خمسة أصناف وذلك في موقفهم في الصفات :

الصنف الأول : أصحاب التأويل : وهم أشد الناس اضطرابًا إذ لم يثبت لهم قدم في الفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ولا ضابط مطرد منعكس تجب مراعاته وتمنع مخالفته بخلاف سائر الفرق ، فإنهم أجروا على

---

(١) « مسند الإمام أحمد » : (٤ / ١٢٦) ، وابن ماجه باب اتباع السنة .

(٢) « الصواعق المرسلة » بتصرف : (١/ ١٥٨) .

ضابط واحد وإن كان بينهم من هو أشدّ خطأً من أصحاب التأويل .

الصنف الثاني : أصحاب التخييل : وهم الذين اعتقدوا أن الرسل لم تفصح بالحقائق إذ ليس في قواهم إدراكها وإنما خيلت لهم وأبرزوا المعقول في صورة المحسوس قالوا : ولو دعت الرسل أممهم إلى رب لا داخل العالم ولا خارجه ولا محايثًا له ولا مباينًا له ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ولا فوقه ولا تحته لنفرت عقولهم من ذلك ولم تصدق بإمكان وجوده ، وكذلك كلامه الذي هو فيض فاض من المبدأ الأول وكذلك المعاد الروحاني لم يفهموه فقربوا لهم الحقائق المعقولة في صورة محسوسة وضربوا لهم الأمثال بقيام الأجساد من القبور يوم المعاد ومصيرها إلى الجنة فيها أكل وشراب ، ونار فيها أنواع العذاب ، وهكذا فعلوا في وجود الرب وأسمائه وصفاته ضربوا لهم الأمثال بوجود رب عظيم أكبر من كل شيء وهذه صفاته مما نطقت به الكتب والرسل وحرموا تأويل ذلك على الجمهور وأما الخاصة فهم يعلمون أن هذه أمثال ضربت لتقريبها للعامة وأنه لا حقيقة له يطابقه ما أخبر به الكتاب والرسول .

الصنف الثالث : أصحاب التجهيل: الذين قالوا : نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها ونقرأها ألفاظ لا معاني لها ونعلم أن لها تأويلًا لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزلة ﴿ الم ﴾ ، ﴿حم﴾ ، فلو ورد علينا ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيها ولم نعرف معناها ونكل علمها إلى الله ، وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات .

الصنف الرابع : أصحاب التشبيه والتمثيل : ففهموا منها مثل ما للمخلوق وظنوا أن لا حقيقة لها سوى ذلك وقالوا : محال أن يخاطبنا الله

بما لا نعقله وهؤلاء هم المشبهة .

ثم قال عن هذه الفرق : إنها لا تزال تبدع بعضهم بعضًا وتضلله وتجهله وقد تصادمت كما ترى فهم كزمرة من العميان تلاقوا فتصادموا وهذه الفرق الأربعة جميعها ابتعدت عن المنهج الصحيح الذي بينه في الصنف الخامس وهو :

الصنف الخامس : أصحاب سواء السبيل : وهم الذين هداهم الله للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقين فكان مذهبهم مذهبًا بين مذهبين وهدى بين ضلالتين خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين(١).

هكذا يبين رحمه الله أصناف الناس بالنسبة لنصوص الوحي ، ويرد عليهم ثم ينصر مذهب السلف الصالح ويسميهم بأصحاب سواء السبيل ، وهذا يدل على أن جميع هذه الفرق لم تكن على منهج السلف الصالح بل إنهم مبتدعة لم يستفيدوا من النصوص ولم يعظموها حق تعظيمها .

*** رده على الذين زعموا أن الخلف أعلم من السلف في باب الإيمان بالله وتوحيده**

يرى ابن القيم أن مذهب السلف في الاعتقاد هو أفضل مذاهب الناس وأسلمها وأنهم خير الناس طريقة وأهداهم لمعرفة الحق فيها فهم عصابة الإيمان وحماة الدين وخير معتقد في هذا الباب معتقدهم(٢) .

لذلك رد على كل من زعم أنهم عن هذا الباب معرضون وبالزهد

---

(١) انظر « الصواعق المرسلة » : (٢/ ٤١٨ - ٤٢٦) .

(٢) نفس المرجع : (١ / ١٦٠) .

والعبادة مشتغلون ولم يكن هذا الباب من همتهم ولا من عزيمتهم ، فقال :

وهذا من أبين المحال وأبطل الباطل بل كانت عنايتهم بهذا الباب فوق كل عناية وذلك بحسب حبهم لمعبودهم ومنافستهم في القرب منه وشوقهم إلى لقائه فاستكشافهم هذا الباب أكبر مقاصدهم وأعظم مطالبهم ، فكيف مع قيام هذا المقتضى أن يتأخر عنه خيار الأمة وسادات أهل العلم الذين هممهم أشرف الهمم ومطالبهم أعلى المطالب ؟ فكيف يظن بهم الإعراض عن مثل هذا الأمر العظيم والغفلة عنه ؟!

وفي المقابل كيف يكون الخلف من تلاميذ المعتزلة وورثة الصابئة وأفراخ اليونان الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك وعدم العلم الذي يطمئن إليه القلب أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف بها ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والإيمان وفضلهم على من سبقهم ومن يجيء بعدهم ما خلا النبيين والمرسلين ؟! وإنما أوتي هؤلاء المبتدعة من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه وأن طريقة المتأخرين هي استخراج المعاني من النصوص مما أوجب نبذ الكتاب والسنة وأقوال الصحابة وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف[1] .

فلو تبين لهؤلاء البائسين وأمثالهم أن طريقة السلف إنما هي إثبات ما دلت عليه النصوص من الصفات وفهمها وتدبرها وتعقل معانيها وتنزيه الرب عن تشبيهه فيها بخلقه ـ كما ينزهونه عن العيوب والنقائص وإبطال طريقة النفاة المعطلة وبيان مخالفتها لصريح المعقول كما هي مخالفة لصحيح

---

(١) « الصواعق المرسلة » (١٦١ - ١٦٤ / ١) .

المنقول ـ علم أن طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم وأهدى[(١)] .

كما أنه يدافع عن أفراد من السلف إذا وجد من يطعن فيهم ممن ملأه الحسد عليهم أو قصر فهمه عن إدراك مقاصدهم وفهم معنى كلامهم كما فعل في دفاعه عن البخاري عندما اتهم وامتحن بأنه يقول بخلق القرآن ، قال ابن القيم :

معاذ الله أن يظن بأئمة الإسلام هذا الظن الفاسد فقد صرح البخاري في كتابه « خلق أفعال العباد » وفي آخر الجامع بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وقال : حدثنا سفيان بن عيينة قال : أدركت مشيختنا منذ سبعين سنة منهم عمرو بن دينار يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق .

ثم ذكر روايات البخاري في الباب وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ثم قال : هذا مذهب البخاري والإمام أحمد وأصحابهما من سائر أهل السنة ، فخفي تفريق البخاري وتمييزه على جماعة من أهل السنة والحديث وتعلقوا بالمنقول عن أحمد أنه قال : « من قال : لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ، ومن قال : غير مخلوق فهو مبتدع » [(٢)] .

وساعد ذلك وقوع حسد باطن للبخاري لما كان الله نشر له من الصيت والمحبة في قلوب الخلق واجتماع الناس عليه حيث حل فوافق الهوى

---

(١) « الصواعق المرسلة » : (٣ / ١١٣٤) .

ومن أعظم ما ناصر به ابن القيم أهل السنة والجماعة (السلف) هو نونيته المعروفة باسم « الكافية الشافية في الانتصار للفرق الناجية » .

(٢) أراد الإمام أحمد سد الذريعة حيث منع إطلاق لفظ المخلوق نفيًا وإثباتًا وسد باب الكلام في ذلك وأما منعه أن يقال (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فإنما منع ذلك لأنه عدول عن نفس قول السلف فإنهم قالوا : القرآن غير مخلوق ؛ والبخاري أعلم بهذه المسألة وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه وكلامه أوضح وأمتن من غيره ، « مختصر الصواعق المرسلة » (ص : ٤٣٨) .

الباطن الشبة الناشئة من القول المجمل فترتب من مجموع هذه الأمور فتنة وقعت بين أهل الحديث[١] .

وهكذا تجده منافحًا عن السلف رادًّا المطاعن المزعومة حولهم سواء كان جماعة أو فردًا من السلف كما يلاحظ ذلك في مجمل كتاباته رحمه الله.

ثالثًا : الرد على المخالفين وبيان فساد مذهبهم :

إن من أهم المميزات التي ميزت دعوة ابن القيم وجعلت لها هذا الذيوع والتمكن من قلوب الناس هو ما تمتع به ابن القيم رحمه الله من القدرة على نقد مناهج المبتدعة وذكر شبههم والرد عليها فقد فاق رحمه الله كثيرًا من أقرانه في هذا المنهج لأن كثيرًا ممن سبقه من سلف هذه الأمة كان يعتمد في دعوته على العرض أكثر من الرد ودفع الشبه وهذا وإن كان فيه الخير والبركة لهذا الدين من وجه حفظ السنة ونشرها وإن كان كثيرًا منهم قد تصدى للرد على المخالفين ، إلا أن ابن القيم رحمه الله يرى أن ذلك لا يقل عن العرض أهمية إن لم يكن في بعض الأحيان أوجب وذلك عندما تتمكن الشبة من القلب الضعيف ولم يكن عنده من الإيمان والمعرفة ما يدفعها به ، لا سيما وأن ابن القيم قد وقع في تلك الشباك وكادت أن تهوى به في ظلمة الآراء لولا أن تداركه الله برحمته .

فكونه رحمه الله قد وقع في تلك الشبه والمتاهات وكونه صادقًا مع ربه طالبًا مرضاته أعطاه دفعة قوية لسلوك هذا المنهج بجانب منهج العرض لإنقاذ الأمة من تلك المتاهات وإيضاح الحق لمن أراده ، فهو إذاً على بصيرة

---

(١) انظر « مختصر الصواعق المرسلة » (ص : ٤٣٦) .

بما عند القوم فهو القائل :

اسمع نصيحة من له خبر بما عند الورى من كثرة الجولان[١]

كما أنه على بصيرة بالكتاب والسنة بعد ما حباه الله بصحبة شيخ الإسلام رحمهما الله تعالى ، فمجموع ذلك كله هيأه وأعطاه القدرة الفذة في نقده المبتدعة وإلزامهم الحجة ، كما أن ابن القيم يرى أن الرد على هؤلاء المبتدعة والمخالفين لمنهج السلف الصالح ، من أعظم الجهاد وهو لا يقل أهمية عن جهاد الملحد والمنافق فيقول : فكشف عورات هؤلاء وبيان فضائحهم وفساد قواعدهم من أفضل الجهاد في سبيل الله وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: « **إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن رسوله** »[٢] .

وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهاد في سبيل الله وأكثر هذه التأويلات المخالفة للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام الذين لهم في الأمة لسان صدق .

يتضمن من عبث المتكلمين بالنصوص وسوء الظن بها من جنس ما تضمنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه من أهل النفاق والإلحاد لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك ومحال وكفر وضلال[٣] .

وخير ما يعبّر ويصور لنا هذا المنهج القويم الذي سار عليه في دعوته كتابه المسمى « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » وكتابه « شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل » وغيرهما .

---

(١) « القصيدة النونية » سبق تخريجه .

(٢) مسلم « كتاب الفضائل » : (٤ / ١٩٣٦) .

(٣) « الصواعق المرسلة » : (١ / ٣٠٢) .

فقد ركز رحمه الله فيهما على كشف عورات المبتدعة بذكره أصولهم التي بنوا عليها بدعتهم وشبههم التي حرفتهم عن المسار الصحيح وأوقعت ضعفاء العقول في ظلماتها .

فأوردها شبهة شبهة ورد عليها بالنقل والعقل وبين فسادها سواء من جهة الشرع أو العقل أو اللغة والفطرة ، فأجاد رحمه الله وأفاد .

وإنني أجزم بأن طالب الحق الذي تخلى عن الأهواء وتجرّد عن التعصب إذا كان بحثه عن الحق والصواب أن يهتدي إلى الصواب الذي تطمئن به نفسه ولا يهون في نفس أحد إلا كان مكابرًا معاندًا ، وسبب ذلك أن ابن القيم رحمه الله كان ربانيًا في كل شيء تشعر بالصدق والإخلاص منه لله تعالى ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم غيورًا على الحق داعيًا له مبغضًا للباطل كاسرًا له يضاف إلى ذلك علمه الواسع الذي مكنه من كسر الطواغيت بالحجة البالغة التي توافق أصحاب الفكر السليمة والعقول الصحيحة فعلمه جعله يورد الشبه وكأنه في حوار مع المبتدعة ثم يورد الحجج الدامغة فينظر الحق بعينه كل من أراد له الله الهداية والخير .

وذكر ذلك يطول ولكنا سننقل نموذجين ممّا كتبه رحمه الله كي تتضح لنا طريقته في الدعوة ومنهجه الذي تميز به ، وذلك كما فعل مع أهل التأويل وهم الذين أولوا صفات الله سبحانه وتعالى فرارًا من تشبيهه بخلقه فوقعوا في شر من ذلك فناقشهم في كتابه « الصواعق المرسلة » في هذه المسألة فبدأ ببيان حقيقة التأويل لغة وشرعًا ، وأقسامه ، وضابط التأويل عند المأوّلة والوظائف الواجبة على المتأول الذي لا يقبل منه التأويل إلا بها ، وبين أسباب التأويل وجناياته على الأديان ، وغير ذلك مما يطول عن القصد

من إيضاح المنهج ، فاسمع الآن مناقشته لمأوّلة الصفات حيث يقول :

لا ريب أن الله سبحانه وصف نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء وأخبر عن نفسه بأفعال فسمى نفسه بالرحمن الرحيم الملك القدوس العزيز إلى سائر ما ذكر من الأسماء الحسنى ووصف نفسه بما ذكره من الصفات كسورة الإخلاص[1] ، وأول الحديد[2] وطه[3] وغير ذلك ووصف نفسه بأنه يحب ويكره ويغضب وينزل إلى السماء الدنيا وأنه عالم قدير سميع وغير ذلك .

ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك وأن قلوب العباد بين أصابعه وغيره ممّا وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ فيقال للمتأول :

هل تتأول ذلك كله على خلاف ظاهره وتمنع حمله أم تقرّ الجميع على حقيقته وظاهره ؟ أم تفرق بين بعض ذلك وبعضه ؟ وهذه الوجوه لا يستطيع المتأول أن يخرج عنها .

فإن أجاب بقوله : (أتأول الجميع وأحمله على خلاف حقيقته) : كان ذلك عنادًا ظاهرًا وكفرًا صراحًا وحينئذ لا تستقر لك قدم على إثبات ذات الرب ولا صفة من صفاته ولا فعل من أفعاله والتحقت بإخوانك

---

(١) سورة الإخلاص هي قوله تعالى : ﴿ قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد ﴾ [سورة الاخلاص : ١-٤] .

(٢) أوائل سورة الحديد هي : ﴿ سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحي ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور ﴾ [الآيات ١: ٦] .

(٣) أوائل سورة طه هي : ﴿ طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلًا ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ [طه ١: ٨] .

الدهرية الذين لا يثبتون للعالم خالقًا .

فإن قلت : بل أثبت خالقًا ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه فإذا وصف بما يقع على المخلوق أتأوله .

قيل لك : هذه الأسماء الحسنى والصفات هل تدل على معاني ثابتة هي حق في نفسها أم لا ؟

فإن نفيت دلالتها على المعاني كان ذلك غاية التعطيل ، وإن أثبت لها معانٍ قيل لك : فما الذي سوغ لك تأويل بعضها دون بعض ؟ مع أن دلالة النصوص على أن له سمعًا وبصرًا - كدلالتها على أن له رحمة ومحبة ، فلم أولت الرحمة والمحبة بأنها الإرادة ؟

فإن قلت : لأن إثبات الإرادة لا يستلزم تشبيهًا وتجسيمًا وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم ذلك وهي لا تعقل إلا في الأجسام ، فإن الرحمة رقة تعتري طبيعة الحيوان والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها .

قيل لك : وكذلك الإرادة هي : ميل النفس إلى جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها وكذلك جميع ما أثبته من الصفات إنما هي أعراض قائمة بالأجسام في الشاهد .

فإن قلت : لأني أثبتها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشبهها .

قيل لك : فهلا أثبت الجميع على هذا الوجه ، فإن قلت : هذا لا يعقل قيل لك : وكيف عقلت سمعًا وبصرًا وإرادة ليست من جنس صفات المخلوقين .

فإن قلت : أنا أفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ، فإن ما دل العقل على ثبوته ممتنع تأويله كالعلم والحياة وما لا يدل عليه العقل يجب أو

يسوغ تأويله كالوجه والضحك والرضى ، لأن الفعل المحكم دل على قدرة الفاعل ، وإحكامه دل على علمه والتخصيص دل على الإرادة فيمتنع مخالفة ما دل عليه صريح العقل .

والجواب على ذلك من ثلاثة وجوه :

يقال لك أولاً : وكذلك الإنعام والإحسان وكشف الضر وتفريج الكربات دل على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء والتخصيص بالكرامة والاصطفاء دال على المحبة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء والتخصيص بالكرامة والاصطفاء دال على المحبة كدلالة ما ذكرت على الإرادة كما أن الإهانة والطرد والحرمان دال على المقت والبغض كدلالة ضده على الحب والرضى وهكذا .

ويقال ثانيًا : هب أن العقل لا يدل على إثبات هذه الصفات التي نفيتها فإنه لا ينفيها ، والسمع دليل بنفسه بل الطمأنينة إليه في هذا الباب أعظم من الطمأنينة إلى مجرد العقل فما الذي يسوغ لك نفي مدلولها .

ويقال ثالثًا : إن كان ظاهر النصوص يقتضي تشبيهًا أو تجسيمًا فهو يقتضيه في الجميع فأول الجميع وإن كان لا يقتضيه لم يجز تأويل شيء منه ، وإن زعمت أن بعضها يقتضيه دون البعض طولبت بالفرق بين الأمرين وعادة المطالبة جذعًا [1] .

وهكذا يستمر رحمه الله مع المأولة وبخاصة الذين أولوا بعض الصفات دون البعض يذكر أصولهم وشبههم ثم يرد عليها كما سبق .

أما عن شبهة الجهمية الذين قالوا : بأن القرآن ذكر الوجه ، وذكر

---

(١) « الصواعق المرسلة » : (١ / ٢٢٠) وما بعدها .

الأعين وذكر العين الواحدة وذكر الجنب الواحد والساق الواحد ، وذكر الأيدي فلو أخذنا بالظاهر لزمنا إثبات شخص له وجه وعليه أعين كثيرة وله جنب واحد على أيدي كثيرة وساق واحد ولا يُرى شخص أقبح من هذه الصورة المتخيلة ، فكيف يصف بها ربه ؟

وهذا التلبيس منهم يغتر به كثير ممن قصر فهمه من الناس لأنهم ألبسوا هذا التدليس ثوب تنزيه الله سبحانه عن أن يكون بهذه الصورة القبيحة ، وهذا ما يجعل العامة يقبلونه .

ولكن ابن القيم رحمه الله المعظم لحرمات الله أراد أن يوضح لمن قصر فهمه وتابعهم على باطلهم بكشف الحق وبيان خطئهم وفضح سرائرهم فبين أن سبب ضلالهم هذا هو خطؤهم في فهمهم من النصوص المعاني الباطلة فجمعوا بين التشبيه والتعطيل وإليك رده عليهم إذ قال :

قد ادعيت أيها الجهمي أن ظاهر القرآن الذي هو حجة الله على عباده وهو خير الكلام وأصدقه وهو الشافي لما في الصدور والهدى والرحمة للمؤمنين فانتهكت حرمته ونسبته إلى أقبح النقص والعيب فادعيت أن ظاهره ومدلوله إثبات شخص قبيح الصورة ، فادعيت أن ظاهر ما وصف الله به نفسه في كتابه يدل على هذه الصفة الشنيعة فيكون سبحانه قد وصف نفسه بأشنع الصفات ، فأي طعن في القرآن أعظم من ذلك ؟

وبعد أن بين كيفية اعتدائهم على كتاب الله وتنقيصهم له أخذ يقارن بين عقول هؤلاء المبتدعة والمشركين في عهد المصطفى ، بقوله :

بل لم يدع أعداء الرسول الذين جاهروه بالمحاربة أن ظاهر القرآن أبطل الباطل وأبين المحال لأن وصف الخالق بأقبح الهيئات ، ولو كان ذلك ظاهره

لكان ذلك من أقرب الطرق لهم للطعن فيه فكان هؤلاء الكفرة مع شدة عداوتهم لله ورسوله أصح أفهامًا من الجهمية مع شدة حاجتهم وحرصهم على الطعن في الكتاب والرسول .

ثم بعد هذا الانتقاد اللاذع الصحيح أخذ يرد عليهم ويفند حججهم وشبههم واحدة بعد الأخرى فقال :

ونحن نبين أن هذه الصورة الشنيعة لا تفهم من ظاهر القرآن من وجوه :

إحداها : أن الله سبحانه إنما قال : ﴿ **تجري بأعيننا** ﴾ [١] وقال : ﴿**أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا** ﴾[٢] فدعواكم أن ظاهر هذا إثبات أعين كثيرة وأيد كثيرة فرية ظاهرة فإنه إن دل على ذلك فإنه يدل على خالقين كثيرين فإن لفظ الأيدي مضاف إلى ضمير الجمع فادع أيها الجهمي أن ظاهره إثبات أيد كثيرة لآلهة متعددة وإلا فدعواك أن ظاهره أيد كثيرة لذات واحدة خلاف الظاهر وكذا الأعين .

الثاني : دعواك أن ظاهر القرآن إثبات أيد كثيرة في جنب واحد وأعين كثيرة في وجه واحد كذب آخر ، فأين في ظاهر القرآن أن الأيدي في الجنب والأعين في الوجه ؟ فكأنك إنما أخذت هذا من القياس على بني آدم فشبهت أولاً وعطلت ثانيًا ولهذا قال بعض أهل العلم : إن كل معطل مشبه ولا يستقيم له التعطيل إلا بعد التشبيه[٣] .

وهذا القياس من ابن آدم للرب سبحانه وتعالى هو أول ما يتبادر لذهنه

---

(١) الآية من سورة القمر : (١٤) .

(٢) الآية من سورة يس : (٧١) .

(٣) « الصواعق المرسلة » : (١/ ٢٣٨) وما بعدها .

عند سماع صفة من صفات الرب تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه أو وصفه بها نبيه ﷺ ؛ أقول هذا القياس هو الذي أوقعهم في الإنحراف في الأسماء والصفات فإن ضعف عقل الإنسان وعدم تصوره ومعرفته ما غاب عنه جعله يصور الغائب في صورة الحاضر فيلزم من ذلك التشبيه ، وألزمهم ذلك التعطيل خروجًا من هذا التشبيه ، تنزيهًا لله عز وجل عن الشبيه والمثيل ، فوقعوا فيما هو شر منه وهذا ناتج عن استخدام العقل والاعتماد عليه .

والله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه سميع ، والله لا يخاطبنا إلا بما نعقل والذي نعقله من هذا الخبر هو أن الله سبحانه وتعالى له القدرة على سماع الأصوات وتمييزها ، ولكن كيف يكون سمعه ؟ هذا ما لا نستطيع الوصول إليه لأننا لم نطلع على ذاته الجليلة ولم نعرف كنهه ، فالذي يجب علينا أن نعتقده أنه موصوف بالسمع صفة تليق بجلاله وعظمته وكذا البصر والاستواء والنزول وغيرها من الصفات ، نؤمن بها بلا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا يلزمنا شيء من ذلك لأنا مخبرون بشيء لا يمكن عقولنا تصوره وهو أجل وأكرم من تصورنا له ، وهو الذي أخبرنا بصفاته وخاطب عقولنا وهو يعلم مدى حاجتها من ذلك وتوضيحه وبالفعل قد اكتملت صورة الرب سبحانه وتعالى في قلوب عباده المؤمنين من خلال هذه الأخبار :

« فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين وذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الإيمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن بارزًا ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به

سبحانه وتعالى في كتابه ، وكما أخبر به رسوله ﷺ ، يدبر أمر الممالك ويأمر وينهي ، ويخلق ، ويرزق ، ويميت ويحيي »[(١)] .

وهذا اليقين حصل لهم مما ظهر لهم من الأخبار فلم يحتاجوا إلى غيره ، فكان مذهب هؤلاء وهم السلف الصالح الذين قال عنهم ابن القيم :

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات وكان مذهبهم مذهبًا بين مذهبين ، وهدى بين ضلالين ، خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين ، والمجهلين ، والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين .

وقالوا : نصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به نبيه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات ونفي مشابهة المخلوقات فلا نعطل ولا نأوّل ولا نمثل ولا نجهّل ، ولا نقول : ليس له يدان ، ولا وجه ، ولا سمع ، ولا بصر ، ولا حياة ، ولا قدرة ، ولا استواء على عرشه ، ولا نقول : له يدان كأيدي المخلوقين ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء كأسماعهم وأبصارهم وحياتهم وقدرتهم واستوائهم ، بل نقول : له ذات حقيقة ليست كالذوات وله صفات حقيقة لا مجازًا ليست كصفات المخلوقين وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه[(٢)] .

وعلى هذا المنهج يسير رحمه الله بتفنيد شبههم في الساق والجنب وقد

---

(١) « الوابل الصيب » : (ص ٧٨) .

(٢) « الصواعق المرسلة » : (١ / ٢٥٢) .

نقلنا ذلك بطوله لأنها تمثل وتوضح منهجه رحمه الله ولأن مسألة الصفات من الأمور التي ركّزَ عليها ابن القيم رحمه الله في دعوته لأن المؤمن بتصورها ومعرفتها يدرك عظمة الرب تبارك وتعالى ويعرفه حق المعرفة وبإدراكها يتمثل سلوك الإنسان مع ربه وعباده .

ونستطيع بعد معرفة منهج ابن القيم هذا أن نقيس عليه جميع مسائل الاعتقاد التي سعى ابن القيم رحمه الله لتثبيتها في قلوب الأمة كمسائل القضاء والقدر الذي هو أحد أركان الإيمان ، والإرجاء ، وغير ذلك من المسائل العقدية التي بحثها رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

والمقصود هو إيضاح المنهج ومعرفة كيفية دعوته إلى باب الاعتقاد .

* * *



الفصل الثاني

منهجه في

مجال الفروع الشرعية



الفصل الثاني : منهجه في مجال الفروع الشرعية[1]

* تمهيـــد :

إن من أولى ما يتنافس فيه المتنافسون وأحرى ما يتسابق إليه المتسابقون ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلاً وهو علم أحكام أفعال العبيد المعروف باسم « الفقة الإسلامي » وهو من أشرف العلوم وأعظمها خيرًا ونفعًا للعباد عامة وللدعاة خاصة ، لأن فضيلة الشيء وشرفه يظهر كما يقول ابن القيم من أمور :

تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه ، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده ، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية[2].

وهذه الاعتبارات التي ذكرها ابن القيم رحمه الله جميعًا مجتمعة لا تنفك عن هذا العلم وهو- الفقة الإسلامي - ذلك أنه أحكام تساير المسلم وتلازمه في جميع شئون حياته سواء كانت تتعلق بالرب سبحانه أو عبيده فعلم شرائع الإسلام منها ما هو واجب على كل مسلم كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها فهي فرض عين[3] ومنها ما يتعلق بعبد دون آخر كأحكام البيوع ونحوها فهي فرض كفاية .

والمهم أن معرفة علم أحكام العبيد مما يشد العبد بها حبل الاتصال

(١) سبق أن تحدثنا في الباب الأول عن العبادات انظر (ص١٥٦) ، والباب الثاني الفصل الثالث (ص٥٤٧، ٦٧٨) .

(٢) « مفتاح دار السعادة » : (١١٠) .

(٣) نفس المرجع السابق ((١٩٨) .

بعبادة ربه في السر والعلن ، وبعلم الفقه ينشر راية الإسلام وذلك في فقه الجهاد والمغازي والسير والأمان والعهد .

وبها يتطلب الرزق المباح عن مواطن الإثم والجناح وذلك في فقه المعاملات وهكذا في جميع شئون حياته المالية والزوجية وغيرها .

وابن القيم هذا الداعية الملهم مدرك أهمية هذا العلم والارتباط الوثيق بينه وبين الداعية فيما يخدم الدعوة الإسلامية فسخر له قسطًا كبيرًا من حياته العلمية جهدًا يشكر عليه فكان من أجلّة العلماء الذين ألفوا في هذا الباب وإن كان يخالف الكثير منهم في المنهج الذي سلكوه في مؤلفاتهم التي زخرت بها المكتبات الإسلامية فالعلماء اختلفت مدوناتهم باختلاف مشاربهم فمنهم من ألف في المذهب ولم يتعده ومنهم من ألف في المذاهب الفقهية مبينًا أدلة الخلاف ووجوه الاستدلال ، ومنهم من ألف على سبيل الاجتهاد .

وابن القيم من العلماء الذين ألفوا على سبيل الاجتهاد والتحقيق والنظر العميق فحرر الوثائق وبين النوازل وساق لها صنوف الأدلة من مشكاة النبوة سائرًا مع السنن حيث سارت ركائبها متجهًا معها حيث كانت مضاربها فأخرج بذلك للناس علمًا جمًّا وفكرًا خصبًا جاريًا على أسعد القواعد وأرشدها[1] فألف في كثير من أبواب الفقه[2] وحقق المسائل ورجح بعضها على بعض كما أنه انفرد في بعض المسائل وتابع شيخه في بعضها مما

---

(١) انظر « التقريب لفقه ابن القيم » للشيخ بكر أبو زيد : (من ٦١) .

(٢) قد جمع فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد شتات ما كتبه ابن القيم في مسائل الفقه من كتبه المطبوعه في كتاب واحد أسماه « التقريب لفقه ابن قيم الجوزية » في أربعة مجلدات وهو عبارة عن معجم للمسائل التي بحثها ابن القيم جزاه الله خيرًا ونفع به وبعلمه .

خالف فيه ما اتفق عليه أهل زمانه والمذهب كما سيتضح من هذه الدراسة .

*** مسيرة الفقة وتاريخ حركته :**

لقد كان النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو الداعية الأول لهذا العلم وهو الحجة التي أوجب الله علينا طاعته وسد الطرق كلها إلا من طريقه فهو الميزان الراجح الذي على أقواله وأفعاله توزن الأعمال والأقوال وقد صدع بالحق وامتلأت به الأرض نورًا وابتهاجًا فيما أكمل الله تعالى به الدين وأتم به النعمة وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى .

فحمل أصحابه رضوان الله عليهم ما جاء به وأيدوا قواعد الإسلام ولم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً وفتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصًا صافيًا وكان سندهم فيه عن نبيهم ﷺ عن جبريل عن رب العالمين خالصًا صافيًا فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلك الرشيد .

ثم جاء الأئمة من القرون المفضلة واقتبسوا هذا الأمر عن مشكاتهم اقتباسًا ، وكان دين الله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليه رأيًا أو معقولاً أو قياسًا ثم سار على آثارهم الرعيل الأول من أتباعهم ودرج على منهاجهم الموفقون من أشياعهم زاهدين في التعصب للرجال واقفين مع الحجة والاستدلال يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه إذا

بدا لهم الدليل طاروا إليه وإذا دعاهم الرسول إلى أمر لا يسألونه عما قال برهانًا .

ثم خلف من بعدهم خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورؤوس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا ﴿ **إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون** ﴾[1] والفريقان بمعزل عما ينبغي اتباعه من الصواب ، قال الشافعي : « أجمع المسلمون على أن من بانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس »[2] هذه هي مسيرة الفقه كما يراها ابن القيم وقد انقسمت إلى قسمين ،

القسم الأول : وهم المتابعون لما جاء عن النبي ﷺ والاجتهاد في تطبيقه والبحث عنه .

والقسم الآخر : تركوا ذلك ولم يجتهدوا في تحصيله أو تطبيقه والبحث عنه مكتفين بما عرفوه من أقوال من يقلدونهم وغالبهم أخذ ذلك عن الآباء والأجداد تقليدًا وعادة بدون معرفة للدليل ، ومن ثم اختلفوا شيعًا وأحزابًا .

* **سبب الاختلاف** [3] :

ثم بين رحمه الله سبب الخلاف بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصل

---

(١) الآية من سورة الزخرف : (٢٢) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (١/٥- ٧) .

(٣) انظر في ذلك كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في « الفتاوي » (٢٠/٢٣١) فقد أشبع وأشفى في هذا الموضوع وانظر كتابه « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

واحد وتحاكمهم إليه وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فنقل عن ابن حزم الظاهري قوله في ذلك ، وسوف أنقل قوله لحاجة البحث إليه .

يقول ابن حزم[١] : بحثت عن السبب الموجب للخلاف ولترك من ترك كثيرًا مما صح من السنن فوضح لنا بعد التفتيش والبحث أن كل واحد من العلماء بشر ينسى كما ينسى البشر وقد يحفظ الرجل الحديث فلا يحضره ذكره فيفتي بخلافه ، وقد يعرض هذا في آي القرآن ألا ترى أن عمرًا رضي الله عنه أمر على المنبر أن لا يزاد مهور النساء على عدد ذكره - ميلًا إلى أن النبي ﷺ لم يزد على ذلك العدد في مهور نسائه - حتى ذكرته امرأة من جانب المسجد بقوله تعالى : ﴿ **وآتيتم إحداهن قنطارًا** ﴾ [٢] فترك قوله وقال : « كل أحد أعلم منك حتى النساء »[٣] وذكر كثيرًا مما نسيه بعض الصحابة مع وجوده في القرآن وعلمهم به .

ثم قال : وقد يذكر العالم الآية والسنة ولكن يتأول فيها تأويلاً من خصوص أو نسخ أو معنى ما ، وإن كان كل ذلك يحتاج إلى دليل ولا شك أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا بالمدينة حوله صلوات الله وسلامه عليهم مجتمعين ، وكانوا ذوي معايش يطلبونها وفي ضنك من القوت فمن محترف في الأسواق ومن قائم على نخلة ويحضره في كل وقت طائفة منهم إذا وجدوا أدنى فراغ مما هم بسببه وقد نص على ذلك أبو هريرة

---

(١) انظر كتابه « الإحكام في أصول الأحكام » : (٣٠١/٢) تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ط الأولى عام (١٣٩٨هـ) مطبعة الامتياز .

(٢) الآية من سورة النساء : (٢٠) .

(٣) رواه أبو داود « عون المعبود » : (٦ / ١٣٥) كتاب النكاح باب الصداق المكتبة السلفية بالمدينة ط الثانية (١٣٨٨هـ) تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

فقال : إن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق وإخواني من الأنصار كان يشغلهم القيام على نخلهم ، وكنت امرءًا مسكينًا أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطني[(١)].

وكان النبي ﷺ يسأل عن المسألة ويحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل الشيء فيحضره من يحضره ويغيب عمن غاب عنه ، فلما مات وليَ أبو بكر وكان إذا جاءته القضية ليس عنده فيها نص سأل مَن بحضرته مِن الصحابة عنها فإن وجد عندهم نصًا رجع إليه وإلا اجتهد في الحكم فيها .

ولما وليَ عمر رضي الله عنه فتحت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار ، فكانت الحكومة تنزل بالمدينة أو بغيرها فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به وإلا اجتهدوا في ذلك ، وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صحابي آخر في بلد آخر ويحضر هذا ما لا يحضر هذا من الأمصار ، كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه الحالة التي ذكرنا ، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين[(٢)] وكان حكم المسح على الخفين عند عليّ وحذيفة ولم تعلمه عائشة ولا ابن عمر ولا أبو هريرة وذكر عدة مسائل من هذا النوع .

فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين تفقهوا بمن كان عندهم من الصحابة وكانوا لا يتعدون فتاويهم ـ لا تقليدًا ـ لهم ولكن لأنهم أخذوا ورووا عنهم إلا اليسير

---

(١) رواه البخاري في كتاب « العلم » (٤٢) باب حفظ العلم : (١/٣٨) .

(٢) رواه البخارى في كتاب « التيمم » (٧) باب إذا خاف الجنب على نفسه : (١/ ٩٠) .

مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم .

ثم أتى من بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة[١] وسفيان[٢] وابن أبي ليلى[٣] بالكوفة ، وابن جريج[٤] بمكة ومالك وابن الماجشون[٥] بالمدينة ،

---

(١) أبو حنيفة النعمان بن ثابت إمام الحنفية مجتهد ولد ونشأ بالكوفة كان قوي الحجة من أحسن الناس منطقًا كريمًا في أخلاقه جواد حسن المنطق والصورة توفي رحمه الله في سجن أبي جعفر المنصور سنة (١٥٠هـ) عندما رفض تولى منصب القضاء . انظر : « تاريخ بغداد » (٣٢٣/١٣ - ٤٣٣) ، و« وفيات الأعيان » (٢١٥/٢ - ٢١٩) ، و« النجوم الزاهرة » (١٢/٢) ، و« البداية والنهاية » (١٠٧/١٠) ، و« تذكرة الحفاظ » (١/ ١٦٨) ، وعلاء الدين علي بن عبد الله الغزولي « مطالع البدور في منازل السرور » : (١٥/١) ط الأولى (١٢٩٩هـ) مطبعة الوطن القاهرة .

(٢) أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفة ، وعندما طلبه الخليفة المنصور للقضاء خرج من الكوفة سنة (١٤٤هـ) فسكن مكة والمدينة ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل إلى البصرة ومات مستخفيًا سنة (١٦١هـ) رحمه الله تعالى من مصنفاته « الجامع الكبير » ، و « الجامع الصغير » وغيرهما ، انظر : ابن النديم : « الفهرست » ص (٤٦، ٢٢٦، ٢٢٧) و « المعرف » ص (٢١٧) ، و « تاريخ بغداد » : (١٥١/٩) ، و « حلية الأولياء » (٣٥٦/٦ - ٣٩٣ ، ٣/٧ - ١٤٤) ، و « تذكرة الحفاظ » (٣٠٨/١) ، و « الجواهر المضيئة » (٢٢٧/٢) و « النجوم الزاهرة » (٣٩/٢) ، و « غاية النهاية في طبقات القراء » (٣٠٨/١) ، و « طبقات الحفاظ » (٨٨) .

(٣) محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى يسار (وقيل : داود) ابن بلال الأنصاري الكوفي : قاض فقيه من أصحاب الرأي ولي القضاء والحكم في الكوفة لبني أمية ثم لبني العباس واستمر (٢٣) سنة له أخبار مع أبي حنيفة وغيره مات بالكوفة سنة (١٤٨هـ) رحمه الله انظر : « ميزان الاعتدال » (٣/ ٨٧) ، و « وفيات الأعيان » (١/ ٤٥٢) ، و « النجوم الزاهرة » (٢/ ٣٥) .

(٤) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج أبو الوليد وأبو خالد : فقيه الحرم المكي كان إمام أهل الحجاز في عصره وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة رومي الأصل من موالي قريش مكي المولد والوفاة توفي سنة (١٥٠هـ) رحمه الله ، انظر « وفيات الأعيان » (١/ ٢٨٦) و « تاريخ بغداد » (١٠/ ٤٠٠) و « الأعلام » (١٦٠/٤) .

(٥) عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الله التيمي بالولاء أبو مروان ابن الماجشون : فقيه مالكي فصيح دارت عليه الفتيا في زمانه وعلى أبيه قبله أضر في آخر عمره توفي سنة (٢١٢هـ) رحمه الله ، انظر « ميزان الاعتدال » (١٥٠/٢) و « ابن خلكان » (٢٨٧/١) و « الأعلام » (٤/ ١٦٠) .

والأوزاعي بالشام والليث[١] بمصر فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين وتابعوهم عن الصحابة فيما كان عندهم وفي اجتهادهم فيما ليس عندهم ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها وكل من ذكرنا مأجور فيما أصاب أجرين وفيما خفي عنه أجر واحد .

وقد يبلغ الرجلَ مما ذكرنا نصان ، ظاهرهما التعارض فيميل إلى أحدهما بضرب من الترجيح ويميل غيره إلى النص الآخر الذي تركه بضرب آخر من الترجيحات كما رُوي عن عثمان بن عفان في الجمع بين الأختين : أحلتهما آية وحرمتهما آية [٢] وكما مال ابن عمر إلى تحريم نساء أهل الكتاب جملة بقوله تعالى : ﴿ **ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن** ﴾[٣] وقال : لا أعلم شركًا أعظم من قول المرأة أن عيسى ربها وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآية الأخرى ومثل هذا كثير[٤] .

وعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء ما تركوا من الحديث ومن الآيات وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم فأخذ هؤلاء ما ترك أولئك لا قصدًا إلى خلاف النصوص ولا تركًا لطاعتها ولكن لأحد الأعذار التي ذكرناها .

ثم كثرة الرحل إلى الآفاق ، وتداخل الناس ، وانتدب أقوام لجمع

---

(١) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي أبو الحارث : إمام أهل مصر في عصره حديثًا وفقهًا ، قال ابن تغري بردي : « كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته » أصله من خراسان ومولده في قلقشندة ووفاته في القاهرة ، وكان من الكرماء الأجواد ولابن حجر العسقلاني كتاب « الرحمة الغيثية في الترجمة الليثية » مطبوع في سيرته ، توفي سنة (١٧٥هـ) رحمه الله ، انظر : « وفيات الأعيان » (٤٣٨/١) و « النجوم الزاهرة » (٨٢:٢) و « حلية الأولياء » (٣١٨/٧) و « تاريخ بغداد » (٣/١٣) و « الأعلام » (٢٤٨/٥) .

(٢) رواه الإمام مالك في « الموطأ » : (٥٣٨/٢) .

(٣) سورة البقرة : (٢٢١) .

(٤) رواه البخاري في «كتاب الطلاق» (١٨) باب قوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات﴾: (١٧٢/٦).

حديث النبي ﷺ وضمه وتقييده ووصل من البلاد البعيدة إلى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأولة في الحديث وعرف الصحيح من السقيم وزيف الاجتهاد المؤدي إلى خلاف كلام رسول الله ﷺ وإلى ترك عمله وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغها إليه وقيام الحجة بها عليه ولم يبق إلا العناد والتقليد » انتهى كلامه[1] .

وقصد ابن القيم رحمه الله من سياق هذا النص توضيح أن هؤلاء الأئمة والأعلام ليسوا معصومين من الخطأ وأنه وارد ولا محالة وهم مع ذلك مجتهدون يحاولون اتباع ما جاء عن النبي ﷺ ، فلذلك لا يجوز تقليدهم على كل حال وهذا ليس تنقيصًا من ابن القيم لهؤلاء الأئمة ومعاذ الله أن يكون من الذين يزدرون بالأئمة بل اعترف للأئمة بالفضل والسبق فقال :

ولولا أن الحق لله ورسوله ، وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضة الوهم والخطأ لما اعترضنا على من لا نلحق غبارهم ولا نجري معهم في مضمارهم ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدراري ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ومن رأى في كلامنا زيفًا أو نقصًا أو خطأ فليهدنا الصواب نشكر له سعيه[2] .

ولكن الأسباب السابقة جعلته يتوقف عن أخذ القول حتى يقف على أدلته وصحتها وإلا فالقول مردود على صاحبه ، لأن الحجة ظهرت بمعرفة ما جاء عن الله ورسوله وليس لأحد أن يخالفها ومن خالفها فهو مقلد أعمى أو معاند لم يعرف قدرها .

---

(١) انظر « الصواعق المرسلة » : (٢/٥٢٠) وما بعدها .

(٢) « مدارج السالكين » : (٢/١٣٧) وانظر في هذا « إعلام الموقعين » (٣/٢٨٣) .

ولذلك شن ابن القيم رحمه الله حملته الضارية على التقليد وأهله كما سأبين ذلك إن شاء الله .

*** كسره سلطان التقليد وفتح باب الاجتهاد :**

عرفنا أن الصحابة رضوان الله عليهم قد تلقوا الأحكام من رسول الله ﷺ مباشرة وبدون واسطة وحملوا ما جاءهم عن رسولهم وأيدوه وعملوا بمقتضاه لا يخرجون عن نصوصه أبدًا ، مهما كان القائل فإذا ورد إليهم النص وقفوا عنده عاملين به معتقدين له داعين إليه فألقوا ما تلقوه من مشكاة النبوة إلى التابعين وعمل التابعون بمنهجهم دائرين مع النصوص حيث سارت وحيث حلت ثم تبعهم تابعوهم على هذا المنهج القويم والصراط المستقيم ثم الأئمة من القرون المفضلة كلهم لا يخرجون عن منهج واحد ثم حل جنود المقلدين والمتعصبين في البلاد وأخذوا يدعون إلى آراء الرجال وترك منهج الرعيل الأول حتى جاء عصر ابن القيم وبلغ التقليد أشده وكثرت الخلافات المذهبية والتعصب لها ولأراء الرجال والموروث عن الآباء والأجداد فأصبح ذلك ديدن الناس ومبلغ علمهم وسعادتهم .

وقد تحكمت هذه الظاهرة في نفوس الناس وعقولهم وقصر العلماء أقوالهم على ترديد ما أفتى به الأئمة السابقون دون النظر في النصوص وأقوال الصحابة ، وغالوا في ذلك حتى منعوا الناس من النظر في نصوص الله ورسوله ، فقالت طائفة منهم : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة وأبي يوسف(١) وذكروا غيرهم من علماء الحنفية قولاً ، وقال بكر بن علاء

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب صاحب أبي حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه كان فقيهًا علامة من حفاظ الحديث وهو أول من تولى منصب قاضي القضاة ولي القضاء أيام المهدي =

القشيري المالكي[١] : ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون : ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي وسفيان الثوري ، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي[٢] .

بل الأمر أكثر من ذلك فقال الغلاة منهم : إذا نزلت بالمفتي نازلة لم يجز أن ينظر فيها بكتاب الله ولا سنة رسوله ولا أقوال الصحابة بل إلى ما قاله مقلده ومتبوعه فما وافق قوله أفتى به وحكم وما خالفه لم يجز له أن يفتي به أو يقضي وإن فعل ذلك تعرض لعزله من منصب الفتوى والحكم[٣] .

ولا شك أن المدرسة السلفية ترفض هذا المسلك الوخيم والمغالاة والتعصب ، وابن القيم رحمه الله أحد فرسان هذه المدرسة وأحد المدافعين عن منهجها ومبدئها رأى ما في هذه المغالاة من عكسٍ لحقائق الدين المتمثلة في مخالفة أمر الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ونبذٍ للكتاب والسنة خلف الظهور ، ومخالفة هدي الصحابة رضوان الله عليهم

= والهادي والرشيد كان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب توفى سنة (١٨٢هـ) وله عدة مصنفات منها ، «الخراج» ، و «مسند أبي حنيفة » انظر : أبو الفرج محمد بن يعقوب الشهير بابن النديم: «الفهرست» تحقيق: رضا تجدد (ص ٢٥٦)، ط، (١٣٩١هـ)، طهران، «المعرف» (ص ٢١٨)، وانظر محمد بن خلف بن حيان : «أخبار القضاة» : (٢٥٤/٣) عالم الكتب بيروت بدون تاريخ ، « النجوم الزاهرة »: (١٠٧/٢) « تاريخ بغداد »: (٢٤٢/١٤) « المختصر في أخبار البشر»: (١٥/٢).

(١) أبو الفضل بكر بن محمد بن العلاء القشيري قاضي من علماء المالكية من أهل البصرة انتقل إلى مصر وتوفي بها بعد أن مكث بها حوالي أربع عشرة سنة وذلك ليلة السبت لسبع بقين من ربيع الأول سنة (٣٤٤هـ) من مصنفاته : « أحكام القرآن » ، و « الرد على المزني » ، و « الأشربة » ، وغيرها انظر : «ترتيب المدارك » : (٢٧٠/٥ - ٢٧٢) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢٧٦/٢) .

(٣) نفس المرجع : (٢٤٩/٢) .

وتابعيهم، ومخالفتهم كذلك لأحوال الأئمة ممن يقلدونهم وسلوك هؤلاء ضد طريق أهل العلم وسد باب الاجتهاد فلم يطق الصبر على ذلك بل رام إبطال التقليد والتصدي لأهله وساق الأدلة من الكتاب والسنة على إبطاله وذكر أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة رضوان الله عليهم جميعًا على بطلانه ومنهجهم ومواقفهم في المسائل التي تعرض لهم، كما أنه رد على جميع ما استدل به المقلدون على صحة التقليد وبين تناقضهم بسببه كل ذلك من أجل إبطال التقليد، ودعوةً للمقلدين إلى تحرير أفكارهم من ربقة التقليد وفتحًا لباب الاجتهاد والاعتماد على الأدلة الشرعية كما سنبين إن شاء الله .

*** موقفه من التقليد :**

قبل أن نبدأ بذكر الأدلة التي أوردها ابن القيم رحمه الله في دحض التقليد ينبغي أن نعرف التقليد الذي نهى عنه وأبطله فيما يأتي من أدلة .

فالتقليد الذي حرمه الله ورسوله : هو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول ﷺ وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد[١] ونقل ابن القيم رحمه الله في معرض كلامه عن التقليد قول عبد الله بن خوازمنداد البصري المالكي : التقليد في الشرع معناه الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه وذلك ممنوع منه في الشرع[٢] .

قال تعالى : ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله** ﴾[٣] وفي

---

(١) « فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية » : (١٩/١٦٠) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢/١٩٧) .

(٣) الآية من سورة التوبة : (٣١) .

حديث عدي بن حاتم وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما وكان قد قدم على النبي ﷺ وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية فقال : فقلت له : لسنا نعبدهم ، قال : « **أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟** » قال : فقلت : بلى ، قال : « **فتلك عبادتهم** »[١] .

وقال الربيع بن أنس [٢] : قلت لأبي العالية[٣] : كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا : لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم ، فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم[٤] .

رأى ابن القيم رحمه الله أن هذا الداخل على بني اسرائيل كان السبب في الغضب عليهم وضلالهم عن الحق الذي بعث الله به رسله فوازن رحمه الله بين ما حدث من بني إسرائيل وما يحدث من بعض هذه الأمة من تقليد للأشخاص وتعصبهم لهم وأخذ أقوالهم على عواهنها .

فخشي رحمه الله أن يبتلي دين الله بما ابتلي من قبل فيهجر وينبذ

---

(١) رواه الترمذي في « التفسير » برقم (٣٠٩٤ ج ٨ ص ٢٤٨) وابن جرير (١٠/٨٠) وحسنه الألباني في «غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام» ط المكتب الإسلامي رقم الحديث (٦ ص ١٩).

(٢) الربيع بن أنس بن زياد البكري الخراساني ، بصري سكن مرو وهو عالمها في زمانه سجنه أبو مسلم الخراساني تسعة أعوام توفي رحمه الله سنة (١٣٩هـ) تقريبًا انظر « مشاهير علماء الأمصار » (ص١٢٦) ، « الكاشف » : (٣٠٢/١) .

(٣) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي البصري ، إمام مقرئ حافظ مفسر أسلم في خلافة الصديق رضي الله عنه وحفظ القرآن وذاع صيته في العلم وهو أول من رفع الأذان فيما وراء النهر توفي رحمه الله سنة (٩٠هـ) انظر: « طبقات خليفه »: (٢٠٢) و «المعارف» (ص٢٠٠) و «حلية الأولياء» (٢١٧/٢) و « سير إعلام النبلاء » (٢٠٧/٤) و « غاية النهاية » (٢٨٤/١) و « طبقات الحفاظ » (ص ٢٢) .

(٤) « فتاوي شيخ الإسلام » : (٦٧/٧) .

وخشي على أمة الإسلام أن يصيبها الضلال والغضب من الله ، فالمقلد المتعصب قد يجعل المُقلَّد بمنزلة المشرع سبحانه في طاعته فيما يأمر به وينهى عنه مع أن الأمر بطاعة العلماء يتوقف على موافقة هذا العالم ما جاء عن الله ورسوله ، أما إذا خالف ما أنزل الله ـ وعلم المقلد ـ فقد جعل هذا المُقلَّد شريكًا مع الله في طاعته فيما يحل ويحرم .

لذا ثارت ثائرته على التقليد وأبطله ليحمي كتاب الله وسنة رسوله من أن تهجر وتنبذ ويحمي جانب المسلمين من الضلال والغضب ، لا سيما وأنه لاحظ أن أكثر ما دخل على هذه الأمة من البدع والضلال كان بسبب التقليد الأعمى واتباع الرجال وما ورث عن الآباء والأجداد من دون نظر فيه وفي موافقته للكتاب والسنة مع أن بعض هؤلاء المقلدين ينتسبون إلى العلم إذا لم يبلغ أحدهم درجة الاجتهاد .

والآن نسوق بعض ما نقله ابن القيم من الأدلة النقلية والعقلية على تحريم التقليد فقال :

وقد ذمّ الله سبحانه التقليد في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون** ﴾[1] ، وقوله : ﴿ **وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾[2] .

وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء دون ما جاء عن الله وهذا مما اتفق السلف والأئمة الأربعة على ذمه وتحريمه[3] وهذا

---

(١) الآية من سورة البقرة : (١٧٠) .

(٢) الآية من سورة المائدة : (١٠٤) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (١٨٨/٢) .

الذم والتحريم واقع على جميع ما جاء به الرسول من عبادة واعتقاد ثم بين رحمه الله كذلك كيف أن المقلد خالف أمر الله ورسوله فقال :

إن الله سبحانه أمر برد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى الرسول والمقلدون قالوا : إنما نرده إلى من قلدناه ، أما عن مخالفتهم لأمر الرسول فإنه ﷺ أمرنا عند الاختلاف بالأخذ بسننه وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وأمر بالتمسك بها والعض عليها بالنواجذ[(١)] وقال المقلدون : بل عند الاختلاف نتمسك بقولِ من قلدناه[(٢)] .

وبعد أن ذكر كثيرًا من الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على الأمر بطاعة الله ورسوله والنهي عن التقليد أخذ يبين منهج الصحابة رضوان الله عليهم فيما خفي عليهم وأنهم يبحثون فيما بينهم عن الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله كسؤال أبي العسيف[(٣)] الذي زنى بامرأة مستأجره لأهل العلم فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله ﷺ في حكم الزاني البكر أقره بذلك ولم ينكره فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذهبهم .

وبين كثيرًا من خلاف الصحابة بعضهم لبعض كما سنذكره إن شاء الله وإنما يدل ذلك على تمسكهم بالنص فلا يدعه أحد منهم لقول أحد من الأصحاب وكان المستفتون منهم لا يعتمدون إلا ما يبلغونهم إياه عن نبيهم فيقولون أمر بكذا وفعل كذا ونهى عن كذا ، وقد أنكر النبي ﷺ على من أفتى بغير السنة منهم كما أنكر على أبي السنابل وكذّبه وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر وأنكر على من أفتى باغتسال الجريح حتى مات[(٤)] .

---

(١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وأحمد وابن ماجه انظر « تحفة الأحوذي »: (٤٤٢/٧) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢٢٧/٢) .

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلح (١٦٧/٣) باب (٥) .

(٤) « إعلام الموقعين » : (٢٣٤/٢) .

ثم سار التابعون لهم بإحسان على منهجهم وصراطهم المستقيم لا يقلد منهم أحدًا غيره بل يبحثون عن الدليل فأين ما وجدوه تعلقوا به والتزموا أمره .

ثم بين رحمه الله أن ذلك منهج الأئمة من بعدهم وينقل بعض أقوالهم في النهي عن تقليدهم فقال :

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من اتخذ أقوالهم بغير حجة(١) .

قال أبو حنيفة : هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت ، فمن جاء برأي خيرًا منه قبلناه .

ولهذا لما اجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بمالك سأله عن مسألة الصاع وصدقة الخضروات ، ومسألة الأجناس ، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك ، فقال : رجعت إلى قولك يا أبا عبد الله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت .

ومالك كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطئ ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة .

والشافعي كان يقول : إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط(٢) .

وقال الإمام أحمد : لا تقلدني ولا تقلد مالكًا ولا الثوري ولا الأوزاعي وخذ من حيث أخذوا .

وقال أبو يوسف من الحنفية : لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٢/٢٠٠) .

(٢) « فتاوي شيخ الإسلام » : (٢٠/٢١١) .

من أين قلنا[١] .

والمقلدون مخالفون لأئمتهم في أخذهم كل ما جاءهم عنهم دون نظر، مع نهيهم عن ذلك فهم إذًا مخالفون لمنهج الصحابة والتابعين والأئمة ؛ وطريق أهل العلم : طلب أقوال العلماء وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ وأقوال خلفائه الراشدين فما وافق ذلك منهم قبلوه وما خالف ذلك منها لم يقبلوا إليه وما لم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الاجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع[٢] .

وأورد من الحجج العقلية على إبطال التقليد قول أبي عمر[٣] وهو أن يقال لمن قال بالتقليد : لم قلت به وخالفت قول السلف في ذلك فإنهم لم يقلدوا ؟ فإن قال : « قلدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله ، وسنة رسوله ﷺ لم أحصها والذي قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم مني » قيل له : أما العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله ﷺ أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه ، ولكن قد اختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض ، فما حجتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلهم عالم ؟ ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه ؟ فإن قال : « قلدته لأني أعلم أنه على

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٢/٢٠٠) .

(٢) نفس المرجع : (٢/٢٢٨) .

(٣) أبو عمر هو : يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النميري القرطبي المالكي وهو من كبار حفاظ الحديث يقال له حافظ المغرب ولد بقرطبة سنة (٤٦٣هـ) « تذكرة الحفاظ » (٣/١١٢٨) وانظر « الأعلام » للزركلي : (٨/٢٤٠) .

صواب » قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع ؟ فإن قال : « نعم » أبطل التقليد وطولب بما ادعاه من الدليل ، وإن قال : « قلدته لأنه أعلم مني » قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك ، فإنك تجد من ذلك خلقًا كثيرًا ، ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك ، فإن قال : « قلدته لأنه أعلم الناس » قيل له : فإنه إذًا أعلم من الصحابة ، وكفى بقولٍ مثل هذا قبحًا[1] .

الـرد عليهـم :

أورد المقلدون أدلة كثيرة على صحة تقليدهم للأشخاص وعدم الخروج عن قول هذا المقلد ، نورد بعض ما استدلوا به ورد ابن القيم عليهم ودحض حججهم التي استدلوا بها[2] .

قال المقلد : نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول الله تعالى : ﴿ **فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** ﴾ [3] فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه[4] فالمقلدون يرون أن الآية أمرت بسؤال أهل الذكر وأهل الذكر هم العلماء وسؤالهم تقليدهم فيرد ابن القيم بقوله :

الذكر هو القرآن والحديث الذي أمر الله نساء نبيه أن يذكرنه بقوله : ﴿ **واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾[5] فهذا هو الذكر الذي أمرنا الله باتباعه وأمر من لا علم عنده أن يسأل أهله وهذا هو

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٢/ ١٩٩) .

(٢) نفس المرجع من ص : (٢٠١ إلى ٢٧٩) .

(٣) الآية من سورة النحل : (٤٣) .

(٤) « إعلام الموقعين » : (٢/ ٢٠١) .

(٥) الآية من سورة الأحزاب : (٣٤) .

الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر الذي أنزله على رسوله ليخبره به لم يسعه غير اتباعه وهذا كان شأن أئمة العلم لم يكن لهم مقلد معين يتبعونه فيما قال فكان عبد الله بن عباس يسأل الصحابة عما قال رسول الله ﷺ أو فعله أو سنته ، لا يسألهم من غير ذلك ، وكذلك الصحابة كانوا يسألون أمهات المؤمنين ـ خصوصًا عائشة ـ عن فعل رسول الله في بيته وكذلك التابعون كانوا يسألون الصحابة عن فعل نبيهم فقط وكذلك أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد : يا أبا عبد الله ، أنت أعلم بالحديث مني فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميًا كان أو كوفيًا أو بصريًا ولم يكن أحد من أهل العلم يقلد رجلاً بعينه ويخالف ما سواه[1] .

قال المقلدون : وهذا عالم الأرض عمر قلد أبا بكر ، فروى شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة : أقضي فيها ، فإن يكن صوابًا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء وهو ما دون الولد والوالد ، فقال عمر بن الخطاب : إني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر ، وصح عنه أنه قال له : رأينا لرأيك تبع ، وهذا تقليد منه له[2] .

فأجاب عنه ابن القيم من خمسة وجوه نذكرها مختصرة من قوله رحمه الله :

أولاً : استحيا عمر من مخالفة أبي بكر في اعترافه بجواز الخطأ عليه ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقرّ عند موته أنه لم

---

(١) « إعلام الموقعين » (٢/ ٢٣٤) .

(٢) نفس المرجع : (٢/٢٠٢) .

يقضي في الكلالة بشيء وقد اعترف أنه لم يفهمها .

ثانيًا : أن خلاف عمر لأبي بكر أشهر من أن يذكر كما خالفه في سبي أهل الردة فسباهم أبو بكر وخالفه عمر وبلغ خلافه إلى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا من ولدت لسيدها منهن ، وخالفه في أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر وذكر رحمه الله وجوها كثيرة في مخالفة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما .

ثالثًا : أنه لو قدر تقليد عمر لأبي بكر لم يكن في ذلك مستراح لمقلدي من هو بعد الصحابة ممن لا يدانيهم ولا يقاربهم فليكن لكم أسوة بعمر فقلدوا أبا بكر واتركوا غيره .

رابعًا : أن المقلدين لأئمتهم لم يستحيوا مما استحيا منه عمر لأنهم يخالفون أبا بكر وعمر بل قد صرح بعض غلاتهم في بعض كتبه الأصولية أنه لا يجوز تقليد أبي بكر وعمر ويجب تقليد الشافعي .

خامسًا : أن غاية هذا أن يكون عمر قد قلد أبا بكر في مسألة واحدة فهل في ذلك دليل على جواز اتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع ولا يلتفت إلى قول من سواه ؟ .

أما عن قولهم أن عمر قال لأبي بكر : (رأينا لرأيك تبع) : فالظاهر أن المحتج بهذا سمع الناس يقولون : كلمة تكفي العاقل ، فاقتصر من الحديث على هذه الكلمة ، واكتفى بها ، والحديث من أعظم الأشياء إبطالاً لقوله ، ففي « صحيح البخاري » عن طارق بن شهاب قال : جاء وفد بزاخة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح ، فخيرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزية فقالوا : هذه المجلية عرفناها فما المخزية ؟ قال :

ننزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم ، وتردون ما أصبتم منا ، وتدون لنا قتلانا ، وتكون قتلاكم في النار وتتركون أقوامًا يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة رسوله والمهاجرين أمرًا يعذرونكم به ، فعرض أبو بكر ما قاله على القوم ، فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأيًا سنشير عليك ، أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية ، فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منّا فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار ، فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله أجورها على الله ليس لها ديات ، فتتابع القوم على ما قال عمر»[1] فهذا هو الحديث الذي بعض الفاظه « قد رأيت رأيًا ورأينا لرأيك تبع » فأي مستراح لفرقة التقليد في هذا ؟[2] .

أما عن قولكم : (كان الصحابة يفتون ورسول الله ﷺ بين أظهرهم وهذا تقليد من المستفتين لهم) .

جوابه : أن فتواهم إنما كانت تبليغًا عن الله ورسوله وكانوا بمنزلة المخبرين فقط فهم لم يكونوا يقلدون في فتواهم ولا يفتون بغير النصوص ولم يكن المستفتون لهم يعتمدون إلا ما يبلغونهم إياه عن نبيهم فيقولون أمر بكذا وفعل كذا ونهى عن كذا وقد أنكر النبي ﷺ من أفتى بغير السنة

---

(١) البخاري كتاب « الأحكام » (١٢٧/٨) باب (٥١) روى طرفًا منه ، ورواه أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي في « الاكتفا في مغازي المصطفى » أربع مخطوطات مجتمعه تحقيق د . أحمد غنيم ، الطبعة الثانية (١٤٠١) ، سماه « حروب الردة » ، (ص : ٩٠ - ٩١) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٢٣٧/٢) .

منهم كما أنكر على أبي السنابل وكذبه وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر[١] وأنكر على من أفتى باغتسال الجريح حتى مات[٢] [٣] .

وذكر رحمه الله كثيرًا من الأدلة وأقوال الصحابة والتابعين على أن الصحابة رضوان الله عليهم وتابعيهم لم يكونوا يقلدون أحدًا ولم يكن أحد يفتي برأيه بل بما جاءه من النصوص عن الله ورسوله بل ذكر رحمه الله كثيرًا من أقوال الصحابة في ذم الرأى كقول أبي بكر رضي الله عنه : أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم .

وقول عمر رضي الله عنه وهو على المنبر : يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله ﷺ مصيبًا لأن الله كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف[٤] .

ونقل كثيرًا من أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم في ذم الرأي فكيف يظن المقلد أن الصحابة يقلدون أحدًا غير رسول الله أو واحدًا لا حجة معه ؟ !

والمراد أن التقليد الذي نفاه ابن القيم رحمه الله وحرمه كما بيناه سابقًا ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

أحدها : الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء .

ثانيها : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يوخذ بقوله .

ثالثها : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد .

---

(١) رواه البخاري في كتاب « الصلح » : (١٦٧/٣) رقم الباب (٥) .

(٢) رواه أبو داود في كتاب « الطهارة » « معالم السنن » للخطابي : (١٠٤/١) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٢٥١/٢) .

(٤) « إعلام الموقعين » : (١/ ٥٤) .

والفرق بين الأول والثالث أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجة ، والثالث قلد بعد ظهور الحجة له ، وقد ذم الله تعالى هذه الأنواع الثلاثة في كتابه[١] .

*** متى يسوغ التقليد ؟**

بعد أن عرفنا رأي ابن القيم في التقليد وأدلة تحريمه وأنواع التقليد المحرم ، فقد يخطر في بال القارئ أنه يحرم التقليد مطلقًا ولكنه رحمه الله يوضح هذا الأمر بقوله :

ولا ندعي أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسألة من مسائل الدين دقه وجله وإنما أنكرنا ما أنكره الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين وما حدث في الإسلام بعد انقضاء القرون الفاضلة في القرن الرابع المذموم على لسان رسوله ﷺ من نصب رجل واحد وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع بل تقديمها عليه وتقديم قوله على أقوال من بعد الرسول من جميع علماء أمته والاكتفاء بتقليده عن تلقي الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابة[٢] .

فهو لا يوجب على كل أحد أن يعرف كل مسألة بدليلها بل على العبد أن يتقي الله بحسب استطاعته فيقول رحمه الله :

إن الله تعالى أوجب على العباد أن يتقوه بحسب استطاعتهم ، وأصل التقوى معرفة ما يتقى ثم العمل به فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه مما أمره الله به ونهاه عنه ثم يلتزم طاعة الله ورسوله ،

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٢/ ١٨٧) .

(٢) نفس المرجع : (٢/٢٦٣) .

وما خفي عليه فهو فيه أسوة بأمثاله ممن عدا الرسول ﷺ فكل أحد سواه قد خفي عليه بعض ما جاء به ولم يخرجه ذلك عن كونه من أهل العلم، ولم يكلفه الله ما لا يطيق من معرفة الحق واتباعه قال أبو عمر[١] : فإذا أوجب الله سبحانه على كل أحد ما استطاع وبلغته قواه من معرفة الحق وعذره فيما خفي عليه منه فأخطأ أو قلد فيه غيره كان ذلك هو مقتضى حكمته وعدله ورحمته[٢] .

فالواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام ولا يجب عليه أن يعرف ما لا تدعوه الحاجة إلى معرفته[٣] .

وهذه الأحكام ـ التي يجب على العباد معرفتها والعلم بها فرض عين على كل عبد ـ هي أنواع :

والنوع الأول منها : علم أصول الإيمان الخمسة ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والزكاة والحج وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهية وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به**

---

(١) سبق تعريفه في (ص: ٤٦١) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢/٢٦٥) .

(٣) نفس المرجع : (٢/٢٥٧) .

سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾[١] .

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصًا وعمومًا والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهل بيته وجيرانه ، وليس الواجب على التاجر من تعلم أحكام البيعات ، كالواجب على من لا يبيع ويشتري[٢] .

هذه الأنواع التي ذكرها ابن القيم رحمه الله يرى أن معرفتها فرض عين أما ما سوى ذلك من الأحكام فعليه إن بذل جهده في اتباع ما أنزل الله وخفي عليه بعض فقلد فيه مَن هو أعلم منه فهذا تقليد محمود ومأجور غير مأزور[٣] .

يقول شيخ الإسلام رحمه الله : « ومتى أمكن في الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنة كان هو الواجب وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز طالب أو تكافؤ الأدلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضي علمه ودينه »[٤] .

وقال : وتقليد العاجز عن الاستدلال للعالم يجوز عند الجمهور بشرط أن لا يعارض قول الله ورسوله كائنًا من كان المخالف[٥] .

ومن هذه النقول يتضح لنا رأي ابن القيم رحمه الله في منع التقليد

---

(١) الآية من سورة الاعراف : (٣٣) .

(٢) انظر « مفتاح دار السعادة » : (١٩٨) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٢/١٨٨) .

(٤) « فتاوي شيخ الإسلام » : (٢٨/٣٨٨) .

(٥) نفس المرجع : (١٩ / ٢٦١) .

الأعمى الذي يخالف ما جاء به الرسول مع إمكان معرفته للحق وعناده وتمسكه بالباطل .

*** أما متى يجب التقليد ؟**

فلنعرف أولاً أنه نقل عن غير واحد الإجماع على أنه لا يجوز للعالم أن يقلد غيره إذا كان قد اجتهد واستدل وتبين له الحق الذي جاء به الرسول فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع[١] .

أما إذا بحث العالم عن النص في المسألة فإن لم يظفر بنص عن الله ورسوله ولم يجد فيها سوى قول مَن هو أعلم منه وجب تقليده ، وهذا فعل أهل العلم فالتقليد إنما يباح للمضطر وهذا مثل ما صرح به الشافعي في قوله : « قلته تقليدًا لعمر وقلته تقليدًا لعثمان وقلته تقليدًا لعطاء » مع كونه من الأئمة المجتهدين [٢] .

كما أنه يجب أن نبين أنه على الداعية المبتدئ أو المتعلم أن التقليد أمر لا مفر منه في الفقه لأنه لا يتسنى ارتقاء سلمه إلا بالابتداء بدرجة التقليد إذ لا يتصور عمليًا أن يستطيع المتعلم القفز بدون مقدمات إلى مستوى الاجتهاد فيتلقى الفقه من المصادر وإن كان هذا حلم جميل يراود أذهان المبتدئين من الدعاة والمتعلمين .

والبداية الصحيحة : هي أن يختار المتعلم إحدى المدارس الأربعة التي اصطلح على تسميتها (بالمذاهب الأربعة) لأنها أوسع واشمل وأقوى بناء وتأسيسًا ولأنها خدمت بجهود مؤسسيها من الأئمة المجتهدين ثم بجهود

---

(١) « فتاوي شيخ الإسلام » : (١٩/ ٢٦١) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٢/ ٢٦٠) .

علماء المذهب المنتسبين له ثم بجهود المعارضين الذين خدموا المذهب بمناقشة آرائه وأدلته والبداية المتبعة في دراسته فقه المذهب أن يتلقى المتعلم متنًا من متونه المعتبره حيث يستوعب بواسطته رؤوس المسائل وضروريات الأحكام ويكون هذا المتن مختصرًا ويصحب عادة دراسة متن مختصر في أصول المذهب لما بينهما من ارتباط وثيق لا يخفى على المتفقهين .

ولا بد من هذا التأسيس ، قبل اقتحام المرحلة المتقدمة التي ينتقل فيها المتعلم إلى دراسة المذهب مع أدلته ثم إلى المقارنة بالمذاهب الأخرى ، وحينئذ يأتي دور دارسة كتب أحاديث الأحكام ، وتفاسير الأحكام حيث يمكن أن يستفيد من دراستها ، وخوض غمارها ولجاجها لأنه بنى لنفسه أساسًا علميًا يؤهله لفهم الاختلاف والاستنباط من الأدلة .

وهذا الأمر لا بّد منه إن أريد للشريعة الإسلامية أن تنبعث من جديد ويمكن الخلاص من ربقة التقليد [1] .

* * *

(١) انظر مقدمة الشيخ عبد العزيز القارئ بتحقيق كتاب « الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي » للشيخ محمد بن الحسن الثعالبي القاسي نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة الطبعة الأولى (١٣٩٦هـ).

أصوله التي اعتمدها في الفتوى

أولًا : مذهبه :

المشهور عن ابن القيم ومن خلال ترجمته[١] ومما يتضح من أقواله عند سياق بعض المسائل الفقهية قوله : قال أصحابنا ، أنه حنبلي المذهب كأسلافه .

وإن كان نشأ على المذهب الحنبلي فإنه يرى هو وشيخه رحمهما الله أنه أقرب المذاهب لسنة المصطفى ﷺ[٢] ومع هذه النظرة لما يتمتع به مذهب الإمام أحمد رحمه الله إلا أنه ليس لهما من اتباع المذهب إلا ما أيده الدليل وهو الفاصل عنده[٣] .

فكل مسألة وافقا فيها الإمام أحمد إنما هي موافقة للمذهب عن اجتهاد

---

(١) انظر « ذيل طبقات الحنابلة » : (٤٤٧/٢) للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب البغدادي تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنة المحمدية القاهرة عام (١٣٧٢هـ) .

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وأحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصًا كما يوجد لغيره ولا يوجد له قول ضعيف في الغالب إلا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى وأكثر مفاريده التي لم تختلف فيها مذهبه يكون قوله فيها راجحًا كقوله بفسخ الإفراد والقران إلى التمتع « فتاوي شيخ الإسلام » : (٢٢٩/٢٠) .
وقال ابن القيم: «إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل الذي ملأ الأرض علمًا وحديثًا وسنة على أن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة، كتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفرًا ومَنَّ الله علينا بأكثرها فلم يفتنا منها إلا القليل وجمع الخلال نصوصه في «الجامع الكبير» فبلغ نحو عشرين سفرًا أو أكثر ورويت فتاويه ومسائله وحدث بها قرنًا بعد قرن فصارت إمامًا وقدوة لأهل السنة على اختلاف طبقاتهم حتى أن المخالفين لمذهبه بالاجتهاد والمقلدين لغيره ليعظموا نصوصه وفتاويه ويعرفون لها حقها وقربها من النصوص وفتاوي الصحابة « الأعلام » (٢٨/١).

(٣) انظر في ذلك كتابه « زاد المعاد » : (٣٨٤/١) .

ومعرفة ، وكونه رحمه الله قد بين أصول الإمام أحمد وحرر فروعه فلا يعني ذلك أنه مانع له من مخالفة المذهب إذا وجد الدليل مع سواه[1] وقد خالف المذهب في كثير من المسائل وعلى سبيل المثال عندما ذكر خلاف الفقهاء في شهادة القريب لقريبه قال :

فمنهم من جوز شهادة القريب لقريبه مطلقًا كالأجنبي ولم يجعل القرابة مانعة من الشهادة بحال كما يقوله محمد بن حزم وغيره من أهل الظاهر وهؤلاء يحتجون بالعمومات التي لا تفرق بين أجنبي وقريب ، وهؤلاء أسعد بالعمومات ، ومنعت طائفة شهادة الأصول للفروع والفروع للأصول خاصة، وجوزت شهادة سائر الأقارب بعضهم لبعض ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وليس مع هؤلاء نص صريح صحيح بالمنع ، وبعد أن ذكر أدلة المذهب الثاني سرد أدلة أهل القول الأول وذكر الردود على القول الثاني ثم رجح القول الأول بقوله : والصحيح أنه يقبل شهادة الابن لأبيه والأب لبنيه فيما لا تهمة فيه[2] .

فهو رحمه الله كما قال عنه الشوكاني : « متقيدًا بالأدلة الصحيحة معجبًا بالعمل بها غير معول على الرأي صادعًا بالحق لا يحابي فيه أحدًا »[3] .

وقد حذر رحمه الله المفتين من الإفتاء بالمذهب مع علمهم بأن مذهب غيرهم في تلك المسألة أرجح وأصح دليلاً فيكون خائنًا لله ورسوله والسائل

---

(١) انظر في ذلك كتابه « زاد المعاد » : (٣١٨/٢) .

(٢) انظر « أعلام الموقعين » : (١١١) إلى (١١٨) ومخالفته كذلك للإمام أحمد في فتواه بجواز السباق بدون محلل ، انظر ذلك في كتاب « الفروسية » (ص : ٢٠) .

(٣) « البدر الطالع » للشوكاني : (١٤٣/٢) ط الأولى (١٣٤٨هـ) مطبعة السعادة بمصر .

ثم يصف حاله فيما يرد عليه من المسائل التي يعتقد فيها خلاف المذهب فيقول :

وكثيرًا ما ترد المسألة نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده فنحكي المذهب الراجح ونرجحه ونقول : هذا هو الصواب وهو أولى أن يؤخذ به (١) .

وليس أدل على ذلك من محاربته رحمه الله تعالى للتقليد الأعمى والتعصب لأقول الرجال مما يرجح أنه كان حنبليًا ما قام الدليل .

أولاً : النصوص (٢)(٣):

داعيه مثل ابن القيم تحرى أقوال السلف ودافع عنهم ونصر أقوالهم لا

---

(١) « أعلام الموقعين » : (١٧٧/٤) .

(٢) انظر ما تقدم ص : (٤١٠) .

(٣) ليس هناك خلاف ظاهر بين أصول ابن القيم وأصول مذهبه فأصول أحمد كما نقلها ابن القيم خمس هي :

أولًا : النصوص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى من خالفه كائنًا من كان .

ثانيًا : ما أفتى به الصحابة إن لم يعرف له مخالف منهم .

ثالثًا : الاختيار من أقوال الصحابة إن اختلفوا ويختار ما كان أقربها إلى الكتاب والسنة فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

رابعًا : الأخذ بالحديث المرسل والضعيف إذا لم يكن في الباب ما يدفعه وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا ما في روايته متهم بل هو قسيم الصحيح ومن أقسام الحسن فإن لم يجد في الباب أثرًا يدفعه ولا قول صاحب ولا إجماع على خلاف كان العمل به عنده أولى من القياس .

خامسًا : القياس للضرورة عند فقدان الأصول السابقة ، انظر « الإعلام »: (٣١/١) .

كما يلاحظ أن هناك بعض الأصول التي اعتمدها الإمام أحمد كما اعتمدها شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم كما سنرى ذلك إن شاء الله لم يعدها ابن القيم في أصول أحمد وهي الاجماع والمصالح المرسلة ، والاستصحاب وسد الذرائع . وتعليل هذا بأن نقول أن هذه الأصول معتمده على الأصول السابقة لا تفتقر عنها فلا اجماع بغير نص وكما أن بقية الأصول هي من باب الرأى المعتمد على=

يكون لمثله أصل مقدم على النصوص - الكتاب والسنة - فهي الأصل الأصيل لفتاويه وما يستنبطه من أحكام ولا يمكن أن يحيد عنها أو يتجاوزها إلى ما سواها إذا ما صح النص عنده كما أن الكتاب مقدم على السنة كما قال رحمه الله :

فكانت فتاويه ﷺ جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب وهي في وجوب اتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً وقد أمر الله بالرد إليها[1] حيث قال : ﴿ **فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً** ﴾[2] .

فحق على من كان في سعادة نفسه ساعيًا وكان قلبه حيًّا عن الله واعيًا أن يجعل هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يعيرهما أخيته التي إليها مفزعه في حياته[3].

وقد ساق الأدلة المتنوعة على تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص وأن

= القياس على الأصول السابقة ، قال الشاطبي : الأدلة الشرعية ضربان : أحدها ما يرجع إلى النقل المحض وهو الكتاب والسنة وألحق به الإجماع ومذهب الصحابي وشرع من قبلنا .
والثاني : الرأي المحض وهو القياس والاستدلال وألحق بهما الاستحسان والمصالح المرسلة إن قلنا إنها راجعة إلى أمر نظري ، ثم قال : وهذه التسمية بالنسبة إلى أصول الأدلة وإلا فكل واحد من الضربين مفتقر إلى الآخر لأن الاستدلال بالمقولات لا بد فيه من النظر كما أن الرأي لا يعتبر شرعًا إلا إذا استند إلى النقل - « الموافقات في أصول الأحكام » بتصرف (٢١/٣) للحافظ ابن إسحاق بن موسى اللخمي الشهير بالشاطبي دار الفكر للطباعة والنشر .
ووجه ابن القيم في عدم ذكر الإجماع أن الإجماع المعترف بوجوده عند الحنابلة إجماع الصحابة وقد أدرج رحمه الله المصالح المرسلة والاستصحاب وسد الذرائع في القياس باعتبار أن ذلك من الرأي .

(١) « الإعلام » : (١١/١) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٥٩) .

(٣) « مفتاح دار السعادة » (٤٧/١) .

الاجتهاد والتقليد يسقط عند ظهور النص ، فذكر الأدلة من كتاب الله ومن أقوال رسوله المصطفى وأفعاله وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام[١] على تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص وذلك لأن جميع الأحكام المتعلقة بأفعال المكلفين والحوادث النازلة بهم موجودة في النصوص الواردة عن الله تعالى ورسوله ﷺ كما يقول ابن القيم :

وقد بين الله على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله جميع ما أمر به وجميع ما أحله وجميع ما حرمه وجميع ما عفا عنه وبهذا يكون دينه كاملاً كما قال تعالى : ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي** ﴾[٢] ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص وعن وجه الدلالة وموقعها وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله[٣] .

وقد بين رحمه الله أن الأصول التي يعتمد عليها المسلم في جميع أموره أصلان لا ثالث لهما : كلام الله وكلام رسوله وما عداهما فمردود إليهما[٤] .

يعني ذلك أن الأصول الأخرى التي اعتمدها العلماء مثل القياس والاستصحاب والمصالح المرسلة وغيرها فإنها جميعًا راجعة إلى الأصلين الأولين ويوضح ذلك بقوله :

النصوص محيطة بأحكام الحوادث ولم يحلنا الله ورسوله على رأي ولا

---

(١) « الإعلام » : (٢٧٩/٢) وما بعدها .

(٢) الآية من سورة المائدة : (٣) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٣٣٢/١) .

(٤) نفس المرجع : (٣٣٠/٢) .

قياس بل قد بين الأحكام كلها والنصوص كافية وافية بها ، والقياس الصحيح حق مطابق للنصوص فهما دليلان للكتاب والميزان ، وقد تخفى دلالة النص أو لا تبلغ العالم فيعدل إلى القياس [١] وكذا الإجماع فإن الأمة لا تجمع على خطأ أبدًا فإذا أجمعت أجمعت على أمر واضح في شرع الله ووحيه من كتاب وسنه .

وإذا كانت النصوص قسمين كتاب وسنة ، فهل هما في منزلة واحدة أم أحدهما مقدم على الآخر ؟ وهل بينهما علاقة تربط بينهما ؟ وهل يمكن أن تتعارض فيما بينها ؟ وإذ حصل ذلك فما العمل ؟ نريد أن نعرف موقف ابن القيم إزاء هذه الأمور ؟

فهو يرى كما يرى علماء السنة أن القرآن الكريم مقدم على السنة وأنه الأصل الأول الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن أولى ما يفسر هذا القرآن بعضه ببعض أولى التفاسير ما وجد إليه السبيل[٢] والعلاقة التي تربط بينهما أنهما من عند الله وإذا كانا من عند الله فإنه لا يمكن أن يحصل التعارض بينهما بحال من الأحوال فالسنة لا تعارض القرآن كما أنهما على أعلى درجة من الوضوح والبيان وهما متطابقان يعضد بعضهما بعضًا كما يقول :

فهذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبة في البيان وهذه سنة رسوله ﷺ مطابقة له أعظم من مطابقة البيان للسان[٣] .

ويقول : والذي يجب على كل مسلم اعتقاده أنه ليس في سنة رسول

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٣٣٧/١) .

(٢) « مختصر الصواعق » : (١٨٧/٢) .

(٣) « مختصر الصواعق المرسلة » : (١/ ١٨٣) .

الله ﷺ الصحيحة سنة واحدة تخالف كتاب الله بل السنة مع كتاب الله على ثلاث منازل :

المنزلة الأولى : سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب المنزل .

المنزلة الثانية : سنة تفسر الكتاب وتبين مراد الله منه وتقيد مطلقه .

المنزلة الثالثة : سنة متضمنة لحكم سكت عنه الكتاب فبينته بيانًا مبتدأً[1] .

ولا تخرج عن هذه الأقسام فلا تعارض القرآن بوجه ما فما كان منها زائدًا على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته وليس هذا تقديمًا لها على كتاب الله بل امتثالاً لما أمر الله به من طاعة الرسول ولو كان الرسول لا يطاع في هذا القسم لم تكن له طاعة خاصة به[2] .

ثم يوضح الأسباب التي تجعل مخالفة السنة للكتاب من باب المحال وأن من قال بتعارضهما فإن ذلك يردّ سنن رسول الله ويبطلها بل إن ذلك يؤدي بالإنسان إلى الانحراف عن منهج الإسلام الذي بناه رسول الله ﷺ كما حصل من بعض الفرق فيقول :

كيف ورسول الله هو المبين لكتاب الله وعليه أنزل ، وبه هداه الله ، وهو مأمور باتباعه ، وهو أعلم الخلق بتأويل مراده ، ولو ساغ رد سنن رسول الله ﷺ لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب ، لردت بتلك أكثر السنن وبطلت بالكلية .

فما من أحد يحتج عليه بسنة صحيحة تخالف مذهبه ونحلته إلا

---

(١) « الطرق الحكمية » لابن القيم : (١٠١) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٣٠٧/٢) .

ويمكنه أن يتشبث بعموم آية أو إطلاقها ويقول : هذه السنة مخالفة لهذا العموم والإطلاق فلا تقبل .

حتى أن الرافضة - قبحهم الله - سلكوا هذه المسلك بعينه فردوا السنن الثابتة المتواترة ، فردوا قوله ﷺ : « **لا نورث ما تركناه صدقة** »[1] وقالوا : هذا حديث يخالف كتاب الله ، قال تعالى : ﴿ **يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾[2] .

وردت الجهمية ما شاء الله من الأحاديث الصحيحة في إثبات الصفات بظاهر قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[3] .

وردت الخوارج من الأحاديث الدالة على الشفاعة وخروج أهل الكبائر من الموحدين من النار بما فهموه من ظاهر القرآن[4] .

وهكذا في كل من حاول الأخذ بظاهر القرآن ورد سنن رسول الله فإن مصيره الانحراف عن منهج الإسلام ، كما أن القرآن لا يعارض السنة فكذلك السنة الصحيحة لا تعارض بعضها البعض فإذا وجد ذلك كان ذلك أحد ثلاث وجوه :

أولها : يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ وقد غلط فيه بعض الرواة مع كونه ثقة .

ثانيهما : أن يكون أحد الحديثين ناسخًا للآخر إذا كان مما يقبل النسخ .

---

(١) رواه البخاري في باب فرض الخمس (١ جـ ٤٢/٤) .

(٢) سورة النساء : (١١) .

(٣) سورة الشورى : (١١) .

(٤) « الطرق الحكمية » (١٠١) .

ثالثهما : لا تعارض في الحقيقة وإنما التعارض في فهم السامع لا في نفس كلامه ﷺ .

ثم يقول : فلابدّ من وجه من هذه الوجوه الثلاثة وأما حديثان صحيحان صريحان متناقضان من كل وجه ليس أحدهما ناسخًا للآخر فهذا لا يوجد أصلاً ومعاذ الله أن يوجد في كلام الصادق المصدوق الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحق ، والآفة من التقصير في معرفة المنقول والتمييز بين صحيحه ومعلوله أو من القصور في فهم مراده ﷺ وحمل كلامه على غير ما عناه به أو منهما معًا ومن هاهنا وقع الاختلاف والفساد ، وقد رد رحمه الله على من قال بتضارب الأحاديث في موضوع العدوى وبين أن الأحاديث ليس فيها تضارب وأن لكل منها معنىً ووقتًا وموضعًا فإذا وضع موضعه زال الاختلاف [(١)] .

ومما تقدم يتضح أن ابن القيم لا يقدم على القرآن شيئًا كما أن تفسير القرآن بالقرآن أولى من غيره إن أمكن ذلك كما أن السنة الصحيحة موافقة للقرآن معاضدة له ولا يمكن أن تعارضه بوجه من الوجوه وأن من رد السنة بظاهر القرآن فقد خالف أمر الله تعالى ، كما أن السنة تأتي بحكم زائد عن القرآن الكريم وهو تشريع من النبي ﷺ تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته وكما أن السنة لا تعارض القرآن فإن السنن لا تعارض بعضها البعض ، وهذه الصفة في النصوص مما يدل على نبوة النبي ﷺ وصحة رسالته .

ثانيًا : فتاوي الصحابة :

إذا لم يجد النص عن الله ورسوله انتقل رحمه الله إلى فتاوي الصحابة

---

(١) « زاد المعاد » : (١٤٩/٤) .

رضوان الله عليهم ، ولا شك أنها أصل من أصول التشريع الإسلامي أخذ بها سلف هذه الأمة لأن الصحابة سادات المفتين والعلماء وهم الذين قاموا بالفتوى بعد رسول الله ﷺ فهم كما يقول ابن القيم :

برك[١] الإسلام وعصابة الإيمان وجند الرحمن ألين الأمة قلوبًا ، وأعمقها علمًا ، وأقلها تكلفًا ، وأحسنها بيانًا ، وأصدقها إيمانًا ، وأعمقها نصيحة ، وأقربها إلى الله وسيلة [٢] .

وفتوى الصحابي عنده حجة وأصل من أصول فتاويه التي لا يخرج عنها إذا وجدها وصحة الرواية ولم تكن مخالفة لنص صريح وقد قال رحمه الله في معرض الرد على الغلاة ممن منع تقليد الخليفتين أبي بكر وعمر وأوجب تقليد متبوعه :

ونحن نشهد الله علينا شهادة نسأل عنها يوم نلقاه أنه إذا صح عن الخليفتين الراشدين اللذين أمرنا رسول الله ﷺ باتباعهما والاقتداء بهما قول ، وأطبق أهل الأرض على خلافه لم نلتفت إلى أحد منهم[٣] .

هذا فيما يتعلق بالخليفتين الراشدين أما عن مجمل الصحابة فقد ساق الأدلة في كتابه « أعلام الموقعين » وقال :

الأدلة على أن اتباع الصحابة واجب .

فاستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾[٤] ووجه الدلالة

---

(١) صدر كل شيء .

(٢) « إعلام الموقعين » : (١/١١) .

(٣) نفس المرجع : (٢/٢٣٦) .

(٤) الآية من سورة التوبة : (١٠٠) .

أن الله أثنى على من اتبعهم فإذا قالوا قولًا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم فيجب أن يكون محمودًا على ذلك.

وقوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾[1]، وقوله : ﴿ حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفًا ﴾[2] .

وهذه شهادة من الله لهم بأنهم أوتوا العلم .

وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[3] قال غير واحد من السلف : هم أصحاب محمد ﷺ .

واستدل من سنة المصطفى على وجوب اتباع الصحابة بقوله ﷺ : « **خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** »[4] .

وما رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري قال : صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ فقلنا : لو جلسنا حتى نصلي العشاء ، فجلسنا ، فخرج علينا فقال : « **ما زلتم ههنا ؟** » فقلنا : يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا : نصلي معك العشاء ، قال : « **أحسنتم وأصبتم** » ورفع رأسه إلى السماء وكان كثيرًا ما يرفع رأسه إلى السماء فقال : « **النجوم أمنة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد ، وأنا أمنة لأصحابي ، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون** »[5] ووجه الدلالة أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه[6] .

---

(١) الآية من سورة سبأ : (٦) .

(٢) الآية من سورة محمد : (١٦) .

(٣) الآية من سورة التوبة : (١١٩) .

(٤) رواه البخاري في « فضائل الصحابة » باب رقم (١جـ ١٨٩/٤) .

(٥) رواه مسلم في « فضائل الصحابة » برقم (٢٠٧ جـ ١٩٦١/٤) .

(٦) انظر « إعلام الموقعين » : (١٢٣/٤) إلى (١٥٦) وانظر كذلك (٢٦١/٢) وما بعدها .

وقد ذكر رحمه الله أكثر من خمس وأربعين وجهًا تدل على وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في طياتها الرد على من استشكل على هذه الوجوه .

*** الأدلة العقلية :**

كما أنه رحمه الله ذكر الأدلة العقلية التي تجعل من قول الصحابي حجة يجب الأخذ بها ونحن نذكرها مختصرة من قوله رحمه الله حيث قال :

لما خصهم الله به من العلم ، والفهم ، والفضل ، والفقه عن رسول الله ﷺ وشاهدوا الوحي والتلقي عن رسول الله ﷺ بلا واسطه ، ونزل الوحي بلغتهم وهي غضة محضة لم تُشبْ ، ومراجعتهم رسول الله ﷺ فيما أشكل عليهم من القرآن والسنة حتى يجليه لهم ، مّن لهم هذه المزية بعدهم ؟ [(1)] .

كما أن فتوى الصحابي التي يفتى بها لا تخرج عن ستة أوجه تجعل فتوى الصحابي حجة يجب اتباعها :

أحدها : أن يكون سمعها من النبي ﷺ .

الثاني : أن يكون سمعها ممن سمعها منه .

الثالث : أن يكون فهمها من آية من كتاب الله فهمًا خفي علينا .

الرابع : أن يكون اتفق عليها ولم ينقل إلينا إلا قول المفتي بها وحده.

الخامس : أن يكون لكمال علمه باللغة ودلالة الألفاظ على الوجه الذي انفرد به عنا أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهموها

---

(١) « أعلام الموقعين » : (٢/٢٦١) .

على طول الزمن من رؤية النبي ﷺ ومشاهدة أفعاله وأحواله وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده وشهود تنزيل الوحي ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لا نفهمه نحن وعلى هذه التقادير تكون فتواه حجة يجب اتباعها .

السادس : أن يكون فهم ما لم يرده الرسول ، وأخطأ في فهمه ، والمراد غير ما فهمه وعلى هذا التقدير لا يكون قوله حجة ومعلوم قطعًا أن احتمالًا من خمسة أغلب على الظن من وقوع احتمال واحد معين[١] .

*** ما الحكم إذا اختلف الصحابة ؟**

لا شك أن الصحابي إذا قال قولًا إما أن يوافقه الصحابة وإما أن يخالفوه فإن قال قولاً ولم يخالف الصحابي صحابيًا آخر فإما أن يشتهر قوله في الصحابة أو لا يشتهر ، فإن اشتهر فالذي عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة .

وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل أشتهر أم لا فاختلف الناس هل هو حجة أم لا ؟ فالذي عليه جمهور الأمة أنه حجة قال به جمهور الحنفية وهو مذهب مالك وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه ومنصوص الإمام أحمد والشافعي وغيرهم[٢] .

هذا إذا لم يوجد للصحابي مخالف أما إذا اختلف الصحابة فإن لابن القيم موقفًا في ذلك فإنه يقدم قول الأفضل في ذلك فإن منزلة الصحابة رضوان الله عليهم تتفاوت في الفضل والعلم فإن كانا سواء لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر بل ينظر في أقربهما إلى الكتاب والسنة والقياس

(١) « أعلام الموقعين » (١٤٨/٤) .

(٢) نفس المرجع : (١٢٠/٤) .

الصحيح وإن خالفه أعلم منه كما إذا خالف الخلفاء أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به من الشق الآخر ، فإن كان الأربعة في شق فلا شك أنه الصواب ، فإن كان أكثرهم في شق فالصواب فيه أغلب وإن كانوا اثنين واثنين فشق أبي بكر وعمر أقرب إلى الصواب فإن اختلف أبو بكر وعمر فالصواب مع أبي بكر وهذه الجملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة واطلاع على ما اختلف فيه الصحابة وعلى الراجح من أقوالهم[١] .

*** الإجماع :**

الإجماع في اللغة : العزم والاتفاق قال تعالى: ﴿ **فأجمعوا أمركم** ﴾[٢] أي اعزموا ويقال : أجمع القوم على كذا أي اتفقوا عليه[٣] .

وفي الاصطلاح : اتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع[٤] .

والإجماع من الأصول المعتبرة عند ابن القيم ويأتي في المرتبة الثالثة بعد الكتاب والسنة فعندما ذكر الأصول المعتبرة عند الأئمة ذكر الإجماع ثالثها فقال : والأصول كتاب الله وسنة رسوله وإجماع أمته والقياس الصحيح الموافق للكتاب والسنة[٥] .

« والإجماع متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١١٩/٤) .

(٢) الآية من سورة يونس : (٧١) .

(٣) (٤) انظر « الإحكام في أصول الأحكام » للآمدي (١/ ١٤٧- ١٤٨) ، وانظر « المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل » للشيخ عبد القادر بن أحمد بن مصطفى المعروف بابن بدران الدمشقي مؤسسة دار العلوم بيروت (ص١٢٨) و « روضة الناظر » لابن قدامة (١١٦) .

(٥) « إعلام الموقعين » (٣٣٠/٢) .

الحديث والكلام وغيرهم في الجملة وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة » [١] .

وابن القيم رحمه الله من جملة السلف الذين أخذوا بالإجماع على أنه أصل من أصول التشريع فكثيرًا ما نراه يذكر الإجماع كدليل يستدل على إثبات ما يميل إليه من الأحكام كما نقل قول الشافعي : « أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن يدعها لقول أحد من الناس » .

وقوله : قال أبو عمر[٢] وغيره من العلماء :

« أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم » [٣] .

كما أنه استدل رحمه الله بإجماع الفقهاء على مسائل في القياس كصيد ما عدا المكلب من الجوارح قياسًا على الكلاب من قوله تعالى : ﴿**وما علمتم من الجوارح مكلبين**﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ **والذين يرمون المحصنات**﴾[٥] فدخل في ذلك المحصنون قياسًا والعلماء مجمعون على ذلك[٦] .

وهو كذلك عندما يفند قول من خالفه في مسألة من المسائل يبين أن مخالفة لم يعتمد في قوله على دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح .

---

(١) « فتاوي شيخ الإسلام » : (٣٤١/١١) .

(٢) سبق تعريفه (ص : ٤٦١) .

(٣) انظر « الإعلام » : (٧/١) .

(٤) الآية من سورة المائدة : (٤) .

(٥) الآية من سورة النور : (٤) .

(٦) انظر « إعلام الموقعين » : (٢٠٥/١) .

كل ذلك يبرهنَ لنا على أن ابن القيم رحمه الله يأخذ بالإجماع وأنه أصل من أصوله التي يعتمد عليها في أحكامه الشرعية .

إلا أنه رحمه الله عندما عدد أصول الإمام أحمد لم يذكر الإجماع منها وقال عنه إنه : لم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف الذي يسميه كثير من الناس إجماعًا ويقدمونه على الحديث الصحيح ، وقد كذب أحمد من ادعى هذا الإجماع ، ولم يسغ تقديمه على الحديث الثابت ، وكذلك الشافعي أيضًا نص في رسالته الجديدة على أن ما لا يعلم فيه بخلاف لا يقال له إجماع، ولفظه : « ما لا يعلم في خلاف فليس إجماعًا » .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول : ما يدعي فيه الرجل الإجماع فهو كذب ، من ادعى الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس اختلفوا ، ما يدريه ، ولم ينته إليه ؟ فليقل : لا نعلم الناس اختلفوا[1] .

فهل هذا دليل على أن الإمام أحمد لا يحتج بالإجماع ولا يعتدّ به وهل خالفه ابن القيم في هذا الأصل ؟

والحق أن الإمام أحمد لم ينكر الإجماع بل كان يسميه عدم العلم بالمخالف ولا يسميه إجماعًا لأنه يرى أن معرفة الإجماع متعذرة بعد عصر الصحابة وتفرقهم في البلاد وكثرتهم مما يجعل وقوفنا على معرفة قول كل فرد من العلماء متعذرًا ولا يمكن الجزم به ، بعد عصر الصحابة .

أما الصحابة رضوان الله عليهم فيمكن معرفة ذلك منهم وذلك كأن يقول الصحابي قولاً ويشتهر بين الصحابة ولا يعرف لقوله مخالف فيكون

(١) « إعلام الموقعين » : (١/٣٠) .

ذلك منهم إجماعًا[١] ولكن أحمد رحمه الله لا يسمي ذلك إجماعًا تورعًا منه بل يقول : لا أعرف شيئًا يدفعه كما قال في رواية أبي طالب : لا أعلم شيئًا يدفع قول ابن عباس وابن عمر وأحد عشر من التابعين عطاء ومجاهد وأهل المدينة على تسري العبد[٢] .

فالإمام أحمد استبعد الإجماع المتوهم وهو عدم العلم بالمخالف لا ما يظنه بعض الناس أنه استبعاد لوجوده .

كما أن ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام يوافقان الإمام أحمد على رأيه في استبعاد معرفته فقال :

فإنّ علمَ المجتهد بما دل عليه القرآن والسنة أسهل عليه بكثير من علمه باتفاق الناس في شرق الأرض وغربها على حكم ، وهذا إن لم يكن متعذرًا فهو أصعب شيء وأشقه إلا فيما هو من لوازم الإسلام [٣] .

وقال شيخ الإسلام : « لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة وأما بعد ذلك متعذر العلم به غالبًا ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى

---

(١) ذكر ابن القيم رحمه الله مثالاً على إجماع الصحابة في كتابه « الصلاة » وعنون الفصل بقوله : « دلالة الإجماع على كفر تارك الصلاة » وذكر إجماع الصحابة على ذلك مبينًا أن عمر رضي الله عنه عندما طعن وسأل عن أمر الصلاة وهل صلى الناس قال : « لا إسلام لمن ترك الصلاة » وقال : هذا بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحد انظر « كتاب الصلاة » لابن القيم ، (ص : ٥٠) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (١/٣٠) .

(٣) نفس المرجع : (٢/٣٣٤) .

خالفهم بعضهم والإجماع السكوتي وغير ذلك[١] .

ويتضح مما تقدم أن الإجماع الحق هو اتفاق الصحابة على حكم معين لعدم تفرقهم في البلاد وما عدا ذلك من الإجماع فهو متعذر المعرفة لا مستبعد الوجود .

ولعل هذه الأسباب هي التي حدت بابن القيم أن لا يذكر الإجماع من أصول الإمام أحمد بن حنبل .

ويتضح مما تقدم أن الإجماع نوعان : قطعي وهو الواقع من الصحابة بلا مخالف منهم وأن لا يكون على خلاف نص ، وأما الظني فهو الإجماع الإقراري أو الاستقرائي وذلك بأن يستقرئ أقوال العلماء فلا يجد في ذلك خلافًا أو يشتهر القول ولا يعلم أحدًا أنكره ، فهذا الإجماع وإن جاز الاحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به لأنه حجة ظنية لأنه لا يجزم بانتفاء المخالف [٢] .

وهذا التصور صحيح فإن الإجماع اتفاق جميع العلماء في عصر من العصور فلو خالف أحدهم بطل الإجماع ، وجمع العلماء ومعرفة قولهم جميعًا في مشارق الأرض ومغاربها من الصعوبة بمكان أما الصحابة رضي الله عنهم فقد كانوا مجتمعين ثم تفرقوا فلو ثبت إجماعهم على شيء ثبت الإجماع لإمكان ذلك .

---

(١) « فتاوي شيخ الإسلام » : (٣٤١/١٠) .

(٢) نفس المرجع : (٢٦٨/١٩) بتصرف .

* **القيــاس** [1] :

لقد أولى ابن القيم القياس في كتابه الكبير « أعلام الموقعين » عناية خاصة أكمل بها بنيان القياس وبين حدوده وحمى أصوله ووضح فروعه .

مما يثير الدهشة والعجب من حسن ترتيبه وتوضيحه ومما وضعه به من بيان حسن الشريعة وكمالها وعدم تضاربها الأمر الذي يغرس في القلب حب الشريعة وزيادة الإيمان بها .

ولعل هذا المنهج من المزايا التي اختص بها منهج ابن القيم رحمه الله من جعل دراساته وتحقيقاته مجالاً واسعًا ومرتعًا خصبًا لتربية النفوس وربطها بالله عز وجل .

وبالرغم من أن الإمام ابن القيم رحمه الله قد عالج الموضوع معالجة فذة إلا أننا نلمس فيه تواضع العلماء وذلك عندما قال :

وهذه الفصول الثلاثة [2] من أهم فصول الكتاب وبها يتبين للعالم المنصف مقدار الشريعة وجلالتها وهيمنتها وسعتها وفضلها وشرفها على جميع الشرائع وأن الرسول ﷺ كما هو عامّ الرسالة إلى كل مكلف

---

(١) القياس من الأصول المختلف فيها بين العلماء ، انظر « أدلة التشريع المختلف الاحتجاج بها » (ص٢٣) وما بعدها د . عبد العزيز عبد الرحمن الربيعة ط الثانية (١٤٠١هـ) مطابع الرياض .

(٢) الفصول الثلاثة هي : الفصل الأول : في بيان شمول النصوص للأحكام والاكتفاء بها عن الرأي والقياس .

الفصل الثاني : في سقوط الرأي والقياس والاجتهاد وبطلانها مع وجود النص .

الفصل الثالث : بيان أن أحكام الشريعة كلها على وفق القياس الصحيح وليس فيما جاء به الرسول ﷺ حكم يخالف الميزان والقياس الصحيح « إعلام الموقعين » : (٣٥٠/١) .

فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه ودقيقه وجليله ، فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمة عنها وعن بيانها له .

ونحن نعلم أنا لا نوفي هذه حقها ولا نقاربه وأنها أجل من علومنا وفوق إدراكنا ولكن ننبه أدنى تنبيه ونشير أدنى إشارة [١] .

وأنا بدوري لا أوفي هذا حقه وإنما أشير إلى ما يفتح الباب للقارئ ، بمعرفة منهجه رحمه الله ورأيه في هذا الأصل من أصول الشريعة فإليك ما حاولت به أن أفتح الباب وأوضح المراد .

القياس في اللغة : التقدير ومنه قست الثوب بالذراع إذا قدرته به[٢] .

وفي الاصطلاح : « حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما » .

وقيل : « حكمك على الفرع بمثل ما حكمت به في الأصل لاشتراكهما في العلة التي إقتضت ذلك في الأصل »[٣] .

وعرف بأنه « عبارة عن الاستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل »[٤] .

ومعاني هذه الحدود متقاربة .

ويرى ابن القيم أنه من أصول الشريعة التي لا يمكن أن يستغنى عنه فقيه وأن

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٣٥٠/١) .

(٢) انظر « لسان العرب » : (١٨٦/٦) و« مختار الصحاح » : (٥٥٦) .

(٣) « روضة الناظر وجنة المناظر » للإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي (٢٤٧) .

(٤) « الإحكام في أصول الاحكام » للآمدي : (٩/٣) وقد بحث القياس بحثًا جيدًا .

الصحابة رضوان الله عليهم وسلف هذه الأمة متفقون على القول به[(١)].

ومثال القياس : أن يقاس النبيذ بالخمر في التحريم بجامع الإسكار في الكل ، فالخمر محرمة بالنص وهو قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** ﴾ [(٢)] وعلة التحريم هي الإسكار ، وقد وجدت في الفرع وهو النبيذ ، فيعطى الفرع مثل حكم الأصل وهو التحريم لاشتراكهما في علة واحده[(٣)] .

فهل الناس متفقون على أن القياس أصل من أصول الشريعة بالصورة التي يراها ابن القيم رحمه الله .

والحق أن الناس فيه ثلاثة أحزاب ، طرفان يشد كل منهما الآخر ووسط .

فلنتعرف على هذه الأحزاب المتناحرة وموقف ابن القيم منها .

* **الطرف الأول : منعوا التعبد بالقياس .**

وهو قول الشيعة والنَّظّام وجماعة من معتزلة بغداد وأهل الظاهر ، ومنشأ الخلاف بين هؤلاء والأحزاب الأخرى هو : هل الشريعة جمعت بين المختلفات وفرقت بين المجتمعات أو لا ؟ وهل يلزم من التعبد بالقياس الاختلاف المنهي عنه أو لا ؟ [(٤)] .

وهؤلاء ينفون العلل والمعاني والأوصاف المؤثرة ويجوزون ورود الشريعة

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١٣٠/١) .
(٢) الآية من سورة المائدة : (٩٠) .
(٣) « أدلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها » : (ص١٦) .
(٤) انظر نفس المرجع : (٢٤- ٢٥) .

بالتفريق بين المتساويين والجمع بين المختلفين ولا يثبت أن الله سبحانه شرع الأحكام لعلل ومصالح وربطها بأوصاف مؤثرة فيها مقتضية لها طردًا وعكسًا ، وأنه قد يوجب الشيء ويحرم نظيره من كل وجه ويحرم الشيء ويبيح نظيره من كل وجه ، وينهى عن الشيء لا لمفسدة فيه ، ويأمر به لا لمصلحه بل لمحض المشيئة المجردة عن الحكمة والمصلحة [١] .

وسوف نرى رد ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الفرقة وتفنيد قولهم بأن الله سبحانه فرق بين المتساويين وجمع بين المختلفين ، كما أثبت رحمه الله تعالى ذلك بالأدلة القاطعة وأثبت أن الله شرع الأحكام لعلل ومصالح وحكم .

كل ذلك سوف نراه في معرض ذكر أدلة المتوسطين في جواز القياس إن شاء الله تعالى .

ولقد ساق رحمه الله أدلتهم مفصلة مثل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر** ﴾[٢] .

وأجمع المسلمون على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول ﷺ هو الرد إليه في حضوره وحياته وإلى سنته في غيبته وبعد مماته والقياس ليس بهذا ولا هذا .

ولأن الله سبحانه وتعالى إنما ردنا إلى كتابه وسنة رسوله ولم يردنا إلى

---

(١) « إعلام الموقعين » بـ(١/٢٠٠) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٥٩) .

قياس عقولنا وآرائنا قط بل قال تعالى لنبيه : ﴿ **وأن احكم بينهم بما أنزل الله** ﴾[(١)] ولم يقل بما رأيت أنت وقال : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾[(٢)] .

وقال نفاة القياس : والإخبار عنه بأنه حرم ما سكت عنه أو أوجبه قياسًا على ما تكلم بتحريمه أو إيجابه تقدم بين يديه .

وقالوا : وقد حرم سبحانه أن نقول عليه ما لا نعلم ، فإذا فعلنا ذلك فقد واقعنا هذا المحرم يقينًا ، فإنا غير عالمين بأنه أراد من تحريم الربا في الذهب والفضة تحريمه في القديد من اللحوم ، وهذا قفو منا ما ليس لنا به علم ، وتعد لما حدّ لنا ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه [(٣)] .

وقد أطنب ابن القيم رحمه الله في ذكر أدلتهم من النصوص الدالة على منع القياس وذمه وأنه ليس من الدين ، وأدلتهم من تناقض أقيسة القياسيين وتضاربها والتمثيل لذلك ، وذكر ما ورد عن الصحابة والتابعين وغيرهم في ذمهم القياس ومنعهم منه[(٤)] .

ومن خلال هذا السرد لأدلة المانعين تظهر براعة ابن القيم ويتجلى مظهر من مظاهر منهجه رحمه الله المتمثل في ذكر أدلة الخصوم والاستفادة من ذلك بضرب بعضها ببعض ، وإيراد مناقشة كل طرف للآخر وإسقاط كل خصم لحجة خصمه ، إضافة إلى ما يدلي به هو من بيان ورد .

وبالتالي ينفرد برأيه الوسط الذي سلم من مناقشاتهم وإيراداتهم مما

(١) الآية من سورة المائدة : (٤٩) .

(٢) نفس السورة الآية : (٤٤) .

(٣) « إعلام الموقعين » بتصرف : (٢٢٧/١) .

(٤) انظر نفس المرجع ونفس الصحفة .

يوجب الأخذ به واعتباره المذهب الراجح حيث أخرج من بين دم وفرث لبنًا سائغًا للشاربين[١] .

فعندما ذكر أدلة نفاة القياس والتي يعتبرها جزءًا من أدلته في الرد على الطرف الآخر قال :

وقد أحسنوا في اعتنائهم بالنصوص ونصرها والمحافظة عليها وعدم تقديم غيرها عليها من رأي أو قياس أو تقليد .

وهذا التحسين من ابن القيم له نتيجتان :

الأولى : إعطاء كل ذي حق حقه والإنصاف والاعتراف بالحق وإن كان مِن خصمه وإن لم يكن ذلك مقصودًا منهم .

الثانية : معرفة منهج ابن القيم وموقفه من النصوص حيث إنه وافقهم على هذا المنهج ونصره وهو عين موقفه من النصوص .

ثم قال بعد ذلك : وأحسنوا في رد الأقيسة الباطلة وبيانهم تناقض أهلها في نفس القياس وتركهم له ، وأخذهم بقياس وتركهم ما هو أولى منه[٢] .

فانظر إلى هذه الطريقة الحسنة من ابن القيم في نصر مذهبه فقد أجاز الطرف الأول على نصرهم النصوص وأجازهم في ردهم على القياسيين وبيان تناقضهم وهو عين ما يذهب إليه ابن القيم في رده على الطرف الآخر كما سنرى إن شاء الله إلا أن هذه الوجوه من الحق التي ذكرها ابن

---

(١) انظر في ذلك كتابه « شفاء العليل » عندما رد على القدرية والجبرية وكيف أنه استفاد من أدلتهم ورد عليهم بدليل آخر (ص٥١) وما بعدها .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٣٣٨/١) .

القيم للخصوم لم تمنع من وقوعهم في الخطأ من أربعة وجوه كما ذكرها رحمه الله :

أحدها : رد القياس الصحيح ، ولا سيما المنصوص على علته التي يجري النص عليها مجرى التنصيص على التعميم باللفظ ، ولا يتوقف عاقل في أن قول النبي ﷺ لمّا لُعِنَ عبد الله حمارًا على كثرة شربه الخمر : « **لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله** »[1] بمنزلة قوله : لا تلعنوا كل من يحب الله ورسوله .

الخطأ الثاني : تقصيرهم في فهم النصوص ، فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه ، وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ ، دون إيمائه وتنبيهه وإشارته وعرفه عند المخاطبين فلم يفهموا من قوله تعالى : ﴿ **ولا تقل لهما أفٍ** ﴾ ضربًا ولا سبًا ولا إهانة غير لفظ أف ، فقصروا في فهم الكتاب كما قصروا في اعتبار الميزان[2] .

الخطأ الثالث : تحميل الاستصحاب فوق ما يستحقه وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بالناقل وليس عدم العلم علمًا بالعدم .

الخطأ الرابع : اعتقادهم أن عقود المسلمين وشروطهم ومعاملاتهم كلها على البطلان حتى يقوم دليل على صحته ، فإذا لم يقم دليل على صحة شرط أو عقد أو معاملة استصحبوا بطلانه .

فأفسدوا بذلك كثيرًا من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان

---

(١) رواه البخاري : (١٤/٨) بطوله .

(٢) يقصد ابن القيم بالميزان القياس الصحيح الذي أنزله الله مع كتابه وجعله قرينه ووزيره انظر « إعلام الموقعين » (١٣٣/١) .

من الله بناء على هذا الأصل ، وجمهور الفقهاء على خلافه وأن الأصل في العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشارع أو نهى عنه وهذا القول هو الصحيح [1] .

الطرف الثاني : أوجبوا التعبد بالقياس .

وهم أصحاب الرأي .

فأولئك منعوا التعبد بالقياس فسدّوا على نفسهم باب التمثيل والتعليل واعتبار الحكم والمصالح وهو من الميزان والقسط فاحتاجوا إلى توسعة الظاهر والاستصحاب فحملوهما فوق الحاجة .

« وبإزائهم هؤلاء الذين فرطوا في القياس وتوسعوا فيه جدًّا حتى أنهم جمعوا بين الشيئين الذين فرق الله بينهما بأدنى جامع من شبه أو طرد أو وصف يتخيلونه علة يمكن أن يكون علة وأن لا يكون فيجعلونه هو السبب الذي علق عليه الله ورسوله الحكم بالخرص والظن ، وهذا هو الذي أجمع السلف على ذمه » [2] .

وهؤلاء المفرطون الذين حملوا معاني النصوص فوق ما حملها الشارع يرون أن النصوص لا تحيط بأحكام الحوادث بل إن بعضهم غلا وقال : ولا بعشر معشارها ، فمن هنا تكون الحاجة إلى القياس فوق الحاجة إلى النصوص .

وحجتهم أن النصوص متناهية وحوادث العباد غير متناهية وإحاطة المتناهي بغير المتناهي ممتنع ، ويرى ابن القيم أن هذا الاحتجاج فاسد من وجوه :

---

(١) « إعلام الموقعين » باختصار : (١/٣٣٨ - ٣٤٤) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (١/٢٠٠) .

أحدها: أن ما لا تتناهى أفراده لا يمتنع أن يجعل أنواعًا ، فيحكم لكل نوع منها بحكم واحد فتدخل الأفراد التي لا تتناهى تحت ذلك النوع.

الثاني : أن أنواع الأفعال بل والأعراض كلها متناهية .

الثالث : أنه لو قدر عدم تناهيها فإن أفعال العباد الموجودة إلى يوم القيامة متناهية .

وهذا كما تجعل الأقارب نوعين : نوعًا مباحًا وهو بنات العم والعمة وبنات الخال والخالة وما سوى ذلك محرم .

وكذلك يجعل ما ينقض الوضوء محصورًا وما سوى ذلك لا ينقض وقس على ذلك الصوم والغسل وغير ذلك .

فإذا كان أصحاب المذاهب يحصرونها بجوامع تحيط بما يحل ويحرم مع قصور بيانهم فالله ورسوله المبعوث بجوامع الكلم أقدر على ذلك فالرسول يأتي بالكلمة الجامعة وهي قاعدة عامة وقضية كليّة تجمع أنواعًا وأفرادًا وتدل دلالتين : دلالة طرد ودلالة عكس .

وهذا كما سئل عن أنواع من الأشربة كالبتع والموز ، فقال : « **كل مسكر حرام** » و « **كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد** » ، وغير ذلك من الأدلة التي ذكرها ابن القيم من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ الجامع لأفراد ما في الحياة [1] مما يدلل به على أن النصوص محيطة بأحكام جميع الحوادث وأن القياس الصحيح حق مطابق للنصوص فهما دليلان للكتاب والميزان وقد تخفى دلالة النص أو لا تبلغ العالم فيعدل إلى القياس ، ثم يظهر أن قياسه موافق للنصوص فيكون قياسًا صحيحًا أو قد يكون مخالفًا فيكون قياسًا فاسدًا [2] .

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١/ ٣٣٣) .

(٢) نفس المرجع : (١/ ٣٣٣) .

كما وأنه رحمه الله قد يبين أخطاءهم وذلك عندما لم يعتنوا بالنصوص ولم يعتقدوها وافية بالأحكام ولا شاملة لها ، فقالوا بقياس الشبه وعلقوا الأحكام بأوصاف لا يُعلم أن الشارع علقها بها واستنبطوا عللًا لا يعلم أن الشارع شرع الأحكام لأجلها .

ثم اضطرهم ذلك إلى أن عارضوا بين كثير من النصوص والقياس ، ثم اضطربوا فتارة يقدمون القياس ، وتارة يقدمون النص وهكذا حتى اضطرهم ذلك إلى اعتقاد أن كثيرًا من الأحكام شرعت على خلاف القياس ، فكان خطؤهم من خمسة أوجه :

أحدها : ظنهم قصور النصوص عن بيان جميع الحوادث .

الثاني : معارضة كثير من النصوص بالرأي والقياس .

الثالث : اعتقادهم في كثير من أحكام الشريعة أنها على خلاف الميزان والقياس .

الرابع : اعتبارهم عللًا وأوصافًا لم يعلم اعتبار الشارع لها .

الخامس : تناقضهم في نفس القياس[١] .

ومن خلال هذه الأخطاء والاعتقادات الفاسدة من أهل الرأي خصص ابن القيم رحمه الله جزءًا كبيرًا من كتابه « إعلام الموقعين » رد فيه على مزاعم هذه الطائفة وبين شمول النصوص وإغناءها عن القياس الفاسد والاكتفاء بها عن الرأي كما بين سقوط الرأي والاجتهاد والقياس وبطلانها مع وجود النص كما أتم القصد ببيان أن أحكام الشرع كلها على وفق القياس الصحيح[٢] .

---

(١) « إعلام الموقعين » بتصرف : (١/ ٣٤٩) وما بعدها .

(٢) نفس المرجع : (١/ ٣٥٠) .

* **المتوسطون : وهم القائلون بجواز القياس .**

وهو قول سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين وقول أئمة الفقه الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلمين وهو اختيار الغزالي والآمدي[١] كما هو اختيار ابن القيم رحمهم الله جميعًا .

والسبب في إجازة هؤلاء القياس والتوسط بين الطرفين هو أنهم لما نظروا إلى القياس ورأوه ينقسم إلى قسمين ممدوح ومذموم فإن وقفوا مع المانعين فقد عارضوا الأدلة التي وردت في القياس وفعل الصحابة وسلف هذه الأمة .

وإن وقفوا مع الموجبين وقعوا فيما نهى عنه الله ورسوله من ذم الرأي والأخذ به مطلقًا فحاولوا الجمع بين الأدلة والوقوف في وسط الفريقين ليسلموا من النقد والاعتراض .

يقول ابن القيم : إن القياس ينقسم إلى قسمين حق وباطل وممدوح ومذموم ولهذا لم يجيء في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهي عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وباطل ولذلك فإن الله سبحانه لما أراد ذكر القياس الصحيح الموافق للعدل سماه الميزان كما قال : ﴿ **والسماء رفعها ووضع الميزان** ﴾[٢] فالأولى تسمية القياس الصحيح بالاسم الذي سماه الله به فإنه يدل على العدل وهو الميزان الذي أنزله مع كتابه والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضي بالمعاوضة المالية وهذا هو القياس الذي ذمه السلف[٣] .

---

(١) « أدلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها » : (٢٤) .

(٢) سورة الرحمن الآية : (٧) .

(٣) « إعلام الموقعين » بتصرف : (١٣٣/١) .

* **أدلتهم على الجواز :**

قبل أن نبدأ بعرض أدلة المجيزين للقياس يجدر بنا أن نبين أن هذه الأدلة التي سوف نسوقها على جواز القياس هي في حد ذاتها رد وتفنيد لما زعمه القائلون بمنع القياس وتجويزهم ورود الشريعة بالتفريق بين المتساويين والجمع بين المختلفين وتعريتهم لها عن الحكم والمصالح .

فقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله وذكر الأدلة الدالة على جواز القياس من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة وأقوالهم وأقوال السلف رحمهم الله وإليك اختيارات مما ذكره رحمه الله من الأدلة :

أولاً : أدلتهم من الكتاب :

القرآن الكريم مليء بالآيات التي أرشد الله سبحانه وتعالى بها عباده إلى معرفته وإلى ما يريد إقناعهم به وبحصوله فيما غاب عنهم مما لا يستطيعون الإطلاع عليه وذلك بضرب من القياس لتقريبه إلى أذهانهم وتقريب المعقول من المحسوس .

فقد قاس سبحانه النشأة الثانية على النشأة الأولى في الإمكان وجعل النشأة الأولى أصلاً والثانية فرعًا عليها ، كما قاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الأرض بعد موتها بالنبات ، وقاس الخلق الجديد الذي أنكره أعداؤه على خلق السموات والأرض وجعله من قياس الأولى كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأولى .

وضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة كلها أقيسة عقلية ينبه عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به ، قال تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم**

يتفكرون ﴾[١][٢] .

فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والتفريق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما .

ومدار الإستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين[٣].

*** التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين في القرآن الكريم :**

لما كان مدار الاستدلال عند القائلين بجواز القياس على التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين بقي أن ندلل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من أوامر عامة وأحكام شرعية .

فالتسوية بين المتماثلين كإستدلال القرآن الكريم بالمعين على العام ، إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلاً على الأمر العام المشترك بين الأفراد ومن هذا أدلة القرآن بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أوامره على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم واتصف بصفتهم وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الإستدلال وتعدية هذا الخصوص إلى العموم كما قال تعالى – عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبة لرسلهم وما حلّ بهم – : **﴿ أكفاركم خير من أولئِكم لكم برآءة في الزبر ﴾**[٤] فهذا محض تعد الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة ،

---

(١) الآية من سورة الحشر : (٢١) .

(٢) راجع ضرب الامثال وما يراد منها في القرآن الكريم لابن القيم في « إعلام الموقعين » : (١/ ١٥٠) وكتابه « أمثال القرآن » .

(٣) انظر « إعلام الموقعين » : (١/ ١٣١) .

(٤) الآية من سورة القمر : (٤٣) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها** ﴾[١] فأخبر أن حكم الشيء حكم مثله .

وكل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض سواء كان سيرًا على الأقدام أو معنويًا بالتفكير والإعتبار ـ وغالبًا ما يعم اللفظ الجميع على الصواب ـ فإنه يدل على الإعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالإعتبار بما حل بالمكذبين ولولا أن حكم النظير نظيره ـ حتى تعبر العقول منه إليه ـ لما حصل الإعتبار .

كما أنه سبحانه قد نفى عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال تعالى : ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾[٢] .

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه .

وقال تعالى : ﴿ **أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم سآء ما يحكمون** ﴾[٣] .

إلى غير ذلك من الآيات التي ذكر الله فيها العقول ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره وعدم التسوية بين الشيء ومخالفه في الحكم[٤] .

---

(١) الآية من سورة محمد : (١٠) .
(٢) الآية من سورة القلم : (٣٥ - ٣٦) .
(٣) الآية من سورة الجاثية : (٢١) .
(٤) انظر « إعلام الموقعين » : (١/ ١٣١ - ١٣٣) .

* التساوي بين المتماثلين في الأحكام الشرعية :

كما أن أحكامه سبحانه وتعالى الأمرية الشرعية كلها هكذا ، تجدها مشتملة على التسوية بين المتماثلين وإلحاق النظير بنظيره ، واعتبار الشيء بمثله، والتفريق بين المختلفين وعدم تسوية أحدهما بالآخر ، وشريعته سبحانه منزهة أن تنهى عن شيء لمفسدة فيه ثم تبيح ما هو مشتمل على تلك المفسدة أو مثلها أو أزيد منها .

فمن جوز ذلك على الشريعة فما عرفها حق معرفتها ، ولا قدرها حق قدرها ، وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح شيئًا لحاجة المكلف إليه ومصلحته ثم تحرم ما هو أحوج إليه والمصلحة في إباحته أظهر .

ولذلك كان من المستحيل أن يشرع الله ورسوله من الحيل ما يسقط به ما أوجبه أو يبيح به ما حرمه ، ولعن فاعله وآذنه بحربه وحرب رسوله وشدد في الوعيد .

ولذلك كان الجزاء من جنس العمل مماثلاً له في الخير والشر ، فمن ستر مسلمًا ستره الله ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن أقال نادمًا أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن ضارّ مسلمًا ضارّ الله به ، والراحمون يرحمهم الله فهذا وغيره شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل[1] .

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١/ ١٩٦) .

* **القرآن يعلل الأحكام :**

كما أن الشارع يذكر العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت ، واقتضائها لأحكامها ، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها ويوجب تخلف أثرها عنها ، كقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله** ﴾(١) .

وقوله تعالى : ﴿ **ذلكم بأنه إذا دعيَ الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا** ﴾(٢) وقوله : ﴿ **ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوًا** ﴾(٣) وقوله : ﴿**وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم** ﴾(٤) .

وقد جاء التعليل في الكتاب العزيز بالباء تارة ، وباللام تارة أو بأن تارة وبمجموعها تارة وبكي تارة ومن أجل تارة ، وترتيب الجزاء على الشرط تارة وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة وترتيب الحكم على الوصف المقتضي له تارة ، وبلما تارة ، وبأن المشددة تارة ، وبلعل ، وبالمفعول له ، فالأول كما تقدم واللام كقوله: ﴿ **ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض**﴾(٥) وأن كقوله : ﴿ **أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا**﴾(٦) .

وقد ذكر رحمه الله تعالى أمثلة لجميع ما ذكره من التعليل وحروفه

---

(١) الآية من سورة الأنفال : (١٣) .

(٢) الآية من سورة غافر : (١٢) .

(٣) الآية من سورة الجاثية : (٣٥) .

(٤) الآية من سورة فصلت : (٢٣) .

(٥) الآية من سورة المائدة : (٩٧) .

(٦) الآية من سورة الأنعام : (١٥٦) .

فمن أراد فليراجع ما كتبه[١] .

* **النبي ﷺ يعلل الأحكام :**

كما أن النبي ﷺ علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها ليدل على ارتباطها بها أو تعديها بتعدي أوصافها وعللها كقوله : « **إنما جعل الاستئذان من أجل البصر** »[٢] وقوله في الهرة : « **ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات** »[٣] .

وقد قرب النبي ﷺ الأحكام لأمته بذكر نظائرها وأسبابها وضرب لها الأمثال فقال له عمر رضي الله عنه : (صنعت اليوم يا رسول الله أمرًا عظيمًا ، قبلت وأنا صائم ، فقال له رسول الله ﷺ « **أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم** » ؟ فقلت : لا بأس بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « **فصم** »[٤] ولولا أن حكم الشيء حكم مثله وأن العلل والمعاني مؤثرة في الأحكام نفيًا وإثباتًا لم يكن لذكر هذا التشبيه معنى فذكره ليدل به أن حكم النظير حكم مثله ، وأن نسبة القبلة التي هي وسيلة إلى الوطء كنسبة وضع الماء في الفم الذي هو وسيلة إلى شربه[٥] .

---

(١) راجع « الإعلام » : (١٩٦/١) وما بعدها للفائدة .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الاستئذان » : (١٢٩/٧) رقم الباب (١١) والترمذي كتاب « الاستئذان » رقم (١٧) ومسلم في كتاب « الأدب » رقم (٤١) .

(٣) رواه أحمد في « مسنده » : (٢٩٦/٥) رقم الحديث (٢٢٥٨١) والترمذي في كتاب « الطهارة » رقم الباب (٦٩ جـ ١ ص ١٠١) .

(٤) أخرجه أحمد في « المسند » برقم : (١٣٨ جـ١ ص ٢١) .

(٥) « إعلام الموقعين » باختصار : (١٩٩/١) .

*** الأقيسة المستعملة للاستدلال في القرآن الكريم ثلاثة**

أحدها : قياس العلة .

وقد جاء في كتاب الله عز وجل في مواضع منها قوله تعالى : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** ﴾[١] فأخبر سبحانه وتعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات ، وهو مجيئها طوعًا لمشيئته وتكوينه فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب مَن يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ووجود حواء من غير أم ؟! فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعلق الإيجاد والخلق به .

ومنها قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارًا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنًا آخرين** ﴾[٢] فذكر سبحانه إهلاك مَن قبلنا مِن القرون وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم فهم الأصل ، ونحن الفرع ، والذنوب العلة الجامعة ، والحكم الهلاك[٣] .

ثانيًا : قياس الدلالة .

أما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها ومنه قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير** ﴾[٤] فدل

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (٥٩) .

(٢) الآية من سورة الأنعام : (٦) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (١٣٤/١) .

(٤) الآية من سورة فصلت : (٣٩) .

سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه ، وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته وإحياء الأرض دليل العلة [١] .

ثالثًا : قياس الشبه .

وأما قياس الشبه فلم يحكه الله إلا عن المبطلين كقوله تعالى إخبارًا عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ **ما نراك إلا بشرًا مثلنا** ﴾[٢] فاعتبروه صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها ، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبيهين حكم الآخر ، فكما لا نكون نحن رسلاً فكذلك أنتم ، فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا لا مزية لكم علينا وهذا من أبطل القياس .

فإن الواقع - من التخصيص والتفضيل وجعل بعض هذا النوع شريفًا وبعضه دنيًا وبعضه مرءوسًا وبعضه رئيسًا ، وبعضه ملكًا وبعضه سوقة - يبطل القياس كما أشار سبحانه إلى ذلك في قوله : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًا ورحمة ربك خير مما يجمعون** ﴾[٣] .

وأجابت الرسل عن هذا السؤال بقولهم : ﴿ **إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده** ﴾[٤] وأجاب عنه الله بقوله : ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾[٥] .

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١٣٨/١) .
(٢) الآية من سورة هود : (٢٧) .
(٣) الآية من سورة الزخرف : (٣٢) .
(٤) الآية من سورة إبراهيم : (١١) .
(٥) الآية من سورة الأنعام : (١٢٤) .

وبالجملة لم يأت هذا القياس في القرآن إلا مردودًا مذمومًا[١] .

* **الصحابة يجتهدون ويقيسون**

لقد كان أصحاب النبي ﷺ يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض ويعتبرون النظير بنظيره .

وقد أقر النبي ﷺ معاذًا على اجتهاده فيما لم يجد فيه نصًا عن رسول الله فعن معاذ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن قال : « **كيف تصنع إن عرض لك قضاء** » ؟ قال : أقضي بما في كتاب الله قال : « **فإن لم يكن في كتاب الله** » ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ ، قال : « **فإن لم يكن في سنة رسول الله** ﷺ » ؟ قال : أجتهد رأيي ولا آلو ، قال : فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال : « **الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسولَ الله** » [٢] .

وقد جوز النبي ﷺ للحاكم أن يجتهد رأيه وجعل على خطئه في اجتهاده الرأي أجرًا واحدًا إذا كان قصده معرفة الحق واتباعه .

وقد اجتهد الصحابة في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنفهم ، كما حصل يوم الأحزاب في أمره بالصلاة ، ولما كان علي رضي الله عنه باليمن أتاه ثلاثة نفر يختصمون في غلام ، فقال كل منهم : هو ابني ؛ فأقرع عليٌّ بينهم ، فجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية فبلغ النبيَّ ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء عليٍّ رضي الله عنه[٣][٤] .

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١/ ١٤٨) .

(٢) اخرجه الإمام أحمد في « مسنده » برقم (٢٢١٥٣ : جـ٥ ص ٢٤٢) .

(٣) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (٤/٣٧٣)، وأبو داود «كتاب الطلاق» جـ٢ حديث رقم (٢٢٦٩، ٢٢٧٠).

(٤) انظر « الإعلام » : (١/ ٢٠٢) وما بعدها .

وقد اتفق الصحابة في قياس حد الشرب على حدّ القذف فقد روي أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه شاور الناس في حد الخمر ، وقال : إن الناس قد شربوا واجترؤوا عليها ، فقال له علي رضي الله عنه : إن السكران إذا سكر هذي ، وإذا هذي افترى ، فاجعله حد الفرية فجعله عمر حد الفرية ثمانين[١] ولم ينفرد علي بهذا القياس ، بل وافقه عليه الصحابة .

كما أن الصحابة يقيسون فرض الجد مع الإخوة[٢] وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة على استعمال الصحابة للقياس وأنهم : مثلوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها ، وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها وفتحوا للعلماء باب الإجتهاد[٣] .

*** اجتماع الفقهاء على مسائل في القياس**

نقل ابن القيم رحمه الله بعضًا من إجماع الفقهاء على مسائل في القياس كدليل من الأدلة التي يتقوى بها على جواز القياس وردًا على من ينفون القياس فقال :

قال المزني[٤] : الفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا وهلم جرى استعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم قال : وأجمعوا بأن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس ، لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

---

(١) أخرجه الترمذي في أبواب الحدود باب ما جاء في حد السكران (١٣٩/٥) وأخرجه مسلم وأحمد وأبو داود .

(٢) انظر « الإعلام » : (١/ ٢١١ - ٢١٢) .

(٣) نفس المرجع : (٢١٧/١) .

(٤) سبق تعريفه : (٢٤٧) .

قال أبو عمر[١] بعد حكاية ذلك عنه : ومن القياس المجمع عليه صيد ما عدا المكلب من الجوارح قياسًا على الكلاب بقوله : ﴿ **وما علمتم من الجوارح مكلبين** ﴾[٢] قال عز وجل : ﴿ **والذين يرمون المحصنات** ﴾[٣] فدخل في ذلك المحصنون قياسًا ، وكذلك قوله في الإماء : ﴿ **فإذا أحصن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب** ﴾[٤] فدخل في ذلك العبد قياسًا عند الجمهور إلا من شذ ممن لا يكاد يعد قوله خلافًا ، وأجمعوا على توريث البنتين الثلثين قياسًا على الأختين إلى غير ذلك من اجتماع الفقهاء على القياس مما ذكره رحمه الله[٥] .

ثم قال : وبعض هذه المسائل فيها نزاع ، وبعضها لا يعرف فيها نزاع بين السلف ، وقد رام بعض نفاة القياس إدخال هذه المسائل المجمع عليها في العمومات اللفظية ، فأدخل قذف الرجال في قذف المحصنات ، وجعل المحصنات صفة للفروج لا للنساء .

وهؤلاء وإن أمكنهم ذلك في بعض المسائل كما جزموا بتحريم أجزاء الخنزير لدخوله في قوله ﴿ **فإنه رجس** ﴾ وأعادوا الضمير إلى المضاف إليه دون المضاف - فلا يمكنهم ذلك في كثير من المواضع وهم مضطرون فيها - ولا بد - إلى القياس أو القول بما لم يقل به غيرهم ممن تقدمهم ، فلا يعلم من أئمة الفتوى من يقول في قول النبي ﷺ وقد سئل عن فأرة

---

(١) سبق تعريفه : (٤٦١) .

(٢) الآية من سورة المائدة : (٤) .

(٣) الآية من سورة النور : (٤) .

(٤) الآية من سورة النساء : (٢٥) .

(٥) « الإعلام » : (١/ ٢٠٥) .

وقعت في سمن : « **ألقوها وما حولها وكلوه** » أن ذلك مختص بالسمن دون سائر الأدهان والمائعات كما يفرق بين الفأرة والهرة في ذلك [١] .

الترجيح : وأعتقد بعد هذا أنه قد اتضح الأمر لذي البصيرة وأن الحق مع المتوسطين الذين لم ينفوا القياس مطلقًا وقصروا بمعاني النصوص عن مرادها وعمومها التي هي أخية العلم .

ولم يطلقوا الأمر في القياس حتى أدخلوا ما ليس مرادًا من المعنى فيه حتى أنهم أدخلوا بعض المحرم في الحلال فانظر إلى هذا المثل الذي ضربه ابن القيم لتناقضهم في وقوع النجاسة في الماء فأصحاب القياس ينجسون الماء الكثير بوقوع قليل من النجاسة فيه مع أنه لم يتغير منه شيء ألبتة بتلك القطرة ، والذين منعوا القياس قالوا : (لو بال جرة من بول وصبها في الماء لم ينجسه ولو بال في الماء أدنى شيء نجسه) [٢].

والمتوسطون وقفوا عند معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله فلم يخرجوا شيئًا من معاني الألفاظ عنها ولم يدخلوا فيها ما ليس منها بل يعطوها حقها والمراد فيها .

* الاستصحاب

ومن أصول ابن القيم التي اعتمدها في الفتوى : الاستصحاب ، وقد عرفه رحمه الله بأنه :

استفعال من الصحبة وهي استدامة إثبات ما كان ثابتًا أو نفي ما كان منفيًا[٣] .

---

(١) « إعلام الموقعين » بتصرف : (٢٠٦/١) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٢٢٢/١) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٣٣٩/١) .

* **وهو ثلاثة أنواع :**

أولاً : استصحاب البراءة الأصلية العقلية

وذلك بأن تستصحب العدم الأصلي حتى يرد دليل ناقل عنه لأن العقل يدل على براءة الذمة حتى يقوم الدليل ، كعدم وجوب صلاة سادسة ، وعدم وجوب صيام صفر لأن الأصل براءة الذمة منه .

وهذا النوع هو الذي ينصرف إليه اسم الاستصحاب ، وقد دل القرآن على اعتبار هذا النوع في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى : ﴿ **فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف** ﴾[1] وقوله : ﴿ **وما كان الله ليضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون** ﴾[2] .

ووجه الدلالة من الآية الأولى أنه لما نزل تحريم الربا خافوا من الأموال المكتسبة من الربا قبل التحريم فبينت الآية أن ما اكتسبوا من الربا قبل التحريم على البراءة الأصلية حلال لهم ولا حرج عليهم فيه .

ووجه الدلالة من الآية الثانية أنه لما استغفر النبي ﷺ لعمه ابي طالب واستغفر المسلمون لموتاهم من المشركين وأنزل الله : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين** ﴾[3] ندموا على استغفارهم فبينت الآية أن استغفارهم لهم قبل التحريم على البراءة الأصلية لا إثم عليهم فيه[4] .

وقد بين رحمه الله أن الناس تنازعوا في بعض مسائل هذا النوع من

---

(١) الآية من سورة البقرة : (٢٧٥) .

(٢) الآية من سورة التوبة : (١١٥) .

(٣) الآية من سورة التوبة : (١١٣) .

(٤) انظر « مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر » للشيخ محمد الأمين بن المختار الشنقيطي رحمه الله بتصرف ، دار القلم بيروت : (١٥٩) .

الإستصحاب وذلك في المفقود مثلاً ؛ فالمفقود له حالتان تتناول حقوقه الأولى : وهي ما يعبر عنها بالدفع : وهو دفع من أراد أخذ ماله من الملك إرثًا ونحوه على أساس موته ، والثانية : ما يعبر عنها بالإبقاء : وهو إبقاء حقه في الإرث والوصية له وغير ذلك .

فالإمام الشافعي وأحمد والأكثر من أصحاب مالك على أنه يصلح للدفع والإبقاء وقالوا : إنه إذا غلب على الظن انتفاء الناقل غلب على الظن بقاء الأمر على ما هو عليه .

بينما قالت الحنفية أنه يصلح للدفع لا للإبقاء ، لأن بقاء الأمر على ما كان عليه إنما هو مستند إلى موجب الحكم ، لا إلى عدم المغيّر له فإذا لم نجد دليلاً نافيًا ولا مثبتًا أمسكنا ، لا نثبت الحكم ولا ننفيه بل ندفع بالإستصحاب دعوى من أثبته[1] .

النوع الثاني : استصحاب الوصف المثبت للحكم

وهو استصحاب دليل الشرع للحكم حتى يثبت خلافه وهو حجة كاستصحاب حكم الطهارة وحكم الحدث واستصحاب بقاء النكاح وبقاء الملك حتى يثبت خلاف ذلك .

وقد دل الشارع على تعلق الحكم به في قوله في الصيد : « **وإن وجدته غريقًا فلا تأكله فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك** »[2] فلما كان الأصل في الذبائح التحريم وشك : هل وجد الشرط المبيح أم لا ؟ بقي الصيد على أصله في التحريم ، ولما كان طاهرًا فالأصل بقاؤه على طهارته ولم يزلها

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » بتصرف : (٣٣٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في « أبواب الصيد » واللفظ له باب رقم ٥ : (جه ص ١٦٨) والبخاري في « كتاب الصيد » : (٢٢٠/٦) ومسلم في « الصيد » .

بالشك ، ولما كان الأصل بقاء المتطهر على طهارته لم يأمره بالوضوء مع الشك في الحدث بل قال : « **لا ينصرف حتى يسمع صوتًا أو يجد ريحًا** »[(١)] .

كما بين ابن القيم رحمه الله أن هذا الأصل قد اتفق العلماء على حجيته ولم ينازعوا إلا في بعض أحكامه لتجاذب المسألة أصلين متعارضين[(٢)].

النوع الثالث : استصحاب حكم الإجماع في محل النزاع

وهذا النوع من الإستصحاب الذي وقع فيه الخلاف بين الفقهاء ، هل هو حجة أم لا ؟ وقد خالف فيه ابن القيم رحمه الله كثيرًا من فقهاء الحنابلة وغيرهم .

ومثال ذلك: أن الإجماع انعقد على صحة الصلاة بالتيمم قبل رؤية الماء فإذا كان في الصلاة ورأى الماء هل يستصحب حكم الإجماع المنعقد قبل الرؤية ويتم الصلاة صحيحة أم أن حكم الإجماع لا يستصحب في هذه الحالة ويمتنع الإجماع؟ وكذا في بيع أم الولد فقد انعقد الإجماع على جواز بيع هذه الجارية قبل الإستيلاد، فهل يبقى الإجماع بعد الإستيلاد أم لا ؟

وابن القيم يقول بحجة الإجماع في محل النزاع وقد أورد اعتراض القائلين بعدم حجيته ورد عليهم ثم قال : ومجرد النزاع لا يوجب سقوط حكم الإجماع فالنزاع في رؤية الماء في الصلاة وحدوث العيب عند المشتري واستيلاد الأمة لا يوجب رفع ما كان ثابتًا قبل ذلك من الأحكام ، فلا يقبل قول المعترض أنه قد زال حكم الإستصحاب بالنزاع الحادث ، فإن

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له « كتاب الطهارة » باب ٣٤: (جـ١ ص ٥٢) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٣٣٩/١) .

النزاع لا يرفع ما ثبت من الحكم فلا يمكن المعترض رفعه إلا أن يقيم دليلاً على أن ذلك الوصف الحادث جعله الشارع دليلاً على نقل الحكم ، وحينئذ فيكون معارضًا في الدليل لا قادحًا في الإستصحاب ، فتأمله فإنه التحقيق في هذه المسألة (١) .

*** المصالح المرسلة**

تابع ابن القيم رحمه الله علماء الأمة الإسلامية في الأخذ بالمصالح المرسلة لأن الشريعة مبنية على مصالح العباد وهذا ما يقرره ابن القيم رحمه الله كما قدمنا سابقًا .

وقد كتب ابن القيم كتابه « **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية** » الذي يتضح من خلال صفحاته أخذه بالمصالح المرسلة فقال فيه :

ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل الذي يسع الخلائق تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها وفرع من فروعها(٢) .

فإقامة العدل بين الأمة أحد مقاصد الشريعة فإذا كان الأمر مصلحة للأمة وجب الأخذ به كما فعل الصحابة رضي الله عنهم من تحريق ونفي وقتل كما فعل أبو بكر في اللوطية وتحريقهم ونفي عمر نصر بن حجاج وتحريق عثمان للمصاحف وكان ذلك رأيًا اعتمدوا فيه مصلحة الأمة ولو لم يرد فيها نص .

ومن هذا قوله بالتسعير كما سترى ذلك في الباب الثالث إن شاء الله

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٣٤٣/١) .

(٢) « الطرق الحكمية » : (١٣٥/٣) .

ووجوب قيام الصناع فيما لا تستغنى عنه الأمة وتأجير الدور إذا احتاج إليها الناس وغير ذلك .

* سد الذرائع

وهي سد الطرق والأسباب والذرائع المفضية إلى المحرم فإن وسيلة المقصود تابعة للمقصود قال ابن القيم :

فإذا حرم الرب شيئًا وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقًا لتحريمه وتثبيتًا له ومنعًا من أن يقرب حماه ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم[1] .

وقد ذكر رحمه الله وجوهًا كثيرة من اهتمام الشريعة بسد الذرائع ثم بين بعد ذلك أن باب سد الذرائع ربع التكليف فقال :

وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف ، فإنه أمر ونهي والأمر نوعان : أحدهما : مقصود لنفسه ، والثاني : وسيلة إلى المقصود ، والنهي نوعان : أحدهما : ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه ، والثاني : ما يكون وسيلة إلى المفسدة ، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين[2] .

ثم بين رحمه الله حكم الوسائل المؤدية إلى المقاصد فبين أنها أربعة أقسام :

أولها : وسيلة مفضية إلى مفسدة ومثلها شرب الخمر المفضي إلى مفسدة السكر ، والزنا المفضي إلى اختلاط المياه وفساد الفراش ونحو ذلك.

وحكم هذه الوسائل وما تؤدي إليه المنع كراهة أو تحريمًا بحسب

(١) « إعلام الموقعين : (٣/١٣٥) .

(٢) نفس المرجع : (٣/١٥٩) .

درجاته في المفسدة وذلك مثل النظر إلى المرأة الأجنبية ونحو ذلك من الوسائل .

ثانيها : وسيلة موضوعة للمباح وقد تفضي إلى المفسدة ولكن مصلحتها أرجح من مفسدتها ، ومثال ذلك النظر إلى المخطوبة وكلمة حق عند سلطان جائر والنظر إلى المشهود عليها ونحو ذلك ، وهذا النوع من الوسائل مباح وقد يكون مستحبًا وقد يرقى إلى درجة الوجوب وذلك بحسب درجات المصلحة .

ثالثها : وسيلة موضوعة لمباح قصد بها التوسل إلى المفسدة ومثال ذلك عقد النكاح من أجل التحليل .

الرابعة : وسيلة موضوعة لمباح لم يقصد بها التوسل إلى المفسدة ولكنها مفضية إليها غالبًا ومفسدتها أرجح من مصلحتها كمسبة آلهة المشركين .

وهذان القسمان هما المقصود بسد الذرائع المفضية إليها وهي التي اهتمت الشريعة بسد الذرائع من أجل عدم الإفضاء إلى المعاصي كقوله تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوًا بغير علم** ﴾[1] فحرم الله سب آلهة المشركين مع كون السبّ غيظًا وحمية لله وإهانة لآلهتهم لكونه ذريعة إلى سب الله تعالى وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة سبنا آلهتهم وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سببًا في فعل ما لا يجوز .

وقوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون : ﴿ **اذهبا إلى فرعون إنه طغى**

---

(١) الآية من سورة الأنعام : (١٠٨) .

فقولا له قولاً لينًا لعله يتذكر أو يخشى ﴾[١] فأمر تعالى أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدهم كفرًا وأعتاهم عليه لئلا يكون إغلاظ القول له - مع أنه حقيق به - ذريعة إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة فنهاهم عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره منه .

ومنها أن النبي ﷺ كان يكف عن قتال المنافقين - مع كونه مصلحة - لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه ، ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل ، ومنها أنه ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين سدًّا لذريعة ما يحذر من الفتنة وغلبة الطبع .

وهكذا يسرد ابن القيم رحمه الله الأدلة من الشريعة على سد كل ذريعة يمكن أن يتوسل بها إلى محرم[٢] .

* * *

---

(١) الآية من سورة طه : (٤٤) .

(٢) انظر « إعلام الموقعين » : (٣/١٣٧ - ١٥٩) .



الفصل الثالث :

منهجه في إصلاح المجتمع

* تمهيـــــد :

سبق أن بينت عند حديثي عن أهداف الدعوة عند ابن القيم : أن تربية الأمة من الأهداف التي سعى لتحقيقها في المجتمع المسلم ، بل كان موجهًا للدعاة في التربية كما تراه وهو يوجه أهل العلم في الكيفية التي يجب أن يسيروا عليها في تربية الأمة بقوله :

تنبيه لأهل العلم على تربية الأمة كما يربي الوالد ولده ، فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب لولده الطفل في إيصال الغذاء إليه[1] .

وقد اهتم رحمه الله بتوجيه سلوك المجتمع المسلم وصبغه بمنهج القرآن الكريم والسنة الشريفة والذي تربى رحمه الله وهو ينهل من معينهما والتي تمثلت في تشريعاتهما وتوجيهاتهما للسلوك الإنساني حتى أصبح في مصاف أعلى المربين ، والتي تجلت بالفائدة الملموسة فيمن حاول أن ينهل من معينها ، لأنها تعتمد على نظرة واقعية ، تخلو من العاطفة والهوى وتحاكي الطبع والفطرة لأنها جاءت من المربي الأول والآخر الذي اقترن اسمه بهذا العلم لأنه أساسه وهو الرب[2] تبارك وتعالى ، قال ابن القيم :

الرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (٨٧/١) .

(٢) قال في « لسان العرب » : الرب : هو الله عز وجل رب كل شيء أي مالكه ، ورب ولده ، والصبي يُرَبّه ربًا ، وربيته تربيبًا بمعنى رباه ، ورباه أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفولة ، « لسان العرب » بتصرف (٣٩٩/١) و« المصباح » (٢١٤/١) .

ومصالحه التي بهما كماله ويهديه إلى اجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه[١] .

* مفهوم التربية عند ابن القيم

لذلك أُطلق على العالم الذي تربى بعلم الرب تبارك وتعالى وربى عليه غيره « بالعالم الرباني » وإليك ابن القيم وهو يعرفه بقوله :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : « هو المعلم » - أخذه من التربية - أي يربي الناس بالعلم ويربيهم به كما يربي الطفل أبوه فالعالم لما نسب إلى علم الرب الذي بعث به رسوله وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علمًا ، قال الواحدي[٢] : « منسوب إلى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أي يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى » ثم نقل قول المبرد[٣]: « الرباني الذي يربي العلم ويربي الناس به » أي يعلمهم ويصلحهم وعلى قوله : فالرباني مِن : رب يرب ربًا ، أي يربيه فهو منسوب إلى التربية

---

(١) « طريق الهجرتين » ص : (٥٦) .

(٢) أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد الواحدي مفسر عالم بالأدب إمامًا بالتأويل أصله من ساوه مولده ووفاته بنيسابور توفي رحمه الله سنة (٤٦٨هـ) وترك عدة مصنفات منها « البسيط » و « الوسيط » و « الوجيز » وغيرها ، انظر : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القنطي : « إنباه الرواه على أنباه النحاه » ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم : (٢٢٣/٢ط ١٣٧١ هـ) دار الكتب المصرية ، القاهرة . وانظر ياقوت الحموي : « معجم الأدباء » (٢٥٧/١٢ط ١٣٥٥هـ) دار المأمون ، القاهرة .

(٣) أبو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد إمام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الأدب والأخبار مولده بالبصرة سنة (٢١٠هـ) وتوفي ببغداد سنة (٢٨٦هـ) من أشهر كتبه «الكامل»، و «المقتضب» ، و « إعراب القرآن » وغيره ، انظر « إشارات التعيين » : (ص ٣٤٢) ، محمد بن حسن الزبيدي : « طبقات النحويين واللغويين » تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (ص ١٠١ - ١١٠) ، ط الثانية (١٩٨٤) دار المعارف القاهرة : « تاريخ بغداد » : (٣٨٠/٣) « غاية النهاية » : (٢٨٠:٢) « بغية الوعاة » : (٢٦٩/١) .

يربي علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربي صاحب المال ماله ، ويربي الناس به كما يربي الأطفال أولياؤهم(١) .

وهذه الأقوال التي نقلها ابن القيم وعلق عليها هي بنفسها تعريف للتربية فلو رجعت إلى كتب اللغة لما وجدت اختلافًا بينهما(٢) .

وهي في مجملها تعني : تعاهد النفس والناس بعلم الله والإهتمام بهما وإصلاحهما شيئًا فشيئًا حتى يكملا وهذا مفهوم التربية عند ابن القيم ، كما سبق من أقواله ، وهو المنهج الذي سار عليه في إصلاحه للمجتمع الذي هو تربية الفرد ، والأمة ، والفرد يعم النفس وأفراد الأمة من حاكم ومحكوم ولم يخرج رحمه الله في تربيته وإصلاحه عن علم الله الذي يجمع الكتاب والسنة .

وأنا هنا لا أريد أن أوضح منهج ابن القيم في التربية وقد سبقت إلى ذلك (٣) .

وإنما مرادي أن أتحدث عن منهجه في إصلاح المجتمع من وجه لم يتعرض إليه الباحث تكملة لعناصر بحثي هذا ولإرتباطه بالدعوة ارتباطًا لا ينفك عنه .

* لكل داء دواء

التوجيه الأول لابن القيم في التربية هو للدعاة والمربين وعامة الناس وهو

---

(١) « مفتاح دار السعادة » : (١/ ١٦٠) .

(٢) انظر « لسان العرب » : (٣٩٩/١) و« المصباح المنير » : (٢١٤/١) .

(٣) سبق أن قدم بحث لقسم التربية بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام لنيل درجة الدكتوراه بعنوان « آراء ابن القيم التربوية » مقدم من الطالب علي بن حسين الحجاجي وقد طبع بدار حافظ للنشر والتوزيع عام (١٤٠٨هـ) .

ما يجب أن يعلموه ويتيقنوه وهو : أن لكل داء دواء واستدل لذلك بما ثبت في « صحيح البخاري » عن النبي ﷺ : « **ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء** »[١] وفي « مسلم » عنه ﷺ : « **لكل داءٍ دواء فإن أُصيب دواء الداء برأ بإذن الله** »[٢] وفي « المسند » عنه ﷺ : « **إن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً ، علمه من علمه وجهله من جهله** »[٣] ثم يقول بعد ذلك :

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها[٤] .

فلا يقف المربي أمام معضلة في التربية إلا وجد لها دواء من كتاب الله تعالى فلا يقول أن ذلك له خلق لا يتغير ولا يتبدل وليس له علاج ، كما يعتقد البعض أنه لا يمكن اكتساب الأخلاق ، وابن القيم رحمه الله يقف غير هذا الموقف عندما ذكر الفرق بين الصبر والتصبر والإصطبار والمصابرة فقال :

والفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس النفس ومنعها من إجابة ما لا يحسن إن كان خلق له وملكة سمي صبرًا ، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبرًا ، كما يدل عليه هذا البناء لغة ، فإنه موضع التكليف كالتحلم ، والتشجع ، والتكرم ، والتحمل ، ونحوها .

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما في الحديث عن النبي

---

(١) رواه البخاري كتاب « الطب » (جـ٧ ص ١٢) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « السلام » برقم (١٩) باب لكل داء دواء : (١٧٢٩/٤) .

(٣) « مسند الإمام أحمد » قريب من لفظه : (١٥٦/٣) .

(٤) « الجواب الكافي » : (ص٤،٣) .

ﷺ أنه قال : « **ومن يتصبر يصبره الله** »[١] وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية ، وكذلك سائر الأخلاق[٢] .

والأسباب التي تجعل التخلق ممكن الإكتساب كما يقول ابن القيم أن : المزاولات تعطي الملكات ومعنى ذلك أن من زاول شيئًا واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة .

قالوا : والعوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية .

قالوا : وقد جعل الله في الإنسان قوة القبول والتعلم ، فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل[٣] .

والذي أميل إليه أن ذلك ممكن من واقع ما عرفناه من فعل ما جاء به الرسول ﷺ من الهدى والعلم والأخلاق والآداب في أصحابه رضوان الله عليهم وكيف نقلهم من أعراب في الصحراء إلى ملوك يقتدى بهم ومصابيح يستنار بأخلاقهم وآدابهم فحازوا مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات بعد أن لم يكونوا كذلك ؛ وهو أكبر دليل على إمكان التخلق والتأدب وكما نرى ونشاهد بعض شذاذ هذه الأمة إذا ما أراد الله له الهداية كيف يتحول من حال إلى حال ، وذلك راجع إلى حسن المنهج التربوي وحكمة المربي ونوع التربية .

* ساحة الإصلاح

المطلع على كتب ابن القيم رحمه الله يتضح له بجلاء أن ساحة

---

(١) أخرجه البخاري في « الزكاة » باب الاستعفاف عن المسألة ، ومسلم برقم (١٠٥٣) وغيرهما .

(٢) « عدة الصابرين » : (٣٦) .

(٣) انظر « عدة الصابرين » : (٣٧) .

المعركة في التربية والإصلاح تدور على القلب وأنه هدف التربية ومجال عملها ، لأن التربية في نظر ابن القيم هي تحقيق عبادة الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾(١) وجعل الأمة مربوبة لله ، متأدبة ومتخلقة بأمره ، متجملة بالبعد عما نهى عنه ، متبعة في ذلك ما جاء به المصطفى ﷺ ، وهذه الطاعة لله والعبادة تحتاج إلى العلم والعمل فأعطاهم سبحانه موادها من القلب ، والسمع ، والبصر ، والجوارح فمن استعملها في إرادته وشهوته ولم يرعَ حق خالقه يخسر إذا سئل عن ذلك ويحزن حزنًا طويلاً قال تعالى : ﴿ **إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً** ﴾(٢) .

وهذه المواد والجوارح التي تقوم بالعبادة والتي غايتها القيام بمحبوب الله ، ومن ثم تربية هذا العبد بهذه التشريعات الإلهية قابعة تحت إمرة ملك مطاع ألا وهو القلب كما يقول ابن القيم :

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، الذي تصدر كلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكسب منه الإستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم ويحله ، قال النبي ﷺ : « **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب** »(٣) فهو ملكها ، وهي المنفذة لما يأمر به ، القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شيء من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته وهو المسئول عنها كلها ، لأن كل راع

---

(١) الآية من سورة الذاريات : (٥٦) .

(٢) الآية من سورة الإسراء : (٣٦) .

(٣) رواه البخاري في « كتاب الإيمان » الباب (٣٩) باب من استبرأ لدينه : (١٩/١) .

مسئول عن رعيته ، كان الإهتمام بتصحيحه ، وتسديده أولى ما اعتمد عليه السالكون ، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون[١].

ويقول عن القلب الذي يسير هذه الحواس والجوارح أنه هو السائر في الطاعة فإذا رأيت الإنسان يسير في الطاعة فاعلم أن قلبه هو المسير له فيقول :

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة ويكشف عن طريق الحق ونهجه ، وآفات النفس والعمل ، وقطاع الطريق بنوره ، وحياته ، وقوته ، وصحته ، وعزمه ، وسلامة سمعه وبصره ، وغيبة الشواغل عنه[٢] .

فيظهر منه قول وعمل هو مدار هذا الدين ، فيقول :

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له ، والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب[٣].

فإذا كانت قواعد العبادة عند ابن القيم منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح ولكل منها عبودية تخصه فإنه يرى أن أعمال اللسان

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٥/١) وانظر « مفتاح دار السعادة » : (٢٤٣) وما بعدها .

(٢) « مدارج السالكين » : (٤٨٨/١) .

(٣) « مدارج السالكين » : (١/ ١١٣) .

والجوارح عديمة المنفعة أو قليلة المنفعة بدون أعمال القلب كما قال :

أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة[١] .

لأن أعمال اللسان والجوارح خبر عما في القلب وهو رحمه الله عندما يتحدث في كتابه « مدارج السالكين » عن منازل العبادة ينسب هذه المنازل لعلم القلب كما ذكر ذلك في منزلة اليقظة ، والعزم ، والبصيرة ، والقصد، والاعتصام ، والخوف ، والخشوع .... وغير ذلك من منازل السائرين التي ذكرها ابن القيم وهي من أعمال القلب مما يدل على شرف عمل القلب وقوله وأنه العماد الذي يقوّم السلوك ويصلح به الفرد ومن ثم الجماعة .

ومن منطلق أهمية القلب وشرفه ومكانته سوف ينصب حديثنا على إصلاح هذا القلب بعد تعريفه ومعرفته ، ومعرفة عوائقه وكيفية إصلاحه وعلاجه فيما يلي من دراسة .

*** تعريف القلب**

القلب في الأصل مصدر قلبت الشيء قلبًا إذا رددته على بداءته وقلبت الإناء رددته على وجهه ، ثم نقل هذا اللفظ فسمي به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه وترددها ، والقلب هو « موضع الفكر» وقد يعبر عنه بالفؤاد والصدر كقوله تعالى : ﴿ **كذلك لنثبت به فؤادك** ﴾[٢] وقال: ﴿ **ألم نشرح لك صدرك** ﴾[٣] ويعني في الموضعين: قلبك.

وقد يعبر به عن العقل كقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له**

---

(١) « مدارج السالكين » : (١١٣/١) .

(٢) الآية من سورة الفرقان : (٣٢) .

(٣) الآية من سورة الشرح : (١) .

قلب﴾[١] أي عقل لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين[٢] وإن كان البعض يرى أنه في الدماغ ، وقد نسب الرب تبارك وتعالى العقل والفقه للقلب كما في قوله : ﴿ **أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور**﴾[٣] وقال تعالى : ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرًا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها** ﴾[٤] والذي يتضح من أقوال ابن القيم رحمه الله أنه يميل إلى أن القلب هو الذي يعقل ويفهم كما يتضح ذلك من قوله :

إن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد إلى توحيده ومتابعة ما بعث به رسوله ﷺ [٥] .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله خلاف الناس في الدماغ « أي المخ » والحواس والعقل هل مبدؤها القلب أو الدماغ ؟ فقالت طائفة : مبدؤها القلب وهي مرتبطة به ، وبينها وبين الحواس منافذ وطرق ؛ ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون ، وقالوا : بل العقل في الرأس ، فالصواب : أن مبدأه ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس ، والقرآن دل على هذا ، ولم يرد بالقلب مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيها من العقل واللب[٦] وهذا العقل والذي محله القلب : « غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها

---

(١) الآية من سورة ق : (٣٧) .

(٢) « تفسير القرطبي » بتصرف : (١٨٧ - ١٨٩) .

(٣) الآية من سورة الحج : (٤٦) .

(٤) الآية من سورة الأعراف : (١٧٩) .

(٥) « اجتماع الجيوش الإسلامية » : (ص٧) .

(٦) انظر « مفتاح دار السعادة » : (٢٤٣ - ٢٤٦) .

العباد ، بعضهم من بعض ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا بحس ، ولا ذوق ، ولا طعم ، وإنما عرفهم الله إياها بالعقل منه »[١] .

وهو ما يوافق عليه شيخ الإسلام عندما عرف العقل في لغة المسلمين قال : « هو مصدر عقل يعقل عقلاً ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله في الإنسان يعقل بها » [٢] .

* صراع لابدّ مِنْهُ

يوجه ابن القيم الأمة إلى أن الحياة جهاد وصراع ومعركة وسلاح وجنود وأعوان فيها الغالب والمغلوب ، والغانم والمغنوم ، قاصدًا من ذلك حفز الهمم والإستعداد وهذه المعركة قضتها حكمة الله سبحانه وتعالى من خلق الجنة والنار وجعل لكل منها أهلاً ، حكمة منه وعدلًا .

وسوف أصف هذه المعركة كما وصفها ابن القيم مبينًا أطراف النزاع والحكمة منه وجند الطرفين وسلاحهما وسير المعركة وصفة المقاتلين وعلاجهم وتربيته الجند وغير ذلك من مداخلات هذه المعركة فنقول مستعينين بالله على ذلك :

* العدو [٣]

يقول ابن القيم :

(١) « العقل وفهم القرآن » للحارث المحاسبي (ص : ٢٠٢) دار الكندي للطباعة والنشر الطبعة الثانية عام (١٣٩٨هـ) تحقيق حسين القوتلي .

(٢) « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الإسلام (ص: ٧٩) طبع المكتب الإسلامي الطبعة الرابعة عام (١٣٩٧هـ) .

(٣) هذا العدو هو الشيطان الذي حذرنا الله منه في كتابه المبين ، وبين لنا عداءه ، وتسلطه علينا من باب وعوده وأمانيه الباطلة . =

إن حكمة الله سبحانه وتعالى اقتضت أن ابتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، ولا يغفل عنه يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده في معاداته في كل حال ، ويستعين عليه من بني جنسه من شياطين الجن وغيرهم من شياطين الإنس ، ونصب له الحبائل ، ومدّ حوله الأشراك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم ، ولا يكون حظه الجنة ، وحظكم النار ، وقد علمتم ما جرى عليّ وعليكم من الخزي واللعن بسببه ومن أجله[1] .

* لواء الإنسان

يقول ابن القيم :

إن الله سبحانه وتعالى عقد لواء هذه الحرب لخلاصة مخلوقاته وهو القلب الذي هو محل معرفته ، ومحبته ، وعبوديته ، والإخلاص له ، والتوكل عليه والإنابة إليه فولاه أمر هذه الحرب[2].

= فقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة : ٢٦١] وقال تعالى : ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثًا وإن يدعون إلا شيطانًا مريدًا لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيبًا مفروضًا ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرنّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خسر خسرانًا مبينًا يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصًا ﴾ [النساء : ١١٧ - ١٢١] ، ولقد قصّ الله سبحانه في سورة الأعراف قصة عدائه وطرده ثم قال : ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذؤومًا مدحورًا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ [الأعراف ١٣ - ١٨] . وغير ذلك من آيات الله البينات التي ورد فيها ذكر الشيطان وهي سبع وستون مرة من غير لفظ الشياطين وشياطينهم وشيطانًا وإبليس التي تصل في مجموعها إلى ثمانٍ وتسعين مرة تدل بمجموعها على عداء الشيطان لبني آدم وتحذر منه وتبين كيف النجاة منه ومن مكائده ووسوسته هو وجنده .

(١) « الجواب الكافي » : (١١١) بتصرف .

(٢) « الجواب الكافي » ص : (١١٢) .

ولما علم عدو الله إبليس أن المدار على القلب والاعتماد عليه أجلب عليه بالوسواس ، وأقبل بوجه الشهوات إليه وزين له من الأحوال والأعمال ما يصده عن الطريق ، وأمده من أسباب الغي بما يقطعه عن أسباب التوفيق فنصب له من المصائد والحبائل ما أن سلم من الوقوع فيها لم يسلم من أن يحصل له بها التعويق [(١)].

* **الحكمة من التسليط**

وبين رحمه الله حكمة الرب سبحانه من تسليط هذا العدو الماكر على هذا الإنسان فقال :

فكان سبب التسليط هو أن يرى الله سبحانه وتعالى من هذا الإنسان أحب شيء إليه وهو الجهاد فيه سبحانه وتعالى الذي أهله أرفع الخلق عنده لدرجات وأقرب إليهم وسيلة [(٢)].

والجهاد الذي أراده الله سبحانه من عباده أربع مراتب كما يقول ابن القيم :

جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين ، ولكن من هذه المراتب مراتب تدخل تحتها ثم يقول : وأكمل الخلق عند الله من كمل مراتب الجهاد كلها[(٣)] .

فهو رحمه الله يرى أن الحياة كلها جهاد ؛ وهي بالفعل جهاد فمن جاهد فله الغنم والنصر والفوز ، ومن لم يجاهد أخذ وظلم وخسر الدنيا والآخرة .

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٥/١) .

(٢) « الجواب الكافي » : (١١٢) .

(٣) انظر ذلك في « زاد المعاد » : (٩/٣ - ١٢) .

* **جنود القلب**

لما سلط الله على القلب هذا العدو لم يتركه سبحانه لعدوه رحمة منه وفضلاً بل أمده بجند وحرس يدافعون عنه ويحفظونه كما يقول ابن القيم: أيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ﴿ **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** ﴾(١) يثبتونه ، ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويمدونه بكرامة الله ، ويصبرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة ، وقد استرحت راحة الأبد .

ثم أمده سبحانه بجند أُخَر من وحيه وكلامه ، فأرسل إليه رسوله ﷺ ، وأنزل إليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ، وأيده مع ذلك بالعقل وزيرًا له ومدبرًا ، وبالمعرفة مشيرًا عليه ناصحًا وبالإيمان مثبتًا له ومؤيدًا وناصرًا .

ثم أمدّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة فجعل العين طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه.

وعلم سبحانه وتعالى كيفية هذه الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾(٢)(٣).

وبهذا أقام الله سبحانه الحجة على عباده فبقي على العبد أن يقوم على حماية ثغوره وأن لا يجعل للعدو مكانًا يدخل منه إليه ، وذلك عمل تلك

---

(١) الآية من سورة الرعد : (١١) .

(٢) الآية من سورة آل عمران : (٢٠٠) .

(٣) انظر « الجواب الكافي » : (١١٢ - ١١٣) .

الإمدادات الإلهية كل بحسب ما خلق له وعلى منهج الله المتمثل في الأمر والنهي .

* خطة مُحكَمَة

في وصف دقيق وقصة ممتعة وأسلوب جذاب يصور ابن القيم رحمه الله سير المعركة بين القلب وجنده والشيطان وجنده ، موضحًا الخطط والأساليب التي رسمها العدو لجنوده وأعوانه من أجل الدخول على القلب والنيل منه إما بقتله أو جرحه ، وفاءً بالعهد الذي قطعه على نفسه وتنكيلاً بعدوه .

ومقصده رحمه الله من سرد هذه القصة ، توجيه أفراد الأمة إلى معرفة الثغور التي يمكن لهذا العدو أن يدخل منها إلى الملك - أي القلب - والأساليب المستخدمة في هذه المعركة للدخول إليه .

ومن ثم يتبصر هذا الفرد بهذا العدو فيحكم سد هذه الثغور وتحصينها بحصون إلهية لا يقوى عليها .

وسوف أنقل بعض صور هذه القصة مبينًا المراد متحاشيًا الإطالة .

يقول ابن القيم :

أقبل ملك الكفر وعساكره ، فوجد القلب في حصنه ، جالسًا على كرسي مملكته أمره نافذ في أعوانه ، وجنده قد حفوا به ، يقاتلون عنه ويدافعون عن حوزته فلم يمكنه الهجوم عليه إلا بمخامرة بعض جنده وأمرائه ، فسأل عن أخص الجند به وأقربهم منه منزلة ، فقيل له : هي النفس[1] فقال لأعوانه : ادخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما

(١) لابن القيم مباحث مفيدة في النفس ذكرت في كتبه كما في « الروح » ، و« إغاثة اللهفان » =

هو محبوبها فعدوها به ، ومنوها إياه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقظتها ومنامها ، فإذا اطمأنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة

= ولارتباطها بالموضوع سوف ننقل مفاد هذه المباحث نقلاً عن ابن القيم : إن النفس والروح شيء واحد فسميت النفس روحًا لحصول الحياة بها وسميت نفسًا إما لنفاستها وشرفها ، وإما من تنفس الشيء إذا خرج فلكثرة دخولها وخروجها في البدن ، فالرق بين النفس والروح فرق بالصفات لا فرق بالذات . «الروح» (٢٤٦ - ٢٤٤). أما عن ماهية النفس فقد نقل آراء الناس في ذلك ثم رجح أنه جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس وهو جسم نوراني علوي خفيف متحرك ، ينفذ في جوهر الأعضاء ويسري فيها سريان الماء في الورد ، وسريان الدهن في الزيتون ، والنار في الفحم ، فما دامت هذه الأعضاء صالحه لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف بقي هذا الجسم اللطيف شابكًا لهذه الأعضاء وأفادها الحس والحركة والإرادة وإذا فسدت هذه الأعضاء خرجت عن قبول تلك الآثار ، فارق الروح البدن ، هذا القول هو الصواب في المسألة وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة .

ثم نقل بعد ذلك مائة وخمسة عشر وجهًا على تصويب هذا القول وردّ كذلك على من قال إنها جوهر (وهو ما يقوم بنفسه وهو عكس العرض) انظر « الروح » (١٠٢) وما بعدها .

ورجح رحمه الله أن النفس المطمئنة واللوامة ، والأمارة : أنها نفس واحدة لها ثلاث صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم فإنها واحدة باعتبار ذاتها وثلاث باعتبار طبقتها والنفس قد تكون تارة أمارة وتارة لوامة وتارة مطمئنة بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا والحكم للغالب عليها من أحوالها ، « الإغاثة » : (١/ ٧٨) .

وابن القيم يقرر في كتاباته أن الشيطان لا يستطيع الدخول على قلب ابن آدم إلا من طريق النفس وهي مدخل الشرور إلى القلب كما قال :

فإن سائر أمراض القلب إنما تنشأ من جانب النفس فالمواد الفاسدة كلها إليها تنصب ثم تنبعث منها إلى الأعضاء وأول ما تنال القلب ، « إغاثة اللهفان » : (٧٤/١) ويقول : فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته (أى الشيطان) فهي مركبة ، وموضع شره ومحل طاعته ، « الإغاثة » : (١/ ٩٠) ، كما يوضح أن الشيطان قرين النفس فيقول : وأما النفس الأمارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها وهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ، ويزين لها ، ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ، انظر « الروح » : (٢٥٨ و ٢٦٢ و ٢٦٣) وسوف يكون لنا حديث عن علاج النفس في نظر ابن القيم رحمه الله في هذا الباب .

ثم جروها بها إليكم ، فإذا خامرت القلب وصارت معكم عليه ، ملكتم ثغور العين واللسان والفم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح[1] .

هذا هو الثغر الأعظم من ثغور القلب الذي يوصي أعوانه باقتحامه أولًا ثم يأتي بعد ذلك وصفه لهم الطريقة في الدخول من الثغور الأخرى إلى الملك .

*** أساليب الغزو**

بعد هذا الفتح العظيم وأسر أعظم أمراء هذا الملك الكريم وانهزام أكثر جنده فإن الثغور قد فتحت أبوابها لقبول أمر هذا العدو اللعين الذي تمرس مع طول البقاء على معرفة نقاط الضعف والقوة في خصمه أخذ يبين لجنده وأعوانه الأساليب الناجعة في أسر ما بقي من الجنود واستعبادهم من دون خالقهم .

أولًا : قال لأعوانه كما يوضح ذلك ابن القيم :

دونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر ، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنية ، ثم ما أزال أعده وأمنيه وأقوي عزيمته ، وأقوده بزمام الشهوة إلى الانخلاع من العصمة .

فامنعوا ثغر العين أن يكون نظره اعتبارًا ، بل اجعلوا نظره تفرجًا واستحسانًا وتلهيًا ، فإن استرق نظرة عابرة فأفسدوها عليه بنظر الغفلة والاستحسان والشهوة فإنه أقرب إليه ، وأعلق بنفسه وأخف عليه[2] .

---

(١) انظر « الجواب الكافي » : (١١٣ - ١١٤) .

(٢) نفس المرجع بتصرف : (١١٤) .

ثانيًا : ثم امنعوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر فاجتهدوا ألا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه وتخيروا له أعذب الألفاظ للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس ، فإن رأيتم منه إصغاء فزجوه بأخواتها ، وكلما صادفتم منه استحسان شيء فالهجوا له بذكره .

وإياكم !! أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله ، أو كلام رسوله ﷺ ، أو كلام الفصحاء فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره ، والتفكير فيه والعظمة به ، إما بإدخال ضده عليه ، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه وأن هذا الأمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه[1] .

ثالثًا : ثم يقول : قومُوا على ثغر اللسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، فامنعوه من ذكر الله تعالى ، واستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصحه عباده ، والتكلم بالعلم النافع ويكون لكم من هذا الثغر أمران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم .

أحدهما : التكلم بالباطل فبذلك يكون من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

الثاني : السكوت عن الحق فكما أن الأول أخ ناطق ، فربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم أما سمعتم قول الناصح : « المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخرس » .

واعلموا يا بني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم على مناخرهم في النار [2] .

---

(١) انظر « الجواب الكافي » بتصرف قليل : (١١٥) .

(٢) نفس المرجع : (١١٧) .

رابعًا : ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه .

واعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأمارة فأعينوها واستعينوا بها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنة ، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها ، فإذا انقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة، وانصاعت لكم أعوانها ، فاستنزلوا القلب من حصنه ، واعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس الأمارة فإنها لا تأمر إلا بما تهوون وتحبون مع أنها لا تخالفكم في شيء[1] .

واستعينوا يا بني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

أحدهما : جند الغفلة فأغفلوا قلوب بني آدم عن الله والدار الآخرة فإن القلب إذا غفل عن الله تمكنتم منه ومن إغوائه .

والثاني : جند الشهوات ، فزينوها في قلوبهم وحسنوها في أعينهم وانتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادون بني آدم في أعظم من هذين الموطنين فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فحري به أن لا يملك نفسه عند الشهوة .

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه وإنما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير فإياكم أن تمكنوا بني آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة فإن ذلك يطفئ عنهم نار الغضب والشهوة [2] .

---

(١) انظر « الجواب الكافي » بتصرف قليل : (١١٨) .

(٢) « الجواب الكافي » : (١٢٠) .

* نتائج هذا الصراع

والآن أيها الأخ المسلم اعرف نفسك وقلبك بعد هذا الصراع والحرب الضروس وما هو مصيرك الذي تعيشه الآن مع هذه الحرب ، فهل أنت منتصر ظافر قد نلت مغانم الدنيا والآخرة ، أم أنك في عداد الأموات الذين أسرهم العدو وأودعهم في غيابات السجون واستعبدهم بالنار والحديد ، أم أنك من أولئك الجرحى الذين لا يعلم هل يمكن شفاؤه ورجوعه إلى صحته وسلامته أم أن هذا الجرح سوف تتضاعف عواقبه حتى يؤدي به إلى الموت ؟؟! فالنتائج إذًا ثلاثة :

أولها : القلب السليم

وهو قلب وقف حصنًا شامخًا منيعًا أمام الشيطان وأعوانه فلم يستطيعوا الوصول إليه لقوة جنوده وتمسكهم بالأمر والنهي فسلم من الشيطان وأعوانه ، وهذا القلب هو الذي ينجي صاحبه يوم القيامة من عذاب الله كما قال تعالى : ﴿ **يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾[1].

وقد ذكر ابن القيم أقوال أهل العلم في معناه ثم قال :

والأمر الجامع في معنى القلب السليم : أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ، ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته في كل حال ، والتباعد عن مساخطه بكل طريق ،

---

(١) الآية من سورة الشعراء : (٨٩) .

وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده[١] .

والذي يراه ابن القيم رحمه الله أن العبودية الكاملة هي الحصن الحصين من الشيطان ومكايده واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ **إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾[٢] أي ليس له طريق يتسلط عليهم به لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة ، والقدرة داخلة في مسمى السلطان وإنما سميت الحجة سلطانًا لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده .

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المتوكلين كما في الآية الأولى والمخلصين كما قال : ﴿ **قال ربِّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال هذا صراط عليّ مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين** ﴾[٣] .

فلما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص استثنى وقال : ﴿ **إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله[٤] .

وهذا القلب رزقه الله بالنفس المطمئنة ، فحكمها وأصبحت تحت تصرفه وهذه النفس كما يصفها ابن القيم :

اطمأنت إلى ربها بعبوديته ، ومحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه والرضاء به والسكون إليه .

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (ص٧) .

(٢) الآية من سورة النحل : (٩٩) .

(٣) الآية من سورة الحجر : (٣٩ - ٤٢) .

(٤) انظر « إغاثة اللهفان » بتصرف : (١/٩٨- ٩٩) .

ثم يأخذ رحمه الله في تعريف الطمأنينة إلى الله سبحانه بقوله هي :

حقيقة تردُ منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه ، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه الجالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويتحرك ، ويبطش به تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه .

ولا يمكن أن تحصل الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره ، وهو كلامه الذي أنزل على رسوله كما قال تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب** ﴾[1][2] .

فهل عرفت نفسك أيها العبد ؟ هل أنت من هؤلاء الذين سلمت قلوبهم من الشيطان وأعوانه ؟ وهل عرفت السبيل إلى ذلك ؟

الثاني : القلب الميت

وهذا القلب نقيض سابقه وهو الذي صدّق الشيطان عليه وعده وأوقعه في حبائله ومصائده ودخل عليه في مملكته وأنزله عن عرشه وولى غيره مكانه فلم يعد له أمر ولا نهي فأصبح في عداد الأموات وهو كما يصفه ابن القيم بقوله :

القلب الميت : الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، إن أحب أحب لهواه ، وإن أبغض ، أبغض لهواه .

فهو آثر ، وأحب إليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامه ، والشهوة قائده والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فهو في تحصيل أغراضه الدنيوية ، مغمور

---

(١) الآية من سورة الرعد : (٢٨) .

(٢) انظر « الروح » : (ص ٢٤٩) .

وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور ، ويتبع كل شيطان مريد[١] .

وهذا القلب المعزول عن مملكته قد ولّى مكانه النفس الأمارة بالسوء فأصبح القلب محكومًا ، وما هي صفتها ؟ يقول ابن القيم عن النفس الأمارة :

هي المذمومة تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال حاكيًا عن امرأة العزيز ﴿ **وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي** ﴾[٢][٣] وهذه النفس كما يرى ابن القيم :

بذاتها أمارة بالسوء لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة ، إلا من رحمه الله ، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك فإن لم يلهمها رشدها بقيت على ذلك[٤] .

فياويل قلب قد حكمته نفس كهذه فانظر أيها الإنسان لسير حياتك التي تعيش فيها الآن ، هل تتبع ما تشتهيه وتلتذ به إذا ما سنحت لك الفرصة ؟ هل حياتك سائرة إلى تنفيذه وجلب ما تحبه نفسك من اللذات والشهوات ؟ هل الله سبحانه وتعالى وأوامره ونواهيه وما يحبه ويبغضه شغلك الشاغل أم إنك غافل عن هذا ولاهٍ فيما تحبه وتهواه ويرضي رغبتك؟ فإن رأيت من نفسك حب العاجلة والعمل لها وما تجلبه من لذة وشهوة وإعراض عن الله وما جاء به رسوله وجهل به ، فاعلم أن قلبك

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » بتصرف : (١/٩) .

(٢) الآية من سورة يوسف : (٥٣) .

(٣) كتاب « الروح » : (٢٥٦) .

(٤) « إغاثة اللهفان » : (١/٧٧) .

ميت ، والميت لا يحيا إلا بالله وما أنزله من الروح ، فابحث عن هذه الروح وأسكنها في قلبك فإنها مصدر حياته .

ثالثًا : القلب المريض

هذا القلب لم يسلم من هذه المعركة ولم يمت بل هو جريح قد أصابته بعض سهام العدو ولا يعلم مصيره هل يبرأ أم يموت ، وهو كما يصوره ابن القيم بأنه :

قلب له حياة وبه علة ، فله مادتان ، تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما .

ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته .

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر ، والعجب ، والعلو ، والفساد في الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه .

وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا ، وأدناهما إليه جوارًا[(١)] .

فهو لم يتمكن منه الإيمان ولم يزدهر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله بل فيه مادة منه ، ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر [(٢)]،

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٩/١) .

(٢) نفس المرجع : (١/ ١٣) .

والشيطان مع هذا القلب بين أخذٍ وردٍّ ، والحرب دائرة بينهما ، والخطر عليه عظيم ، حيث إن للشيطان منه نصيبًا قد يصل إليه في غفلة منه ويكيده حتى يستولي عليه .

والسبب في هذا التردد والتلون هو راجع إلى نوعية النفس التي تعيش تحت إمرته وهي التي أقسم بها الرب تبارك وتعالى في قوله : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾[(١)] والتي اختلف السلف في اشتقاقها كما يقول ابن القيم على معنيين : هل هي من التلوم وهو من التلون والتردد ؟ أو هي من اللوم؟ والذي يميل إليه ابن القيم رحمه الله أن اشتقاقها من اللوم بمعنى أنها التي تندم على ما فات وتلوم عليه فإن كان في معروف لامت نفسها على تقصيرها في فعله وإن كان منكرًا لامت نفسها على فعله .

والقول بأنها مشتقة من التلوم وهو التلون والتردد من لوازم هذا القول فإنها لتلونها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه فالتلوم من لوازم اللوم[(٢)] وهذا القسم عليه أكثر الناس .

*** العلاج**

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته وأودع فيه هذا القلب المتصرف في العبد وأراد منه سبحانه أن يتأتى منه وجوه الخير من محبوباته سبحانه كما يقول ابن القيم :

إن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحًا سليمًا لا آفة به ، ويتأتى منه ما هُيئ له وخلق لأجله[(٣)] .

---

(١) الآية من سورة القيامة : (٢) .

(٢) « إغاثة اللهفان » بتصرف : (١/٧٧ - ٧٨) .

(٣) « إغاثة اللهفان » : (١/١٠) .

ولكن قد يطرأ على هذا القلب ما يفسده، ويخرجه عن فطرته وسلامته وهو ما عبر عنه ابن القيم بمرض القلب وقد شخص مرض القلب بقوله :

هو مرض يحصل له ، يفسد به تصوره للحق ، وإرادته له فلا يرى الحق حقًّا ، أو يراه على خلاف ما هو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به إرادته له فيبغض الحق النافع ، أو يحب الباطل الضار ، أو يجتمعان له وهو الغالب [1] .

فالقلب كما يراه ابن القيم : له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن[2] ، فإذا فسد القلب وتصوره وإرادته وأراد الإنسان أن يعيد عليه صحته وسلامته وأن يأتي بما خلق له فلابدّ له من ثلاثة أمور كما يرى ذلك ابن القيم وهي :

يحتاج إلى ما يحفظ عليه قوته ، ويحتاج إلى حمية عن المؤذي الضار، ويحتاج إلى استفراغه من كل مادة فاسدة[3] .

وسوف يكون حديثنا عن العلاج في ذكر هذه الأمور ومتعلقاتها ، إن شاء الله .

وهذا التصور من ابن القيم لهذا العلاج في هذه النواحي قياسًا على البدن فالبدن لابد له من قوة وغذاء ، وحمية عن المؤذي الضار من الأطعمة ونحوها ، واستفراغ ما في البدن من المواد المؤذية والفاسدة فكذلك القلب

(١) « إغاثة اللهفان » : (١/١٧) .
(٢) نفس المرجع : (١/٢٠) .
(٣) نفس المرجع : (١/١٧) .

حيث قال رحمه الله :

وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكو بالأغذية المصلحة ، والحمية عما يضره فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ، ومنع ما يضره ، فكذلك القلب ، لا يزكو ولا ينمو ، ولا يتم صلاحه إلا بذلك ، ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن ، وإن وصل إليه شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل له به التمام المقصود [(١)] .

فابن القيم رحمه الله يرى أن القرآن الكريم : هو المتضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ويستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور** ﴾[(٢)] .

وقوله : ﴿ **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين** ﴾ [(٣)].

وأمراض القلوب شبهات وشهوات ، والقرآن الكريم جمع علاج القلب بنوعيه ، إلا أن ذلك مفيد بقيد فقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيًا** ﴾[(٤)] فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب ، وهو فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانًا بقلبه كما يرى الليل والنهار[(٥)] .

بل يرى رحمه الله أن تدبر القرآن أنفع شيء في معاشه ومعاده فيقول :

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٤٦/١) .

(٢) الآية من سورة يونس : (٥٧) .

(٣) الآية من سورة الإسراء : (٨٢) .

(٤) الآيات من سورة يس : (٦٩ - ٧٠) .

(٥) « إغاثة اللهفان » : (٤٥/١) .

من تدبر القرآن وأطال التأمل فيه وجمع فيه الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما ، وثمراتهما ، ومآل أهلها ونقل في يده مفاتيح السعادة والعلوم النافعة وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ... ثم يقول : وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه ، وطريق الوصول إليه ، وما له من الكرامات إذا وصل إليه .

وتعرفه مقابل ذلك ثلاثة أخرى : ما يدع إليه الشيطان ، والطريق الموصل إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه .

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ، ومشاهدتها ومطالعتها فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها ، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم ، فتريه الحق حقًّا والباطل باطلاً وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال ، والغي والرشاد ، وتعطيه قوة في قلبه ، وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة وسرورًا فيصير في شأن والناس في شأن آخر[1] .

وأمراض الشبهات والشكوك التي بلي بها العالم قديمًا وحديثًا من شك في الله ورسوله وشبه في أسمائه وصفاته وغير ذلك من الإيمان بالأقدار والانحرافات الداخلة على المسلمين إنما هي من ترك الناس لهذا الكتاب ونظرهم إلى ما عداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم وهذه الآراء والمعقولات كما يصفها ابن القيم رحمه الله أحد أمور أربعة : إما علوم لا

---

(١) بتصرف من « مدارج السالكين » : (١/٤٨٥ - ٤٨٦) .

ثقة بها ، وإنما هي آراء وتقليد ، وإما علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها ، فهي « لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل »[١] .

أما القرآن الكريم فيوصلك إلى نفس اليقين بأقرب الطرق وفي جميع مطالب العباد لذلك فإن أهله لم يجد الشك إلى نفوسهم طريقًا فهم يقرؤون في الإثبات ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾[٢] وفي النفي ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[٣][٤] فعرفوا الحق من خلال ما أخبروا به بأقصر الطرق وأقربها إلى الذهن وأصدقها حديثًا من غير شك ولا شبهة حيث يقول ابن القيم عن كتاب الله :

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن [٥] .

فإذا كان القرآن شفاء للقلب من الشبهات والشكوك فهو أيضًا شفاء من أمراض الأهواء والشهوات كما يوضح ذلك ابن القيم بقوله :

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه ، من الحكمة ، والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ،

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » : (٤٤/١) .
(٢) الآية من سورة طه : (٥) .
(٣) الآية من سورة الشورى : (١١) .
(٤) انظر ذلك في « إغاثة اللهفان » : (٤٥/١) .
(٥) نفس المرجع : (٤٤/١) .

والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ، ويرهب عما يضره ، فيصير القلب محبًا للرشد ، مبغضًا للغي ، فالقرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة ، فيصلح القلب ، فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها ، فتصلح أفعاله الإختيارية والمكتسبة[١] .

أولاً : ما يحفظ عليه قوته

يرى ابن القيم أن مدار حفظ القلب عليه بالإيمان وأوراد الطاعات[٢] .

والإيمان هو الأساس لقوة القلب وصحته وعندما نقول ذلك إنما نعني ما نقول وليس أدل على ذلك من الواقع الملموس فلم نر أصح قلوبًا ولا أشجع ولا أفهم ولا أقوى ولا أصلب في الحق ، ولا ألين على المؤمنين ، ولا أعطف على المساكين مِن قلوب مَن عمرت قلوبهم بالإيمان بالله وعلى رأسهم رسول الله ﷺ ثم أصحابه ثم تابعوهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين فهي أشرف القلوب وأعلاها منزلة عند الله ، فإذا نظرت بعين البصيرة إلى ما كان منهم أوقعك على هذا الحق الذي لا يماري فيه إلا جاهل معاند .

فانظر إليهم في التوحيد والمحبة ، وانظر إليهم في الطاعة والعبادة ، وانظر إليهم في المحن والبلايا ، وانظر إليهم عند الأقدار والمصائب ، وانظر إليهم في النطق بالحق والدعوة إليه وإيثاره ، وانظر إليهم في الحرب

---

(١) انظر ذلك في « إغاثة اللهفان » : (٤٥/١) .

(٢) نفس المرجع : (١٧/١) .

والقتال، وانظر إليهم في العفة والشهامة ..... والحق أنهم المثل الأعلى وما ذلك إلا من الإيمان الذي خالج نفوسهم ، واستقرار اليقين في قلوبهم .

وإليك ابن القيم وهو يعرف هذا الإيمان الذي جعلهم بهذه الصورة الرائعة النادرة فيقول عن الإيمان :

هو حقيقة مركبة ، من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ ، والتصديق به عقدًا ، والإقرار به نطقًا ، والإنقياد له محبة وخضوعًا ، والعمل به باطنًا وظاهرًا ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله والبغض في الله ، والعطاء لله والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده .

والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهرًا وباطنًا وتغميض عين القلب عن الإلتفات إلى سوى الله ورسوله[1] .

بهذا التصور وتطبيقه حاز أولئك كمالات القلوب ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها والله المستعان ، وهذا الإيمان قول وعمل وتصديق ، والتصديق محله القلب والله أعلم به ، أما القول والعمل فهو أثر التصديق والله سبحانه يجمع بين التصديق والعلم كقوله تعالى : ﴿ **الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾[2] والأعمال والأقوال هي التي تزيد الإيمان وهذا قول السلف زيادة الإيمان بالطاعة وهي أوراد الطاعات التي فرضها الرب تبارك وتعالى وهي أحب شيء إلى الله تعالى كما في الحديث : « **وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ**

---

(١) « الفوائد » : (١٢١) .

(٢) الآية من سورة مريم : (٩٦) .

بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصره به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ... » [١] .

فإذا اتضح هذا فسوف يكون حديثنا عن مقويات إيمان القلب وهي العبادات والأذكار والأدعية التي تحفظ عليه قوته وصحته التي فطر عليها وخلق من أجلها .

* العبادات [٢]

ابن القيم عندما يتحدث عن العبادة يبين أنها هي قوة القلب الحقيقية وهي التي تحفظ عليه هذه القوة وتزيده قوة إلى قوته وأنها لذته ونعيمه وسروره ، وعلى قدر انعدامها تنعدم اللذة والسرور والنعيم فكل ما كان أقرب وأكثر وأصح عبادة كلما كان النعيم أكثر ، وكلما قلت وتشتتت ، وخالفت منهج الإسلام كلما كان النعيم والسرور معدومًا[٣] .

وأعتقد أن هناك الكثير من الناس يخالفونه هذا الرأي : وذلك لأنهم ينظرون إلى العبادة من منظار التكليف والمشقة وأنها على خلاف مقصود القلب ولذته وهي مجرد إمتحان وإبتلاء .

وابن القيم لا ينكر المشقة والتكليف في بداية الأمر على العابد ولكنه

---

(١) رواه البخاري « كتاب الرقاق » باب التواضع : (٧/١٩٠) .

(٢) تحدثت في الباب الأول عن العبادات عند حديثي عن أركان الإسلام ، وقد بينت الحاجة إلى العبادة، وأن العبادات ليست تكاليف ومشقة لمجرد الابتلاء ، وبينت أن العبادة إنما شرعت لمصلحة العباد وقد تحدثت عن أركان الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصوم ، والحج وبينت الحكمة من تشريعها .

(٣) انظر في ذلك « إغاثة اللهفان » : (١/ ٢٦) و « طريق الهجرتين » (ص ٥٥) وما بعدها .

لا ينظر إلى هذه المشقة والتكليف وإنما ينظر إلى الآثار المترتبة على العبادة الصحيحة والكامنة في سعادة الروح والقلب ، التي هي السعادة التي لا يمكن أن تحصل للعبد إلا بعبادة الله وحدهُ لا شريك له ، ولا يعرف هذه السعادة ولا يتصورها إلا من قام بها على أتم وجه فهو المدرك لها والواجد لآثارها ، في قلبه وروحه وذلك أن المؤمن دائمًا ما يتطلع إلى اللذة والنعيم الذي هو مقبل إليه وقد وعده به ربه سبحانه وتعالى أصدق من وعد ، من النظر إلى وجهه سبحانه ، ودخول جنته وما فيها من نعيم فهو مشتاق فرح مسرور بذلك اللقاء الذي تيقنه ، ويرتقبه ويعمل من أجل الوصول إليه ولذلك فهو في سعادة في الدنيا بشوقه إلى الله وهو في سعادة في الآخرة لما يجده من ملذات أعدت له .

فالمؤمن من سافر إلى الله فرحًا مشتاقًا إلى لقائه ، كما أن أي إنسان غاب عن أهله وأحبابه مدة طويلة حتى اشتاق إلى لقائهم فإذا عزم على السفر رأيته سعيدًا فرحًا مسرورًا أخذ يجمع كل ما بوسعه من الهدايا وما يرضي الأحباب عنه ويرتقب الساعات والدقائق وهي تمر كأنها أخذت في التأخير والإبطاء من أجل تأخيره عن محبوبه ، وهكذا سير المؤمن إلى الله تعالى في هذه الحياة وتقربه لله فتكون بذلك الحياة طيبة هنيئة سعيدة ، كما أخبر الرب سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ **من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة** ﴾[1] .

ليست هذه الحياة هي الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل الحياة الطيبة التي وعد الله بها أعظم من ذلك وأشرف وأسعد وهي حياة من اجتمعت جميع همومه

---

(١) الآية من سورة النحل : (٩٧) .

وصارت همًّا واحدًا في مرضاة الله ، ولم يتشعب قلبه وإرادته وأفكاره وتنقسم بكل واد منها شعبة بل اقتصر على الله وحده فأصبح يدور عليه همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه .

فإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة وأدّى الفرائض والنوافل صار محبوبًا لله فإذا صار محبوبًا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والإهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه ألبتة [(١)] .

هذا هو النعيم الحقيقي الذي يراه ابن القيم رحمه الله ، أما ما تراه أيها المسكين وتظنه نعيمًا وسرورًا ولذة عند من قل نصيبه من عبادة الله من الكفار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والركب والمنكح والذي يزيد عند أعداء الله أضعافًا مضاعفة عن أولياء الله ، فإن ذلك ليس نعيمًا على الحقيقة بل هو إملاء وكيد من الله تعالى لهم كما قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾[(٢)] وهذا من عدل الله سبحانه وأنه لا يضيع عمل عامل فمن عمل للدنيا فإنه يوفّ إليه عمله في الدنيا ولكنه في الآخرة من الخاسرين ، فهذا نعيم زائل يعذب الإنسان به وهذا ما شاهدناه وسمعناه في هذه الحياة فكم من منعم مترف في هذه الحياة انتحر وقتل نفسه ، وكم منهم من حائر ضاقت عليه الأرض بما رحبت ؟! وكل ذلك من فقدهم الإيمان الذي هو لذة الروح والقلب وسروره .

---

(١) انظر ذلك في « الجواب الكافي » (ص : ٢١٨ - ٢١٩) .

(٢) الآية من سورة هود : (١٦) .

ولا يتمنى هذا النعيم إلا من قل نصيبه من الإيمان ولم يذق حلاوته كما حكى الله سبحانه ذلك في كتابه حيث قال عن قارون وقومه : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنّوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون** ﴾[1] .

وقد مثل ابن القيم رحمه لهذا النعيم الزائل المنقطع الذي يعذب به صاحبه أكثر من نعيمه به على الحقيقة وأن ما يحصل به بملابسة هذا النعيم من جنس ما يحصل للمريض « بالجرب » من لذة الأظفار التي تحكه فهي تدمي الجلد وتحرقه وتزيد في ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما له في حكها من لذة ، وهكذا يتعذب به القلب من محبة غير الله ، وهو عذاب عليه ومضرة ، وألم في الحقيقة لا تزيد على لذة حك الجرب والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما [2] .

والمراد : أن عبادة الله وحده ومحبته وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه ، وهي المربية للإنسان التي تصلحه وتجعل منه عضوًا صالحاً في الأرض لا يأتي منه إلا الخير ، والبركة ؛ لذلك نجد أن القرآن الكريم والسنة المطهرة تبين ذلك وتوضحه وأنها قوة وطهر للإنسان وزكاة فيقول تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن**

---

(١) الآيات من سورة القصص : (٧٩ - ٨٢) .

(٢) انظر « طريق الهجرتين » : (٥٨) .

الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾[1] ويقول عن الزكاة والصدقة : ﴿ **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**﴾[2] ويقول سبحانه عن الحج: ﴿**الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج**﴾[3] .

ويقول النبي ﷺ عن الصيام : « **فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم** »[4] .

ويقول الرب تبارك وتعالى بعد أن بين جملة من أحكام العبادات : ﴿**ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون** ﴾[5] .

*** الذكر**

ومن العبادات المقوّية للقلب الذكر الذي لا ينفك عن حياة المؤمن وفي كل حال ، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم في البيت والشارع والمسجد والمجلس وفي كل مكان - ما عدا مواضع النجاسات - والذكر كما يقول ابن القيم هو :

منشأُ الولاية التي من أعطيه اتصل ، ومن منعه عزل ، وهو قوت القلوب وقوتها ، والتي متى فارقها صارت الأجساد لها قبورًا ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوارًا .

به يستدفع المؤمنون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به

---

(1) الآية من سورة العنكبوت : (45) .

(2) الآية من سورة التوبة : (103) .

(3) الآية من سورة البقرة : (197) .

(4) رواه مسلم في كتاب « الصيام » برقم : (163) باب فضل الصيام : (807/2) .

(5) الآية من سورة المائدة : (6) .

المصائب يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا .

وكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها ؛ فكذلك القلوب بور خراب ، وهو عمارتها وأساسها .

كما أنه روح الأعمال الصالحة ، فإذا أخلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه[١] .

وقد عرفنا فيما مضى أن مرض القلب وموته وإضعافه سببه دخول الشيطان إليه وتوليه له بالوسوسة والتمني وتطويل الأجل إلى غير ذلك من مداخل الشيطان مما سبب له هذا الضعف والفتور الذي يصل إلى حد الموت .

وليس هناك سبيل إلى حرز نفسه منه وإبعاده عنه إلا بالذكر كما يقول ابن القيم معلقًا على حديث رسول الله ﷺ وقوله في الحديث الطويل[٢] : « **وآمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثلَ ذلك مثلُ رجل خرج العدو في آثره مسرعًا ، حتى إذا أتى إلى حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم** » ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله ، فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة ، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وأنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله انخنس عدو الله وتصاغر ولهذا سمي ﴿ **الوسواس الخناس** ﴾[٣] أي يوسوس في

---

(١) انظر « مدارج السالكين » بتصرف : (٢/٤٤٠ - ٤٤١) .

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند»: (٤/٢٠٢) برقم (١٧٨٣٣) والترمذي برقم (٢٨٦٧) في «الأمثال».

(٣) الآية من سورة الناس : (٤) .

الصدور ، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض[١] .

وقد سرد ابن القيم الأدلة من الكتاب والسنة على فضل الذكر وأنه من المنجيات من عذاب الله تعالى وأن أهله هم السابقون ، وذكر عظيم حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، وأنه جلاء للقلب من صدئه حيث أنه يصدأ كما يصدأ النحاس والحديد وأن الذكر يجلوه حتى يجعله كالمرآة البيضاء لأن القلب يصدأ بالغفلة والذنب ، وجلاؤه بالإستغفار والذكر[٢] .

كما يوجه ابن القيم الأمة إلى أن الذكر لا يقف عند هذا الحد من الفائدة بل أن للذكر أكثر من مائة فائدة عائدة أكثرها على القلب والروح والبدن مثل :

أنه يطرد الشيطان ، ويرضي الرحمن ، ويزيل الهم والغم عن القلب ، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور الوجه والقلب ، ويقوى به مع البدن ، ويجلب الرزق ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورث المحبة ، والإنابة ، والرجوع إلى الله ، ويورث القرب منه ، والهيبة لربه ، ويورث القلب الحياة ، ويحط الخطايا ، ويزيل الوحشة بين العبد وربه .... وغير ذلك من الفوائد العظيمة التي أخذها من القرآن الكريم أو السنة المطهرة ، والتي بينت عظيم فضله ومكانة أهله[٣] .

*** أنواع الذكر :**

والذكر الجاري على الألسنة له أنواع ثلاثة هي :

---

(١) انظر « الوابل الصيب » بتصرف : (٤٦) .

(٢) انظر في ذلك « الوابل الصيب » (ص: ٥٠) و« مدارج السالكين » : (٢/٤٤١) .

(٣) انظر « الوابل الصيب » : (٥٢) .

ذكر الثناء على الله سبحانه وتعالى نحو : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

أما ذكر الدعاء والسؤال نحو : ﴿ **ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** ﴾(١) ، ويا حي يا قيوم برحمتك أستغيث ، ونحو ذلك .

وذكر الرعاية نحو قول الذاكر : الله معي ، الله ناظري ، الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرز من الغفلة والإعتصام من الشيطان والنفس والأذكار النبوية جملة هذه الأنواع (٢) .

*** مفاضلة الذكر بغيره :**

وإذا ثبت لك أيها الأخ المسلم عظيم نفع الذكر وشرفه وأنه حرز وحصن حصين وأنه أفضل من الدعاء ، فاعلم أن قراءة القرآن الكريم أفضل منه وأنفع وأعظم أجرًا وفضلها على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه ، والقراءة المطلقة أفضل من الذكر المطلق كأن يترك العبد قراءة القرآن ، وتدبر معناه والتفكر في كلام الله ، ويشرع في ذكر مطلق .

وقد يعرض للمفضول من هذه الأصناف الثلاثة ، ما يجعله أولى من الفاضل بل يعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من القرآن بل القرآن منهي عنه في هذه المواضع وكذا جميع أذكار الصلاة وكذا الذكر عقب الصلاة من التهليل

---

(١) الآية من سورة الأعراف : (٢٣) .

(٢) « مدارج السالكين » بتصرف : (٢/٤٥٢) .

والتسبيح والتحميد والتكبير ، وكذا الدعاء قد يكون في حال من الأحوال أفضل من القراءة والذكر كأن يعرض للعبد حاجة فإذا أقبل على سؤالها ، والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالاً مما لا يحصل له في القراءة والذكر فيكون اشتغاله بالدعاء أنفع(١) .

وبالجملة فإن القرآن أفضل من الذكر المطلق ، والذكر المشروع في العبادات وفي الأوقات المخصوصة أفضل من القرآن والذكر أفضل من الدعاء وقد يكون الدعاء أفضل من الذكر .

*** الدعاء :**

الدعاء مخ العبادة وهو من مقويات القلب لأنه دواء للقلب وهو من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن (٢) .

والدعاء من أعظم العبادات التي لا تجوز إلا لله وحده قال تعالى : **﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾**(٣) .

قال ابن القيم : هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة ، وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان :

فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن

---

(١) انظر « الوابل الصيب » : (١١٨) .

(٢) « الجواب الكافي » : (ص ٧) .

(٣) الآيات من سورة الأعراف : (٥٥- ٥٦) .

لدعاء العبادة .

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كف ما يضره ، أو دفعه ، ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقًّا والمعبود لا بدّ أن يكون مالكًا للنفع والضر فهو يدعى للنفع ودفع الضر ، دعاء المسألة ، ويدعى خوفًا ورجاء ، دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان لذلك فقد أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًا ولا نفعًا وذلك في القرآن كثير .

وأكثر ألفاظ القرآن الدال على معنيين فصاعدًا تتناول نوعي الدعاء كقوله تعالى : ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان** ﴾[١] وقوله : ﴿ **قل ما يعبأُ بكم ربي لولا دعاؤكم** ﴾[٢] وغير ذلك وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم ، وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة ، وهو في دعاء العبادة أظهر كقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له** ﴾[٣][٤] .

وكذا ابن القيم يقرر أن الدعاء والذكر متلازمان لأن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وصفاته ، فهو ذكر وزيادة ، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب [٥] .

---

(١) الآية من سورة البقرة : (١٨٦) .

(٢) الآية من سورة الفرقان : (٧٧) .

(٣) الآية من سورة الحج : (٧٣) .

(٤) انظر ذلك في « التفسير القيم » : (٢٤٠ - ٢٤٥) .

(٥) انظر ذلك في « التفسير القيم » : (٢٥٠) .

وعلى هذا يتضح أن الدعاء عبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده .

فإذا نزل بالعبد بلاء ، فليس له علاج إلا الدعاء . وللدعاء مع البلاء ثلاثة مقامات كما يقول ابن القيم :

الأول : أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون الدعاء أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفًا .

الثالث : أن يتقاوما فيدفع كل واحد صاحبه(١) .

*** صفة الدعاء المستجاب :**

إذا عرف هذا فمتى يكون الدعاء مفيدًا نافعًا يقوى على البلاء ويمنعه بمشيئة الله وقدرته ، ولنترك ابن القيم يبين لنا ذلك فيقول :

إذا جمع مع الدعاء حضور القلب ، وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة - وهي : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان ، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبة ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر - وصادف خشوعًا في القلب ، وانكسارًا بين يدي الرب ، وذلًا له وتضرعًا ورقة ، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والإستغفار ، ثم دخل على الله ، وألحّ عليه في المسألة ، وتملقه ، ودعاه رغبة ورهبة ،

---

(١) « الجواب الكافي » : (ص٧) .

وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد ، لا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة وأنها متضمنة للإسم الأعظم(١) .

كما أن ابن القيم رحمه الله ينبه إلى أن الدعاء قد يتخلف أثره عنه وهذا يعود إلى أمور منها عدم تحري الوقت ، وإما لضعف الدعاء في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه وقت الدعاء ، وإما لحصول المانع من الإجابة إما لأكل الحرام ورين الذنوب على القلوب واتباع الهوى والشهوة وغلبتها عليه (٢) .

ثانيًا : حمية القلب عن المؤذي الضار :

حمية القلب عن العطب والفساد باجتناب الآثام والمعاصي وذلك لا يتم إلا بحماية القلب من مسبباتها وهي الشيطان والنفس ، لذلك سوف يكون حديثي عن حمية القلب من الشيطان وعلاجه وحمية القلب من النفس وعلاجها وحميته عن المعاصي وعلاجها .

أ ــ حميته من الشيطان :

وهذا باب عظيم أولاه ابن القيم عنايته وأفرده في كتاب خاص أسماه « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » وبين أن المتأخرين من أرباب السلوك لم يعتنوا به ، مما كان دافعًا على أن يكتب في مكائد الشيطان ومصائده التي يكيد بها ابن آدم وطريقته وأسلوبه في الكيد وتفننه فيه وأن جميع ما

---

(١) « الجواب الكافي » : (ص ٩) .

(٢) نفس المرجع : (٦) .

يقع الإنسان فيه من البدعة والمعصية راجعة إلى كيده[١] .

وعلاج القلب من هذا الشيطان بشيئين :

أولًا : الإستعاذة بالله منه كما أمرنا الله بذلك في قوله : ﴿ **فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾[٢] ومعنى (استعذ بالله) : امتنع به واعتصم به والجأ إليه ، وقد ذكر رحمه الله بعض الحكم من الإستعاذة بالله عند قراءة القرآن [٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾[٤] .

ونزغ الشيطان وسوسته ومعنى ﴿ **ينزغنك** ﴾ : يصيبنّك ويعرض لك عند الغضب ووسوسة بما لا يحل ﴿ **فاستعذ بالله** ﴾ : أي اطلب النجاة من ذلك بالله ، فأمر سبحانه أن يدفع الوسوسة بالإلتجاء إليه والإستعاذة به .

والنزغ والنغز والهمز والوسوسة سواء [٥] وفي « صحيح مسلم » قال رسول الله ﷺ : « **يأتي الشيطان أحدكم فيقول له : من خلق كذا وكذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته** » [٦] .

والمراد أن الإستعاذة بالله من أقوى ما يحمي القلب من الشيطان .

ثانيًا : الذكر والمراد : ذكر الله سبحانه وتعالى ، ودعاؤه والذي تكلمنا عنه

---

(١) راجع كتاب « إغاثة اللهفان » : (٩١/١) وما بعدها .

(٢) الآية من سورة النحل : (٩٨) .

(٣) انظر « إغاثة اللهفان » : (٩١/١ - ٩٤) .

(٤) الآية من سورة الأعراف : (٢٠٠) .

(٥) انظر ذلك في تفسير القرطبي : (٣٤٧/٧ - ٣٤٨) .

(٦) رواه البخاري كتاب « بدء الخلق » باب صفة إبليس وجنوده رقم الباب (١١): (جـ٤ ص: ١٦٥).

سابقًا وبينا أنه حرز من الشيطان وحصن حصين وقد يصرع صاحب الذكر الشيطان كما يصرع الشيطان بني آدم لما عند صاحبه من الإيمان والقوة .

ب - حمية القلب من استيلاء النفس عليه وعلاجها :

عرفنا أن النفس من معوقات القلب وأن الشر جميعه يدخل على القلب منها فالنفس تدعو إلى الطغيان ، وإيثار الحياة الدنيا والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى والقلب بين الداعيين[1] لذلك انقسم الناس إلى قسمين :

قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعًا لها تحت أوامرها .

وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعًا لهم منقادة[2] .

ويرى ابن القيم أن سبب صدور الشر والسوء من النفس لأن طبعها الجهل والظلم وأنه سبب كل قول وعمل قبيح ، وحمية النفس من هذين الدائين بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم [3] .

وأما علاج القلب من استيلاء النفس الأمارة عليه :

فله علاجان : محاسبتها ، ومخالفتها [4] .

أولاً : المحاسبة :

يرى ابن القيم أن هلاك القلب وفساده من إهمال محاسبة النفس ،

(١) « إغاثة اللهفان » : (٧٢/١) وانظر « مدارج السالكين » : (٢٤٢/١) .
(٢) نفس المرجع : (٧٥) .
(٣) انظر « مدارج السالكين » : (٢٤٢/١) .
(٤) « إغاثة اللهفان » : (٧٨/١) .

وموافقتها وتلبية رغباتها وهواها ، والمؤمن مطالب بمحاسبة نفسه ومطالعة عيوبها قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد**﴾[1] .

وقال النبي ﷺ : « **الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله** »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ لا تخفى منكم خافية » [3] .

فعلى العبد أن يحاسب نفسه كما يحاسب الشريك شريكه في المال فإنها لا تتم إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثم بمحاسبته ثم يمنعه من الخيانة إن اطلع عليه فكذلك النفس يشارطها على حفظ الجوارح السبعة [4] ثم ينتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها ، فلا يهملها ، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة فحينئذ يتبين له حقيقة الربح من الخسران [5] .

ثم يذكر رحمه الله جماع المحاسبة التي يجب أن يحاسب العبد نفسه

---

(١) الآية من سورة الحشر : (١٨) .

(٢) رواه أحمد في « المسند » : (١٢٤/٤) والترمذي في كتاب « صفة القيامة » برقم (٢٤٦١) باب الكيس من دان نفسه : (١٦٥/٧) .

(٣) رواه الترمذي في كتاب « صفة القيامة » برقم (٢٤٦١) باب الكيس من دان نفسه : (١٦٦/٧) .

(٤) هي العين واللسان والأذن والفرج واليد والرجل والفم .

(٥) « إغاثة اللهفان » : (١/ ٨٠) .

عليها وهي كما يقول ابن القيم :

أن يحاسبها على الفرائض فإذا تذكر فيها نقصًا تداركه إما بقضاء أو إصلاح ثم يحاسبها على المناهي فإذا ارتكب منها شيئًا بادر إلى التوبة والإستغفار والحسنات الماحية ، ثم يحاسب نفسه عن الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله ، ثم يحاسبها بما تكلم به ، أو مشت إليه رجلاه ، أو بطشت يداه ، أو سمعته أذناه ، ماذا أرادت بهذا ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجه فعلته ؟ ويعلم أنه لا بدّ أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوانين: لم فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول عن الإخلاص ، والثاني عن المتابعة[1] .

* **محل المحاسبة :**

ويرى رحمه الله أن محل المحاسبة في أمرين : الأول قبل العمل ، والثاني بعد العمل .

فالأول : أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه وهذا يوجب على العبد وقفات قبل العمل وعند تحرك النفس وإرادتها أولها : هل هذا العمل مقدور له ؟ ثم هل فعله خير من تركه ؟ ثم هل الباعث عليه إرادة وجه الله ؟ ثم هل هو معان عليه ؟ فإن وجده مقدورًا خيرًا معانًا عليه مرادًا به وجه الله فليقدم، وإن كان غير ذلك فليحجم وإن كان في ذلك تحقيق مطلوبه لأنه يدخل عليه داخل فاسد[2] .

والثاني : بعد العمل وهو ثلاثة أنواع :

---

(١) « إغاثة اللهفان » بتصرف : (١/ ٨٣) .

(٢) نفس المرجع بتصرف : (١/ ٨١) .

محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله ، محاسبتها على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله ، أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله ؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة فيكون رابحًا ؟ أم أراد به الدنيا فيفوته الظفر ؟ (١) .

ثانيًا : المخالفة :

ثاني علاج للقلب من استيلاء النفس عليه هو مخالفتها ، فإنا قد عرفنا أن النفس منبع كل شر وسوء وفساد وأنها لا تأمر بالخير ودائمًا تنزع إلى حب الشهوات والملذات والخمول عن العمل الصالح .

لذلك يجب على العبد أن يخالف هواها ورغبتها فإنها لا تميل إلى الخير والفلاح وهي ميالة إلى الشر والفساد فإن أراد القيام إلى العبادة تكاسلت وتباطأت وبدأ الشيطان يوسوس لها بأمور أخر وشغل آخر وقد يعطيه من الأهمية ما يرجح به عن العبادة ، فلابدّ من مخالفتها وعمل ما لا تحبه وتهواه لأنه الخير والفلاح ، وكذا إذا رأت المعصية مالت إليها ورغبت فيها فعليك مخالفتها بترك المعصية لأنه الخير والفلاح وهكذا .

جـ - حمية القلب عن الآثام والمعاصي :

ليس للشيطان طلب غير أن يقع هذا العبد المسكين في المعصية ، فإذا وقعت المعصية نال مبتغاه ، لأن المعصية هي أعظم أسباب موت القلب ومرضه ومن ثم هلاك العبد يقول ابن القيم عن الذنوب والمعاصي :

ينبغي أن يعلم : أن الذنوب والمعاصي تضر ، ولابدّ أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر وهل في

(١) « إغاثة اللهفان » بتصرف : (١/ ٨٢) .

الدنيا والآخرة - شر وداء - إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟ .

ثم أخذ رحمه الله يبين الشرور التي وقعت على بني آدم مما ذكر الله سبحانه في كتابه أو رسوله في سنته مثل خروج أبينا آدم وأمنا من الجنة بسببها ، وإغراق أهل الأرض ، والرياح والزلازل والصيحة ورفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم ..... وغير ذلك مما وقع على ابن آدم من الكوارث والنكبات التي أوقعها الله سبحانه وتعالى على العصاة من عباده ممن استباح الذنوب والمعاصي ولم يرعو[١] .

وآثار المعاصي عقوبات تقع على العبد أو على الأمة والتي على الأمة هي التي وقعت على الأمم المخالفة لما جاء به الأنبياء كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ، وأما ما يقع على العبد مما ذكر في القرآن الكريم مثل الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار والإقفال على القلوب والرين وغير ذلك [٢] .

وابن القيم رحمه الله يؤكد في كتاباته على توجيه القرآن الكريم في الدعوة ، فهو عندما يريد تربية الأمة عن المعاصي والآثام فإنه يسلك منهج القرآن في ذلك ببيان الآثار المترتبة على المعاصي من العقوبات الدنيوية والأخروية الواقعة على الروح والبدن والقلب كما قال :

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضره بالقلب ، والبدن في الدنيا والآخرة[٣] .

---

(١) انظر « الجواب الكافي » : (٤٦ - ٥٩) .

(٢) نفس المرجع : (١٣٨) .

(٣) نفس المرجع : (٦٠) .

ثم بدأ يذكر الآثار المترتبة على المعاصي من العقوبات التي تقع على البدن والقلب ، مما هو أحسن علاج ودواء لمن في قلبه مرض المعاصي وأقوى رادع عنها لمن ألقى السمع وهو شهيد حيث إنها معتمدة على الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال فضلاء الأمة ، والحق أن عقوبة واحدة من هذه العقوبات التي ذكرها ابن القيم أعظم دواء لمن كان حيًّا « وما لجرح بميت إيلام » .

ثم بعد ذكر هذه العقوبات يؤكد على أن هذا هو المنهج السليم في الردع عن المعاصي وإحياء القلوب بالبعد عنها حيث يقول :

فإن لم تَرْدَعْكَ هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيرًا في قلبك ، فأحضر العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله عن الجرائم[1] .

ثم ذكر الحكمة من الحدود الشرعية وكيف تكون رادعًا عن المعصية مثل عقوبة الزنا والسرقة وغيرها [2] .

ثالثًا : استفراغه من كل مادة فاسدة :

عرفت أيها الأخ المؤمن ما يحفظ على القلب قوته ، وعرفت كيف تحمي القلب عن المؤذي الضار من الآثام والمعاصي ، ولكن هذه الآثام والمعاصي قد خالطت القلب وأفسدته ونجسته ، فهل هناك ما يزيل هذه الأخلاط الرديئة التي تلبس بها القلب فيعود إلى صفائه ونقائه ؟

ولنترك ابن القيم رحمه الله يجيب عن هذا السؤال فيقول :

---

(1) انظر « الجواب الكافي » : (129) .

(2) حبذا لو رجع كل مسلم إلى كتابه « الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي » فإن فيه حمية للقلوب من المعاصي وتأثيرًا عجيبًا .

إن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزلة الدغل في الزرع وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس .

فكما أن البدن إذا استفرغ من الأخلاط الرديئة ، تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا مانع فنما البدن .

فكذا القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة والإستغفار ، فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة . زكا ونما وقوى واشتدّ وجلس على سرير ملكه ونفد حكمه في رعيته فسمعت له وأطاعت[1] .

وهذه التوبة من أعظم ما من الله سبحانه وتعالى به على عباده ، فتصور حال العباد لولا هذه المنّة منه سبحانه فالله سبحانه عندما جعل الدخول عليه موقوفًا على طهارة العبد من النجاسات لذلك شرع له كيفية طهارة البدن والقلب فطهارة البدن بالماء وطهارة القلب بالتوبة فإذا اجتمع له الأمران صلح للدخول عليه[2] .

قال ابن القيم : قال الله تعالى ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعًا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾[3] هذه الآية في سورة مدنية خاطب الله تعالى بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة « لعل »

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٤٦/١) .

(٢) « إغاثة اللهفان : (٥٦/١) .

(٣) الآية من سورة النور : (٣١) .

المشعرة بالترجي إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون[١] .

فهو يوجه الأمة إلى مكانة التوبة وحاجتها إليها أعظم من حاجة أولئك الذين خاطبهم القرآن وهم خير الخلق بل إن الأمر تعداهم إلى من هو أفضل منهم وهو رسول الله ﷺ وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم : « **رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور** » مائة مرة، فكيف بحالنا نحن ، الذين تلبسنا بالذنوب والمعاصي وليس فينا من قام بجزء من عباداتهم وجهادهم وهجرتهم ؟" [٢] .

*** شروط التوبة وحقيقتها**

يقول ابن القيم : فحقيقة التوبة هي الندم على ما سلف منه في الماضي، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ولما كان موقوفًا على تلك الثلاث جعلت شرائط له [٣] .

وقد أفاض رحمه الله في ذكر التوبة وذكر أسرارها ولطائفها وأحكامها وملابساتها وغير ذلك مما يتعلق بها ، يحسن بالتائب الرجوع إليها في كتابه

---

(١) « مدارج السالكين » : (١٩٨/١) .
(٢) انظر نفس المرجع : (١٩٩/١) .
(٣) نفس المرجع : (٢٠٢/١) .

« مدارج السالكين » الجزء الأول ، ليعرف عظمة الله وجوده وكرمه وإحسانه للعبد وتشريفه له مما يوجب في قلبه الرغبة إلى التوبة .

* * *

الأساس الثاني في إصلاح المجتمع : السياسة

عرفنا فيما سبق الأساس الأول لإصلاح الأمة وهو إصلاح الفرد ، وبقي أن نتحدث عن الأساس الثاني في إصلاح الأمة ، وهو السياسة وهي كما عرفها ابن القيم بأنها :

فعل يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد[1] .

والحق أن السياسة من أعظم المؤثرات على صلاح الأمة وفسادها ، فبصلاح السياسة تصلح الأمة وبفسادها تفسد الأمة ، وهذا ما يلمسه العقلاء ، والناظرون في حياة الأمم البائدة أو الحاضرة ، وكذا ما حصل في البلاد الإسلامية فكلما كانت السياسة صالحة كان الخير والبركة والرخاء والأمن والأمان أكثر وكلما بعدت عن الصلاح بعدت هذه الميزات عن الأمة .

* قوام السياسة الإسلامية

إن صلاح السياسة وأساسها وقوامها هو الدين الذي ساس به المصطفى ﷺ المجتمع المسلم وسار عليه خلفاؤه الراشدون ومن تبعهم من بعدهم فكان من آثارها أن صنعت أرقى مجتمع عرفه التاريخ قد جمع معايير الرقي التي عرفتها البشرية (فإن الإسلام ليس كما يظن بعض الناس ممن رانت على بصائرهم غشاوات الحسن ، وأثرت في نفوسهم ماديات الحياة واستولت على عقولهم وساوس الشيطان ـ ليس الإسلام كما يتوهم هؤلاء ـ

---

(١) « الطرق الحكمية » : (ص١٦) .

مجرد طقوس دينية وعبادات يؤديها الإنسان في أوقات معينة فحسب ، وإنما الإسلام إلى جانب هذه العبادات ووجوب التزام المسلم بها هو دين ودنيا ، عقيدة وشريعة ، سياسة ودولة ، عبادة ومعاملة ، خلق وسلوك ، ودستور قويم يجمع بين طياته نظامًا إنسانيًا يختلف عما عداه من النظم الأخرى ، حيث لا يوجد اختلاف في أحكامه ، ولا تناقض في قوانينه كما هو الشأن في النظم والقوانين الوضعية الأخرى)[1] التي عجزت عن تربية أفرادها وعجزت عن إخضاع أرواحهم لقبولها والرضى بها ، لشعورهم بعدم تلبيتها لرغباتهم الروحية .

ومن العجب أن تجد من ينتسب إلى الإسلام لا يحكمها ويدعي أنه مسلم وقد يرقى إلى إعلان أنه مؤمن ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾[2] وهم الظالمون ، وهم الفاسقون ، كلها صفات وردت في القرآن لمن لم يحكم بما أنزل الله ، ومن العجب أن ترى البعض الآخر يدافع عنها ويدعو إلى تطبيقها ، بفصل الدين عن الدولة وإحلال هذه القوانين مكان الدين ، مدعيًا وزاعمًا أن الأحكام الدينية قديمة بالية ، وهي صالحة لعصور قد مضت كانت تتناسب معها ، أما الوقت الحاضر مع العلم والتطور فلا تناسب هذا المقام وهذا العصر .

وقد رد ابن القيم على أمثال هؤلاء المنحرفين ممن عاصره أو سبقه وبين

---

(١) « النظم الإسلامية والمذاهب المعاصرة » : (ص ٤ – ٥) بتصرف قليل تأليف د . حسن عبد الحميد عويضة الطبعة الثانية عام (١٤٠١هـ) دار الرشيد للنشر والتوزيع .

(٢) الآية من سورة المائدة : (٤٤) .

قصور نظرهم وقلة فهمهم وأن سبب ذلك القول هو قلة فهمهم للدين ، ومعرفتهم به ، ومطابقته للفطرة والواقع ، ونص قوله رحمه الله :

وهذا موضع مذلة أقدام ، ومضلة أفهام ، وهو مقام ضنك ومعترك صعب ، فرط فيه طائفة ، فعطلوا الحدود ، وضيعوا الحقوق ، وجرؤوا أهل الفجور على الفساد وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد محتاجة إلى غيرها .....

ثم قال : والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة وتقصير في معرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر [(١)] .

ثم بين رحمه الله أن قصور إدراك بعض ولاة المسلمين وعدم معرفتهم بالشريعة وأنها سياسة عادلة قد جمعت جميع طرق الحكم والخير والفلاح أدى بهم إلى سن قوانين لم يأت بها الشرع فكانت وبالاً على الأمة فقال :

فلما رأى ولاة الأمور ذلك ، وأن الناس لا يستقيم لهم أمرهم إلا بأمر وراء ما فهمه هؤلاء من الشريعة ، أحدثوا من أوضاع سياساتهم شرًا طويلاً وفسادًا عريضًا فتفاقم الأمر ، وتعذر استدراكه ، وعز على العالمين بحقائق الشرع تخليص النفوس من ذلك واستنقاذها من تلك المهالك .

وأفرطت طائفة أخرى قابلت هذه الطائفة ، فسوغت من ذلك ما ينافي حكم الله ورسوله[(٢)] .

وابن القيم رحمه الله يريد من هؤلاء أن يحكموا عقولهم وينظروا إلى الشريعة بعين الوعي وطلب الحق فإنهم سيجدون أن السياسة جزء من أجزاء

---

(١) « الطرق الحكمية » بتصرف : (ص ١٧) .

(٢) نفس المرجع : (ص١٧ - ١٨) .

الشريعة وأنه لا يمكن أن يفصل بين الشريعة والسياسة فيقول :

ومن له ذوق في الشريعة واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل ، الذي يسع الخلائق ، وأن لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح :

تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتج معها إلى سياسة غيرها [(١)] .

وهذا ما يقرره شيخ الإسلام رحمه الله وأنه لا يمكن فصل الدين عن الدولة لأن في ذلك فساد الأمة حيث يقول : « إن انفرد السلطان عن الدين أو الدين عن السلطان فسدت أحوال الناس »[(٢)] لأن الدين يحمي السلطان أو السائس من العبث والإنحراف والفساد والظلم ، والسلطان يحمي الدين بتطبيقه وتنفيذه في الأمة فإذا تأخر أحدهما عن الآخر فسدت أحوال الناس .

* الإمامة

الإمام أو الخليفة أو السلطان أو الملك أو ولي الأمر كلها تعني من يقوم بسياسة الأمة وإصلاحها وإصلاح أمورها وهي واجبة من واجبات الدين عند المسلمين (وعقدها لمن يقوم بها واجب بالإجماع)[(٣)] وذلك لأن الدين لا يقوم إلا بها كما قال شيخ الإسلام : « يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين إلا بها » [(٤)] ، فالدين

---

(١) « الطرق الحكمية » : (ص٥) .

(٢) « السياسة الشرعية » لشيخ الإسلام : (١٦٦) .

(٣) « الأحكام السلطانية » : (ص ٥) .

(٤) « السياسة الشرعية » : (١٦١) .

لا يقوم إلا بالإمامة وهذا هو مقصود الإسلام من إيجابها يقول شيخ الإسلام : « الواجب في الولاية إصلاح دين الخلق التي متى فاتهم خسروا خسرانًا مبينًا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا ، وإصلاح ما لا يقوم الدين إلا به من أمر دنياهم »(١) .

فالواجب على المسلمين اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله بطاعته وطاعة رسوله وهي من أفضل القربات لما فيها من حماية للدين والدنيا ومصلحة الأمة .

فإن ما أوجبه الله سبحانه وتعالى من جهاد ، وعدل ، وإقامة حدود ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، ونصرة مظلوم ، وغير ذلك من الواجبات لا يتم إلا بالإمارة والقوة ، وذلك يتضح من واجبات الإمام التي قررها علماء الإسلام من واقع ما عرف من طريقة النبي ﷺ وخلفائه وولاة المسلمين وهي :

حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة .

تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتخاصمين حتى تعم النصفة .

حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الأسفار آمنين .

إقامة الحدود لتصان محارم الله وتحفظ حقوق العباد .

تحصين الثغور وحمايتها من المعتدين .

---

(١) « السياسة الشرعية » : (٢٤) .

جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة .

جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع .

تقدير العطايا ، وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير .

استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوض لهم من أعمال .

أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة[١].

ومن خلال هذه الواجبات تتضح مكانة ولاية الأمر وأنها المحرك لهذا الدين لذلك فإن الله سبحانه وتعالى « ندب للأمة زعيمًا خلف به النبوة ، وحاطت به الملة ، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأي متبوع ، فكانت الإمامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة ، وانتظمت به مصالح الأمة حتى استثبتت بها الأمور العامة وصدرت عنها الولاية الخاصة »[٢] فالقرآن والسنة وفعل النبي ﷺ وتأميره على الجيش والبعوث والسرايا وأمره بعدم خروج المسلمين في سفر إلا بتأمير أمير عليهم وإجماع الأمة يدل بمجموعه على وجوب الإمامة .

فإذا عرف ذلك فمن الذي يختار الخليفة أو الإمام ؟ الذي يختار الخليفة هم أهل الحل والعقد عند المسلمين الذين يوثق بهم وبرجاحة عقولهم في اختيار الأفضل قال شيخ الإسلام : « ومذهب أهل السنة أن الإمامة تنعقد عندهم بموافقة أهل الشوكة الذين يحصل بهم مقصود الإمامة ، وهو القدرة والتمكين ولهذا يقولون : من صار له قدرة وسلطان يفعل به مقصود

---

(١) انظر « الأحكام السلطانية » للماوردي : (١٨) .

(٢) نفس المرجع : (٣) .

الولاية فهو من أولي الأمر المأمور بطاعته ما لم يأمر بمعصية فالإمامة ملك وسلطان برة كانت أو فاجرة »[١] .

وأهل الشوكة هنا هم الأمراء والحكام والعلماء وسائر الرءوس والزعماء.

* **واجبات الرعية**

فإذا عين الإمام للمسلمين وجب عليهم أمور نحوه أوجبها الشرع على الرعية لتقسيم الأمور وهي : أولها الطاعة ما لم يأمر بمعصية الله عز وجل والنصح لهم ، ويشاركون فيما يحتاج إليهم فيه من طاعة الله فيصلي معهم وخلفهم ويجاهد معهم الكفار ، ويحج معهم البيت ويستعان بهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود والعدل في الحكم والقسم [٢] .

كما يجب على الأمة عدم الخروج عليهم لما يسبب ذلك من المفاسد العظيمة يقول ابن القيم :

الإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : « **لا ما أقاموا الصلاة** » وقال : « **من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدًا من طاعة** » ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر[٣] .

---

(١) « مختصر منهاج السنة » : (٥٨) اختصره الذهبي تحقيق محب الدين الخطيب مكتبة دار البيان دمشق .

(٢) « مختصر منهاج السنة » لشيخ الإسلام بتصرف : (٢٨٤) .

(٣) « اعلام الموقعين : (٤/٣) .



الباب الثالث :

منهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الأول

دراسات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الثاني

أركان الحسبة



الفصل الأول :

دراسات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أولاً : مكانته في الإسلام

ثانيًا : حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثالثًا : أدلة مشروعيته

رابعًا : علاقته بالدعوة

خامسًا : تعريف الحسبة

سادسًا : نشأة ولاية الحسبة

الفصل الأول : دراسات في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »

* مكانته في الإسلام

لقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإفشائه بين الناس وبقيامه يقوم الدين وينتشر ، وهو قوام الدين وعماده كما يقرر ذلك ابن القيم بقوله :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ووصف به هذه الأمة ، وفضلها على سائر الأمم التي أخرجت للناس[١] .

كما أن للأمر بالمعروف مكانة عظيمة وشأنًا كبيرًا يعجز الوصف عنه ، « فهو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله به النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل عمله وعلمه لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلى يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع

(١) « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » : (٣١٥) .

الهوى والشهوات استرسال البهائم وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة إما متكفلًا بعملها أو متقلدًا لتنفيذها مجددًا لهذه السنة الداثرة ناهضًا بأعبائها ومتشمرًا في إحيائها كان مستأثرًا من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها، ومستبدًا بقربه تتضاءل درجات القرب دون ذروتها»[(١)].

فاحرص أيها المؤمن على إحياء شعار نبيك وما أرسل به حتى تكون في صحبته يوم الفلاح وتنجو من اللعنة والكلاح، وتحيي هذه الشعيرة التي لم تستطع النظم التي ابتكرها الإنسان لرعاية القوانين والدساتير وتبصير الناس بها حتى لا يقعوا في المخالفات المتوالية نظامًا يصل أو يضاهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبدأ التربوي الجاد، ومدرسة تعليمية تتيح لأكبر قاعدة في الأمة أن تعرف ما لا بدّ أن تعرفه من أصول الإسلام وفروعه، والحلال، والحرام، والمكروه، والسنة، والواجب، والبدعة في وقت قصير، وبلا نفقات وبطريقة مكررة تضمن التذكر الدائم وتشمل كل البيئات في المجتمع .

بل إن منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتم على كل مسلم أن يكون رقيبًا على ما يجري حوله من أعمال، ووزنها بموازين الشرع ثم الأمر بما خفي من المعروف والنهي عما ظهر من المنكر على أساس من العلم والمعرفة مما يؤدي إلى تكرار الأمر والنهي الذي يوجب تثقيف الأمة ومعرفة الحلال من الحرام وهو المقصود الإسلامي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [(٢)] .

---

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي : (٢/٣٠٦) طبع دار الندوة الجديدة بيروت .

(٢) انظر دراسة كتاب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لأبي بكر الخلال دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع، مكة المكرمة (ص١٧) .

كما أن هذا النظام الإسلامي والتشريع الإلهي يحمي الشريعة المنزلة على رسوله من الضياع والعبث فيها من جهال المسلمين ومبتدعيهم ، كما يحمي مصالح الناس من الاعتداء عليها ، وتحافظ على حقوق المستضعفين من الظلم والبغي بغير الحق ، فإن الإنسان مطبوع على الميل إلى الشهوات والدعة والظلم ، فهذه المراقبة والسلطة الشرعية تحمي هذه الجوانب من الإعتداء عليها من ضعاف النفوس والإيمان .

كما أنه يحمي المجتمع المسلم من المهلكات الإجتماعية بسبب المعاصي سواء كانت صحية أو اقتصادية أو نفسية ولا يخفى على عاقل ما أصاب كثيرًا من المجتمعات غير المسلمة من الأمراض الجنسية بسبب الزنا والخمور وما شاكلها والأمراض النفسية بسبب الربا وغير ذلك ؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحمي المجتمع من ذلك كله إذا عمل له عملًا صحيحًا موافقًا للشريعة الإسلامية ، هذا إلى جانب وقاية الإنسان ونجاته من مظاهر الإنتقام الإلهي في الدنيا من الكوارث المتمثلة في الزلازل والبراكين والرياح والأعاصير وغيرها من مظاهر انتقامه سبحانه وتعالى حيث يقول : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون** ﴾[1] ، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجاة من الطرد والإبعاد عن رحمة الله حيث يقول سبحانه : ﴿ **لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون** ﴾[2] .

ومما ينجينا من هذه المهلكات بعدنا عن هذه المعاصي بشقيها والأمر

(١) سورة الأعراف : (١٦٥) .

(٢) سورة المائدة : (٧٨ - ٧٩) .

باجتنابها والنهي عن فعلها فإن المعصية تمثل وجهين ، الأول : إيجابي ويتمثل بفعل المحظور شرعًا .

وسلبي : ويتحقق بترك الفعل المطلوب شرعًا .

واعلم أن المعاصي نوعان بعضها أخف من بعض فهناك معاص خاصة أي أنها منكرات يفعلها بعض أفراد الأمة وهذه المعصية لن تنقطع من هذه الأمة وستبقى وإن قامت الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه سنة إلهية في البشرية وهي أخفّ من النوع الثاني وهذه المعصية المتحققة في الغالب لا تضر الأمة ولا تعاقب الأمة بسببها .

أما النوع الثاني (هو الطامة) : المعصية العامة أو المنكر العام .

وهو الذي تتعارف عليه الأمة ولا تنكره بل يكون هذا المنكر من نظام الأمة ودستورها التي تقر به ، مثل أن يقرّ الربا أو الزنا أو شرب الخمر وغيرها من المنكرات نظامًا للأمة .

فإن ذلك يعني إلغاء الشريعة وعدم الإعتراف بها فتكون هذه الأمة كافرة بما أنزل الله إذا لم تنكر ورضيت بواقعها لأن الله سبحانه يقول : ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون**﴾[1] فهذه المعاصي ومثلها أن لا تقام حدود الله مؤذنة بالعقوبة والطرد من رحمة الله .

فيجب على المسلم أن ينظر إلى المنكرات من هذه الزاوية وأن يعطي كل شيء حقه .

* حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

« اتفقت الأمة الإسلامية كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن

---

(١) الآية من سورة المائدة : (٤٤) .

المنكر بلا خلاف من أحد منهم »[١] واختلفوا في تعيين الوجوب هل هو فرض عين أم فرض كفاية ؟ فقال بعضهم : إنه فرض عين مستدلين بقوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة** ﴾[٢] وقوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره** »[٣] وفسروا قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم** ﴾ بأن ﴿ **من** ﴾ لبيان الجنس ومعناها: كونوا أمة دعاة إلى الخير كقوله تعالى : ﴿ **فاجتنبوا الرجس من الأوثان** ﴾[٤] .

وقال الآخرون : أن ﴿ **من** ﴾ للتبعيض[٥] وهو الذي عليه جمهور العلماء وتابعهم ابن القيم وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية[٦] فيكون الوجوب عندهم على الكفاية ، فيقول ابن القيم :

« وهذا - أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية ، ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان ، فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم ، فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾[٧] وقال النبي ﷺ : « **فإذا**

---

(١) « الفصل في الملل والأهواء والنحل » للإمام أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري : (٤/ ١٧١) الناشر مكتبة الخانجي بمصر .

(٢) الآية من سورة آل عمران : (١٠٤) .

(٣) رواه مسلم كتاب « الإيمان » رقم الحديث : (٧٨ : ١/٦٩) .

(٤) الآية من سورة الحج : (٣٠) .

(٥) انظر « تفسير القرطبي » : (٤/١٦٥) و « ابن كثير » : (١/٣٩٠) .

(٦) انظر « الحسبة في الإسلام » (ص٧٢) نشر وتوزيع دار الأرقم بالكويت الطبعة الأولى .

(٧) الآية من سورة التغابن : (١٦) .

أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم »[(١)][(٢)].

فيتبين مما تقدم أن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوجوب وأنه فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وأنه يتعين على المسلم القادر الذي لم يقم به غيره وكان يرى المنكر ولم يره أحدًا سواه وهو قادر على إزالته فيصبح فرض عين عليه .

كما أن المولي على أمر الحسبة والسلطان واجب عليه وجوب عين لأن القدرة في حقهم على إزالة المنكر ليست عند غيرهم لما لهم من السلطة ونفوذ الأمر .

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب « الحج » رقم الحديث (٤١٢) باب فرض الحج مرة في العمر : (٩٧٥/٢) واللفظ له .

(٢) « الطرق الحكمية » : (٣١٥) .

* أدلة مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأدلة من الكتاب :

لقد أوجب سبحانه على هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه العزيز فقال : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾(١) وفيها بيان أن الفلاح منوط به إذ حصر وقال : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ كما أنه سبحانه جعل هذه المهمة وصفًا لهذه الأمة ورفعة لشأنها فقال عز من قائل : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾(٢) وقال : ﴿**والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر**﴾(٣) ، كما أنها مشتركة في هذا الوصف مع قائدها وداعيها الأول عليه أفضل الصلاة والتسليم بقوله تعالى : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾(٤) ويقول تعالى : ﴿**الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾(٥) .

ومن السنة :

قوله ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن**

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (١٠٤) .

(٢) الآية من سورة آل عمران : (١١٠) .

(٣) الآية من سورة التوبة : (٧١) .

(٤) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٥) الآية من سورة الحج : (٤١) .

لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان »[١] ،

وقوله ﷺ : « **ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل** »[٢] .

ومنها ما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبته : أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم** ﴾ وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** »[٣] .

والآيات والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر مما ذكرنا والمراد الإستدلال على الوجوب وليس الإحصاء .

* * *

---

(١) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » : (٦٩/١) رقم الحديث (٧٨) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « الإيمان » : (٧٠/١) رقم الحديث (٨٠) .

(٣) الترمذي بنحوه برقم : (٢١٦٩) كتاب « الفتن » : (٣٣٥/٦) .

* علاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالدعوة إلى الله

لقد توثقت العلاقة بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يصعب على الباحث الفصل بينهما لشدة ترابطهما وتماسكهما من حيث الأمر بهما وموضوعهما ، والهدف منهما ، وحكمهما .

كما أنه سبحانه وتعالى جمع بينهما عند قوله ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[1] ولم يفرق كثير من العلماء بينهما عند تفسيرهم لهذه الآية ، بل إن بعض العلماء جمع في تعريفه للدعوة بينهما[2] ، مع أن نص الآية عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعوة إلى الخير ، والعطف يقتضي المغايرة ، على العموم فهل هناك فرق يذكر بينهما أم أنهما شيء واحد ؟ هذا ما سنعرفه من مدارسة بعض أقوال العلماء في تفاسيرهم فقد جاء فيها:

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : « الدعوة إلى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر » [3] ثم يزيد الأمر وضوحًا فيقول : « إن الدعوة نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فإن الداعي طالبٌ مستدعٍ مقتضٍ لما دعا إليه ، وذلك هو الأمر ، إذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء إليه ، فالدعاء إلى الله دعاء إلى سبيله فهو آمر بسبيله ،

---

(١) الآية من سورة آل عمران : (١١٠) .

(٢) عرفها الشيخ علي محفوظ في كتابه « هداية المرشدين » ص (١٧) بأنها « حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل » وكذلك شيخ الإسلام كما سترى .

(٣) « مجموع فتاوي شيخ الإسلام » : (١٦١/١٥) .

وسبيله تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر » [١] .

والذي يتبين من أقوال شيخ الإسلام - قدس الله روحه - أنه لا فرق بينهما إذ الدعوة نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، واستدعاء وطلب من الآمر الناهي إلى المأمور المنهي ، وهذا الترابط والتلاحم صحيح ومنطقي ، فكل دعوة إلى الله أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، كما أن كل أمر بمعروف ونهي عن منكر فهو دعوة إلى الله تعالى مع توضيح التوافق بينهما .

فإن شيخ الإسلام قد فرق بينهما وجعل الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من حيث إنه داخل في مسمى الدعوة ومن توابعها فقال : « وكل ما أحبه الله ورسوله من واجب ومستحب من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله الأمر به ، وكل ما أبغض الله ورسوله من باطن وظاهر ، فمن الدعوة إلى الله النهي عنه ، لا تتم الدعوة إلى الله إلا بالدعوة إلى أن يفعل ما أحبه الله ، ويترك ما أبغضه الله سواء كان من الأقوال أو الأعمال الباطنة أو الظاهرة » [٢] ويقول رحمه الله في موضع آخر : « وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها (أي من الأمة) لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الآمر ونهي الناهي منها إلى كل مكلف في العالم إذ ليس من شرط تبليغ الرسالة ، فكيف يشترط فيما هو من توابعها ؟ » [٣] ، وقال في موضع آخر عن جهاد بني إسرائيل : « وعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم كما يقاتل الصائل الظالم ، لا لدعوة المجَاهَدين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر » [٤] فيتضح من أقوال

---

(١) « مجموع فتاوي شيخ الإسلام » : (١٦٦/١٥) .

(٢) « مجموع فتاوي شيخ الإسلام » : (١٦٤/١٥) .

(٣) « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لشيخ الإسلام : (١٩) .

(٤) « الحسبة في الإسلام » لشيخ الإسلام : (٧١) .

شيخ الإسلام التفريق بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من باب الدعوة وتوابعها وأن الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

كما تابعه على ذلك الشوكاني في تفسيره عند قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة** ﴾ فقال : « إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الآية من باب عطف الخاص على العام ، إظهارًا لشرفهما وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذي أمر الله عباده بالدعاء إليه » (١) كما أن القرطبي رحمه الله فرق بينهما فقال : « فإن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورأسهما الدعاء إلى الإسلام والجهاد » (٢) ، وقال السّعدي عند تفسيره للآية : « إن الدعوة إلى الخير هي الدعوة إلى الدين أصوله وفروعه وشرائعه أما الأمر بالمعروف فهو ما عرف حسنه شرعًا وعقلاً ، والنهي عن المنكر ما عرف قبحه شرعًا وعقلاً »(٣) .

وقد يتضح ذلك بتقرير قاعدة في المسميات إذا وضحت ذهب الإشكال في كثير من المسميات كما يقررها ابن القيم رحمه الله بأن من المسميات ما يكون شاملاً لمسميات متعددة ومن ذلك مسمى : البر والتقوى فيقول :

وإذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر إما تضمنًا وإما لزومًا ودخوله فيه تضمنًا أظهر لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر ، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند

---

(١) « فتح القدير » للشوكاني : (٣٦٩/١) .

(٢) « جامع الأحكام » للقرطبي : (٤٧/٤) .

(٣) انظر « تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان » للسعدي : (٤٠٦/١) .

الإقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر ونظير هذا لفظ الإيمان والإسلام والمنكر والفاحشة(١) .

وأما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى** ﴾ فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره ، والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ، إذ هو كمال العبد وصلاحه ، وأما التقوى فهي الطريق الموصل إلى البر والوسيلة إليه(٢) .

وهكذا الدعوة والأمر بالمعروف فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر فإذا أقرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي(٣) .

مما سبق يتضح أن الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه جزء من أجزاء الدعوة كما أن الدعوة داخلة في مسمى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلا أن الدعوة هي دعوة الناس إلى دين الله وشريعته والتعريف بما تحمله من خير وبركة وما تأمر به من معروف وتنهى عنه من منكر وقبيح ، وتحتاج إلى التودد واللين والإيضاح لجذب الناس إلى الدين ابتداءً ، بينما لفظ الأمر والنهي ينبئ بالسلطة والقهر لأن الأمر والنهي يحتاج إلى السلطة والقوة ليطاع وينفذ أمره ونهيه ، كما وضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله :

« والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية فإن

---

(١) « الرسالة التبوكية » لابن القيم ص : (١٠) .

(٢) نفس المرجع : (ص١٤) .

(٣) انظر كذلك « جامع العلوم والحكم » : (٢٤ - ٢٥) في تقرير هذه القاعدة .

الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » [١] .

وخلاصة القول أن الدعوة إلى الله بمنظورها العام تحتاج إلى ركيزتين مجتمعتين لتتحقق الدعوة على وجه الكمال ، دعوة إلى الخير يعرف الناس منها شرائع الإسلام وأصوله وفروعه .

وسلطة تقوم على مراقبة الناس من أجل تحقيق ذلك ، فإذا أطلقت الدعوة عرف أن المراد بها تحقيق هاتين الركيزتين جميعًا فإن الدعوة لا تقوم إلا بهما ، دعوة توضح وتبين الحق من الشر وقوة تساند هذه الدعوة ، وهذه السلطة قائمة على أسس الدعوة وما تأمر به .

ونحب هنا أن نوضح بعض اللبس الذي يقع عند البعض وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاص في بلاد المسلمين وأن الدعوة عامة للناس مؤمنهم وكافرهم معتمدين على أن بعض من كتبوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خصصوا ما كتبوه في كيفية إزالة المنكرات الواقعة بين المسلمين وشروط الآمر الناهي وشروط تغيير المنكر وغير ذلك مما يتعلق بأمر الحسبة ، وهذا صحيح فإن الحسبة خاصة في بلاد المسلمين وهو ما يوضحه تعريف الحسبة وهي : « أمر بمعروف ظهر تركه ونهي عن منكر ظهر فعله »[٢][٣] وهذا لا يقع إلا في بلاد المسلمين فإن المعروف لا يظهر تركه إلا من مسلم آمن به وعمل به ثم تركه فظهر تركه له وكذا المنكر .

الا أن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

---

(١) « الحسبة في الإسلام : (٥٠) .

(٢) « الأحكام السلطانية » للماوردي : (ص : ٢٩٩) وهو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ت (٤٥٠) دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٣) لنا ملاحظة على هذا التعريف كما سيأتي إن شاء الله .

قصدوا الحسبة وهذا من باب ذكر الخاص تحت اسم العام فإن الحسبة جزء من أجزاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما يوضح ذلك ابن القيم بقوله :

إن الحكم في الناس في النوع الذي لا يتوقف على الدعوة : هو المعروف بولاية الحسبة ، وقاعدته وأصله : هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [١] .

بل يذهب إلى أبعد من ذلك وهو أن جميع الولايات الإسلامية كولاية المظالم وولاية الحرب وولاية المال ، وولاية القضاء والحسبة وغيرها من الولايات الإسلامية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ يقول :

وجميع الولايات الإسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٢] .

فعلى هذا تكون الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحسبة أخص من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا عرفنا ذلك وقد سبق وأن بينا دعوة ابن القيم وأساليبها وأهدافها ووسائلها وأن الأمر بالمعروف جزء منها .

بقي أن نتحدث عن الجزء الآخر وهو الحسبة إن شاء الله .

* * *

---

(١) « الطرق الحكمية في السياسة الشرعية » لابن القيم : (٣٠٥) .

(٢) نفس المرجع : (٣١٥) .

تعريف الحِسْبَة

الحسبة في اللغة : مأخوذة من الحساب وهو العدّ والإحصاء ، وهي مصدر كالقعدة والركعة ، تقول فعلته حسبةً واحتسبتُ فيه احتسابًا والاحتساب طلب الأجر ، والاسم : الحسبة بالكسر .

وتأتي بمعنى الإنكار يقال: احتسب فلان على فلان : أنكر عليه قبيح عمله.

وتأتي بمعنى التدبير يقال : فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير فيه(١) .

*** وجه الاستعارة من المعنى اللغوي :**

فإن كان من المعنى الأول وهو : « العد والإحصاء » فهو يحتسب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليعطي عند الله أجرًا .

وإن كان بالمعنى الثاني وهو : « طلب الأجر » فقد وردت كلمة الاحتساب بهذا المعنى في عدة أحاديث منها قول الرسول ﷺ : « **من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه** » (٢) يعني أنه صام طالبًا الأجر من الله .

وإن كان بالمعنى الثالث وهو : « الإنكار » فهو من قبيل تسمية المسبب بالسبب لأن الإنكار على الغير سبب الأمر بإزالته وهو الاحتساب ، والإنكار على الغير قبيح عمله من أجل طلب الأجر من الله .

---

(١) انظر « لسان العرب » لابن منظور : (٣١٤/١) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الإيمان » باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان رقم الحديث : (٣٧) (جـ١ ص ٩٢) .

وإن كان بالمعنى الرابع وهو : « التدبير » فهو عام ولكنه أريد به تدبير خاص وهو تدبير إقامة الشرع بين المسلمين وإنما سمي به لأنه أحسن وجوه التدبير [١] .

* الحسبة في الاصطلاح

لعل أقدم التعريفات التى وصلت إلينا هو تعريف الإمام الماوردي ، والقاضي أبي يعلى الحنبلي للحسبة حيث يقولان [٢] : « الحسبة » : هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله » [٣][٤].

شرح التعريف :

لقد اشترط الإمامان رحمهما الله الظهور سواء من ترك المعروف أو فعل المنكر ، وهذا يدل على أن الحسبة خاصة في بلاد المسلمين ، وهي احتراز من التجسس المذموم والمنهي عنه شرعًا لذلك يقول الماوردي : وأما ما لم يظهر من المحظورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ، ولا أن يهتك الأستار حذرًا من الاستتار بها ، قال النبي ﷺ : « **من أتى من هذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله ، فإنه من يبد لنا صفحته نقم حد الله عليه** »[٥].

---

(١) بتصرف من « كتاب نصاب الاحتساب » ص (١٣) وهو لعمر بن محمد بن عوض السنامي طبع دار العلوم (١٤٠٣هـ) .

(٢) « الحسبة تعريفها ومشروعيتها وحكمها » ص (٧) ل . د . فضل إلهي الطبعة الأولى (١٤١٠هـ) يطلب من مكتبة المعارف بالرياض .

(٣) (٤) « الأحكام السلطانية للماوردي » ص (٢٩٩) ، وتابعهم على هذا التعريف كثير من العلماء كابن الأخوة في كتابه « معالم القربة في أحكام الحسبة »، والسنامي في كتابه « نصاب الاحتساب » وإلهي ظهير في كتابه « الحسبة » وغيرهم كثير .

(٥) رواه الماوردي في « الأحكام السلطانية » (٣١٤) والقاضي أبو يعلى في « المعتمد في أصول الدين المحققة » ص : (١٩٧) ورواه الإمام مالك في « الموطأ » كتاب « الحدود » : (٨٢٥/١) .

وحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دخل على قوم يتعاقرون[١] على شراب ويوقدون في أخصاص[٢] ، فقال : نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتم ونهيتكم عن الإيقاد في الأخصاص فأوقدتم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين قد نهاك الله عن التجسس فتجسست ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت ، فقال عمر رضي الله عنه : هاتان بهاتين ؛ وانصرف ولم يتعرض لهم [٣] .

وهذا الشرط ليس على إطلاقه فإنه لو غلب على الظن انتهاك حرمة يفوت استداركها مثل أن يجد المحتسب رجلًا خلا بامرأة ليزني بها أو رجلاً ليقتله فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس .

وكذلك من المعروف أن الواجب على والي الحسبة أن يراقب الأسواق ويتفقد أحوال المكاييل والموازين والصناع والمحتالين على الشرع بالحيل الربوية ، وهذه الأمور لا تظهر للمحتسب غالبًا إلا بفحصها وكشفها والنظر فيها فإذا حصل ذلك وكشف الغش أو الصناعة أو الحيلة الربوية ، فيكون المحتسب كشفه بعد أن لم يكن ظاهرًا فشرط الظهور فيه نظر من حيث العموم .

كما أن التعريف عام في جميع المعروف وجميع المنكر مع أن اختصاصات المحتسب محدودة فيما ليس من اختصاصات الولاة والقضاة ونحوهم وإن كان الأصل في الاحتساب أن يكون على كل منكر وكل معروف لكن الدولة المسلمة خصصت بعض الأمور من المنكرات وغيرها

(١) عاقر الشيء معاقرة وعقارًا لزمه ، والعقار : الخمر سميت بذلك لأنها عاقرت العقل والمعاقرة إدمان شرب الخمر . « لسان العرب » : (٥٩٩/٤) .

(٢) الخص : البيت الذي سقف عليه بخشبة على هيئة الأزج والجمع أخصاص وحانوت الخمار يسمى خصًا . « لسان العرب » مادة خصّ .

(٣) « الأحكام السلطانية » بتصرف : (٣١٤) وانظر « الإحياء » : (٣٢٤/٢) .

لبعض الولايات الإسلامية فلا يتعدى المحتسب المولى اختصاصه .

* تعريف الحسبة عند ابن القيم

لقد نهج ابن القيم رحمه الله في تعريفه للحسبة نهجًا آخر هو أقرب إلى إيضاح اختصاصات المحتسب من التعريف بالحسبة فقد حاولت جمع ما قاله في تعريفه للحسبة ثم الخروج بتعريف للحسبة يطابق بعض الشيء ما يراه ابن القيم فقد قال بعد أن ذكر أبوابًا وفصولاً في طرق السياسة الشرعية :

هذا كله في الحكم بين الناس في الدعاوي وأما الحكم بينهم فيما لا يتوقف على الدعوى : فهو المسمى بالحسبة ، والمتولي له : والي الحسبة[1].

وقال في موضع آخر بعد أن ذكر جملة من المنكرات في العقود والمعاملات :

« فعلى والي الحسبة إنكار ذلك جميعه والنهي عنه وعقوبة فاعله ولا يتوقف ذلك على دعوى ومدع عليه فإن ذلك من المنكرات التي يجب على ولي الأمر إنكارها والنهي عنها » [2] .

ويقول في موضع آخر : أما ولاية الحسبة : فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم[3] .

فلعل ابن القيم رحمه الله لما نظر في المعروف والمنكر ووجد أنهما

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣١٤) .

(٢) نفس المرجع : (٣٢١) .

(٣) نفس المرجع : (٣١٨) .

يتعلقان بحق الله الخالص ، أو حق الآدمي الخالص ، أو اشتراكهما ، أو غلبة أحدهما على الآخر .

ووجد أن حق الآدمي الخالص أو الغالب له من يدافع عنه بالفطرة ، وبالحق الشرعي ، فالإنسان بفطرته مجبول بحب الدفاع عن حقه والانتصار له والمحافظة عليه ، فإن عجز لجأ إلى المطالبة بالحق الشرعي ، ورفع الدعوى على المعتدي إلى المتخصص من الولاة كالقاضي والوالي وصاحب المظالم ونحوهم .

أما حق الله سبحانه وتعالى الخالص والغالب من العبادات ، والمعاملات ، والمحظورات وحق عامة المسلمين في أسواقهم وطرقاتهم ، والآداب العامة للإسلام ومنع الفساد عن الأمة والإضرار بها وبمصالحها ، فإن ذلك جميعه ليس خاصًا بأحد بعينه يدافع عنها ويرفع الدعوى ضد مرتكبها فهل تضيع حقوق الله ، وحقوق الأمة لعدم المدعي والدعوى ؟! من أجل ذلك يقول ابن القيم :

والمقصود أن هذه أحكام شرعية لها طرق شرعية ، ولا تتم مصلحة إلا بها ، ولا تتوقف على مدع ومدعى عليه بل لو توقفت على ذلك ، فسدت مصالح الأمة ، واختل النظام ، بل يحكم فيها متولي ذلك بالأمارات والمعاملات الظاهرة والقرائن البينة[١] .

فتكون الحسبة بذلك دفاعًا مشروعًا عن حقوق الله وحقوق الأمة حتى لا تفسد الأرض ويختل نظامها بسبب عدم وجود الدفاع عن الشريعة .

وبعد هذا العرض لأقوال ابن القيم نستشف منها تعريفًا للحسبة فنقول :

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٢٤٩) .

الحسبة هي : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما لا يحتاج إلى دعوى بلا تجسس » .

*** شرح التعريف**

المعروف عند ابن القيم هو[١] :

الذي تعرفه العقول السليمة ، والفطر المستقيمة وتقرّ بحسنه ونفعه[٢] ، ويقول عن قوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾[٣] وهل دلت الآية إلا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر ؟! فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم فما أمر به إذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه كما قال بعض الأعراب وقد سئل : بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل : ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء ، فقال : ليته أمر به[٤] .

كما أنه دلل رحمه الله على أن المعروف ما أمر به الشارع وحسنه ، والمنكر ما حرمه الشارع وقبحه قال تعالى : ﴿ **ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث** ﴾[٥] فهذا صريح أن الحلال كان طيبًا قبل حله ، وأن الخبيث كان خبيثًا قبل تحريمه[٦] .

---

(١) وافق تعريف ابن القيم للمعروف ما في كتب اللغة فالمعروف عندهم : ضد المنكر وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس وكل ما ندب إليه الشرع ونهى عنه من المقبحات والمحسنات وهو من الصفات الغالبة أي أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه « لسان العرب » : (٢٣٩/٩) .

(٢) « زاد المعاد » : (١٦٢/٣) .

(٣) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » بتصرف : (٦/٢) .

(٥) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٦) « مفتاح دار السعادة » : (٦/٢) .

فنجد أنه رحمه الله تعالى ركز على العقل السليم والفطرة المستقيمة : لأنها سلمت من المعارضات الخارجية التي تفسد عليها معرفة المعروف كاتباع الهوى وتقليد الآباء والأجداد ، والتعلق بالفلسفة العقيمة فإذا سلمت الفطرة من هذه المؤثرات ونحوها كانت سليمة ، فإذا عرض عليها الشرع عرفت حسنه لأنها موافقة لما أمر الله به ورسوله ﷺ[١] فالشرع الحنيف في الحقيقة مقياس للعقول ، يستطيع العارف أن يعرف من أمامه ومدى عقله وفطرته من انحرافها فكلما كان العقل موافقًا للشرع راضيًا به مرتبطًا به أمرًا ونهيًا كانت السلامة أقرب إليه من الفساد ، وكلما كان العقل مغايرًا للشرع غير مقتنع به كان دليلًا على انحراف العقل عن السلامة وقربه من الفساد .

وبهذا يظهر أن المعروف ليس له حد إلا أن نقول : إن كل ما أمر الله به ورسوله ﷺ من واجب ومسنون ومستحب فهو من المعروف .

المنكر[٢] قال رحمه الله تعالى عند قوله تعالى : ﴿ **يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾[٣] :

ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الانكار[٤] ، وقال : والمنكر هو الذي تستنكره العقول والفطر ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم ، والمنظر القبيح إلى العين ، والطعم المستكره إلى الذوق والصوت المستكره إلى الأذن فما

---

(١) سبق الحديث عن هذا الموضوع .

(٢) المنكر في كتب اللغة : ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر وفي البصائر كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه .

« تاج العروس » : (٥٨٣/٣) ، وانظر « لسان العرب » : (٧١٥/٣) .

(٣) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

(٤) « مفتاح دار السعادة » : (٣٨٨/٢) .

اشتد إنكار العقول والفطر له فهو الفاحشة ، كما فحش إنكار الحواس له من هذه المدركات ، فالمنكر لها ما لم تعرفه ولم تألفه ، والقبيح المستكره لها الذي تشتد نفرتها عنه وهو الفاحشة(١) .

ويظهر من كلامه رحمه الله أن المنكر عام في جميع المنهيات التي نهى الله عنها ورسوله وحذروا من الوقوع فيها ، فالعقول السليمة موافقة للشرع تستنكر جميع المنهيات وتستقبحها ، كما تستقبح نكاح المحارم ونحوها .

فيما لا يحتاج إلى دعوى :

احترزنا بذلك مما لا يدخل في اختصاصات المحتسب مما يخص الولاة والقضاة ومن حقوق الآدميين الخاصة التي تحتاج إلى دعوى ومدعي ومدعى عليه ، وأدخلنا حقوق الله والمصالح العامة للأمة ودرء المفاسد الضارة بهم التي لا تخص الفرد .

بلا تجسس :

احترازًا عن المنهي عنه شرعًا والنظر في عورات الناس بلا إذن والذي استتر بذنبه ولم يجاهر به وأجزنا للمحتسب أن يراقب المعروف ، والمنكر إذا ظهرت قرينة أو بينة أو أمارة .

* * *

(١) « مدارج السالكين » : (٤٠٢/١) .

نشأة ولاية الحسبة

لقد قام علماء المسلمين وولاتهم رحمهم الله بجهود بارزة بتأصيل قواعد الإسلام وإحداث الولايات الإسلامية وفق قواعد الشريعة الغراء ، « وجميع هذه الولايات الإسلامية ، مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[١] لعمومه وشموله جميع ما نزلت به الشريعة لأنها إما أمر بمعروف أو نهي عن منكر .

فلذلك قام علماء الإسلام بدراسة الشريعة وإفراد كل نوع من أحكامها بولاية خاصة : « كما أفردت ولاية المظالم بولاية خاصة ، والمتولي لذلك يسمى وزيرًا ، وناظر البلد ، والمتولي لإحصاء المال ووجوهه وضبطه ، وتسمى ولايته ولاية الاستيفاء ، والمتولي لإخراجه وتحصيله ممن هو عليه ، تسمى ولايته ولاية السر ، والمتولي لفصل الخصومات وإثبات الحقوق والحكم في الفروج والأنكحة والطلاق والنفقات ، وصحة العقود وبطلانها : هو المخصوص باسم الحاكم والقاضي »[٢] .

كما استحدثت ولايات غيرها تباعًا على حسب المستجدات والحاجة لإقامة العدل بين الأمة الإسلامية لأنه مقصود الشريعة الإسلامية « ومن له ذوق في الشريعة ، واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل ، الذي يسع الخلائق ، وأنه لا عدل

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣١٦) .

(٢) نفس المرجع : (٣١٤) .

فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح : تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من أحاط علمًا بمقاصدها ، ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتج إلى سياسة غيرها ألبتة »[١] .

ويرى ابن القيم رحمه الله أن جميع هذه الولايات ولايات إسلامية فيقول :

وجميع هذه الولايات في الأصل ولايات دينية ومناصب شرعية[٢] لأن الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ، ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان ، فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وأماراته بشيء ، وقد بين سبحانه بما شرعه من الطرق : أن مقصوده إقامة العدل بين عباده ، وقيام الناس بالقسط فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين[٣] .

*** اختلاف الاختصاصات باختلاف العصور والحكام**

كما أن اختصاصات هذه الولايات قد تختلف من بلد لآخر ومن عصر لآخر ومن حاكم لآخر ، فبما أنها ولايات دينية لم تكن محددة في الشريعة أصلاً ، فلا يلزم أن تبقى هذه الاختصاصات وقفًا على ولاية دون الأخرى بل ذلك راجع إلى العرف والأحوال كما بين ذلك ابن القيم إذ يقول :

عموم الولايات وخصوصها ، وما يستفيده المتولي بالولاية يتلقى من

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٥) .

(٢) نفس المرجع : (٣١٨) .

(٣) انظر « الطرق الحكمية » : (١٨) .

الألفاظ والأحوال والعرف ، وليس لذلك حد في الشرع ، فقد يدخل في ولاية القضاء ، في بعض الأمكنة والأزمنة ، ما يدخل في ولاية الحرب في زمان ومكان آخر وبالعكس ، فولاية الحرب في هذه الأزمنة في البلاد الشامية والمصرية وما جاورها : تختص بإقامة الحدود من القتل والقطع والجلد ، ويدخل فيها الحكم في دعاوي التهم التي ليس فيها شهود ولا إقرار ، كما تختص ولاية القضاء مما فيه كتاب وشهود وإقرار ، من الدعاوي التي تتضمن إثبات الحقوق والحكم بإيصالها إلى أربابها والنظر في الأبضاع والأموال التي ليس لها ولي معين والنظر في حال نظار الوقوف ، وأوصياء اليتامى وغير ذلك .

وفي بلاد أخرى - كبلاد المغرب - ليس لولي الحرب مع القاضي حكم في شيء ، وإنما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء[١] ، كما قد تستحدث ولايات تكون في جانب اختصاص واحد أو أكثر من اختصاصات بعض هذه الولايات .

ونود أن ننبه هنا أن هذه الولايات الإسلامية لم تكن موجودة في الشريعة الإسلامية بمسمياتها واختصاصاتها بل إن علماء المسلمين هم الذين استحدثوها وخصصوا لها أعمالها ومسمياتها .

فإن ذلك لا يعني عدم العمل بها وبأحكامها واختصاصاتها ، في بداية الإسلام ، بل كان رسول الله ﷺ يقوم بها جميعًا بنفسه ، أو يكلف بها بعض أصحابه رضوان الله عليهم بعد تثقيفهم وتعليمهم الطريق والسبيل

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (٣١٨) .

الأمثل لذلك ، يقول ابن القيم عن ذلك :

الولايات العامة والخاصة التي لا تقوم مصلحة الأمة إلا بها فقد كان النبي ﷺ يتولى أمر ما يليه بنفسه ويولي فيما بعد عنه ، كما ولّى على مكة عتاب بن أسيد وعلى الطائف عثمان بن العاص الثقفي ، وعلى قرى عرينة خالد بن سعيد بن العاص وبعث عليًا ومعاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن ، وكذلك كان يؤمن على السريا ويبعث السعاة على الأموال الزكوية فيأخذونها ممن هي عليه ويدفعونها إلى مستحقيها فيرجع الساعي إلى المدينة وليس معه إلا السوط ولا يأتي بشيء من الأموال إذا وجد لها موضعًا يضعها فيه ، وكان النبي ﷺ يستوفي الحساب على عماله[1] .

* **الحسبة**

أما عن نشأة الحسبة فسوف يكون حديثنا عنها من وجهين ، الوجه الأول : التشريع والعمل ، والوجه الثاني : تأسيس ولاية خاصة للحسبة .

أما عن الوجه الأول :

فإن نص القرآن الكريم وصف رسول الله ﷺ بأنه آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، فقال عز وجل : ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر** ﴾[2] كما أن آيات السور المكية تحدثت عن الحسبة مما يدل على أنها شرعت في بداية الإسلام كقوله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس**

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٢٨) .

(٢) الآية من سورة الأعراف : (١٥٧) .

يستوفون﴾(١) وقوله تعالى : ﴿ **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين** ﴾(٢) .

وكان عليه الصلاة والسلام كما وصفه ربه سبحانه وتعالى آمرًا بالمعروف ناه عن المنكر كما أثر عنه ﷺ في احتسابه العملي الذي لم يكن مقصورًا على جانب من جوانب الحياة بل شمل جميع وجوه الحياة كما هي منتشرة في كتب الحديث والسير ، ومن أمثلة ذلك :

ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا ، فقال : « **ما هذا يا صاحب الطعام ؟** » قال : أصابته السماء يا رسول الله ! قال : « **أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ! من غش فليس منا** » (٣) .

وروى الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي ﷺ ، وعليّ إزار يتقعقع فقال : « **من هذا ؟** » ، قلت : عبد الله بن عمر ، قال : « **إن كنت عبدًا لله فارفع إزارك** » فرفعت إزاري إلى نصف الساقين ، فلم تزل إزرته حتى مات (٤) .

وروى الإمام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ رأى خاتم ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه ، وقال : « **يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده** » فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ :

---

(١) الآيات من سورة المطففين : (١ - ٢) .

(٢) الآية من سورة الأنعام : (١٥٢) .

(٣) مسلم كتاب « الإيمان » باب قول النبي ﷺ: من غشنا فليس منا رقم الحديث (١٠٢) ، (٩٩/١).

(٤) « مسند الإمام أحمد » رقم الحديث : (٦٢٦٣) ، (١٤١/٢) .

خذ خاتمك ، انتفع به ، قال : لا ، والله لا آخذه أبدًا ، وقد طرحه رسول الله ﷺ [١] .

ومنها احتسابه على النساء فقد روى الإمام أبو داود عن أبي أسيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو خارج المسجد، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله ﷺ للنساء : « **استأخرن فإنه ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق** » فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى أن ثوبها ليلصق بالجدار من لصوقها به [٢] .

والأمثلة على احتسابه ﷺ أكثر من أن تحصى [٣] ، ولم يكتف عليه أفضل الصلاة والتسليم بمراقبته للأسواق والبيع والشراء وما يقع فيها من غش وكذب واختلاط واحتسابه كلما رأى منكرًا باليد واللسان والقلب سواء كان ذلك في عبادة أو معاملة أو عقيدة ، بل أسند أمر الاحتساب إلى بعض أصحابه في مجالات مختلفة فقد استعمل ﷺ سعيد بن سعيد ابن العاص على سوق مكة [٤] .

وكذلك ما رواه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ في جنازة ، فقال : « **أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنًا إلا كسره ولا قبرًا إلا سواه ، ولا صورة إلا لطخها ؟** » فقال رجل : أنا يا رسول الله ، فانطلق فهاب أهل المدينة ، فرجع ، فقال علي : أنا أنطلق يا رسول الله ، قال : « **فانطلق** »

---

(١) مسلم كتاب « اللباس والزينة » رقم الحديث : (٢٠٩٠) ، (١٦٥٥/٣) .

(٢) « سنن أبي داود » كتاب « الأدب » باب ما جاء في مشي النساء رقم الحديث : (٥٢٧٢) رقم الباب (١٨٠) طبعة دار الحديث حمص الطبعة الأولى (١٣٩٤) .

(٣) راجع كتاب « الحسبة في العصر النبوي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم » د . فضل إلهي ، وانظر كتاب « معالم القربة في أحكام الحسبة » لابن الأخوة .

(٤) « الإصابة في تمييز الصحابة » : (٩٧/٣) .

فانطلق ، ثم رجع ، فقال : يا رسول الله لم أدع بها وثنًا إلا كسرته ، ولا قبرًا إلا سويته ، ولا صورة إلا لطختها . ثم قال رسول الله ﷺ : « **من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ** »[1] .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه « الطرق الحكمية » ما في المسند من رواية عبد الله بن عمر قال : (أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بمدية فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها ، وقال : « **اغدُ عليّ بها** » ففعلت ، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة ، وفيها زقاق خمر ، قد جلبت من الشام ، فأخذ المدية مني ، فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي ، وأن يعاونوني ، وأمرني أن آتي الأسواق كلها ، فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ، ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقًّا إلا شققته)[2] وغير ذلك من إسناده ﷺ أمر الحسبة إلى بعض أصحابه ، ليتعاونوا على البر والتقوى وليكون ذلك تشريعًا وتعليمًا لأصحابه وأمته من بعده فكان ما أراده ﷺ فقد قام أصحابه بأمر الحسبة خير قيام وعلى رأسهم خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم أجمعين ولا غرابة في ذلك فهي صفة لهم في كتاب الله العزيز حيث قال سبحانه : ﴿ **الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾[3]

---

(١) « مسند الإمام أحمد » : رقم الحديث : (٦٥٧) ، (٨٧/١) .

(٢) « مسند الإمام أحمد » : (١٣٢/٢) رقم الحديث (٦١٦٥) .

(٣) الآيات من سورة الحج : (٤٠ - ٤١) .

وأمثلة احتساب الصحابة رضي الله عنهم كثيرة[١] نذكر بعض ما نقله الإمام ابن القيم عنهم وهو مثال لإجماع الصحابة على الاحتساب فقال :

إن خالد بن الوليد كتب لأبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة ، فاستشار الصديق أصحاب رسول الله ﷺ وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه – وكان أشدهم قولاً – فقال : « إن هذا الذنب لم تعص به أمة من الأمم إلا أمة واحدة ، فصنع الله بهم ما صنع كما قد علمتم أرى أن يحرقوا بالنار » فأجمع رأي أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقوا بالنار فكتب أبو بكر إلى خالد « أن يحرقوا » فحرقهم ، ثم حرقهم عبد الله بن الزبير ثم حرقهم هشام بن عبد الملك [٢] ، ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه منع النساء من المشي في طريق الرجال والاختلاط بهم في الطريق[٣] .

وهكذا استمر الصحابة رضي الله عنهم على هذا الأمر ثم تبعهم التابعون ومن تبعهم إلى يومنا هذا بحمد الله ومنته ، وليس مقصودنا نقل الروايات عن الاحتساب وصوره وإنما المراد هو توضيح نشأة الحسبة العملية ونقل بعض الروايات التي تصور واقع سيرها وحركتها في نشأتها الأولى .

ومن الملاحظ في هذه النشأة أن ولاة أمر المسلمين كانوا يقومون بأمر الحسبة بأنفسهم قائدهم في ذلك محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والتسليم وتبعه على ذلك خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم ، وكما فعل

(١) انظر « الحسبة في الإسلام » ، وانظر « نظام الحسبة في الإسلام » دراسة مقارنه لعبد العزيز مرشد .

(٢) « الطرق الحكمية » : (٢٠) .

(٣) نفس المرجع : (٣٧٠) .

بعض خلفاء بني أمية وعرف عن الوليد بن عبد الملك عنايته بالأسواق « فكان يمر على البقال سائلاً عن السعر ، ويطلب منه الزيادة في الوزن »[١] وهو فعل بعض خلفاء بني العباس فقد نقل ابن كثير أن أبا جعفر المنصور « كان في أول النهار يتصدى إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر »[٢] كما أنهم جميعًا كانوا يولّون من يقوم بأمر السوق [٣] .

*** الوجه الثاني : تأسيس ولاية خاصة بالحسبة**

إن الإسلام ليس مقصورًا على التعبد وحده بل هو قيم على شئون الدين والدنيا على العبادات والمعاملات من أجل ذلك نجد أن الحسبة نشأت مبكرًا وعلى يد رسول الله ﷺ ثم تتابع الأمر على ذلك وبعد اتساع رقعة العالم الإسلامي ، دأب الولاة على تولية من يقوم بأمر الحسبة في الأسواق وبما أن هذه المعاملات اليومية كانت تتم وتتركز في السوق الذي يرتاده العرب لقضاء جميع مآربهم المادية والروحية ـ بما فيها إنشاد الشعر ـ فقد أطلق على هذا المنصب في بداية الأمر « ولاية السوق » وأطلق على المتولي فيه اسم « صاحب السوق »[٤] وذلك في صدر الإسلام وعهد الدولة الأموية وظل هذا الاسم على لسان فقهاء المغرب والأندلس إلى وقت متأخر ثم أصبح يقال لها « ولاية الحسبة »[٥] بعد أن شاع هذا الاسم عند المشارقة وبدأ التدوين فيه والذي يظهر من كتب التاريخ أن اسم « ولاية

---

(١) « تاريخ الأمم والملوك » : (٤٩٦/٦) .

(٢) « البداية والنهاية » : (١٢٥/١٠) .

(٣) انظر « خطة الحسبة » للفاسي : (١٠) .

(٤) نفس المرجع : (١٢) .

(٥) نفس المرجع : (١٧) .

الحسبة » استقرت أركانه كولاية خاصة من الولايات الإسلامية في عصر خلافة بني العباس وبعبارة أدق في ولاية أبي جعفر المنصور والتي بدأت بعام (١٣٧هـ) وانتهت بعام (١٥٨هـ) ، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن المنصور ولي « عاصم بن سليمان الأحول » الحسبة في المكاييل والأوزان بالكوفة [١] وولى أبا زكريا بن عبد الله حسبة بغداد والأسواق وأنه توفي في سنة (١٥٧هـ)[٢] .

كما ذكر ابن كثير أن المنصور ولى رجلاً الحسبة يقصد سبره واختباره ومدى إخلاصه بعد أن قام يحتسب عليه وهو يخطب[٣] وهذا ما اشتهر في كتب التاريخ عن نشأة مسمى هذه الولاية وجعلها ولاية خاصة ، فنستطيع بذلك أن نقول : تأسيس ولاية الحسبة كان في القرن الثاني للهجرة النبوية وبالتحديد بعد عام (١٣٧هـ) وقبل عام (١٥٨هـ) ، وأصبح يطلق عليها اسم « ولاية الحسبة » والمتولي لها يسمى « المحتسب » والله أعلم .

* * *

(١) انظر « الأعلام » : (٣٤٨/٣) .

(٢) « تاريخ الأمم والملوك » للطبري : (٥٢/٨) .

(٣) انظر « البداية والنهاية » : (١٢٣/١٠) .

الفصل الثاني :

أركان الحسبة

أولًا : المحتسب

ثانيًا : المحتسب عليه

ثالثًا : المحتسب فيه

رابعًا : الاحتساب

خامسًا : ذكر اختصاصات المحتسب وسلطاته عند ابن القيم



أركان الحسبة

للحسبة أربعة أركان هي : المحتسب ، والمحتسب عليه ، والمحتسب فيه ، ونفس الاحتساب وما يتعلق به من شروط وآداب وسوف يكون حديثنا في هذا الفصل عن هذه الأركان الأربعة كل في مبحث مبينًا رأي ابن القيم رحمه الله فيها إن وجد ذلك .

أولاً المحتسب :

هو من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قاصدًا ما عند الله من أجر ومثوبة ، وهو نوعان .

أحدهما : « والي مختص من قبل الدولة يقوم بمراقبة أفعال الأفراد وتصرفاتهم ، لصبغتها بالصبغة الإسلامية أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر وفقًا لأحكام الشرع وقواعده »[1] ويطلق عليه « والي الحسبة » .

والثاني : من يقوم بها بدون تولية من ولي الأمر كآحاد المسلمين فهو « المحتسب المتطوع » وهو الأصل لأن كل مسلم قادر يجب عليه أن يكون محتسبًا وهو فرض على الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين .

شروطه :

عرفنا وجوب الحسبة وأنها تجب على جميع المسلمين القادرين إلا أن له

---

(١) « نظام الحسبة في الإسلام » دراسة مقارنة ، لعبد العزيز بن محمد مرشد مطبعة المدينة بالرياض (ص:١٦٠) .

شروطًا يجب أن تتوفر في المحتسب كي يقوم بأمر الاحتساب وإلا سقط عنه الوجوب في الأمر والنهي .

أولاً : الإسلام

ويتوقف على شرطية الإسلام أمور :

أحدها : أن الحسبة ولاية دينية قننت حدودها بشريعة الإسلام فلابدّ أن تتوقف معرفة اختصاصاتها على أدلة الشرع .

ثانيها : أن ابن القيم رحمه الله يمنع من أن يتولى غير المسلم أي ولاية من ولايات الإسلام على الإطلاق وهو أمر مهم في وقتنا المعاصر حيث ابتليت كثير من البلاد الإسلامية بتولية بعض الولايات الإسلامية كالوزارات ونحوها غير المسلمين سواء من أهل الكتاب أو من الملحدين ، وقد عقد رحمه الله فصولاً مطولة في كتابه « أحكام أهل الذمة » سماه : (فصل في المنع من استعمال اليهود والنصارى في شيء من ولايات المسلمين وأمورهم) [1] ، ثم بدأ يذكر الأدلة الدالة على منعهم من الولايات والأسباب المانعة من توليتهم ونقل بعضًا من مواقف ولاة المسلمين مع أهل الكتاب ، وذكر بعض الأمثلة التي تبين بعض مكائدهم للإسلام والمسلمين عندما يتولون أمرًا من أمور المسلمين فقال :

سياق الآيات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم ، ومعاداة الرب تبارك وتعالى لمن أعزهم وولاهم أمور المسلمين ثم ساق آيات كثيرة ننقل منها قوله تعالى : ﴿ **ما يود الذين كفروا**

---

(١) « أحكام أهل الذمة » لابن القيم : (١: ٢٠٨) .

من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ﴾[١] وقوله تعالى : **﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارًا حسدًا من عند أنفسهم ﴾**[٢] وقوله تعالى : **﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾**[٣] وقوله تعالى : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾**[٤].

فقد وضعنا رحمه الله تعالى بين آيات كثيرة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهي تبين لنا حالهم معنا بل إنه ليكشف لنا ما تسره صدورهم نحونا فهل يعتبر المعتبرون وينظروا إلى كلام ربهم على أنه الحق وأن ما سواه هو الباطل وإذ أننا في باب الاحتساب فإنني أنصح إخواني من المسلمين بالرجوع إلى هذا الكتاب ومعرفة ما يجب نحو كل كافر لا يؤمن بالله الواحد وخاصة أهل الكتاب فقد كثر اللغط في هذه الأزمان حتى إننا نسمع من المسلمين من يتجرأ ويقول : أتمنى أن أتعامل مع نصراني ولا أتعامل مع مسلم ؛ حتى يعرف حقيقتهم ويحسن الظن بإخوانه .

كما أنه رحمه الله استدل على عدم تولية الكافر بحديث عائشة رضي

---

(١) الآية من سورة البقرة : (١٠٥) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (١٠٩) .

(٣) الآية من سورة البقرة : (١٢٠) .

(٤) الآية من سورة آل عمران : (١١٨) .

الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « **فارجع فلن أستعين بمشرك** »[١] كما أنه جعل توليتهم نوعًا من توليهم والركون إليهم ومحبتهم وإعزازهم وصلتهم فقال :

ولما كانت التولية شقيقة الولاية كانت توليتهم نوعًا من توليهم وقد حكم تعالى بأن من تولاهم فإنه منهم ولا يتم الإيمان إلا بالبراءة منهم ، والولاية تنافي البراءة ، فلا تجتمع الولاية والبراءة أبدًا ، والولاية إعزاز فلا تجتمع وإذلال الكفر أبدًا ، والولاية صلة فلا تجامع معاداة الكافر أبدًا[٢] .

ثالثها : أن الحسبة شرعت من أجل حماية الدين ونصرته فكيف يكون من أهل نصرته ورفعته من هو عدو له في الأصل جاحد به ؟! .

ثانيًا : التكليف :

عرفنا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب ، ومن المعلوم أن الوجوب لا يكون إلا على مكلف والمكلف هو البالغ العاقل فيخرج عن الوجوب الصغير والمجنون فلا يلزمه الأمر والنهي ولا يأثمون بتركه « وهذا في الحقيقه شرط وجوب الاحتساب على المسلم أما إمكان الحسبة وجوازها فلا يستدعي إلا العقل حتى أن الصبي المميز - وإن لم يكن مكلفًا - فله إنكار المنكر وليس لأحد منعه من ذلك »[٣] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب « الجهاد » برقم : (١٥٠) واللفظ له : (١٤٥٠/٣) .

(٢) انظر « احكام أهل الذمة » : (٢٣٨/١ - ٢٤٢) .

(٣) « أصول الدعوة » عبد الكريم زيدان : (١٧١) .

ثالثًا : العدالة : [1]

يرى ابن القيم أن جميع الولايات الإسلامية تحتاج إلى هذا الشرط وأن جميع الولايات داخلة تحت قوله تعالى : ﴿ **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** ﴾[2] ، والحسبة ولاية تعتمد على العدل فلابدّ من عدل يتولاها حيث يقول وهو يتحدث عن صفة الولايات الإسلامية وما يجب أن يكون عليه متوليها :

ومنهم من يكون بمنزلة الآمر المطاع والمطلوب منه العدل مثل الأمير والحاكم والمحتسب[3] .

ومع ذلك فإنه يرى أن هذا الشرط ليس على إطلاقه بل يختلف باختلاف الأزمان والأمكنة والعصور والبلدان لذلك يقول أنه :

يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل والأمثل فالأمثل وإن كان فيه كذب وفجور فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ، قال عمر رضي الله عنه : « من قلد رجلاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين » .

ثم يقول : والغالب أنه لا يوجد الكامل في ذلك فيجب تحري خير

---

(١) اختلفت آراء العلماء في اشتراط العدالة وقد وافق ابن القيم شيخه في اشتراط العدالة ، انظر « الحسبة في الإسلام » لشيخ الإسلام ابن تيمية : (ص ١٤) وقد تحدث الغزالي في كتابه « إحياء علوم الدين» عن هذا الشرط ورد على من يقول به ، انظر « الإحياء » : (٢/٣١٢) .

(٢) الآية من سورة النساء : (٥٨) .

(٣) انظر « الطرق الحكمية » : (٣١٥ - ٣١٦) .

الخيرين ودفع شر الشرين [١] .

فهو رحمه الله بفكره ومعرفته بأحوال الأمة وما يطرأ عليها من تغيرات لبعد الأزمان من ضعف وفتور ، يجعل اشتراط العدالة أمرًا عسيرًا قد يؤدي إلى ما هو أسوء منه لذلك يقول :

الفقيه من يطبق بين الواقع والواجب ، وينفذ الواجب بحسب استطاعته ، لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع ، فلكل زمان حكم ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، وإذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض ، فلو منعت إمامة الفساق ، وشهاداتهم ، وأحكامهم ، وفتاويهم ، وولاياتهم ، لعطلت الأحكام ، وفسد نظام الخلق ، وبطلت أكثر الحقوق ، ومع هذا، فالواجب اعتبار الأصلح فالأصلح ، وهذا عند القدرة والاختيار، وأما عند الضرورة والغلبة بالباطل فليس إلا الاصطبار والقيام بأضعف مراتب الإنكار [٢] .

فيتضح مما تقدم أنه رحمه الله يشترط العدالة عند الاختيار ووجود الأصلح أما إذا عدم الاختيار لتساوي الناس في الفسق وعدم وجود العدل فإن البحث عنه وترك الولاية بدون والي يفوت كثيرًا من الخير إذا لم يزد الشر لذلك حدد شرط العدالة بحدود إن أمكن الإتيان بها ، وإلا فيؤخذ بأهون الشرين .

وهذا التصرف من ابن القيم رحمه الله عين الحكمة والعقل والبحث عن مصلحة الأمة غفر الله له وقدس روحه ، وقال النووي : « قال العلماء

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣١٧) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٤/ ٢٢٠) .

لا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به مجتنبًا ما ينهى عنه بل عليه الأمر وإن كان مخلاً بما يأمر به والنهي وإن كان متلبسًا بما ينهى عنه فإنه يجب عليه شيئان أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه فإذا أخل بأحدهما كيف يباح له الإخلال بالآخر ؟! »[١] .

رابعًا : القدرة :

يتضح اشتراط ابن القيم للقدرة في الاحتساب عند ذكره حكم الاحتساب حيث يقول :

وهذا واجب على كل مسلم قادر ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولايات والسلطان ، ثم يقول :

فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز[٢] قال تعالى : ﴿ **فاتقوا الله ما استطعتم** ﴾[٣] كما أنه بين مراتب القدرة في جهاد أهل الظلم والبدع والمنكرات وهي ثلاث مراتب : باليد إذا قدر ، فإن عجز ، انتقل إلى اللسان ، فإن عجز جاهدهم بقلبه[٤] فهذه مراتب القدرة على تغيير المنكر مع أن الثالثة واجبة على كل مؤمن أما الأولى والثانية إذا قدر عليها المؤمن ولم يقم بأحدهما فقد وصفه بأنه من أمقت الخلق وأبغضهم إلى الله فقال :

ما أكثر من يتعبدون الله عز وجل بترك ما أوجب عليه فيتخلى عن

---

(١) « صحيح مسلم بشرح النووي » : (٢/٢٣) دار الفكر .

(٢) « الطرق الحكمية » : (٣١٥) .

(٣) الآية من سورة التغابن : (١٦) .

(٤) « زاد المعاد » : (٣/١١) .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه ويزعم أنه متقرب إلى الله بذلك مجتمع على ربه تارك ما لا يعنيه ، فهذا من أمقت الخلق إلى الله تعالى وأبغضهم إليه[1] .

لأنه اتبع وسوسة الشيطان وأمره وترك ما أوجب الله عليه مع قدرته عليه .

خامسًا : العلم : [2]

يشترط في الدعاة عمومًا وفي المحتسب خصوصًا أن يكون عالمًا بما يأمر به عالمًا بما ينهى عنه وإلا وقع في المحظور بسبب جهله ويرى ابن القيم أن الدعوة لا تحصل بغير علم ولا تؤتي ثمارها بغيره فيقول :

وإذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها ، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه بل لابدّ في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي [3] .

والمحتسب داعية ينطبق عليه ذلك كما اشترط ذلك شيخ الإسلام حيث قال : « والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج إلى شروط يقام بها كما جاء في الحديث »[4] ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١٨٠/٢) .

(٢) راجع صفة العلم من صفات الداعية فقد ذكرنا فيه مباحث نافعة من كلام ابن القيم .

(٣) « مفتاح دار السعادة » : (١٩٥/١) .

(٤) ونسبه شيخ الإسلام في كتابه « الحسبة » إلى القاضي أبي يعلي في « المعتمد » مرفوعًا وقال : كما جاء في الأثر عن بعض السلف ، وهو أشبه بكلام العلماء ، وبعد رجوعي إلى المعتمد وجدته مرويًا عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ ، ولفظه : « لا ينبغي لأحد أن يأمر بالمعروف حتى يكون فيه ثلاث خصال ..... » وذكر الحديث : «المعتمد في أصول الدين» للقاضي أبي يعلى (ص : ١٩٦).

أن يكون فقيهًا فيما يأمر به ، فقيهًا فيما ينهي عنه رفيقًا فيما يأمر به حليمًا فيما ينهى عنه » فالفقه قبل الأمر ليعرف المعروف وينكر المنكر »[١] فيشترط في المحتسب أن يتعلم « مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقف عند حدود الشرع »[٢] كما قال شيخ الإسلام: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يكون عمله صالحًا ، إن لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبد العزيز: «من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح» وكما في حديث معاذ بن جبل «العلم إمام العمل والعمل تابع له » فلابدّ من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولا بدّ من العلم بحال المأمور المنهي» [٣].

*** آداب المحتسب وأخلاقه :**

المحتسب داعية إلى الله وهو قبل ذلك مؤمن بالله وينبغي له أن يتأدب بآداب الإسلام جميعًا وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم والمحتسب أولى بذلك من غيره لأنه قدوة يقتدى به في القول والعمل وهو مبلغ عن الله ورسوله ، آمر بما أمر به ناه عما نهى عنه ويشترط ابن القيم في المبلغ عن الله ورسوله أن يكون : حسن الطريقة مرضي السيرة ، عدلاً في أقواله وأفعاله ، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله ، وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله ، ولا يجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السنيات ، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ؟! فحقيق بمن أقيم في هذا المنصب أن يعد له عدته ، وأن

---

(١) « مجموع فتاوى شيخ الإسلام » : (١٥/١٦٧) .

(٢) « أصول الدعوة » : (١٧٤) .

(٣) « الحسبة في الإسلام » بتصرف : (٨٣) .

يتأهب له اهبته ، وأن يعلم قدر المقام الذي أقيم فيه ، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به[١] .

كما ينبغي عليه أن يكون رفيقًا لينًا فيما يأمر به كما يقول ابن القيم :

المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة وتقرّ بحسنه ونفعه إذا أمر به يأمر بالمعروف أيضًا لا بالعنف والغلظة[٢] .

وسبق أن تحدثنا عن صفات الداعية في الباب الأول وهي بعينها صفات وأخلاق للمحتسب[٣] كالإخلاص ، والصبر ، والحلم ، والصدق ، والرفق في الأمر والنهي مع الصلابة في الدين ، والعفة في النفس وغير ذلك من الآداب الإسلامية ، كما أن هذه الأخلاق الإسلامية اتفق عليها العلماء والعقلاء فقال شيخ الإسلام :

« ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق إلى حصول المقصود ولابدّ في ذلك من الرفق في الأمر كله كما قال النبي ﷺ : « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه** »[٤] وقال : « **إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف** » [٥] ولابدّ أيضًا أن يكون حليمًا صبورًا على الأذى [٦] .

وقال النووي : « وينبغي للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يرفق

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١٠/١) .

(٢) « زاد المعاد » : (١٦٢/٣) .

(٣) راجع ما سبق (ص : ٢٤٣) .

(٤) رواه مسلم في كتاب « البر » باب الرفق : (٢٠٠٤/٤) رقم الحديث (٢٥٩٤) .

(٥) رواه البخاري في كتاب « الاستتابة » : (٥١/٨) .

ومسلم في كتاب « البر » باب فضل الرفق واللفظ لمسلم : (٢٠٠٤/٤) رقم (٢٥٩٣) .

(٦) راجع « الحسبة في الإسلام » : (ص٨٣) .

ليكون أقرب إلى تحصيل المطلوب »[١] ، وقال الشيزري[٢] : « وأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم ولا يكون قوله مخالفًا لفعله ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته ، ويجتنب في رياسته منافسة الخلق ، ومفاخرة أبناء الجنس لينشر الله عليه رداء القبول وعلم التوفيق ويقذف له في القلوب مهابة وجلالاً ، وينبغي أن يكون مواظبًا على سنن رسول الله ﷺ من قص شارب ونظافة الثياب وتقصيرها والتعطر بالمسك ونحوه وجميع سنن الشرع ومستحباته هذا مع القيام على الفرائض وأن يكون عفيفًا عن أموال الناس ، متورعًا عن قبول الهدية من المتعيشين وأرباب الصناعات[٣] .

* * *

(١) « صحيح مسلم » بشرح النووي : (٢٤/٢) .

(٢) عبد الرحمن بن نصر الشيزري في كتابه « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » ، دار الثقافة بيروت الطبعة الثانية عام (١٤٠١هـ) .

(٣) « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » بتصرف : (٦ - ١٠) .

ثانيًا : المحتسب عليه

المحتسب عليه هو : كل إنسان فعل منكرًا يجب أو يجوز فيه الاحتساب .

« وشرطه أن يكون بصنعه يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكرًا ، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون إنسانًا ولا يشترط كونه مكلفًا » (١) .

فعلى ذلك يجوز الاحتساب على الصغير الذي لم يبلغ وعلى المجنون لو أراد شرب الخمر أو الزنى وكذلك على الذمي والمستأمن الذي يعيش في بلاد المسلمين وإن كان فعلهم لا يعتبر معصية يحاسب عليها ديانة .

وهذا يعود إلى مقصود الشريعة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما من أجل تحقيق سيادة شرع الله ونشره بين الأمة ليفوزوا بالسعادة في العاجل والآجل وإزالة المنكر الذي هو سبب لهلاك الأمة في العاجل والآجل.

والمقصود أن إزالة المنكر حتى لو وقع ممن ليس في حقه معصية فيه حكم كثيرة منها : أن لا يألفه المسلمون فيهون عليهم هذا المنكر ، ولكي يحصل من الإنكار ما يحبه الله ورسوله من الطاعة وكذلك عدم استمراء فاعل المنكر عليه وتعوده لذلك يقول ابن القيم رحمه الله :

النبي ﷺ شرع لأمته إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله(٢) .

---

(١) « معالم القربة في أحكام الحسبة » : (ص ٢٤) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٣/٤) .

وعلى هذا فإن فئات المحتسب عليهم واجب عام في كل من صدر منه ما يجري فيه أمر الحسبة من طبقات مجتمع الدولة المسلمة سواء كان : مسلمًا أو كافرًا حاكمًا أو محكومًا ، مكلفًا أو غير مكلف ، مستأمنًا أو ذميًا ، قريبًا أو بعيدًا .

فإذا عرف هذا فمن الواجب على المحتسب أن يكون فقيهًا فطنًا ذا كياسة مع هؤلاء الطبقات فإن الحسبة عليهم تختلف من طبقة إلى أخرى ومن شخص إلى آخر فإن منهم الملوك والأمراء والقضاة والأقارب وأصحاب الصناعات وأهل البيع والشراء وغيرهم وإذا أردنا أن نوضح القول بالأمثلة فنقول مثلاً : الاحتساب على الملوك والأمراء ليس كالاحتساب على غيرهم فقد قال الفقهاء : « يكون الاحتساب عليهم بتعريف الحكم الشرعي والوعظ لا بالقوة والقهر »[1] لأن الاحتساب عليهم بالقوة والقهر قد يؤدي إلى ما هو أنكر منه وهذا ما يوضحه ابن القيم رحمه الله بقوله :

الإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : « **لا ، ما أقاموا الصلاة** » [2] ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على المنكر فطلب إزالته فتولد عنه ما هو أكبر منه[3] .

هذا في جانب الولاة ونحوهم أما الأقارب فمنهم الوالدان ، فإن مراتب

(١) « أصول الدعوة » : (١٧٨) .

(٢) « مسند الإمام أحمد » : (٢٩/٣) برقم (١١٢٤٩) و (٣٠٢/٦) رقم (٢٦٦١٩) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٤/٣) .

الإنكار عليهما تختلف عن بقية الأقارب فالفقهاء رحمهم الله تعالى قالوا : «احتساب الابن على والديه يكون ببيان الحكم الشرعي والموعظة الحسنة والتخويف من الله تعالى لا يتعدى ذلك إلى الوسائل الأخرى كالكلام الغليظ والضرب رعاية لحق الأبوة والأمومة دون تفريط بواجب الاحتساب»(١) .

كما أن من الكفار مستأمنين وأهل ذمة فإن الإسلام أعطاهم الحرية فيما يعتقدونه وفيما يحلونه ويحرمونه ، وذلك في حدود ما بينهم بدون خرق لنظام الإسلام وإعلان ذلك بين المسلمين في أسواقهم وطرقاتهم فإذا حاولوا ذلك منعوا كما يقول ابن القيم عن إظهارهم الصليب الذي هو شعار من شعارات ديانتهم :

فهم يمنعون من إظهاره في أسواق المسلمين وإن لم يرفعوا أصواتهم به ، ولا يمنعون من إخراجه في كنائسهم ومنازلهم بل الممنوع منه فيها رفع أصواتهم ووضع الصليب على أبواب الكنائس(٢) .

كما أنه يبين أن ذلك يتضمن منعهم من إظهار الخمر وشربه في أسواق المسلمين وطرقاتهم وأماكن تجمعاتهم ويتضمن منعهم من بيع الخنزير وإظهار الملاهي أو بيعها أو سب الإسلام أو نبيه أو أي منكر من المنكرات فقال :

وذلك يتضمن إخفاء الخمر والخنزير فيما بينهم ، ولا يظهروا بهما بين المسلمين كما لا يظهرون بسائر المنكرات(٣) .

* * *

---

(١) « أصول الدعوة » : (١٧٧) .

(٢) (٣) « أحكام أهل الذمة » : (٧٢٠/٢) .

ثالثًا : المحتسب فيه

المحتسب فيه : هو موضوع الحسبة المتمثل في المعروف المتروك والمنكر المفعول وقد وضح ابن القيم رحمه الله جانبي المحتسب فيه عند ذكره أصل ولاية الحسبة وقاعدتها بقوله :

هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه ووصف به هذه الأمة[١] .

* اتساع موضوع الحسبة

عرفنا فيما سبق أن المعروف ما أمر به الشارع وحسّنه ، والمنكر ما نهى عنه وقبّحه من قول أو فعل فكل ما أمرت به الشريعة السمحة فهو معروفًا سواء كان على جهة الوجوب أو السنة أو الاستحباب ، وكل ما نهت عنه الشريعة فهو منكرًا بصيغة التحريم أو بدلالة لازمة .

فبذلك يكون الشارع هو المحدد للمعروف والمنكر إذ هو حكم شرعي من الله سبحانه وتعالى جاء لمصلحة العباد ووافقته العقول السليمة والفطر المستقيمة فعرفت المعروف وأنكرت المنكر بمجرد اطلاعها على حكم الله فيه لموافقة الشريعة المنزلة من العليم الخبير بما فطر عليه الإنسان[٢] .

فإذا عرف ذلك اتضح مدى اتساع نطاق موضوع الحسبة وأن المحتسب

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣١٥) .

(٢) انظر تعريف القرطبي للمعروف والمنكر في « جامع الأحكام » : (٤/٤٥) .

فيه يدور مع المنكر أينما وجد فكل معروف ترك وكل منكر فعل فهو موضوع للحسبة .

لأن المعروف والمنكر يحملان معان واسعة جدًّا فيدخل فيهما العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق بكل ما تحمله هذه المعاني من سعة وشمول لذلك فقد تشعبت اختصاصاتها فشملت كثيرًا من أوجه علاقات المجتمع بعضها مع بعض وعلاقة المجتمع مع ربه سبحانه وتعالى فقد كان موضوع الحسبة يقابل في عصرنا الحاضر كثيرًا من وظائف الدولة من وزارات وهيئات وجمعيات فكانت الحسبة تمثل البلديات ، ووزارة الصناعة ، والتخطيط ، والشرطة ، ورجال الصحة ، والمقاييس ، والمكاييل ، والمواصفات ، وهيئة الرقابة والتحقيق ، وجمعية الرفق بالحيوان وغيرها من الوظائف السائدة في عصرنا الحاضر .

فالاحتساب مثلاً « في عصر المماليك بمصر من وظائف الإدارة الهامة فكان يشرف على الأسواق والطرقات ويحافظ على الآداب العامة ، وتطبيق القوانين المرعية ، وكان له نواب يطوفون الشوارع والمساجد والأسواق والمدارس والحمامات لهذا الغرض »[1] .

ولم تتوقف اختصاصات المحتسب على ذلك بل هيمن على كثير من أوجه الحياة اليومية حتى شملت ولايته أن يتردد إلى مجالس القضاة والحكام ويمنعهم من الجلوس في الجامع والمسجد للحكم بين الناس لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأة الحائض وكان يقصد مجالس الأمراء والولاة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعظهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة

---

(١) « معالم القربة » : (٢٥) نقلاً عن دائرة المعارف الحديثة : (ص ١٥٢) .

على الرعية[١] .

وبهذا يتضح اتساع موضوع الحسبة وأنها تدخل في أكثر مجالات الحياة اليومية .

* شروط المنكر الموجب للحسبة

ذكر العلماء بعض الشروط التي يجب توفرها في المحتسب فيه حتى يكون موجبًا للحسبة وسوف نتطرق لتلك الشروط ورأي ابن القيم فيها موافقةً وردًّا وذكر بعض الشروط التي تطرق إليها ابن القيم دون غيره أو موافقة البعض دون ذكرها في الشروط .

أولاً : كون المحتسب فيه منكرًا

ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية إلى هذا لأن المنكر أعم من المعصية[٢] ليدخل في ذلك فعل المجنون والصغير والذمي وغيرهم مما لا يُحتسب المنكر في حقهم معصية ديانة وهو شرط وافق عليه ابن القيم حيث يقول :

إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله[٣] .

وقد بين في هذا الفصل الحكمة من الإنكار حتى ولو كان على من لا يعتبر الأمر في حقه معصية وذلك من أجل أن يحصل بدل المنكر معروف يحبه الله ورسوله وهو هنا لم يفرق بين الصغائر والكبائر في المنكر بل

---

(١) انظر « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » للمشيزري : (١١٣ - ١١٥) .

(٢) « إحياء علوم الدين » للغزالي : (٣٢٤/٢) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (١٥/٣) .

يجب الاحتساب في كل منكر بصرف النظر عن عظيم جرمه وصغره .

ثانيًا : أن يكون المنكر ظاهرًا [١] :

المراد بظهور المنكر انكشافه للمحتسب وعلمه به بدون تجسس وقد شمل تعريفنا للحسبة الاحتراز بعدم التجسس وذلك لعدم النظر في عورات الناس ، وأمر النبي ﷺ الناس بالاستتار عند الابتلاء بشيء من القاذورات المنهي عنها شرعًا ، فإذا أغلق أهل دار عليهم باب دارهم واستتروا لم يجز للمحتسب أن يتسلق عليهم جدار دارهم أو يكسر الباب ليطلع إلا في حالة ظهور بينات وعلامات وقرائن بينة تدل على ارتكابهم للمنكر خاصة إذا كان منكرًا يصعب تحاشيه كالقتل أو الزنا بامرأة فإن الأمر عند ظهور العلامات والصياح وأصوات المزامير لم يكن مستترًا بل ظاهرًا حيث يقول ابن القيم :

بل يحكم فيها متولي ذلك بالأمارات والعلامات الظاهرة والقرائن البينة[٢] .

ثالثًا : عدم الخلاف فيه :

أي المنكر يكون العلماء قد اتفقوا على أنه منكر فإن خالف فيه البعض فلا حسبة فيه كما قال الغزالي في « الإحياء » :

« أن يكون منكرًا معلومًا بغير اجتهاد فكل ما هو في محل اجتهاد فلا حسبة ، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضبّ والضبع ومتروك التسمية ، ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر ،

---

(١) انظر ذلك في « إحياء علوم الدين » : (٣٢٥/٢) و « أصول الدعوة » (١٨٠) .

(٢) « الطرق الحكمية » : (٣٤٩) .

وتناوله ميراث ذوي الأرحام إلى غير ذلك من مجاري الاجتهاد »[١] ، وابن القيم رحمه الله يوافق الغزالي في رأيه أن مسائل الاجتهاد ليس فيها احتساب وذلك في قوله :

اما إذا لم يكن في المسألة سنة وإجماع وللاجتهاد فيها مساغ لم تنكر على من عمل بها مجتهدًا أو مقلدًا [٢] .

ولكن ما هي مسائل الاجتهاد والتي لا حسبة فيها كما يرى ذلك ابن القيم ؟ فيقول :

مسائل الاجتهاد ما لم يكن فيها دليل يجب العمل به وجوبًا ظاهرًا مثل حديث صحيح لا معارض له من جنسه فيسوغ فيها - إذا عدم فيها الدليل الظاهر الذي يجب العمل به - الاجتهاد لتعارض الأدلة أو خفاء الأدلة فيها [٣] .

هذه صورة المسائل الاجتهادية التي يجب على المحتسب أن يتوقف عن الاحتساب فيها لاحتمال أن يكون الحق معه بخلاف ما عليه المحتسب ، ولكن كثيرًا من الناس لم يعرف هذه الصورة فظن أن كل ما وقع الخلاف فيه بين العلماء فهو مسائل اجتهادية وهذا خطأ كما يقول ابن القيم :

وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الاجتهاد ، كما اعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم[٤] .

---

(١) « إحياء علوم الدين » : (٣٢٥/٢) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (٢٨٨/٣) .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) نفس المرجع : (٢٨٨/٣) .

فقالوا أن هذه المسائل الخلافية لا حسبة فيها؛ فردّ عليهم ابن القيم بقوله :

قولهم : « إن مسائل الخلاف لا حسبة فيها » ليس بصحيح فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل ، أما الأول فإذا كان القول يخالف سنة أو إجماعًا شائعًا وجب إنكاره اتفاقًا ، وإن لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل إنكار مثله ، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع ، وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار [(١)] .

والسبب في إيجابه الاحتساب في المسائل الخلافية دون الاجتهادية هو أن مسائل الاجتهاد قد خفي فيها الدليل فلم يعرف الحق مع مَن، أما مسائل الخلاف فإن الحق معروف وقد عرفنا كثيرًا من المسائل التي اختلف فيها السلف والخلف بالأدلة التي ترجح فيها أحد القولين على الآخر فكيف نعذر عند الله يوم القيامة بعد أن بلغنا ما في المسألة من الأحاديث والآثار التي لا معارض لها ثم نترك هذه الأحاديث الثابتة تقليدًا لغيرنا ولا نعدّ هذه المخالفات منكرًا ولا ننكره مع أنه خلاف الحق الثابت ؟! ونص قوله رحمه الله :

والمسائل التي اختلف فيها السلف والخلف وقد تيقنا صحة أحد القولين فيها كثيرة : مثل كون الحامل تعتدّ بوضع الحمل ، وأن إصابة الزوج الثاني شرط في حلها للأول ، وأن الغسل يجب بمجرد الإيلاج وإن لم ينزل ، وأن ربا الفضل حرام ، وأن المتعة حرام ، وأن النبيذ المسكر حرام ....

ثم يذكر عددًا كبيرًا من المسائل التي تيقن صحتها في أحد القولين بعد أن اختلف فيها السلف والخلف ثم يقول :

ولهذا صرّح الأئمة بنقض حُكْم مَن حَكَم بخلاف كثير من هذه

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (٢٨٨/٣ ، ٢٨٩) .

المسائل من غير طعن منهم على من قال بها[١] .

ويتضح من أقوال ابن القيم السابقة أن المسائل التي اختلف فيها السلف والخلف نوعان أحدهما معتبر والآخر غير معتبر .

فالأول : ما لم يثبت فيه سنة ولا إجماع أو ثبت فيه حديث ليس بظاهر عارضه حديث من جنسه فهذه مسائل خلافية اجتهادية لا يجب فيها الإنكار .

الثاني : وهو الخلاف الذي لم يعتبره : وهي المسائل الخلافية التي ثبت خلافها للنص الصريح وثبت رجحان بعضها على بعض فهنا لا ينظر في الخلاف ولا فيمن خالف ويجب الاحتساب .

رابعًا : أن لا يترتب على الإنكار منكر أكبر منه ومفسدة أعظم[٢]:

عرفنا أن الشريعة مبناها على مصالح العباد في المعاش والمعاد وأنها لا تخرج عن العدل أبدًا فهي عدل ورحمة ومصلحة فلا يمكن أن تأمر بشيء تكون مفسدته أعظم من منفعته ، فإذا عرض للمحتسب منكر من المنكرات فوجد أن إزالة هذا المنكر تجلب منكرًا ومفسدة أعظم كف عن الاحتساب لأن في احتسابه هذا مخالفة لمقاصد الشريعة السمحة .

ومن العجب أن يغفل عن ذكر هذا الشرط كثير من الباحثين في أمر الحسبة ـ وإن ذكروه ضمنًا ـ لكنهم لم يفردوه كشرط من شروط المنكر الموجب للحسبة ، أما ابن القيم رحمه الله فقد أولاه عناية فائقة وهذا إن دلّ فإنما يدل على فقهه ومعرفته لما بنيت عليه مقاصد الشريعة الغراء ، فقد

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (٢٨٨/٣ ، ٢٨٩) .

(٢) لقد وافق ابن القيم شيخه شيخ الإسلام في ذلك ، انظر كتاب « الحسبة في الإسلام »: (ص ٧٦) .

أفاض فيه في كتابه الكبير « إعلام الموقعين » مدللًا على ذلك بفعل النبي ﷺ وأصحابه وتركهم كثيرًا من المنكرات لما تسببه من مفاسد ومثل لذلك بما لا يدع للمطلع عليه شكًا في صحة هذا الشرط وعظيم مكانته ، فمن قوله رحمه الله :

إن النبي ﷺ شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره ، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله .

ثم أخذ يوضح ذلك بالمثال الحي الملموس على بعض المنكرات التي إذا أنكر على أهلها جلبت مفسدة ومنكرًا أنكر منها فقال :

وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : « **لا ، ما أقاموا الصلاة** »[1] وقال : « **من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدًا من طاعة** »[2] ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر طلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه .

فقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله عليه مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت

---

(١) سبق تخريجه ص : (٦٣٣) .

(٢) رواه البخاري في كتاب « الأحكام » : (٨/١٠٥) و« الفتن » : (٨/٨٧) .

ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر(١) .

كما أنه مثل لذلك بترك النبي ﷺ إيقاع بعض الحدود في الغزو كقطع الأيدي خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من لحوق صاحبه بالمشركين حمية وغضبًا وكذا الجلد في الغزو كما أمر عمر بن الخطاب وغير ذلك من الأمثلة(٢) التي تدل على تحقيق هذا الشرط وأنه من أعظم الشروط ، والله أعلم .

* * *

(١) « إعلام الموقعين » : (٣/٤) .

(٢) انظر نفس المرجع : (٣/٥ ، ٦) وما بعدها .

رابعًا : الاحتساب

ونعني به فعل المحتسب من أجل إزالة المنكر ، وفعل المحتسب هذا له مراتب ودرجات يجب على المحتسب أن يراعيها في احتسابه لأن الاحتساب يتوجه إلى القول والفعل وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

فإن الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل[(١)] .

ولكل منهما صفة وطريقة في التغيير تختلف عن الأخرى يجب مراعاتها عند الاحتساب وهنا سنبين مراتب الاحتساب ودرجاته كما يراها ابن القيم رحمه الله وسوف تكون الدرجات داخلة في المراتب لتعلق بعضها ببعض .

*** مراتب إنكار المنكر :**

عرفنا فيما تقدم مدى تمسك ابن القيم رحمه الله بالكتاب والسنة لذلك نراه هنا عندما أراد ذكر مراتب إنكار المنكر لم يخرج عنهما واتبع في ذلك سنة المصطفى ﷺ في ترتيب الإنكار على أهل الظلم والبدع معتبرًا الإنكار جهادًا في سبيل الله فقال :

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب : الأولى باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان ، فإن عجز جاهد بقلبه[(٢)] .

معتمدًا في ذلك قول المصطفى ﷺ : « **من رأى منكم منكرًا فليغيره**

(١) « إعلام الموقعين » : (٢٨٨/٣) .
(٢) « زاد المعاد » : (١١/٣) .

يده، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان »[1] .

فتكون مراتب الإنكار على ذلك ثلاث مراتب هي اليد ، واللسان ، والقلب ، وسوف نتحدث عن هذه المراتب بالتفصيل مرتبة بعد مرتبة .

أولاً : اليد

التغيير باليد يدل على أن الاحتساب سلطة شرعية تخول للمحتسب استخدام القوة من أجل إزالة المنكر ومن المعلوم أن الله سبحانه وتعالى يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن كما قال عثمان رضي الله عنه لأجل ذلك قدم النبي ﷺ القوة في إزالة المنكر على غيرها من المراتب ، لأنها الأسرع في إزالة المنكر ليحصل بذلك المعروف الذي يحبه الله ورسوله بسرعة ، وليعلم من في قلبه مرض أن المدافعين عن حق الله تعالى في دينه وشرعه قد أعطوا السلطة الرادعة فيكف عن الباطل والظلم فيقع المحبوب كما أن بعض المنكرات لا يمكن أن تزول عن الوجود إلا باليد .

واستخدام اليد في الاحتساب والإنكار نوعان :

* **النوع الأول** : العقاب بالكسر والإتلاف والإزالة والتغيير وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

المنكرات من الأعيان ، والصور ، يجوز إتلاف محلها تبعًا لها ، مثل الأصنام المعبودة من دون الله ، لما كانت صورها منكرة : جاز إتلاف مادتها ، فإذا كانت حجرًا أو خشبًا ونحو ذلك جاز تكسيرها وتحريقها ، وكذلك آلات الملاهي - الطنبور - يجوز إتلافها عند أكثر الفقهاء .

ثم بعد ذلك نقل عددًا من الروايات عن الإمام أحمد في جواز تغيير

---

(١) رواه مسلم كتاب « الإيمان » : (٦٩/١) رقم (٧٨) .

المنكر باليد وكسر وإتلاف كل منكر وأنه لا يغرم ما أتلفه أو كسره من المنكرات مما يدل على أن ابن القيم يوافق الإمام أحمد في قوله ، وأنه يجب على المستطيع باليد أن يقوم بالإتلاف والتغيير باليد وليس عليه غرم ما أتلفه أو كسره [١] وذلك عندما قال :

إن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها ، وهي أولى بذلك من إتلاف آلات اللهو والمعازف ، وإتلاف آنية الخمر ، فإن ضررها أعظم من ضرر هذه ، ولا ضمان فيها ، كما لا ضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها[٢] .

*** النوع الثاني من أنواع التغيير باليد : الضرب والحبس والنفي والقتل .**

هذه الأنواع وما قبلها تعتبر من العقوبات التعزيرية التي يجوز للمحتسب إيقاع بعضها على مرتكب المنكر حيث إن العقوبة من اختصاصه كما يقول ابن القيم بعد ذكر جملة من العقود والمعاملات المحرمة :

فعلى والي الحسبة إنكار ذلك جميعه ، والنهي عنه ، وعقوبة فاعله[٣] .

كما أن هذه العقوبات قد يعجز عنها متولي الحسبة فله الاستعانة بالأعوان كما يقول ابن القيم :

ومن خرج عن المشروع : ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٥٧ - ٣٥٨) .

(٢) نفس المرجع : (٣٦٦) .

(٣) نفس المرجع : (٣٢١) .

والقاضي[١] .

فإذا رأى المحتسب المنكر فليحاول أن يتعرف على أي هذه الزواجر أجدر بإزالة المنكر فعله حيث إن هذه العقوبات تتدرج في الهون والقوة وقد ذكر جملة منها ابن القيم رحمه الله فقال :

منه ما يكون بالتوبيخ ، وبالزجر ، وبالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي ومنه ما يكون بالضرب [٢] ، ويقول :

فعلى متولي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس[٣] .

بل إنه رحمه الله يذهب إلى أعظم من ذلك في التعزير وهو القتل حيث يقول :

وأنه يسوغ بالقتل إذا لم تندفع المفسدة إلا به ، مثل قتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[٤] .

إلا أن القتل ليس للمحتسب كما سنرى ذلك .

ومما تقدم يتضح أن ابن القيم يوجب على المحتسب إزالة ما يستطيع إزالته باليد بأنواعه السابقة مع مراعاته الأمن من الفتنة سواء كانت الفتنة بوقوع منكر أكبر مما نهى عنه ومفسدة أعظم أو وقوع الفتنة على نفس المحتسب لقوله تعالى : ﴿ **ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة** ﴾[٥] وقوله : ﴿ ولا

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (٣١٩) .

(٢) نفس المرجع : (٣٥٠) .

(٣) نفس المرجع : (٣١٨) .

(٤) نفس المرجع : (٣٥٠) .

(٥) الآية من سورة البقرة : (١٩٥) .

تقتلوا أنفسكم ﴾[١] .

* المرتبة الثانية : اللسان

إذا عجز عن التغيير باليد بسبب خوفه على نفسه أو أهله أو ماله أو خشي وقوع منكر أكبر منه أو نحوه ، انتقل إلى المرتبة الثانية وهي اللسان ويتضمن ذلك تعريف مرتكب المنكر بالمنكر الذي وقع فيه إذا كان جاهلاً به ، وتحذيره ، ونهيه ، ووعظه ، ونصحه ، وإرشاده وهو ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره ، وفي ذلك من التحذير والنصيحة وبيان طرق الخير والشر وما يترتب عليها ما هو من أهم الأمور[٢] .

مع أن ذلك النصح والإيضاح يجب أن يكون باللين والتودد إذ يقول ابن القيم :

وإذا لم تجد تلك الطريقة انتقل إلى التوبيخ والزجر والتعنيف ، كما قال ابن القيم :

والتعزير منه ما يكون بالتوبيخ وبالزجر والكلام[٣] .

ومما تقدم يتضح أن هذه المرتبة لها درجات تقتضيها الحكمة والعقل عند الداعية الرشيد الذي يمثله في هذا المقام المحتسب فيبدأ مع المحتسب عليه أولاً بالتعريف بالمنكر وأن ما وقع فيه منكر يغضب الله ويستحق عليه

(١) الآية من سورة النساء : (٢٩) .

(٢) « زاد المعاد » : (٥٧٣/٣) .

(٣) نفس المرجع : (١٦١/٣) .

العقاب فقد يكون جاهلاً بالحكم ثم ينهاه عنه ويعظه وينصحه ويخوفه بالله وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد حتى ينتهي فإن عجز عن منعه من ارتكاب المنكر انتقل إلى التعنيف والزجر والسب بحيث لا يصل إلى درجة المنهي عنه شرعًا كأن ينسبه إلى الزنا ونحوه بل يقول له : يا فاسق يا أحمق يا غبي (١) .

كما يجب على المحتسب في هاتين المرتبتين أن يكون ذا حلم وصبر وحكمه وفقه ونظر إلى عواقب الأمور ونتائجها كما قال شيخ الإسلام :

« من يريد أن يأمر وينهى إما بلسانه وإما بيده مطلقًا من غير فقه وحلم وصبر ونظر فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح وما يقدر عليه وما لا يقدر عليه فيأتي بالأمر والنهي معتقدًا أنه مطيع في ذلك لله ولرسوله وهو مُعتد في حدوده كما فعل بعض أهل البدع والأهواء كالخوارج والروافض والمعتزلة وكان فساده أعظم من صلاحه » (٢) .

* درجات إنكار المنكر :

إن من فقه المحتسب إذا أراد أن ينكر على أحد بهاتين المرتبتين وهما اليد واللسان أن ينظر في هذه الدرجات التي وضعها ابن القيم رحمه الله حتى يكون احتسابه ذا ثمرة وأن ما ينتج عن احتسابه يكون مرضيًا لله عز وجل وإلا توقف ، وابن القيم يقسم النظر في النتائج التي يسميها درجات الإنكار أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

---

(١) انظر « إحياء علوم الدين » : (٣٣٠/٢) .

(٢) انظر « الحسبة في الإسلام » : (٧٥) .

الثانية : أن يقلّ وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان ، والثالثة موضع اجتهاد ، والرابعة محرمة ، وبعد أن بين الدرجات أخذ يمثل لها لتقريب الأمر إلى المحتسب ومعرفته لتقدير هذه الدرجات فقال :

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ما هو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك .

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية ، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيرًا من أن تُفَرِّغَهُمْ إلى ما هو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلًا لهم عن ذلك ، كما إذا كان الرجل مشتغلًا بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها انتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى وهذا باب واسع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول : «مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه ، وقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال ، فدعهم»[1] .

(١) انظر «إعلام الموقعين» : (٣/٥) .

* **المرتبة الثالثة : التغيير بالقلب :**

إذا عجز المحتسب عن التغيير باليد واللسان لسبب من الأسباب التي ذكرناها أو لعدم القدرة إلى الوصول إلى مرتكب المنكر ونهيه انتقل إلى القلب وهذه المرتبة لا يسع أى مسلم يؤمن بالله أن ينفك عنها ، ولا يمكن أن تخرج عن طاقته ، وذلك بأن يبغض المنكر وأهله ولا يستأنس بهم ، ولا يصاحبهم فمن لم يفعل ذلك ويجده في قلبه فليس في قلبه من الإيمان حبة خردل كما بين ذلك المصطفى ﷺ[1] ويقول عن ذلك شيخ الإسلام رحمه الله : « وأما حب القلب وبغضه وإرادته وكراهيته فينبغي أن تكون كاملة جازمة لا موجب لنقص ذلك إلا نقص الإيمان ، وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته ، ومتى كانت إرادة القلب وكراهته كاملة تامة وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطي ثواب الفاعل الكامل »[2] .

* **اختصاصات المحتسب وسلطاته عند ابن القيم :**

إذا تكلمنا عن اختصاصات المحتسب فإنا نعني بها أنواع المناكر التي يختص المحتسب بإزالتها وإحلال الحق والعدل مكانها وقد ذكرها ابن القيم رحمه الله مجملة ومفصلة فأجملها عند قوله :

وأما ولاية الحسبة فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاء وأهل الديوان ونحوهم[3] .

وهذا يعني سعة اختصاصات المحتسب وأنها داخلة في كل منكر إلا ما

(١) انظر حديث المصطفى في مسلم كتاب « الإيمان » : (٧٠/١) رقم الحديث (٨٠) .
(٢) « الحسبة في الإسلام » : (٧٩) .
(٣) « الطرق الحكمية » : (٣١٨) .

يختص به هؤلاء النفر ، وأما عن التفصيل في اختصاصات المحتسب فهي اختصاصات تتعلق بالاعتقاد ، والعبادات ، والمعاملات واختصاصات تتعلق بأصحاب الحرف والصناعات ، واختصاصات تتعلق بالأضرار العامة والظلم للناس واختصاصات تتعلق بالفضيلة والآداب والأخلاق وذلك كله من الاختصاصات لأنها متعلقة جميعها بالأمر بالمعروف كله والنهي عن المنكر كله وهو في حد ذاته الحسبة .

وسوف نتحدث عن هذه الاختصاصات في نظر ابن القيم رحمه الله تعالى .

أولاً : الاختصاصات المتعلقة بالاعتقاد[(١)] :

عرفنا فيما تقدم أهمية العقيدة في حياة المسلم فيجب على المحتسب أن يبدأ احتسابه في أهم الأمور وهي العقيدة حيث إن الحسبة « تجري في أمور العقيدة فمن أظهر عقيدة باطلة أو ما ينافي العقيدة الإسلامية الصحيحة ، أو حرف النصوص أو ابتدع في الدين بدعة لا أصل لها منع من ذلك وجرت الحسبة عليه »[(٢)] .

وقد أوضح شيخ الإسلام الاختصاصات العقدية التي يجب على المحتسب إنكارها فقال : « وأما الغش والتدليس في الديانات فمثل البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال ، مثل إظهار المكاء والتصدية في مساجد المسلمين ، ومثل سب جمهور الصحابة وجمهور المسلمين أو سب أئمة المسلمين ومشايخهم وولاة أمورهم المشهورين عند عموم الأمة بالخير ، ومثل التكذيب بأحاديث النبي ﷺ التي تلقاها

---

(١) انظر ما تقدم في حديثنا عن موضوع الدعوة : (٨١ و ٣٩٥) وغيرها .

(٢) « أصول الدعوة » عبد الكريم زيدان : (١٨٢) .

أهل العلم بالقبول ، ومثل رواية الأحاديث الموضوعة المفتراة على رسول الله ، ومثل الغلو في الدين بأن ينزل البشر منزلة الإله ، ومثل تجويز الخروج عن شريعة النبي ﷺ ، ومثل الإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف الكلم عن مواضعه ، والتكذيب بقدر الله ، ومثل إظهار الخزعبلات السحرية والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهي بها ما للأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات ليصد بها عن سبيل الله أو يظن به الخير فيمن ليس من أهله وهذا باب واسع يطول وصفه ، فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات وجب منعه وعقوبته عليها بحسب ما جاءت به الشريعة من قتل أو جلد وغير ذلك ، وأما المحتسب فعليه أن يفسد ما ظهر من ذلك قولاً وفعلاً ويمنع من الاجتماع في مظان التهمة »[1] .

وقد عدد ابن القيم كثيرًا من الاعتقادات الباطلة والتي يجب محاربتها وعدها في الكبائر فقال :

القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وجحود ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، واعتقاد أن كلامه وكلام رسوله لا يستفاد منه يقين أصلًا ، وترك ما جاء به لمجرد قول غيره ، وتقديم خوف الخلق على خوف الخالق ، ومحبته على محبة الخالق ، ورجائه .

وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة التي يجب على المحتسب محاربتها ودحضها فإنها كبائر قد تخرج من الملة وإذا أردنا الحديث عن ابن القيم ومحاربته للبدع والخرافات الاعتقادية وما بذله من جهد عظيم حسبة لله عز وجل وما أصابه من كيد الحاقدين الضالين بسبب ذلك لطال المقام لكثرة ما كتبه رحمه الله عن ذلك فإنه أساس الملة فلا يقبل عمل ما لم يصحح

---

(١) « الحسبة في الإسلام » : (٤٩) .

الإنسان اعتقاده في الله عز وجل ، ولكنا سوف نعرض جانبًا من جوانب هذا الموضوع كمثالٍ على حسبة ابن القيم العملية ومجاهدته في سبيل سلامة العقيدة وحمايتها من الشرك وشوائبه .

*** احتسابه على بدع القبور :**

إن من أوجب ما يجب على الدعاة والمحتسبين هو محاربة هذه الكارثة التي بلي بها المسلمون قديمًا وحديثًا ولم يسلم منها إلا من رحم الله تعالى وهي بدع القبور التي تتدرج في مراحل تصل أعلاها إلى درجة الشرك الأكبر ـ أعظم ذنب عصي الله جل جلاله به ـ وقال عنه : ﴿ **إن الله لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾[1] فحري بالعاقل ممن ينتسب إلى هذه الملة ـ ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين ـ أن يجعله من أهم ما يدعو إليه ويحتسب عليه لما فيه من رضى الله سبحانه وخير يعم الداعي والمدعو على السواء وفك لرقاب كثير من المسلمين من تولي الشيطان لهم ، ومن ثمّ عذاب الله الذي لا يقوى عليه البشر .

والحق أن هذه البدعة المحرمة ما زالت تحيط بأعناق الكثير ممن ينتسب إلى هذا الدين إلا أنها تزيد في بقعة دون أخرى وفي زمن دون آخر وذلك راجع إلى رحمة الله سبحانه أولاً ثم إلى جهود الدعاة والمحتسبين المخلصين لله تعالى وعدم إخلاصهم وعملهم ، فإن الدين لا يقوم بنفسه ولا تنتشر قوانينه في الأرض بنفسها بل لابدّ من المحرك العارض المبين ، لمزاياه حتى يفوق في صورته ونظامه وما يتمتع به من سمو في المبادئ والمعتقدات ، كل الأنظمة الأرضية مما يجعل العاقل يتبدل به كل تلك الأنظمة ولا

(١) الآية من سورة النساء : (٤٨) .

يتعداه ، فإذا تصوره هذا المدعو بالصورة التي أرادها المشرّع كان عضوًا آخر محركًا لهذا الدين فيعم الصلاح المطلوب ، إذًا لا بدّ من الدعاة المخلصين العارفين بنور الله .

والناظر في تاريخ هذه الأمة وما جرى عليها من جراء هذه البدعة وكيف أن الله سبحانه وتعالى يقيض لها عبدًا من عباده المخلصين فيهديها بنور الله ، وكيف يعم التوحيد والإيمان هذه البقعة بعد أن كانت تروج بهذه البدعة السوء عرف ما قدمناه سابقًا من أن الدعوة لا بدّ لها من محرك مخلص يرفع اعلامها وشعائرها في الأرض وأن سبب انتشار البدعة عائد إلى خمول الدعاة العارفين المخلصين .

وابن القيم رحمه الله تعالى هو أحد أعلام هذه الأمة الذين تجردوا لحماية هذا الدين من البدع وقمعها ونشر راية التوحيد في الأرض مترسمًا خطى شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية الذي كان مثلاً رائعًا له في حياته العلمية والعملية ، وقد كانت لجهودهما في هذا المجال بركة سارت في الأمة الإسلامية إلى وقتنا الحاضر .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض الأمثلة لاحتساب شيخه العملية في البدع التي وصلت إلى درجة الإزالة باليد وهي أعلى مراتب إزالة المنكر فقال رحمه الله بعد أن ذكر أنواعًا من البدع من سرج وقباب وعيون وشجر وعُمُد وحجر يتبركون بها ويعظمونها ويرجون الشفاء منها وقضاء الحوائج وغير ذلك من الشركيات وذكر أماكنها فقال :

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين ، كالعامود المخلق[1] ،

---

(١) العامود المخلق وهي أعمدة وحيطان يزين الشيطان للعامة تخليقها ووضع الخرق عليها وسرجها=

والنصب[١] الذي كان بمسجد النارنج عند المصلي يعبده الجهال ، والنصب الذي كان تحت الطاحون ، الذي عند مقابر النصارى ، ينتابه الناس للتبرك به، وكان صورة صنم في نهر القلوط فينذرون له ويتبركون به، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون، وكان عمدًا طويلاً على رأسه حجر كالكرة ، وعند مسجد درب الحجر نصب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسّر الله كسره [٢] .

إن هذا العمل من شيخ الإسلام وحزبه وما ذكره ابن القيم رحمه الله غيض من فيض مما كانت تعج به البلاد الإسلامية ، من البدع المهلكة والأعمال المخزية التي تعمل عند هذه المبتدعات وقد صور ابن القيم رحمه الله صورًا مخزية يتعجب المؤمن بالله كيف أنها تصدر من إنسان ينتسب إلى الإسلام وهي من واقع ما رآه ابن القيم في عصره تصور لك صورًا كأنك تراها من حال أولئك الذين تربع الشيطان على أكتافهم وأخذ يسوقهم كما يسوق الراعي نعمه ، ويسلك بهم سبله ، وهم مقبلون على هذه المبتدعات ، يرون فيها إلههم ومنجيهم ورازقهم ومدخلهم فردوس ربهم الأعلى فيقول عن عُوّاد القبور وعبادها :

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدًا ، وقد نزلوا عن الأكوار ، والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض وكشفوا الرءوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ،

= إذا حكى لهم حاك أنه رأى في منامه من اشتهر بالصلاح فيحافظون عليه إلى أن يعظم ، «الإغاثة» : (١/٢١١) .

(١) الأنصاب كما عرفها ابن القيم : كل ما نصب يعبد من دون الله من حجر أو شجر ، أو وثن ، أو قبر وهي جمع وواحدها نصب ، كطُنُب وأطناب انظر «إغاثة اللهفان» : (١/٢٠٧) .

(٢) «إغاثة اللهفان» : (٢١٢) .

ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الجميع ، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الميت ورضوانًا ، وقد ملئوا أكفهم خيبة وخسرانًا ، فلغير الله ، بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ويُسأل من تفريج الكربات ، وإغناء ذوي الفاقات ، ومعافاة أولي العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفتين ، تشبيهًا له بالبيت الحرام ، الذي جعله الله مباركًا وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام ، أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود ، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقربوا لذلك الوثن القرابين وكانت صلاتهم ونسكهم وقراباتهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنئ بعضهم بعضًا ، ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجرًا وافرًا وحظًا ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولو بحجك كل عام [1].

ثم يبدأ ابن القيم بعد ذلك ببيان أن هذه اللوحة الشركية وهذا التصوير لحالة أولئك الجهال الضالين ليست من باب التصوير الأدبي والتهويل وذم القوم بتجاوز الحد والكذب ، بل يقول :

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١٩٤/١) .

وضلالهم: إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح [(١)] .

إن هذه الصورة القاتمة التى كانت تعج بها الحياة في عصر ابن القيم لن تدع مثله يقف أمام هذه المنكرات مكتوف الأيدي محبوس اللسان ، وهو تلميذ شيخ الإسلام قامع البدعة ناشر السنة والذي تأثر به أيما تأثر وارتوى من معين علمه المحمدي ، واكتسب منه الشجاعة في الحق بعد أن شاركه كثير من مهماته في الاحتساب مما أدى إلى سجنه مع شيخه في قلعة دمشق إذ يقول تلميذه ابن كثير : « وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم ، وعزر جماعة منهم على الدواب ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة » [(٢)] .

ثم قال في حوادث (٧٢٨هـ) عن الإفراج عنه « وفي يوم الثلاثاء عشرين ذي الحجة أفرج عن الشيخ الإمام العالم أبي عبد الله شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وكان معتقلاً بالقلعة أيضًا من بعد اعتقال الشيخ تقي الدين بأيام من شعبان سنة ست وعشرين إلى هذا الحين » [(٣)] .

لقد أمضى رحمه الله في سجنه مدة سنتين وأربعة أشهر وأيام وذلك لأنه ينكر شد الرحال لمجرد زيارة القبور ، ومن الملاحظ أن كل من سجن معه أطلق من سجنه سواه وشيخه رحمهما الله وذلك يدل على توليه زمام الأمور وتحريضهم عليه بلا خوف ولا رهبة ولا خضوع إلا لله وحده فكان ما كان من أمرهما، ولا

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١/١٩٤) .

(٢) انظر « البداية والنهاية » : (١٤/١٢٣) .

(٣) نفس المرجع : (١٤/ ١٤٠) .

أعتقد أن عاقلًا يرتاب في مشاركة ابن القيم في الحسبة العملية.

*** منهجه في الإنكار على بدع القبور :**

لقد سلك ابن القيم مع هذا المنكر العظيم الذي بعث الله سبحانه الرسل عليهم السلام من أجل إزالته وإحلال التوحيد مكانه جميع سبل الاحتساب عليها سواء كان ذلك بأعلى المراتب وهي اليد أم اللسان أو الدافع لهما وهو القلب الذي لا نشك في إنكاره لها .

*** أما عن المرتبة الأولى وهي اليد :**

فقد ذكرنا سابقًا أن ابن القيم قد شارك شيخه في إزالة الكثير من البدع والأنصاب وكان هذا هو بنفسه توجيهه رحمه الله للأمة حيث يقول :

فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها - أي القبور - أولى وأحرى لأنه - عليه الصلاة والسلام - لعن متخذي المساجد عليها ، ونهى عن البناء عليها ، فيجب المبادرة ، والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله ﷺ فاعله ، ونهى عنه ، والله عز وجل يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما فهو أشد غيرة وأسرع تغييرًا ، وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر وطفيه ، فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله ﷺ ، ولا يصح هذا الوقف ، ولا يحل إثباته وتنفيذه ، قال الإمام أبو بكر الطرطوشي : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة ، أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ، ويرجون المبرة والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها[1] .

هذا توجيه ابن القيم للأمة إذا رأوا المنكر وهو الفعل والاحتساب عليها

(١) « إغاثة اللهفان » : (٢١٠/١) .

بالإزالة باليد فورًا وأن الله ناصره ورافع شأنه .

كما أننا نقتبس من بعض كلامه أنه يزيل المنكر إذا رآه بيده ويحاول أن يستعين بحزب الله على إزالة المنكر بالقوة طاعة لله ولرسوله كما قال :

ومن أعظم المنكرت : تمكينهم من إقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله - يقصد الغناء - في المسجد الأقصى ، عشية عرفة ، ويقيمون أيضًا في مسجد الخيف أيام منى ، وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مرارًا ، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه ، والناس في الطواف ، فاستدعيت حزب الله وفرقنا شملهم ثم يقول :

فإقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح في عدالة من أقرهم ومنصبه الديني[١] .

إذًا فابن القيم استخدم أعلى مراتب الاحتساب في إزالة المنكر ، كما يفيدنا هذا النص أن للمحتسب المتطوع أن يزيل المنكر باليد إذا استطاع ، وأن له أن يستعين بأهل الخير إن استطاع من أجل إزالة المنكر ، كما أن إقرار عامة الناس على المنكر وعدم إزالته من قبل علماء الدين يعتبر فسقًا منهم وقدحًا في عدالتهم ومناصبهم الدينية ، وهكذا كما علمنا سابقًا مشروط بالاستطاعة وعدم إثارة منكرٍ أكبر منه ، لأنه يقول :

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب ، الأولى : باليد إذا قدر ، فإن عجز انتقل إلى اللسان ، فإن عجز ، جاهدهم بقلبه[٢].

إذًا فابن القيم قام بالاحتساب على مرتكبي المنكر باليد .

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١/ ٢٣١) .

(٢) « زاد المعاد » : (١١/٣) .

*** ثانيًا : اللسان**

إذا أردت أن تعرف احتساب ابن القيم على مرتكبي المنكر بلسانه فاعلم أنه كان صارمًا مسلولاً على كل مبتدع ومخالف لما جاء عن الرسول ينزل على رءوسهم كالصواعق ، يلجمهم الحُجة ويبين لهم المحَجّة بقال الله وقال رسوله ، في مجتمع قد تدنى مستواه الفكري ، واستولت عليه الأوهام وأحاطت به البدع وهو يحاول أن ينتشلهم من بؤرة الضلال ويردهم إلى ما كان عليه السلف الصالح .

فكانت حججه دامغة لكل حجة ، ومفندة لكل شبهة ، ثم بعد ذلك تأتي سنة الله فيما أسماهم بالملأ الذين وقفوا يجابهون الدعاة بكل ما أوتوا من قوة ليسكتوهم كما ذكر الله ذلك في كتابه العظيم وما فعله الملأ مع رسلهم عليهم أفضل الصلاة والتسليم من الاتهام بالتهم الباطلة ونسبتهم إلى القبيح عليهم أفضل الصلاة والتسليم حتى يقتل أو يسجن أو ينفى من الأرض ، وما ذلك إلا حيلة عاجز .

واستمرت هذه السنة مع الدعاة إلى وقتنا الحاضر ، وابن القيم ، أحد أفراد سلسلة الدعاة الذين جرت عليهم هذه السنة ، مع أنه عارف بذلك وهو الذي يوجه الدعاة دائمًا في كتاباته بأنهم سيقفون في صف وجمهور الأمة سوف يقف ضده ، وقد وصف رحمه الله حال المبتدعة مع الدعاة الذين تمسكوا بالسنة وكيف رموهم بالعظائم والضلال من أجل تمسكهم بما شرع الله سبحانه وتعالى وكل ذلك بأمر عدو الله وعدوهم ، وبين كيف أن الشيطان استطاع أن يتولاهم ويجعلهم عبيدًا له من دون الله وكيف

حولهم أعداءً لله ولأوليائه فقال :

الشيطان ينصب لأهل الشرك قبرًا معظمًا يعظمه الناس ، ثم يجعله وثنًا يعبد من دون الله ، ثم يوحي إلى أوليائه : أن من نهى عن عبادته ، واتخاذه عيدًا ، وجعله وثنًا فقد تنقصه ، وهضم حقه ، فيسعى الجاهلون المشركون في قتله ، وعقوبته ويكفرونه ، وذنبه : أمر بما أمر الله به ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله من جعله وثناً وعيدًا وغير ذلك من تقبيل وسرج ودعاء مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله من تجريد التوحيد ، فإذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، وقالوا قد تنقص أهل الرتب العالية وسرى ذلك في نفوس الجهال والطغام وكثير ممن ينسب إلى العلم والدين حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم [1] .

ثم بعد ذلك يوجه الدعاة والمسلمين عامة أن الشبهة التي تدور في خلد الجاهلين من المبتدعة والتي يعمّون فيها على الضعفاء من المسلمين والعامة في أن من نهى عن التقرب لقبور الأنبياء والصالحين ، وتعظيمها ، وسؤالها والتبرك بها ، ودعى إلى نبذ كل ما يعمل عندها ولها وأمر بتخريبها وتسويتها حسب أوامر الشرع فإنه مبغض لأصحابها ، متنقص لها ، فهو عدو لله ولأصحابها ، مما قد يدخل في قلوب البعض فيعتقد أنه حق فلذلك ينبه الأمة بقوله :

فلا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم أن النهي عن اتخاذ القبور أنصابًا ، وأوثانًا ، وأعيادًا ، والنهي عن اتخاذها مساجد وإيقاد

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » : (٢١٣/١) .

السرج عليها ، والسفر إليها ، والنذر لها وغير ذلك غض من أصحابها ، ولا تنقص كما يدعيه أهل البدع بل النهي عن ذلك من إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ومتابعتهم فيما يحبونه وهم أعصى الناس لهم وأبعد عن هديهم ، كالنصارى مع المسيح ، والرافضة مع عليّ ، فاعلم أن القلوب إذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن وهم مشتغلون بقبره عما أمر به ودعا إليه ، وتعظيمهم إنما هو باتباع ما دعوا إليه من العلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن من اقتفى أثرهم كان متسببًا لتكثير أجورهم باتباعه لهم ، ودعوة الناس إلى اتباعهم ، فإذا اشتغل بضده حرم نفسه وحرمه ذلك الأجر ، فأينا المعظم لهم ؟! وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة لإعراضهم عن المشروع أو بعضه ، وإلا فمن أقبل على الصلوات بقلبه ووجهه عارفًا ما اشتملت عليه من الكلم الطيب مهتمًا بها كل الاهتمام ، أغنته عن الشرك ، ومن أصغى إلى كلام الله وتدبره أغناه عن السماع الشيطاني فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدع ، والمعرض عن محبة الله عبد الصور [1] .

إن هذا التوجيه توجيه عارف مجرب ، فقد نشأ في مجتمع قد ابتعد عن الحق فتمسك بالبدع والأهواء وأغلق الباب أمام الحق وفتحه أمام هوى النفس وما وجد عليه الآباء والأجداد ، بل قاموا بشن حملات ضارية ليسكتوا صوته ودعوته التي أزعجت أفئدتهم وأخذت تقلب على البعض الحقائق الراسخة في أذهانهم جهلاً وقلّب على أهل الشهوات أطماعهم من حبّ رئاسة ومال وما شابه ذلك من مغريات الدنيا ، فلم يجدوا إلى إسكاته سبيلًا فانقلبوا إلى قوة الباطل والأذى الماديّ والمعنوي وذلك عندما

(١) « إغاثة اللهفان » بتصرف : (٢١٤/١) .

أشهر بعض فتاويه في العقائد والفقه مما كان الناس قد أطبقوا على خلاف ما جاء في فتاويه إلا البعض اليسير ومن هذه الفتاوي مسألة الطلاق الثلاثة بلفظ واحد [١] وفتواه بجواز المسابقة بغير محلل [٢] ثم جاء إنكاره على من جعل شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين قربة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى مثل شد الرحال إلى قبر الخليل عليه السلام أو قبر المصطفى ﷺ وغيرهم منكر يجب محاربته فأنكره « ونعى على معاصريه عامتهم

---

(١) انظر بسط ابن القيم لهذه المسألة في « إغاثة اللهفان » : (٢٨٣/١) و« إعلام الموقعين » (٣٠/٣) و« زاد المعاد » : (٢٤١/٥) ، تابع ابن القيم شيخه شيخ الإسلام في فتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر واحده وتصدى للفتيا بها وعامة الناس في ذلك الوقت مطبقون على أن الثلاث تطليقات بلفظ واحد يعتبر ثلاثًا .

(٢) قال ابن كثير في حوادث (٧٤٦هـ) بعد كمال مسجد المزه الذي كان يخطب فيه ابن كثير أنه وقع فيه كلام وبحث في اشتراط المحلل في المسابقة ، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزية صنف فيه مصنفًا قبل ذلك ونصر فيه ما ذهب إليه الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك ، ثم صار يفتي به جماعة من الترك ولا يعزوه إلى الشيخ تقي الدين فاعتقد من اعتقد أنه قوله وهو مخالف للأئمة الأربعة فحصل عليه إنكار في ذلك ، « البداية والنهاية » (٢١٦/١٤) اتفق العلماء على جواز الرهان في المسابقة على الخيل والسهام واختلفوا : في باذل المال هل يجوز من واحد أو منهما أو من أجنبي ومن يأخذ المال من المتسابقين فذهب الإمام أحمد وأبو حنيفة والشافعي إلى أن الباذل يجوز أن يكون من المتعاقدين أو من أحدهما أو من أجنبي ولكن إن كان الرهن منهما فلابدّ من دخول أجنبي محلل حتى لا يكون قمارًا ولا يدفع المحلل شيئًا . وللإمام مالك رواية يتابعهم فيها وخالفهم في عود السبق فإن سبق المخرج وهم اثنان كان السبق طعمًا لمن حضر وإن كانوا ثلاثة فالسبق لمن يليه ، وأما ابن القيم فيقول أن هذا مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب ولم يحفظ عن الصحابة مع كثرة تناضلهم ورهانهم ، وأن الآيات القرآنية تأمر بالوفاء بالعقود وأن النبي ﷺ أطلق جواز أخذ السبق في الخف والحافر والنصل فلو كان المحلل شرطًا لذكره إن كان حرامًا أو قمارًا ، ولا ثبت شرط المحلل بنص ، ولا إيماء ، ولا تنبيه ، ولا بنقل عنه ، ولا عن أصحابه ولا في قضية واحدة ، فهو يجيز المسابقة بين الاثنين بجعل بينهما بدون محلل ، انظر بسط هذه المسألة بأدلتها في كتاب « الفروسية » ص (٢٠) وما بعدها .

وخاصتهم وبين أن شد الرحال لها من الأمور المنكرة في الدين والبدع المخالفة للصراط المستقيم فأحدث ذلك صراعًا عجيبًا أوذي وسجن بسببه »[١] هو وشيخه وجماعة من أصحاب تقي الدين بن تيمية كما نقل ابن كثير في حوادث (٧٢٦هـ) في شهر شعبان قال : « وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله (أي شيخ الإسلام) ومنعه من الفتيا ، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وإعمال المطي إلى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقبور الصالحين ، قال : وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم ، وذلك بمرسوم نائب السلطنة وإذنه فيه ، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم !!!، وعزر جماعة منهم على الدواب ونودي عليهم ثم أطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة »[٢] وفي ذلك يقول ابن رجب : « وقد حبس مدة لإنكاره شد الرحال إلى قبر الخليل»[٣] ومن هنا تبين أن ابن القيم لقي العناء والأذى والسجن بسبب إنكاره باللسان على كل مبتدع خالف ما جاء به المصطفى ﷺ التي كانت تتضح في فتاويه المخالفة لما تعارف عليه الناس وأطبقوا على أنه الحق ، وهو يرى أنه مخالف لما جاء عن رسوله ﷺ صارفًا النظر عن إطباقهم على هذا القول أو أنه رأيُ فلان من الأئمة فإن الحق فيما جاء عن الله ورسوله فقط إن كان موجودًا ، وإلا فإن اتباع الصحابة أولى بالأخذ ـ كما سبق وأن عرفناه في أصوله التي

---

(١) « ابن قيم الجوزية حياته وآثاره » (ص : ٤٣) .

(٢) « البداية والنهاية » : (١٢٣/١٤) .

(٣) « ذيل طبقات الحنابلة » : (٤٤٨/٤) .

اعتمدها في الفتيا .

* **ثالثًا : الكتابة :**

وهي المعبر الوحيد عن آرائه وأفكاره الذي ما زال بأيدينا وهي التي تصور لنا انعكاسات نفسه وتفكيره ، فتقع منه في حين تفكر وروية ، ومراجعة ، واطلاع فيبلغ عادة الذروة فيصل إلينا قد كمل من جميع جوانبه يتلقفه الأجيال جيلًا بعد جيل .

وكتبه زاخرة في إنكار المنكرات ، وإيضاح شبهها ، وتفنيدها ، وبيان مذهب السلف الذي كان يحاول أن يرد الأمة إلى ما كانوا عليه .

إلا أننا هنا بصدد منكر من المنكرات التي تصدي لها ابن القيم بالنكير، وجاهد فيها من أجل توعية الأمة وأن ذلك مخالف لما شرعه الله سبحانه وتعالى ، وأنه خطر داهم الأمة إن لم يرجعوا فإنه إذن بهلاكهم في الدنيا والآخرة كما يقول :

أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته ما أوحاه قديمًا وحديثًا إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر إلى أن عبد أربابها من دون الله [(١)] .

ويقول رحمه الله :

إن في اتخاذ القبور أعيادًا من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ، ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله تعالى، وغيرة على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك - ولكن ما لجرح بميت إيلامُ- [(٢)] .

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١٨٢/١) .

(٢) نفس المرجع : (١٩٣) .

إن هذه النصوص تدل على مدى تصور ابن القيم لجسامة الأمر وعظيم بلائه وسعة انتشاره وهذا الأخير مما يجعل الكثير من الدعاة ومن ينتسبون إلى الإسلام لا يتصورون الأمر كما تصوره هو فهؤلاء ليس في قلبهم وقار لله تعالى ولا غيرة على التوحيد ولا تهجين للشرك وتقبيح فهو إذًا ميت والميت لا يتصور ما يتصوره الأحياء بنور الله وما جاء عنه وعن رسوله فهو غارق فيما غرقوا فيه .

من أجل ذلك رفع علم الجهاد وليحيي تلك القلوب بنور الله فبرزت جهوده في النكير على هذه الضلالة التي اكتنفها من جوانبها وبدأ برميها بسهام الكتاب والسنة حتى استبان الحق لطالبه .

ولو أردت أن أذكر جميع ما ذكره ابن القيم في كتبه عن جوانب هذا الموضوع لاحتاج الأمر إلى كتابة بحث بمفرده وما جمع جميع جوانبه وشوارده ولكن سوف نتطرق إلى بعض سلسلة الأفكار التي عالجها ابن القيم حيال هذا الموضوع .

فقد بين رحمه الله عظمة الرب تبارك وتعالى وأنه المنفرد بالكمال في الصفات والأفعال والأسماء وأنه ليس كمثله شيء ، وأنه أحد في كل شيء ، فكيف يتجرأ هذا المخلوق الضعيف الذي يقع تحت إرادته وتصرفه بالتنقص من عظمته في أبغض شيء إليه وهو الذي لم يبعث رسله إلا من أجل تحقيق لا إله إلا الله التي تتضمن نفي العبادة عمن سواه ، وإثباتها له وحده ، وهي محض حقه على جميع العباد ، وبها ينقسم الناس إلى شقي وسعيد ، فهل عرفت معنى تحقيقها يا من تدعي ذلك ؟! إن تحقيقها يكمن في إفراد الرب تبارك وتعالى بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة ، والرغبة ، والرهبة ، فلا يحب سواه ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجي سواه ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يرغب إلا

إليه ، ولا يرهب إلا منه ، ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحَسّبُ إلا به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به ، ولا يلجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ، ولا يذبح إلا له وباسمه[1] فهل أنتم يا عواد القبور حققتم معنى الشهادة ؟! .

وقد بين رحمه الله أن الناس خلقوا حنفاء وهو الراجح من أقوال العلماء والذي رجحه ابن القيم[2] فهؤلاء القبوريون ولدوا على فطرة الإسلام ولكن الشياطين اجتالتهم بلطف كيدهم كما فعلوا مع قوم نوح[3] كما يقول ابن القيم :

إن الشيطان بلطف كيده يحسّن الدعاء عند القبر ، وأنه أرجح منه في بيته ، ومسجده ، وأوقات الأسحار ، فإذا تقرر ذلك عنده انتقل إلى مرحلة أخرى من الدعاء عنده إلى الدعاء به ، والإقسام على الله به ، وهذا أعظم من الذي قبله ، فإذا قرر الشيطان عنده أن الإقسام على الله به ، والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه نقله درجة أخرى إلى دعائه نفسه من دون الله ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى إلى أن يتخذ قبره وثنًا ، يعكف عليه ويوقد عليه القنديل ، ويعلق عليه الستور ، ويبنى عليه المسجد ، ويعبده بالسجود

---

(١) انظر فيما تقدم ص (٨١) عند حديثنا عن أركان الإسلام .

(٢) انظر في ذلك « إغاثة اللهفان » : (١٠٥/١ و ١٥٧/٢ و ١٠٤/٢) .

(٣) لقد ذكر ابن القيم كيف أن الشيطان استطاع أن يستعبد الإنسان بطريقة لطيفة من ندبه إلى تصوير الصالحين ثم تعظيم قبورهم وتدرج الأمر إلى أن عبد أصحابها من دون الله وذلك مبدؤه قوم نوح ثم ذكر كيف انتقلت عبادتها وعبادة الأصنام إلى العرب وطريقة عبادتهم وأصنامهم كما ذكر عبادات الهنود وأصنافها وذكر عباد الشمس والقمر والكواكب فوضع الصنم إنما كان في الأصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيئته وصورته ليكون نائبًا وقائمًا مقامه ، انظر « إغاثة اللهفان » (٢٢٤/٢) وانظر (١٨٣/١) .

له والطواف به وتقبيله واستلامه ، والحج إليه ، والذبح عنده ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدًا ومنسكًا وأن ذلك أنفع لهم في دينهم وآخرتهم[١] ، حتى يصل في النهاية إلى عبادته من دون الله ، ثم يأتي خلفهم فيفعلون فعلهم ويدعون أنهم متبعون لآبائهم يقول ابن القيم :

وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم إذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد أسلافهم ، وزعموا أن الله أمر بها ، فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل[٢] وهو يقرر دائمًا أن الشياطين أول ما يكيدون به بني آدم من جهة تعظيم القبور[٣] من أجل ذلك ذكر رحمه الله حماية النبي ﷺ لهذا الجانب[٤] فقال : لعن النبي ﷺ المتخذين على القبور المساجد والسرج ، ونهى عن الصلاة إلى القبور ، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنًا يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدًا وقال : « **اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد** »[٥] وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل[٦] .

وذكر رحمه الله الأحاديث الواردة في نهيه ﷺ عن القبور وتعظيمها أو الصلاة عندها وإليها ، ثم قال :

فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن الرسول ﷺ ،

---

(١) انظر « إغاثة اللهفان » : (٢١٦/١ ، ٢١٧) .

(٢) نفس المرجع : (١٥٦/٢) .

(٣) انظر « إغاثة اللهفان » : (٢٠٥/٢) .

(٤) انظر بسط ذلك في نفس المرجع : (١٨٥/١ و ١٩١/١) .

(٥) « مسند الإمام أحمد » : (١٩٥/١) .

(٦) « إغاثة اللهفان » : (٢٢٢/٢) .

مقاصده جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه : صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (إني أنهاكم) ليست لأجل النجاسة، بل هي لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه ، وقل نصيبه أو عدم في تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك أو يغشاه وتجريد له ، وغضب لربه أن يعدل به سواه[1] .

فإذا كان قبر رسول الله ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيدًا ، فقبر غيره أولى بالنهي كائنًا من كان .

وبين رحمه الله أن النهي عن هذه البدع التي تعمل عند القبور من تعظيم وتشريف وتجصيص ، وتسريج ولعن فاعلها والنهي عن اتخاذها أعيادًا وعن شدّ الرحال إليها لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثانًا والإشراك بها ، وحرم ذلك على من قصده ومن لم يقصده بل قصده خلافه سدًّا للذرائع[2] .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة دالة على أن الله سبحانه وتعالى أغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة عن طريق البدع والمكر والحيل مما لا يحيجنا إلى طرق الباطل المحرم فلا تشتد حاجة الأمة إلى شيء إلا وفيما جاء به الرسول ﷺ ما يقتضي إباحته وتوسعته بحيث لا يحوجهم إلى غيره ولا يلزمهم الآصار والأغلال فأغنانا بأعياد الإسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين وعباد الأصنام .

وأغنانا بوجوه التجارة والمكاسب الحلال عن الربا والميسر ، والقمار ،

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (١٨٩/١) .

(٢) « إعلام الموقعين » : (١٣٩/٣) .

وأغنانا بالأشربة اللذيذة المفيدة عن الأشربة الخبيثة المسكرة .

وأغنانا عن الاستقسام بالأزلام طلبًا لما هو خير وأنفع لنا باستخارته التي هي توحيد وتفويض واستعانة وتوكل .

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى أكمل لنا ديننا وبينه لنا رسول الله ﷺ وتبعه على ذلك أصحابه ومن تبعهم بإحسان فلا حاجة لنا بتشريعات لم يأذن بها الله ولا رسوله ولا عملها صحابته عليهم رضوان الله وإنما هي من أعمال الكفار من أهل الكتاب والمشركين .

ثم بين رحمه الله أن الذي أوقع الناس في هذه البدعة وغيرها من البدع والفتن أمران قد يجتمعان وقد ينفرد العبد بأحدهما وهما الشبهات ، والشهوات .

فالأولى أعظم من الثانية وسببها ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت في ضلاله فهو من الذين قال الله فيهم : ﴿ **إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس** ﴾[1] وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق وهي فتنة أهل البدع على حسب مراتبهم [2] ولا ينجي من هذه الفتنة إلا

---

(١) الآية من سورة النجم : (٢٣) .

(٢) لقد ذكر ابن القيم أن البدع عند القبور وما يعمله الناس عندها وما يعتقدونه فيها مراتب نقلًا عن شيخه تقي الدين فقال : أبعدها عن الشرع : أن يسأل الميت حاجته ، ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس وهؤلاء من جنس عباد الأصنام ولهذا قد يتمثل الشيطان في صورة الميت ، أو الغائب ويخاطبهم بالأمور المغيبة وقد يأمرهم بالسجود للقبر وتقبيله والتمسح به وهذا يحصل للمشركين وأهل الكتاب .

المرتبة الثانية : أن يسأل الله عز وجل به وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعة باتفاق المسلمين .

المرتبة الثالثة : أن يسأله نفسه .
=

تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في كل شيء فلا يجعله رسولًا في شيء دون شيء ، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد ، وهو متبع .

وأما النوع الثاني وهو الشهوات ، وقد جمع سبحانه بين ذكر النوعين في قوله : ﴿ **كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولادًا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم** ﴾[1] أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق هو النصيب المقدر، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشار الله سبحانه إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو العمل بخلاف العلم الصحيح ،

فالأول : هو البدع وما والاها وهو فساد من جهة الشبهات .

والثاني : فسق الأعمال وهو من جهة الشهوات .

لهذا كان السلف يقولون : « احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون »[2] .

وقد صدق ابن القيم رحمه الله فإن الفتنة لا تأتي إلا من هاتين الجهتين

= المرتبة الرابعة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من المسجد فيقصد زيارته ، أو الصلاة عنده لأجل طلب حوائجه ، وهذا أيضًا من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين وهي محرمة وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين وإن كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك . انظر « إغاثة اللهفان » : (١/٢١٧) .

(١) الآية من سورة التوبة : (٦٩) .

(٢) انظر « إغاثة اللهفان » : (١/١٦٥ - ١٦٧) .

فلو أردنا تطبيق ذلك على عواد القبور الذين يرجون بركتها وشفاعتها وقيل لابن القيم ما هي الأسباب التي أوقعتهم في هذه الفتنة مع علمهم بأنهم أموات لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا قال :

أوقعهم في ذلك عدة أمور :

أولها : الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك فقل نصيبهم من ذلك جدًا ودعاهم الشيطان إلى الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل[1] وهذه فتنة شبهة تزعمها الفلاسفة وعلى رأسهم الفارابي وابن سينا وأصلها مأخوذ عن عباد الأصنام قالوا : الميت المعظم ، الذي لروحه قرب ومنزلة وقربة عند الله ، لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات فإذا علق الزائر روحه به وأدناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية على الجسم المقابل له ، وتمام الزيارة عندهم أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت ويوجه قصده كله وإقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات إلى غيره وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادًا وتعظيمها كما يفعلون وهو الذي قصد الرسول ﷺ محاربته ومحوه بالكلية فهم يرون أن العبد إذا تعلقت روحه بروح الوجيه كما ذكرنا سابقًا صار بينه وبينه اتصال يفيض عليه مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم عند ذي حظوة وسلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام وهذا هو بعينه ما حاربه رسول الله

---

(١) « إغاثة اللهفان » : (٢١٤/١) .

ﷺ وأباح به دماء المشركين وأموالهم وأوجب لهم النار، وهم يقصدون من ذلك شفاعتهم التي امتلأ القرآن بالرد عليهم وإبطال جميع الشفاعات إلا إذا أراد سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه .

فبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام فإن الشفعاء عند المخلوقين شركاؤهم وقيام مصالحهم بهم وهم أعوانهم الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم وبينهم من المصالح ما يجعل الملوك يحتاجون إليهم ومن ثم يقبلون شفاعتهم فإن ردها انتقضت المصالح والطاعة فلابدّ من قبول الشفاعة على الكره والرضى .

أما الله سبحانه وتعالى فهو الغني الذي غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير إليه بذاته ، وعبيده مقهورون بقهره وتحت مشيئته لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزه وسلطانه شيء قال تعالى ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئًا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعًا** ﴾[1] وقال : ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ [2] وقال : ﴿ **قل لله الشفاعة جميعًا له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون** ﴾[3] ، فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده .

فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده يطلب رضاه ويتباعد عن سخطه هو الذي يأذن الله

---

(١) الآية من سورة المائدة : (١٧) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (٢٥٥) .

(٣) الآية من سورة الزمر : (٤٤) .

للشفيع أن يشفع فيه[١] .

فلو كان عند هؤلاء المفتونين علم بالكتاب والسنة لما استطاع الشيطان وأعوانه أن يشبهوا عليهم الأمر ولاحتموا بنور الله من الشبه جميعًا .

ثانيًا : ـ أي ثاني الأسباب التي جعلتهم يقعون في الفتنة ـ أحاديث مكذوبة مختلقة ، وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرة على رسول الله ﷺ تناقض دينه وما جاء به كحديث « **إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور** » وحديث « **لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه** » وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الإسلام وضعها المشركون ، وراجت على أشباههم من الجهال والضلال والله بعث رسوله بقتل من حسن ظنه بالأحجار[٢] .

وهذا السبب يتضح فيه نوعا الفتنة : فتنة الشهوات من واضعي الأحاديث لتطابق هواه وجر الناس إلى ما يشتهيه ، وفتنة الشبهة على هؤلاء الجهال الذين قلّ نصيبهم من العلم بشرع الله فصدقوا هذه الأحاديث .

ثالث الأسباب : حكايات حكيت لهم عن تلك القبور : أن فلان استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها ، وفلان دعا به في حاجة ؛ فقضيت له ، وغير ذلك مما يحكيه السدنة والمقابرية مما يطول ذكره ، وهم اكذب خلق الله على الأحياء والأموات ، والنفوس مولعة بقضاء حوائجها ، وإزالة ضرورتها والشيطان له تلطف في الدعوة فيدعوه إلى الدعاء عند القبر فإذا دعى أجاب الله دعوته لما قام بقلبه ـ لا لأجل القبر ـ فيظن الجاهل أن للقبر تأثيرًا في إجابة الدعوة والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان

---

(١) انظر في ذلك « إغاثة اللهفان » : (١/٢٢٠ - ٢٢٢) .

(٢) « إغاثة اللهفان » : (١/٢١٥) .

كافرًا وقد قال : ﴿ **كلًّا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورًا** ﴾[١] وقال : ﴿ **ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير** ﴾[٢] فليس كل من أجاب دعوته فهو راض عنه بل يجيب البر والفاجر ويكون بمنزلة من أملى له وأمده بالمال والبنين وهو يظن أن الله يسارع له في الخيرات وقد قال : ﴿ **فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء** ﴾[٣] والمقصود أن الشيطان يتدرج معهم بعد ذلك كما عرفنا إلى أن يعبدوها من دون الله وهذا من أسباب هذه الحكايات الكاذبة[٤] .

ويتضح في هذا السبب أيضًا فتنة الشبهات والمتمثلة في هذا الضال الذي صدق تلك الحكايات واستزله الشيطان وذلك راجع إلى الجهل بعلم الله وهوى النفس في حب قضاء الحاجة وإزالة الضرر .

وفتنة الشهوة والمتمثلة في السدنة والمقابرية الذين نسجوا تلك الحكايات حبًّا في إشاعة الفاحشة بين المؤمنين الضعفاء ، ورجاء تعظيمه لتلك القبور لما في نفوسهم من حب الشهوات والتي تحصل لهم من جراء ما يعمل ويهدي لها مما تهواه نفوسهم الدنيئة من ماديات ومعنويات .

*** ثانيًا : اختصاصات تتعلق بالعبادات : [٥]**

وكذلك من اختصاصات المحتسب مراعاة حال الأمة من حيث أداء العبادات وإتمام الشرائع لأنها قوام الأمة وبقاؤها وهي الشعار الذي يعرف به

---

(١) الآية من سورة الإسراء : (٢٠) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (١٢٦) .

(٣) الآية من سورة الأنعام : (٤٤) .

(٤) انظر ذلك في « إغاثة اللهفان » : (٢١٥/١) وما بعدها .

(٥) راجع الباب الأول منهجه في الدعوة إلى العبادات ص : (١٦٠ ، ٤٤٧ ، ٥٥٣) .

المسلم من الكافر وهي من الأعمال الصالحة التي فرضها الله على العباد .

لذا فإن على المحتسب أن ينظر في كل مسلم تهاون في أمر من أمور العبادات لأنه من الأمر بالمعروف وهو يشمل جميع أفراد الأمة ، حاكمًا ومحكومًا ، ذكرًا أو أنثى ، فكل من تهاون في أمر من أمور العبادات وجب الاحتساب عليه ، وعلى رأس هذه العبادات الصلاة وشعائرها وهي من أهم ما يعتني به ولاة الأمر والمحتسبون كما يقول ابن القيم :

واعتناء ولاة الأمر بإلزام الرعية بإقامة الصلاة : أهم من كل شيء ، فإنها عماد الدين ، وأساسه ، وقاعدته ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله : « إن أهم أمركم عندي الصلاة ، فمن حفظها ، وحافظ عليها ، حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة » ويأمر والي الحسبة بالجمعة والجماعة فعلى والي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس[١] .

كما يذكر رحمه الله أن من اختصاصات المحتسب : أن يتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة وخرج عن المشروع ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي[٢] .

فعلى المحتسب أن ينظر في المؤذنين من حيث إلزامهم بالمشروع من الأذان وعدم النقصان فيه والزيادة وعدم مراقبتهم ونظرهم في عورات الناس من المآذن وأسطحة المساجد كما يراقب الأئمة في عدم مخالفتهم السنة في أمور الصلاة كأن يأتي بالجهرية سرية وعكس ذلك والإطالة وغير ذلك .

وهذه الاختصاصات المذكورة في العبادة العظيمة من اختصاصات

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (٣١٨ - ٣١٩) .

(٢) نفس المرجع : (٣١٩) .

المحتسب يقاس عليها جميع صور العبادات الإسلامية الآخرى .

*** ثالثًا : اختصاصات تتعلق بالمعاملات :**

التعامل بين أفراد الأمة أمر لابدّ منه ، ولا تتم مصلحة العباد إلا به ، وقد جبل كثير من الناس على حب الذات والشح مما يدعو البعض إلى سلوك ما يجلب له الخير والرفعة وإن كان ذلك على حساب الآخرين لذلك فإن الشارع الحكيم قد بين حدود التعامل وصوره مما يكفل للمتعاملين الخير والبركة ويدفع عنهم الضر والظلم فعوضهم عن الحرام المضر بما هو خير منه حلالاً مباركًا ويسر له دينه على لسان رسوله ﷺ فأغناهم بوجود التجارات ، والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار ، فأغناهم بكل ما ينفع القلب والبدن عما يضرهما فكل المعاملات التي حرمها الرب تبارك وتعالى أغنانا عنها من الحلال ما يكفل لنا سعادتنا ورغباتنا ويكفينا عن الحرام إذا ما كان العبد منا سوي الطبع سليم القلب .

وقد أولى ابن القيم هذا الباب عناية فائقة قد يسر الله جميع شتاتها على يد صاحب كتاب « التقريب لفقه ابن القيم » جزاه الله خيرًا ونحن هنا سوف نتطرق إلى بعض اختصاصات المحتسب في باب المعاملات على ما كتبه ابن القيم رحمه الله .

*** فأول المعاملات : البيوع**

وقد أباح الله سبحانه وتعالى البيع والشراء وهو أحد طرق الكسب المباح التي اختلف الفقهاء في أنه أطيب المكاسب كما ذكر ذلك ابن القيم فقال :

وأما أطيب المكاسب وأحلها قيل فيه ثلاث أقوال للفقهاء :

أحدها : أنه كسب التجارة ،

والثانــي : أنه عمـل اليد في غير الصنائع الدنيئة ، كالحجامة ونحوها ، **والثالث** : أنه الزراعة ، ولكل قول من هذا وجه من الترجيح ثم قال : والراجح أن أحلها الكسب الذي جعل منه رزق رسول الله ﷺ وهو كسب الغنائم وما أبيح لهم على لسان الشرع [١] .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أباح للعباد البيع والشراء فإن ذلك في حدود وليس الأمر على الإطلاق كما بين ذلك ابن القيم عند ذكره البيوع المحرمة المشتمل عليها : حديث جابر بن عبد الله أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « **إن الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام** »[٢] وكان تعليق ابن القيم عليه هو :

قد اشتملت هذه الكلمات الجوامع على تحريم ثلاثة أجناس : مشارب تفسد العقول ، ومطاعم تفسد الطباع وتغذي غذاء خبيثًا ، وأعيان تفسد الأديان وتدعو إلى الفتنة والشرك ، فصان بالتحريم الأول العقول عما يزيلها ويفسدها ، وبالثاني القلوب ، وبالثالث الأديان عما وضع لإفسادها[٣] .

وهذه الأنواع المحرمة على الإجمال من حيث الجنس يدخل تحتها كل ما يفسد هذه الأمور ، فيدخل كل مسكر في الخمر ، وتدخل كل ميتة بصرف النظر عن كيفية الموت وكذلك أبعاضها إلا ما أحل من صوف

---

(١) « زاد المعاد » : (٧٩٢/٥) .

(٢) رواه البخاري كتاب « البيوع » باب الميتة والأصنام رقم الباب (١١٢) ، (٤٣/٣) .

(٣) انظر « زاد المعاد » : (٧٤٦/٥) وما بعدها فإن فيها بحوثًا مفيدة في فهم كلامه ﷺ ومعرفة ما يدخل فيه وما لا يدخل .

وجلد مدبوغ ، ويدخل في الخنزير كل ما حرمه الله ورسوله من الجوارح وذي الناب والحافر ، ويدخل في بيع الأصنام كل آلة متخذة للشرك على أي وجه كانت أو للفتنة والصد عن الدين كآلات الملاهي أو للضلال كالكتب المضلة .

وأما أنواع البيوع التي حرمها الله سبحانه وتعالى ورسوله فإنما نهى عنها لما فيها من الظلم وهي داخلة إما في الربا أو الميسر اللذين حرمهما الله سبحانه ومن ذلك بيع الثمر قبل بدو صلاحه ، وبيع السّنين [1] وبيع حبل الحبلة [2] وبيع المزابنة [3] والمحاقلة [4] وبيع الحصاة [5] وبيع

---

(١) بيع السنين : هو اكتراء الأرض سنينًا وكذا أن يبيع ثمر النخلة لأكثر من سنة في عقد واحد وذلك لأنه بيع غرر وهو نفسه المعروف « بالمعاومة » أي بيع الشجرة أعوامًا كثيرة : انظر « نيل الأوطار » : (١٧٦/٥) .

(٢) فسر ابن القيم حبل الحبلة بما ثبت في « الصحيحين » أن النبي ﷺ نهى عنه وهو نتاج الناتج في أحد الأقوال ، والثاني أنه أجل فكانوا يتبايعون إليه ، هكذا رواه مسلم في كتاب البيوع باب تحريم بيع حبل الحبلة (١٥١٤) والبخاري في باب بيع الغرر (٢٤/٣) رقم الباب (٦١) وكلاهما غرر ، والثالث أنه بيع حمل الكرم قبل أن يبلغ قاله المبرد ، والحبلة بسكون الباء وفتحها أما ابن عمر رضي الله عنه فإنه فسره بأنه أجل كانوا يتبايعون إليه ، انظر « زاد المعاد » : (١١٨/٥) .

(٣) (٤) قال في الصحيح : « بيع المزابنة وهي بيع الثمر بالتمر وبيع الزبيب بالكرم قال أنس نهى النبي ﷺ عن بيع المزابنة والمحاقلة وقال : « **لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه ولا تبيعوا الثمر بالتمر** » البخاري (٣١/٣) .

(٥) فسر ابن القيم بيع الحصاة بقوله : أما بيع الحصاة فهو من باب إضافة المصدر إلى نوعه كبيع الخيار وليس من باب إضافة المصدر إلى مفعوله كبيع الميتة ، كأن يقول : ارم هذه الحصاة فعلى أي ثوب وقعت فهو لك بدرهم ، أو بيع قطعة أرض قدر ما انتهت إليه الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من الحصا ويقول : لي بعدد ما خرج من الحصا من المبيع ونحو ذلك ، انظر « زاد المعاد » : (٥/ ٨١٦) .

الملاقيح[١] والمضامين[٢] والملامسة[٣] والمنابذة[٤] والنجش وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ، وتصرية الدابة اللبون وسائر أنواع التدليس وبيوع الغرر ، وقد فسر بيع الغرر بقوله :

فمن إضافة المصدر إلى مفعوله ، والغرر هو البيع نفسه وهو فعل بمعنى مفعول أي مغرور به وهكذا كبيع العبد الآبق الذي لا يقدر على تسليمه ، والفرس الشارد ، والطير في الهواء ، وكبيع ضربة الغائص[٥] وما تحمل شجرة أو ناقة وما يرضى له به أو يهبه له ونحو ذلك مما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا يعرف حقيقة مقداره[٦] .

وقال ابن القيم بعد ذكر بيوع الغرر أن على والي الحسبة إنكار ذلك جميعه والنهي عنه وعقوبة فاعله[٧] لأن هذه المعاملات من البيوع من

---

(١) (٢) قال ابن القيم ومن بيوع الغرر : بيع الملاقيح والمضامين قال أبو عبيد : الملاقيح ما في البطون من الأجنة ، والمضامين : ما في أصلاب الفحول وكانوا يبيعون الجنين في بطن الناقة وما يضربه الفحل في عام أو أعوام ، انظر « زاد المعاد » : (٨١٩/٥) .

(٣) (٤) فسر ابن القيم الملامسة والمنابذة بما فسرهما به الأحاديث التي في « الصحيحين » عن أبي سعيد قال : (نهانا رسول الله ﷺ عن لبستين وعن بيعتين : الملامسة والمنابذة) « البخاري » : (٢٥/٣) والملامسة : لمس الرجل ثوب الآخر بيده بالليل أو بالنهار ، ولا يقبله إلا بذلك ، والمنابذة : أن ينبذ الرجل إلى الرجل ثوبه ، وينبذ الآخر إليه ثوبه ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراض ، أخرجه البخاري : (٢٥/٣) باب بيع الملامسة رقم الباب (٦٢) ومسلم برقم (١٥١٢) ، وفسرت الملامسة بأن يقول : بعتك ثوبي هذا على أنك متى لمسته فهو عليك بكذا ، والمنابذة بأن يقول : أي ثوب نبذته إليّ فهو عليّ بكذا ، انظر « زاد المعاد » : (٨٢٠/٥) .

(٥) ضربة الغائص : المراد بذلك أن يقول من يعتاد الغوص في البحر لغيره : ما أخرجته في هذه الغوصة فهو لك بكذا من الثمن ؛ فإن هذا لا يصح لما فيه من الغرر والجهالة « نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار» : (١٥٠/٥) ، الشوكاني مكتبة الدعوة الإسلامية .

(٦) انظر « زاد المعاد » : (٨١٨/٥) .

(٧) « الطرق الحكمية : (٣٢١) .

المنكرات التي يجب النهي عنها[١] .

كما أن بيوع الغرر لا تتوقف عند ذلك بل لها صور أخرى مثل :

تلقي السلع قبل مجيئها إلى السوق حيث عدها ابن القيم رحمه الله من منكرات البيوع والتي هي من باب بيوع الغرر فقال :

ومن المنكرات تلقي السلع قبل أن تجيء إلى السوق فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك لما فيه من تغرير البائع ، فإنه لا يعرف السعر فيشتري منه المشتري بدون القيمة ، ولذلك أثبت له النبي ﷺ الخيار إذا دخل إلى السوق ولا نزاع في ثبوت الخيار له مع الغبن .

ومن صور بيع الغرر بيع المسترسل الذي لا يماكس وهو قادم لا يعرف السعر فيبيعه بسعر ويبيع المماكس بسعر وهذا من الغرر له لذا يقول ابن القيم :

وهذا مما يجب على والي الحسبة إنكاره وهذا بمنزلة تلقي السلع فإن القادم جاهل بالسعر .

ومن هذه الصور المنكرة في البيع والشراء والتي ذكرها ابن القيم :

تلقي سوق الحجيج الجلب من الطرق ، وسبقهم إلى المنازل يشترون الطعام والعلف ثم يبيعونه كما يريدون فيمنعهم والي الحسبة من التقدم لذلك حتى يقدم الركب لما في ذلك من مصحلة الركب ومصلحة الجالب ، ومتى اشتروا شيئًا من ذلك منعهم من بيعه بالغبن الفاحش[٢] .

---

(١) انظر بيوع الغرر والأحاديث المروية فيها وتفسيرها في كتاب « نيل الأوطار » في كتاب « البيوع » : (١٤١/٥) .

(٢) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٢٢) .

* **ثاني المعاملات : الربا**

الربا من أعظم المعاملات التي يجب على المحتسب أن يحاربها ويقطع دابرها من المجتمع المسلم لما في ذلك من الوعيد الشديد فيه وفي كل من تعامل به أو أباحه وعده ابن القيم أعظم المنكرات وأكبر الكبائر وعدّ تحريمه إحسانًا وتفضلًا من الله تعالى ، فقال :

فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا ، ولعن آكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره[1] .

فإذا كان الأمر كذلك فلندع ابن القيم رحمه الله تعالى يبين لنا أنواع الربا ويفصله لنا ويبين الحكمة من تحريمه ، فقد بين رحمه الله أن الربا نوعان : جليّ ، وخفي ، فالجلي حرام لما فيه من الضرر العظيم والخفي حرام لأنه ذريعة للجلي .

ثم أخذ في بيان الربا الجلي وأنه ربا النسيئة الذي فسره بقوله :

* **النوع الأول : ربا النسيئة :**

وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل أن يؤخر دينه ويزيد في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة آلافًا مؤلفة .

وهذا النوع من الربا حرم لحكمة عظيمة ذكرها ابن القيم فقال :

وفي الغالب لا يفعل ذلك إلا معدوم محتاج ، فإذا رأى أن المستحق يؤخر مطالبته ويصبر عليه ، بزيادة يبذلها له ، تكلف بذلها ليفتدي أسر

(١) « إعلام الموقعين » : (١٥٤/٢) وانظر في ذلك « بدائع الفوائد » : (١٤١/٣) .

المطالبة والحبس فيشتدّ عليه الأمر وتعظم المصيبة ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده من غير نفع يحصل له ، وكذا المرابي على عكسه يزيد ماله من غير نفع يحصل منه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ويضره أعظم الضرر[١].

وهذا بعينه ما نلاحظه نحن في هذه الأيام وما يظهر لنا من الحكمة في تحريمه ، فكم من حبيس في غيابات السجون عجز عن تسديد دينه الذي عظم عليه ، فكان سببًا في ضياعه ، وضياع أهله وماله ودينه ، فلله الحمد أولاً وآخرًا ، ما نهى عن شيء إلا كان فيه خير العباد في الدنيا والآخرة .

*** أما النوع الثاني : فهو ربا الفضل**

وهو الخفي الذي حرم من أجل سد الذريعة إلى الربا كما قال ابن القيم واستدل له بحديث : « **لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فإني أخاف عليكم الرما** »[٢] ثم فسر الرما بأنه الربا فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة ، وذلك أنهم إذا باعوا درهمًا بدرهمين ، ولا يفعل ذلك إلا لتفاوت الذي بين النوعين ، إما في الجودة وإما في السكة ، وإما في الثقل والخفة ، وغير ذلك تدرجوا بالربح المعجل فيها إلى الربح المؤخر ، وهو عين ربا النسيئة ، وهذه ذريعة قريبة جدًّا فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة ليسد عليهم باب المفسدة[٣] .

فإذا عرفت هذين النوعين من عقود الربا المحرمة والتي يسميها ابن القيم

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١٥٤/٢) .

(٢) رواه الإمام أحمد في « المسند » برقم : (٥٨٨٥) من رواية ابن عمر : (١٠٩/٢) .

(٣) انظر في ذلك « إعلام الموقعين » : (١٥٥/٢) فقد ذكر الخلاف في الأنواع التي يحرم فيها ربا الفضل وذكر الحكمة من تحريم هذه الأنواع والراجح منها .

عقود الربا الصريحة وهي من اختصاصات المحتسب ، فكذلك يدخل في اختصاصه الاحتساب على الحيل المحرمة على آكل الربا وهي غير صريحة وهي كما يقول : ثلاثة أقسام :

أحدها : ما يكون من واحد ، كما إذا باعه سلعه بنسيئة ، ثم اشتراها منه بأقل من ثمنها نقدًا حيلة على الربا .

ومنها ما تكون ثنائية : وهي أن تكون من اثنين ، مثل أن يجمع إلى القرض بيعًا أو إجارة أو مساقاة أو مزارعة ونحو ذلك[1] .

ومنها ما تكون ثلاثية : وهي أن يدخلا بينهما محللًا للربا فيشتري السلعة من آكل الربا ، ثم يبيعها لمعطي الربا إلى أجل ثم يعيدها إلى صاحبها بنقص دراهم يستعيدها المحلل .

ثم قال : وهذه المعاملات منها ما هو حرام باتفاق مثل التي يباع فيها المبيع قبل القبض الشرعي ، أو بغير الشرط الشرعي أو يقلب فيها الدين على المعسر فمتى استحل المرابي قلب الدين ، وقال للمدين : إما أن تقضيني وإما تزيد في الدين والمدة : فهو كافر يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

فعلى والي الحسبة إنكار ذلك جميعه ، والنهي عنه ، وعقوبة فاعله ولا يتوقف ذلك على دعوى ومدعي عليه ، فإن ذلك من المنكرات التي يجب

(١) استدل على ذلك بقول النبي ﷺ : « **لا يحل سلف وبيع ، ولا شرطان في بيع ولا ربح ما لم يضمن ، ولا بيع ما ليس عندك** » رواه الترمذي برقم : (١٢٣٤) كتاب « البيوع » رقم الباب (١٩) ، (٤/٢٣٠) وأخرجه أبو داود في « البيوع » برقم (٣٥٠٤) .

على والي الأمر إنكارها والنهي عنها[١] .

* رابعًا : اختصاصات تتعلق بأصحاب الحرف والصناعات

لقد قام الفقهاء بجهود عظيمة في توضيح هذا الجانب من جوانب اختصاصات المحتسب وأولوه عنايتهم في كتب الحسبة وشغل حيزًا كبيرًا من اختصاصات المحتسب في الأسواق ، وما ذلك إلا لكثرة إمكان وقوع الغش منهم والتدليس وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

ومعظم ولايته وقاعدتها ـ أي المحتسب ـ الإنكار على هؤلاء الزغلية[٢] وأرباب الغش في المطاعم ، والمشارب ، والملابس وغيرها فإن هؤلاء يفسدون مصالح الأمة ، والضرر بهم عام ، لا يمكن الاحتراز منه ، فعليه أن لا يهمل أمرهم ، وأن ينكل بهم وأمثالهم ولا يرفع عنهم عقوبته[٣] .

هذه نظرة ابن القيم للموضوع من حيث الأهمية وأنه معظم ولاية المحتسب وقاعدته إلا أنه اكتفى عن ذكر هذه الاختصاصات التي يطول ذكرها ، بجهود الفقهاء الذين كتبوا في هذا الموضوع وذكر القواعد العامة التي يجب على المحتسب أن يراعيها في أهل الحرف والصناعات وهي :

أولاً : من حيث المقاييس ، والأوزان ، والمكاييل ، وأن الواجب على المحتسب التأكد من سلامتها وصحتها وأنها ليست قاصرة عن المعهود عند

---

(١) « الطرق الحكمية » بتصرف : (٣٢١) .

(٢) لعلها كلمة ازدراء أو سب لهم وصفة ذم قال في اللسان : والزغلة الإست عن الهجري وقال : من سبّهم يا زغلة الثور : (٣٠٥/١١) وإما أن تكون من الألفاظ العامية التي كانوا يستخدمونها لمسيء معين .

(٣) « الطرق الحكمية » : (٣١٩) .

أهل البلد حيث يقول ابن القيم وهو يتحدث عن اختصاصات المحتسب :

ويتفقد أحوال المكاييل والأوزان وهذا من ناحية الآلة أما من ناحية كمال الوزن والكيل الذي يقول عنه وينهى عن تطفيف المكيال، والميزان[١].

ثانيًا : من حيث المصنوع ، هل هو من المحرمات أم من المباحات ؟ وهل فيه غش وتدليس أم أنه خال من ذلك ؟ حيث يقول ابن القيم عن اختصاص المحتسب في ذلك :

ويتفقد أحوال الصناع الذين يصنعون الأطعمة ، والملابس ، والآلات ، فيمنعهم من صناعة المحرم على الإطلاق ، كآلات الملاهي وثياب الحرير للرجال ، ويمنع من اتخاذ أنواع المسكرات ، ويمنع صاحب كل صناعة من الغش في صناعته ولا سيما هؤلاء الذين يغشون النقود ، والجواهر ، والعطر، والطيب وغيرها يضاهئون بزعمهم وغشهم خلق الله[٢] .

ثالثًا : من حيث حاجة الناس للمصنوع والصناعة .

قد يحاج الناس إلى صناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف ولا يجدون من يقوم بها لامتناع أهلها عن العمل بها فلولي الأمر أن يأمرهم بها ليسدوا حاجة الناس حيث يقول ابن القيم :

ومن ذلك أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة ـ كالفلاحة ، والنساجة ، والبناء وغير ذلك ـ فلولي الأمر أن يلزمهم بذلك بأجره مثلهم فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك ، والمحتسب نائب لولي الأمر في السوق فعليه أن يجبرهم على الصناعة أو الحرفة بأجرة المثل ولا يمكنهم مطالبته الناس بزيادة

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣١٩) .

(٢) انظر نفس المرجع : (٣١٩ - ٣٢٠) .

عن عوض المثل ولا يمكن الناس من ظلمهم(١) .

*** رابعًا : من حيث المكان**

فيجب أن يكون مكان الحرفة أو الصناعة ، لا ضرر فيه على الآخرين، فلا يكون مكان الخباز في سوق الأقمشة مثلاً ، ولا الحداد في سوق العطارين ، ونحوه مما يفسد بعضهم على بعض فإن وجدت إمكانية الإفساد وجب تخصيص كل أهل صنعة أو حرفة في سوق خاص بهم(١) .

وهذه قواعد عامة يجب أن يراعيها المحتسب في جميع الصناعات والحرف وهي من اختصاصاته .

*** خامسًا : اختصاصات تتعلق بالأضرار العامة والظلم للناس**

هناك بعض الأعمال يعملها التجار وبعض العامة تؤدي بالإضرار والظلم على الأمة أو على بعض أفرادها مما يضرها في معاشها وفي طرقاتها ، وأسواقها ومنازلها ، والشريعة مبنية على مصالح الأمة والأفراد فيجب على المحتسب منع هذه الأسباب المؤدية إلى الضرر بالأمة حماية للأمة ولمصالحها وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض هذه الجوانب والتي يجب على المحتسب أن يجعلها في عين الاعتبار لسعة ضررها على الأمة وما تجلبه من فساد نذكر بعضًا منها ، وهذه المنهيات التي تدخل في اختصاصات المحتسب كلها من باب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان كما أمر الله سبحانه بذلك ولأن عدم التعاون على البر وإقرار الظلم على ما هو عليه ضرره على الأمة من وجهين : الأول : منها وقوع

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٢٨ - ٣٢٩) .

(٢) انظر « أصول الدعوة » : (١٨٤) .

الظلم على الناس وعدم رفعه ، الثاني : يكون ذلك الظلم والبغي سببًا في منع القطر من السماء والبركة في الرزق والمخرج من ذلك هو اتباع ما شرعه الله سبحانه وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

لو اعتمد الناس ما شرعه الله ورسوله وجاءت به السنة وفعله الخلفاء الراشدون ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ، وكان الذي يحصل لهم من المغل أضعاف ما يحصلونه بالظلم والعدوان ولكن يأبى جهلهم وظلمهم إلا أن يرتكبوا الظلم والإثم ، فيمنعون البركة وسعة الرزق فيجتمع لهم عقوبة الآخرة ، ونزعة البركة في الدنيا[1] .

أولاً : الاحتكار لما يحتاجه الناس

لقد بدأ حديثه رحمه الله عن الاحتكار بما رواه مسلم عن رسول الله ﷺ : « **لا يحتكر إلا خاطئ** »[2] ثم بين سبب المنع مع ذلك وهو أن :

المحتكر الذي يعمد إلى شراء ما يحتاج الناس إليه من الطعام فيحبسه عنهم ويريد إغلاءه عليهم : هو ظالم لعموم الناس ومن أجل ذلك كان لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس إليه مثل من عنده طعام لا يحتاج إليه ، والناس في مخمصة ، فإن من احتاج إلى طعام غيره أخذه منه بغير اختياره بقيمة المثل ولو طلب أكثر من سعره[3] .

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٢٩) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « المساقاة » : (١٢٢٨/٣) رقم الحديث (١٣٠) والترمذي برقم (١٢٦٧) كتاب « البيوع » .

(٣) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٢٣) .

ثانيًا : بيع الحاضر للبادي

قال ابن القيم أن من المنكرات التي يجب النهي عنها بيع الحاضر للبادي واستدل بنهي النبيّ ﷺ: « **أن يبيع حاضر لباد** »[١] قيل لابن عباس: ما معنى قوله: « **لا يبيع حاضر لباد** » قال: لا يكون له سمسارًا [٢] ثم أخذ رحمه الله يعلل سبب هذا النهي وأنه من أجل حماية مصالح الأمة.

فقال : وهذا النهي لما فيه من ضرر المشتري ، فإن المقيم إذا وكله القادم في بيع سلعة يحتاج الناس إليها ، والقادم لا يعرف السعر : أضر ذلك بالمشتري[٣] فنهى الحاضر العالم بالسعر أن يتوكل للبادي الجالب للسلعة ، لأنه إذا توكل له ـ مع خبرته بحاجة الناس ـ أغلى الثمن على المشتري فنهاه عن التوكل له ، مع أن جنس الوكالة مباح ، لما في ذلك من زيادة السعر على الناس[٤] .

مما يضر بالأمة إذا فعل ذلك فعلى والي الحسبة النهي عن ذلك لأنه من المنكرات .

ثالثًا : التسعير

يرى ابن القيم رحمه الله أن الشريعة مبناها على العدل ورفع الظلم عن الناس ، فإذا وقع الظلم على الناس وجب رفعه عنهم بالسلطة القائمة على

---

(١) رواه البخاري باب : لا يبيع حاضر لباد بالسمسرة : (٢٨/٣) والترمذي باب البيوع رقم الحديث (١٢٢٧) .

(٢) رواه البخاري : (٢٧/٣) كتاب « البيوع » باب هل يبيع حاضر لباد .

(٣) « الطرق الحكمية » : (٣٢٣) .

(٤) نفس المرجع : (٣٤٧) .

رعايتهم وعلى رأسهم ولي الأمر أو من ينوب منابه كالمحتسب ونحوه وعرفنا أن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان ، فإذا وقع الضرر على الأمة بسبب زيادة السعر فيما يحتاجه الناس سواء كان ذلك في المواد أو الأعمال ، فهل للمحتسب الذي ينوب ولي الأمر أن يسعر الأشياء أم يترك الأمر على طبيعته ولا يسعر لهم لخشية وقوع الظلم على البائع ؟

وقد ذكر ابن القيم نزاع العلماء في التسعير في مسألتين :

أحدهما : إذا كان للناس سعر غالب فأراد أحدهم أن يبيع بأغلى من ذلك أو أقل منه .

والمسألة الثانية : أن يحدّ لأهل السوق سعرًا لا يتجاوزونه مع قيامهم بالواجب[1] ، فأما المسألة الأولى فمن أجاز التسعير فقد استدل بحديث عمر بن الخطاب : « وأنه مر بحاطب بن أبي بلتعة ، وهو يبيع زبيبًا له بالسوق ، فقال له عمر : إما أن تزيد في السعر ، وإما أن ترفع من سوقنا »[2] نظرًا إلى مصلحة الأمة ، وأما من منع فقد استدل بما رواه انس رضى الله عنه قال : غلا السعر ، على عهد النبي ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، لو سعرت لنا ! فقال : **« إن الله هو القابض الرازق ، الباسط المسعر ، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها إياه في دم ولا مال »**[3]

---

(١) راجع خلاف العلماء وأدلتهم في التسعير ، « الطرق الحكمية » : (٣٣٦) .

(٢) رواه الإمام مالك في « الموطأ » كتاب « البيوع » : (٥٧) باب الحكرة والتربص (ح ٢/٦٥١) دار إحياء الكتب العربية محمد فؤاد عبد الباقي .

(٣) رواه الإمام أحمد في « مسنده » : (٣/١٥٦) برقم (١٢٦١٣) والترمذي في كتاب « البيوع » رقم الباب : (٧٣: ٤/٣١٨) وأخرجه أبو داود وغيره .

وقالوا : إن الناس مسلطون على أموالهم ليس لأحد أن يأخذها أو شيئًا منها بغير طيب نفس ، وأما المسألة الثانية : فمنع منها الجمهور إلا إذا سعر عليهم قدر ما يرى من شرائهم .

*** موقف ابن القيم من التسعير**

لقد وقف ابن القيم من مسألة التسعير موقفًا وسطًا فلم يمنع التسعير مطلقًا ولم يوجبه كذلك مطلقًا بل نظر إلى مصلحة البائع والمشتري فحاول رفع الظلم عنهما بما رآه من أدلة الشرع وأقوال السلف فقسم التسعير إلى قسمين :

الأول : حرام وظلم

وهذا القسم راعى فيه مصلحة البائع فإذا وقع عليه الظلم أصبح التسعير في حقه محرمًا كما يقول :

فإذا تضمن التسعير ظلم الناس وإكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه أو منعهم مما أباحه الله لهم فهو حرام واستدل بما رواه أنس عن النبي ﷺ : « **إن الله هو القابض الباسط** » المتقدم فإذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم أو قد ارتفع السعر إما لقلة الشيء وإما لكثرة الخلق فهذا إلى الله ، فإلزام الناس أن يبيعوا بقيمة بعينها إكراه بغير حق[١] ، ومعلوم أن الشيء ، إذ قل رغب الناس في المزايدة فيه ، فإذا بذله صاحبه كما جرت به العادة ولكن الناس تزايدوا فيه ، فهنا لا يسعر عليهم[٢] .

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٢٤) .

(٢) نفس المرجع : (٣٤١) .

*** الثاني : عدل وجائز**

وهناك تسعير جائز وهو عدل بل يرتفع إلى درجة الوجوب وذلك عندما يمتنع أرباب السلع عن بيعها إلا بزيادة عن قيمة المثل والناس في حاجة ماسة إليها فإن هؤلاء الباعة يلزمون بالسعر الذي يحده ولي الأمر وهو ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

وإذا تضمن التسعير العدل بين الناس مثل إكراههم على ما يجب عليهم من المعارضة بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب[1] مثل أن يمتنع أرباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس إليها إلا بزيادة على القيمة المعروفة فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ولا معنى للتسعير إلا إلزامهم بقيمة المثل وهو إلزام بالعدل الذي ألزمهم الله به[2] .

وإلزامهم بالبيع بقيمة المثل يوجب على المحتسب أن يكون عارفًا بالأسعار ـ أي قيمة الشراء والبيع ـ فيراعي مصلحة البائع والمشتري كما يقول ابن القيم :

فعلى صاحب السوق الموكل بمصلحته أن يعرف ما يشترون به ، فيجعل لهم من الربح ما يشبه ، وينهاهم أن يزيدوا على ذلك ، ويتفقد السوق أبدًا ، فيمنعهم من الزيادة على الربح الذي جعل لهم فمن خالف أمره عاقبه وأخرجه من السوق ولا يجوز عند أحد من العلماء أن يقول لهم : لا تبيعوا إلا بكذا وكذا ، ربحتم أو خسرتم ، من غير أن ينظر إلى

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٢٤) .

(٢) نفس المرجع : (٣٢٥) .

ما يشرون به[١] .

ثم يقول رحمه الله في نهاية الكلام عن التسعير :

وجماع الأمر : أن مصلحة الناس إذا لم تتم إلا بالتسعير سعر عليهم ، تسعير عدل ، لا وكس ولا شطط ، وإذا اندفعت حاجتهم وقامت مصلحتهم بدونه : لم يفعل[٢] . وهذا التسعير يسميه ابن القيم التسعير في الأموال ومثل له بقوله :

فإذا احتاج الناس إلى سلاح للجهاد وآلات ، فعلى أربابها أن يبيعوها بعوض المثل ولا يمكنوا من حبسه إلا بما يريدونه من الثمن[٣] .

فإذا كان الظلم يقع على الناس في الأعيان من المواد بارتفاع أسعارها مع حاجة الناس إليها ويجب التسعير فيها ، فإن هناك تسعيرًا في الأعمال ، فقد يقع الظلم من أرباب الصناعات والحرفيين كالفلاحين ، والبنّائين ونحوهم فما يحتاجه الناس ويرفعون السعر فيضر بالأمة فلولي الحسبة أن يسعر عليهم بأجرة المثل ويمنعهم من التواطؤ على زيادة الأجرة عن المثل كما يقول ابن القيم :

ومن ذلك : أن يحتاج الناس إلى صناعة طائفة كالفلاحة ، والنساجة والبناء وغير ذلك فلولي الأمر : أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك [٤] . وقال رحمه الله :

فالمقصود : أن الناس إذا احتاجوا إلى أرباب الصناعات كالفلاحين

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٣٧) .

(٢) نفس المرجع : (٣٤٩) .

(٣) نفس المرجع : (٣٣٥) .

(٤) نفس المرجع : (٣٢٨) .

وغيرهم أجبروا على ذلك بأجرة المثل وهذا من التسعير الواجب فهذا تسعير في الأعمال[١] .

وقد ذكر رحمه الله صورًا أخرى من قبيل هذا التسعير وجعله من اختصاص المحتسب فقال :

وكذلك يجب على والى الحسبة : أن يمنع مغسلي الموتى والحمالين لهم من الاشتراك ، لما في ذلك من إغلاء الأجرة عليهم ، وكذلك اشتراك كل طائفة يحتاج الناس إلى منافعهم[٢] .

وقد علل رحمه الله عدم تقيده بحديث النبي ﷺ : « **إن الله هو المسعرّ القابض الباسط** » بقوله :

ومن احتجّ على منع التسعير مطلقًا بقول النبي ﷺ قيل له : هذه قضية معينة وليست لفظًا عامًا ، وليس فيها أحد امتنع من بيع ما الناس يحتاجون إليه ، ومعلوم أن الشيء إذا قل رغب الناس في المزايدة فيه فإذا بذله صاحبه كما جرت به العادة ولكن الناس تزايدوا فيه ، فهنا لا يسعر عليهم وقد ثبت في « الصحيحين » أن النبي ﷺ منع من الزيادة على ثمن المثل في عتق الحصة من العبد المشترك فقال : « **من أعتق شركًا له في عبده ــ وكان له من المال ما يبلغ ثمن العبد ــ قوم عليه قيمة عدل ، لا وكس ولا شطط ، فأعطى شركاءه حصصهم ، وعتق عليه العبد** »[٣] .

فلم يمكن المالك أن يساوم المعتق بالذي يريد ، وهذا هو تعليله لحديث

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٣٥) .

(٢) نفس المرجع : (٣٢٦) .

(٣) رواه البخاري في كتاب « الشركة » رقم الباب (٥ و ١٤: ج ٣ ص ١١١ - ١١٣) .

النبي ﷺ وأن الأمر فوق الإرادة ولم يكن بسبب امتناع التجار ونحوه من الأمور التي توجب التسعير بل إن الشارع يوجب إخراج الشيء عن ملك مالكه بعوض المثل لمصلحة تكميل العتق ولم يمكن المالك من المطالبة بالزيادة على القيمة فكيف إذا كانت الحاجة بالناس إلى التملك أعظم ، وهم إليها أضر؟! مثل حاجة المضطر إلى الطعام والشراب وللباس وغيره ، وهذا الذي أمر به النبي ﷺ من تقويم الجميع قيمة المثل : هو حقيقة التسعير ، وكذلك سلط الشريك على انتزاع الشقص المشفوع فيه من يد المستري بثمنه الذي ابتاعه به لا بزيادة عليه(١) .

سادسًا : اختصاصات تتعلق بالآداب والفضيلة والأخلاق الإسلامية

لقد اتسعت اختصاصات المحتسب حتى شملت كثيرًا من مناحي الحياة اليومية التي تراعي مصالح الأمة وتحافظ على كيانها الإسلامي ومن هذه الاختصاصات الموكلة بالمحتسب مراعاة الآداب والفضيلة والأخلاق التي شرعها الله سبحانه وتعالى ، وبثها بين الناس والأمر بها والنهي عن مخالفتها لذلك يقول ابن القيم مبينًا ذلك :

ويأمر والي الحسبة بأداء الأمانة ، والصدق ، والنصح في الأقوال والأعمال وينهى عن الخيانة(٢) .

وعلى المحتسب أن يعزر من ترك هذه الآداب والواجبات التي هي من شعائر المسلمين وصفاتهم لذلك يقول ابن القيم :

وإذا كان على ترك واجب كأداء الديون ، والأمانات ، والصلاة ،

---

(١) بتصرف من « الطرق الحكمية » : (٣٤١ - ٣٤٣) .

(٢) « الطرق الحكمية » : (٣١٩) .

والزكاة فإنه يضرب مرة بعد مرة ويفرق الضرب عليه يومًا بعد يوم حتى يؤدي الواجب [١] .

كما أن على المحتسب أن يمنع عن كل ما يكون وسيلة إلى الإخلال بالآداب العامة وكشف عورات الناس كما قال ابن القيم :

وعليه أن يمنع اللاعبين بالحمام على رءوس الناس ، فإنهم يتوسلون بذلك إلى الإشراف عليهم والتطلع على عوراتهم[٢] .

ويقاس على ذلك كل ما كان ذريعة إلى الإخلال بالآداب والأخلاق .

ومن أهم ما يجب على المحتسب أن يراعيه ويمنع من وقوعه من هذا الجانب هو الاختلاط ـ وأعني به اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والطرقات والمجامع ـ لما في ذلك من النهي ، وأنه ذريعة لوقوع الفساد بين الأمة وإشاعة الفاحشة ، وذلك من أعظم الأمور التي يجب على المحتسب مراعاتها والحزم في النهي عنها ومنعها من الوقوع ، وكذا الخلوة بالنساء في الدكان أو السيارة ونحو ذلك وتحريم ذلك من باب سد الذرائع فلما حرم الله سبحانه وتعالى الزنا وقال : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً** ﴾[٣] وكان للزنا وسائله وذرائعه فقد حرم كل وسيلة موصلة إليه ، ولأهمية الموضوع وكثرة وقوعه في المجتمعات المسلمة فسوف نتطرق إلى توضيحه كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله ، فيقول عند سد الذرائع :

لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تقضي إليها كانت

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٥٠) .

(٢) نفس المرجع : (٣٧١) .

(٣) الآية من سورة الإسراء : (٣٢) .

طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها ، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها ، والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها ، وارتباطاتها بها ، ووسائل الطاعات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غاياتها ، فإذا حرم الرب تعالى شيئًا وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقًا لتحريمه ومنعًا أن يقترب حماه ، فلو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضًا للتحريم ، وإغراء للنفوس به ، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء ، بل سياسة عقلاء الدنيا تمنع ذلك ، فالأطباء إذا أرادوا حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة إليه وإلا فسد عليهم ما يرومون إصلاحه ، فما ظنك بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية إلى المحارم بأن حرمها ونهى عنها ، والذريعة ما كان وسيلة وطريقًا إلى الشيء[١] .

ولذلك فإن النبي ﷺ حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن ، والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين سدًّا للذريعة ، ما يحاذر من الفتنة وغلبة الطبع[٢] .

فالذي يجب على المحتسب أن ينظر في أمور الناس وتحركاتهم واجتماعاتهم وأفراحهم وأسواقهم فإذا وجد أمرًا من أمورهم وسيلة إلى الفساد والفحش منع منه وإن كان في مباح أو عبادة فسفر المرأة الأجنبية بلا محرم للحج مثلاً محرم لا يجوز ويجب المنع منه وإن كان لعبادة لأنه ذريعة إلى المحرم .

---

(١) انظر « إعلام الموقعين » : (١٣٥/٣) .

(٢) نفس المرجع : (١٣٩/٣) .

وبين ابن القيم أن ذلك من اختصاصات المحتسب فيقول :

يجب عليه أن يمنع اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق ، والفرج ، ومجامع الرجال ، قال مالك[1] رحمه الله ورضي عنه : أرى للإمام أن يتقدم إلى الصياغ في قعود النساء إليهم ، وأرى أن لا تترك المرأة الشابة تجلس إلى الصياغ فأما المرأة المتجالة ، والخادم الدون التي لا تتهم على القعود ، ولا يتهم من تقعد عنده فإني لا أرى بذلك بأسًا .

فالإمام مسئول عن ذلك ؟ والفتنة به عظيمة قال رسول الله ﷺ : « **ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء** »[2] .

وفي حديث آخر أنه قال للنساء : « **لكن حافات الطريق** »[3] .

كما بين رحمه الله أنه يجب على والي الحسبة أن يمنع النساء عن كل ما يشغل الرجال بهن ويعين على الإثم والمعصية فقال :

ويجب عليه منع النساء من الخروج متزينات ، متجملات ، ومنعهن من الثياب التي يكنّ بها كاسيات عاريات ، كالثياب الواسعة الرقاق ومنعهن من حديث الرجال في الطرقات ، ومنع الرجال من ذلك[4] .

ويرى رحمه الله أن لولي الحسبة عقوبة المرأة التي تخرج متجملة مبرزة

---

(١) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة وإليه تنسب المالكية مولده ووفاته بالمدينة : « الأعلام » : (٢٥٧/٥) .

(٢) رواه مسلم في كتاب « الذكر » برقم (٩٩ ج ٤/ ٢٠٩٨) ، وأخرجه الترمذي في كتاب « الأدب » واللفظ له رقم الباب (٣١ ج ٢٠/٨) .

(٣) سنن أبي داود كتاب « الأدب » ما جاء في مشي النساء رقم (٥٢٧٢) رقم الباب (١٨٠) .

(٤) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٦٩) وما بعدها .

لمحاسنها ومحاسن ثيابها عقوبة لها وردعًا لمن حاول التشبه بها فقال :

وإن رأى ولي الأمر أن يفسد على المرأة - إذا تجملت وتزينت وخرجت - ثيابها بحبر ونحوه ، فقد رخص في ذلك بعض الفقهاء وأصاب ، وهذا من أدنى عقوبتهن المالية .

وقد أحسن ابن القيم في ذلك وأرى أن يطبق ذلك في عصرنا الحاضر .

وله كذلك أن يحبس المرأة إذا أكثرت الخروج من منزلها ولا سيما إذا خرجت متجملة ، بل إقرار النساء على ذلك إعانة لهنّ على الإثم والمعصية .

ولولي الحسبة أن يمنع المرأة إذا أصابت بخورًا أن تشهد عشاء الآخرة في المسجد فقد قال النبي ﷺ : « **المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان** »[1].

فإذا كان ابن القيم يمنع المرأة من الخروج للعبادة وهي واضعة بخورًا وهو أقل انتشارًا للرائحة ، فما ظنك بالمرأة التي تخرج للنزه أو للسوق وقد وضعت من الطيب الفواح الذي يشم على بعد ويملأ الطريق برائحة الشذي ؟! فإنه والله من أعظم الوسائل إلى جذب الرجال مما يؤدي إلى الوقوع في المحرم ، والله سائلها وسائل ولي أمرها عن ذلك .

ثم يأخذ رحمه الله ببيان العقوبات الفردية والعامة الناتجة من الاختلاط وكذا الأضرار المترتبة على ذلك فيقول :

لا ريب أن تمكين النساء من الاختلاط بالرجال : أصل كل بلية وشر ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة ، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة ، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا ،

---

(١) تفرد به الترمذي كتاب « الرضاع » : (ج ١٥٣/٤) رقم الحديث (١١٧٣) .

وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة[١] .

ولما اختلط البغايا بعسكر موسى ، وفشت فيهم الفاحشة : أرسل الله عليهم الطاعون ، فمات في يوم واحد سبعون ألفًا ، والقصة مشهورة في كتب التفاسير .

فمن أعظم أسباب الموت العام : كثرة الزنا ، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال ، والمشي بينهم متبرجات متجملات ، ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية ـ قبل الدين ـ لكانوا أشد شيء منعًا من ذلك [٣] .

* **سلطات المحتسب :**

عرفنا أن الحسبة سلطة دينية ، تخول للمحتسب القدرة على تغيير المنكر ، ونشر المعروف بين الناس لذلك فإن من أهم ما يتصف به المحتسب الصرامة في الحق والشجاعة في تغيير المنكر وأن لا تأخذه في الله لومة لائم فإن أساس وقاعدة أمره ونهيه هذه السلطة التي تجعل منه ذا هيبة وقدر ويكون مرهوب الجانب لذلك يقول ابن القيم :

لما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يتم إلا بالعقوبات الشرعية فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن[٤] .

وسلطات المحتسب مشروعة لأنها من باب التعزير إذ يقول ابن القيم :

---

(١) وهذا هو الواقع والمشاهد الآن من كثرة الأمراض الجنسية التي عجز الطب عن الوصول إلى علاجها وهي من الطواعين .

(٣) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٧٠ - ٣٧١) .

(٤) نفس المرجع : (٣٥٠) .

واتفق العلماء على أن التعزير مشروع في كل معصية ليس فيها حد وهي نوعان : ترك واجب أو فعل محرم .

فمن ترك واجبًا مع القدرة عليه كقضاء الديون ، وأداء الأمانات ورد المغصوب فإنه يعاقب حتى يؤديها .

ومن سرق ما لا قطع فيه أو نظر إلى الأجنبية ونحو ذلك فهذا يسوغ فيه التعزير وجوبًا عند الأكثرين(١) .

وكثيرًا ما نجد ابن القيم رحمه الله يذكر أنه يجب على المحتسب أن يباشر سلطاته التعزيرية مع مرتكبي المنكر وأن لا يتعداها إلى الحدود لأنها ليس إليه كما قال :

فعلى مولي الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ، ويعاقب من لم يصلّ بالضرب والحبس ، والقتل : فإلى غيره(٢) .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من المنكرات التي يجب على المحتسب إنكارها حاثًا له على استخدام سلطاته :

فعليه أن لا يهمل أمرهم وأن ينكل بهم ، ولا يرفع عنهم عقوبته(٣) .

ويتضح مما تقدم أن للمحتسب سلطة محدودة بالتعزير لا تتعداها إلى إقامة الحدود .

وسوف نتطرق إلى تعريف التعزير ، ومقداره ، وأنواعه ، ذاكرين ما يخص المحتسب من هذه الأنواع على حسب ما يراه ابن القيم رحمه الله .

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (١٤٥) وما بعدها .

(٢) نفس المرجع : (٣١٨) .

(٣) نفس المرجع : (٣١٩) .

* **التعزيـر**

تعريفه : عرفه ابن القيم بقوله :

التعزير في كل معصية لا حدّ فيها ولا كفارة[١] .

وقال صاحب المغني : « هو العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها »[٢] .

مقداره :

هل للتعزير مقدار في أقله وأكثره ؟ والذي يراه ابن القيم أنه ليس لأقله حد [٣] .

أما عن أكثره : فقد ذكر رحمه الله خلاف العلماء في ذلك فقال :

أحدها : أنه بحسب المصلحة وعلى قدر الجريمة فيجتهد فيه ولي الأمر.

الثاني : وهو أحسنها - أنه لا يبلغ بالتعزير في معصية قدر الحد فيها ، فلا يبلغ بالتعزير على النظر والمباشرة حد الزنا ، ولا على السرقة من غير حرز حد القطع ، ولا على الشتم بدون القذف حد القذف وهذا قول طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد .

الثالث :أنه يبلغ بالتعزير أدنى الحدود ، إما أربعين ، وإما ثمانين ، وهذا قول كثير من أصحاب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة .

الرابع : أنه لا يزاد في التعزير على عشرة أسواط ، وهو أحد الأقوال

---

(١) « إعلام الموقعين » : (١٨/٢) .

(٢) « المغني » لابن قدامة : (٣٢٤/٨) مكتبة الرياض الحديثة .

(٣) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٥٠) .

في مذهب أحمد وغيره[١] .

والملاحظ من ذكر ابن القيم لهذه الأقوال أنه يميل إلى القول الثاني عندما بدأه بقوله : ـ وهو أحسنها ـ إلا أن ذلك يخالف ما عهدناه عن منهج ابن القيم رحمه الله والذي لا يحيد عن الدليل وفعل السلف الصالح إذا ما وجد إليهما سبيلًا ، بل إن ذلك يخالف قوله بنفسه في آخر الموضوع عندما قال :

والمنقول عن النبي ﷺ ، وخلفائه رضي الله عنهم يوافق القول الأول فإن النبي : « **أمر بجلد الذي وطئ جارية امرأته ـ وقد أحلتها له ـ مائة**»[٢] ، وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما : « أمرا بجلد من وجد مع امرأة أجنبية في فراش مائة جلدة » ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه : «ضرب الذي زوّر عليه خاتمه ، فأخذ من بيت المال مائة » .

وعلى هذا يحمل قول النبي ﷺ : « **من شرب الخمر فاجلدوه ، فإن عاد فاجلدوه ، فإن عاد في الثالثة ـ أو في الرابعة ـ فاقتلوه** »[٣] فأمر بقتله إذا أكثر منه ، ولو كان ذلك حدًّا لأمر به في المرة الأولى .

إن هذا التعقيب من ابن القيم مباشرة بعد ذكر أقوال العلماء على القول الأول فقط ولم يعقب على غيرها من الأقوال الأخرى ولم يذكر

---

(١) « الطرق الحكمية » : (١٤٧) .

(٢) « مسند الإمام أحمد » : (٢٧٥/٤) رقم الحديث (١٨٤٤٨ و ٥/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي أبواب الحدود باب رقم (١٥ ج٥ ص ١٣٩) والنسائي والدارمي والشافعي وابن حبان وصححه قال الترمذي : وإنما كان هذا أول الأمر ثم نسخ واستدل بفعل النبي ، أتي برجل شرب الخمر في الرابعة فضربه ولم يقتله وبحديث : « **لا يحل دم امرئ مسلم إلا بثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه** » .

أدلتها يخالف هذا الاستحسان مما يدعو إلى النظر .

بل إن له نصوصًا أخرى في كتاب آخر يساند فيه ترجيح القول الأول عندما قال : إن التعزير لا يقدر بقدر معلوم ، بل هو بحسب الجريمة في جنسها وصفتها وكبرها وصغرها ، وعمر بن الخطاب قد تنوع تعزيره في الخمر ، فتارة يحلق الرأس ، وتارة بالنفي ، وتارة بزيادة أربعين سوطًا على الحد الذي ضربه رسول الله ﷺ ، وتارة بتحريق حانوت الخمار ..... ثم أخذ يعدد ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم في تعزيراتهم التي لم تتوقف عند حد بل يراعي فيها المصلحة العامة ودرء الفساد عن الأمة ثم أخذ يطرح الافتراضات ويجيب عنها بما يوافق الاختيار والذي يراه وهو أن التعزير ليس له حد في أكثره وإنما ذلك لتقدير الإمام وما تقتضيه المصلحة[١] .

فهذه النصوص ترجح أن هذا الاستحسان ليس من نص ابن القيم وليس من رأيه وإنما هي داخلة على النص الأصلي لأمور ، منها : مخالفتها لمنهج ابن القيم ومنها : مخالفتها باقي النص وترجيح القول الأول وذكر أدلته، ومنها : النص الآخر وفي الموضع الآخر من الكتاب الآخر ، والذي يرجح القول الأول ، ومنها : توجيه مراد النبي ﷺ في قوله : « **لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله** »[٢] ، على أن الحد في لسان الشرع أعم منه في لسان الفقهاء فيراد به مرة عقوبات الجنايات المقدرة في الشرع ويراد به تارة نفس الجناية كقوله تعالى : ﴿ **تلك حدود الله فلا**

---

(١) « إعلام الموقعين » : (٤٨/٢) .

(٢) رواه الترمذي في كتاب « الحدود » برقم (١٤٦٣) وأخرجه مسلم في كتاب « الحدود » : (٣/ ١٣٢٣) .

تقربوها ﴾[١] وقوله تعالى : **﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾**[٢] والمراد من حديث رسول الله الجنايات التي هي حق الله فإن قيل : فأين تكون العشرة فما دونها إذ كان المراد بالحد الجناية ؟

قيل : ضرب الرجل امرأته ، وعبده ، وولده ، وأجيره للتأديب ونحوه فإنه لا يجوز أن يزيد على عشرة أسواط[٣] .

*** أنواع التعزير**

إذ عرفنا أن ليس للتعزير حد في أكثره ، فإنه كذلك ليس له نوع معين يجب أن لا يتعداها المعزر ، بل إن عقوبة التعزير يسوغ فعلها في كل ما يقع فيه العقوبة والردع سواء كان ذلك ماديًا أو معنويًا وسوف نتطرق إلى أنواع العقوبات التعزيرية التي ذكرها ابن القيم .

أولاً : التعزيرات المعنوية

عرفنا أن التعزير عقوبة والعقوبة تقع على النفس ، والبدن ، والمال ، وهي تختلف باختلاف الأشخاص والمقادير والأجناس والصفات وباختلاف أحوال الجرائم وكبرها وصغرها .

والتعزير المعنوي هو الذي يتعلق بالنفس أكثر منه في البدن وقد يؤدي فيمن كان قلبه حيًا اكثر من العقوبة البدنية أو المالية .

قال ابن القيم عن التعزير المعنوي :

والتعزير : منه ما يكون بالتوبيخ ، وبالزجر ، وبالكلام ، ومنه ما يكون

---

(١) الآية من سورة البقرة : (١٨٧) .

(٢) الآية من سورة البقرة : (٢٢٩) .

(٣) « إعلام الموقعين » : (٤٨/٢) .

بالهجر ، والنفي وقد عزر بهما النبي ﷺ وأخرج المخنثين من المدينة ونفاهم، وكذلك الصحابة من بعدهم كما فعل عمر رضي الله عنه بالأمر بهجر صبيغ ، ونفي نصر بن حجاج[1] .

وللمحتسب استخدام جميع هذه العقوبات المعنوية وما يدخل في مسماها كالحبس .

ثانيًا : التعزيرات البدنية

وهي نوعان :

الأول : الضرب

وهذا النوع من العقوبة أحد سلطات المحتسب فله أن يضرب على ترك الصلاة والنظر إلى النساء وترك الواجبات ونحو ذلك كما قال ابن القيم :

وإذا كان على ترك واجب ، كأداء الديون ، والأمانات والصلاة ، والزكاة ، فإنه يضرب مرة بعد مرة ، ويفرق الضرب عليه يومًا بعد يوم حتى يؤدي الواجب[2] .

النوع الثاني : القتل

عرفنا فيما سبق أن ابن القيم يرجح القول بأن التعزير ليس له حد وإنما هو بحسب المصلحة التي يراها الإمام لذلك فإنه يجيز التعزير بالقتل حيث قال :

وإنه يسوغ ـ أي التعزير ـ بالقتل إذا لم تندفع المفسدة إلا به مثل قتل

---

(١) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٥٠ - ٣٥١) .

(٢) نفس المرجع : (٣٥٠) وانظر (١٤٦) .

المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[١].

وقال رحمه الله بعد أن ذكر خلاف العلماء في قتل الجاسوس المسلم :

والصحيح أن قتله راجع إلى رأي الإمام ، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وإن كان استبقاؤه أصلح استبقاه[٢] .

إلا أن القتل ليس من سلطات المحتسب وليس له أن يقوم بذلك وإنما ذلك راجع للإمام حيث يقول ابن القيم : وأما القتل فإلى غيره[٣] .

*** التعزيرات المالية**

يرى ابن القيم أن التعزيرات المالية ، مشروعة ولا مجال للقول بخلاف ذلك حيث قال :

وقد جاءت السنة عن رسول الله ﷺ ، وعن أصحابه بذلك في مواضع :

منها أمره ﷺ بكسر دنان الخمر وشق ظروفها ، ومثل أمره لعبد الله ابن عمر بحرق الثوبين المعصفرين ، وهدمه مسجد الضرار ، وتحريق متاع الغال ....

وأخذ يعدد رحمه الله الأمثلة التعزيرية المالية من فعل النبي ﷺ والتي تدل على جوازه وأنه من سنن النبي ﷺ ، ثم ذكر فعل الصحابة رضي الله عنهم مثل تحريق عمر وعلي المكان الذي يباع فيه الخمر[٤] بل استدل

---

(١) « الطرق الحكمية » : (٣٥٠) وانظر (١٤٦) .

(٢) « زاد المعاد » : (٤٢٣/٣) .

(٣) « الطرق الحكمية » : (٣١٨) .

(٤) « الطرق الحكمية » : (٣١٨) .

بما جاء في كتاب الله من فعل الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم كقوله :

أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام : أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله ، ونسفه في اليم ، وكان من ذهب وفضة وذلك محقًّا له بالكلية ، وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام : ﴿ **فجعلهم جذاذًا** ﴾[١] وهو الفتات وذلك نص في الاستئصال [٢] .

وبعد أن ذكر هذه الأمثال قال :

وهذه قضايا صحيحة معروفة وليس يسهل دعوى نسخها ، ومن قال أن العقوبات المالية منسوخة ، وأطلق ذلك فقد غلط على مذهب الأئمة نقلاً واستدلالاً فأكثر هذه المسائل سائغ في مذهب أحمد وغيره وكثير منها سائغ عند مالك وفعل الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة لها بعد موته ﷺ مبطل أيضًا لدعوى النسخ ، والمدعون للنسخ ليس معهم كتاب ولا سنة ، ولا إجماع يصحح دعواهم إلا أن يقول مذهب أصحابنا عدم جوازها ويكون مذهب أصحابه عيار على القبول والرد[٣] .

فإذا كانت العقوبات المالية جائزة عند ابن القيم فما هو الحد الذي يجوز للمحتسب أن يستخدمه في إزالة المنكر وله السلطة في إزالته وإتلافه :

والحد الذي له هو أنه يجوز له إتلاف المنكرات من الأعيان والصور

---

(١) الآية من سورة الأنبياء : (٥٨) .

(٢) انظر « الطرق الحكمية » : (٣٦٠) .

(٣) انظر تفصيل رده على من قال بالنسخ « الطرق الحكمية » : (٣٥٣) وما بعدها .

مثل إتلاف الأصنام المعبودة من دون الله وإتلاف مادتها ، وكسر القبور المبني عليها وتسوية مشرفها ، وإتلاف آلات الملاهي كالطنبور والشطرنج ، وإتلاف الخمر وزقاقها وقتل الخنزير وكسر الصليب وحك الصور وكسر الأواني المحرمة من الذهب والفضة ونزع الخاتم الذهب من يد الرجل وإتلافه وإحراق الكتب المضلة ، وإفساد ثوب المرأة إذا خرجت متجملة ونحو ذلك من المنكرات وليس عليه ضمان فيما أتلفه من ذلك[1] .

* * *

(٤) راجع ذلك في « الطرق الحكمية » : (٣٥١ - ٣٦٨) .

الخاتمة

بعد هذه الجولة في تراث ابن القيم رحمه الله ، فقد وضح منهجه في الدعوة إلى الله تعالى وفكرة الأصيل وبانت معالم الدعوة عند ابن القيم رحمه الله .

أسأل الله جلت قدرته أن يتجاوز عن التقصير ويغفر الزلل إنه سميع مجيب . وقد اتضح لي من خلال هذه الدراسة :

أولاً : أن التراث الفكري عند ابن القيم يمثل منهجًا دعويًا متكاملاً يمكن أن يكون رائد المدارس الدعوية في هذا العصر لمسايرته روح العصر الذي نعيش فيه .

ويستحق أن يوفر له أصحاب الهمم أوقاتهم لدراسته دراسة أوسع من هذه الدراسة ووضع موسوعة دعوية تكون مرجعًا للدعاة في البلاد الإسلامية .

ثانيًا : أن مسامرة آثار هذا الإمام تثير في النفس الولع بحب الله ورسوله والإيمان العميق لما يتمتع به هذا الداعية من توضيح لمقاصد الشريعة وتفهم لروحها ومعرفة بأحوال الناس والمجتمع .

ثالثًا : أن دعوة ابن القيم توقع في النفس الاطمئنان بمذهب السلف ومعرفته معرفة حقيقية تدفعه إلى التمسك به وراحة النفس إليه .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا : « ولا نعرف في كتب علماء السنة أنفع في الجمع بين العقل والنقل من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن

القيم بمذهب السلف تفصيلاً إلا بممارسة هذه الكتب »[1] .

وذلك لاتخاذهم منهجًا جديدًا في نشر المذهب والرد على المخالفين وهو الجمع بين العقل والنقل في دعوتهما .

رابعًا : قد يتبادر إلى ذهن البعض وهو يتجول في فكر هذا الداعية وهو يحقق مسألة من المسائل سواء كانت عقدية أو شرعية أو تربوية ، أن ما يكتبه خيالات وروحانيات لا يمكن أن تتحقق في سلوك البشر أو أن هذه صور خاصة بالملائكة والرسل الأطهار .

من حسن ما يراه من تصوير ابن القيم رحمه الله لمثالية الإسلام وواقعيته ومثالية المؤمن وما يجب أن يكون عليه في سلوكه مع ربه سبحانه وتعالى وعباده .

أقول له : إنها بالفعل مثالية واقعية ، وليست خيالات .

لقد عاشها ابن القيم واقعًا وعاشها غيره ممّن منّ الله عليهم ، بمعرفته سبحانه وتعالى ، بأسمائه ، وصفاته .

وقد قالوا : إن كل إناء بما فيه ينضح ، وما قرأته هو نضح ابن القيم رحمه الله ، وما ذلك إلا بسبب صحة اعتقاده في ربه .

وهذا يدل على أن صحة اعتقاد العبد في ربه هي الطريق الموصل إلى المثالية في كل شيء ولا يمكن أن يصل أحد إلى المثالية إلا بذلك .

خامسًا : أن ابن القيم من أعظم أعلام المدرسة السلفية الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها ونشر منهجها فتحصل له من الخير والبركة والدعاء

---

(١) « تفسير المنار » : (٢٥٣/١) .

الشيء الكثير وجزاؤه على الله سبحانه ، فقد حرص رحمه الله على تكوين الدعاة الصالحين المحبين لله الداعين إليه قولاً وعملاً الباذلين في سبيله النفس والنفيس الحريصين على العمل الصالح ، الآمرون بالمعروف الناهين عن المنكر لا تأخذهم في الله لومة لائم متحليًا بالإخلاص والصبر والتقوى يقوده في ذلك كله العلم بأصول الشريعة وفروعها على منهج الكتاب والسنة .

كما حرص على تربية الأمة تربية إسلامية ، وتكوين المجتمع المسلم ، الذي تسوده المحبة ، والمودة ، والأمن والأمان والبرّ والتقوى بعيدًا عن البدع والخرافات مبينًا المسلك الصحيح في تربية الأمة ومحذرًا من المهلكات .

سادسًا : تبين أن الدعاة هم نور يمشي على الأرض لا يراهم كثير من الناس مع شدة نفعهم وبركتهم وأن الأرض تظلم بفقدهم .

سابعًا : أن المحاربين للدعوة السلفية ينبعث عداؤهم من أهوائهم ولجاجتهم وتمسكهم بالموروث وأن دعواهم لا تستند إلى دليل ولا برهان والحق أبلج ونور الشمس لا يطفأ بالأفواه .

وفي الختام اسأل الله عز وجل أن يعلي درجة ابن القيم في الصالحين وأن يجزل له المثوبة والأجر على نصحة للأمة وبذله لذلك كل غالى ونفيس وان يلحقنا به في الصالحين ويسلك بنا سبيل عباده الدعاة العاملين وان يتقبل هنا العمل ويجعله خالصًا لوجهه إنه جواد كريم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا .

* * *



فهرس الآيـــات



آل عمران

الأعراف

يونـــس

هـود

يوسف

الإســـــراء

مريـــــم

طــــه

الأنبيـــــاء

الحـــج

الفرقـــــان

الشعـــــراء

العنكبـوت

الـــــروم

غافر

فصلت

الجاثيـــــة

محمـــــد

الحجـــــرات

ق

الذاريات

الطــــور

النجم

القمر

* * *

فهرس

الأحاديث والآثار



* * *

الآثار

* * *

فهرس
الأعلام المترجم لهم

ر

س

ع

* * *

فهرس

المصادر والمراجع

١٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ط الأولى (١٤٠٣هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

١٣ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، حققه عادل عبد المنعم أبو العباس مكتبة الساعي الرياض .

١٤ - حكم تارك الصلاة أو الصلاة وحكم تاركها ، بتحقيق تيسير زعيتر ، ط الثانية (١٤٠٥هـ) المكتب الإسلامي دمشق .

١٥ - رسالة إلى كل مسلم ، راجعها وعلق عليها د . أسامة محمد عبد المنعم ط الأولى (١٤٠٤هـ) مطبعة المدني .

١٦ - الرسالة التبوكية ، حققها طارق السعود ، ط الثالثة (١٤٠٥هـ) دار الهجرة بيروت مكتبة المنار الأردن .

١٧ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، تحقيق د . السيد الجميلي ، ط الأولى (١٤٠٥هـ) الناشر دار الكتاب العربي .

١٨ - الروح ، بتحقيق عادل عبد المنعم أبو العباس مكتبة الساعي الرياض .

١٩ - زاد المعاد في هدي خير العباد ، تحقيق شعيب الأرناؤط وعبد القادر ، ط الثامنة (١٤٠٥هـ) مؤسسة الرسالة .

٢٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والحكمة والتعليل ، بعناية السيد محمد بدر الدين أبو الفراس ، ط الأولى على نفقة السادات أحمد ناجي ومحمد أمين الخانجي سنة (١٣٢٣هـ) مكتبة الرياض الحديثة .

٢١ - أ - الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، حققه د . علي بن محمد الدخيل الله ، ط الأولى (١٤٠٨هـ) دار العاصمة الرياض .

ب - الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطلة ، تحقيق د . أحمد عطية الغامدي د . على ناصر فقهي ، ط (١٤٠٧هـ) مطابع الجامعة الإسلامية .

٢٢ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ط الأولي (١٤٠٢هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

٢٣ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، تحقيق د . محمد جميل غازي مطبعة المدني .

٢٤ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط الثانية (١٤٠٦هـ) دار الكتاب العربي .

٢٥ - الفروسية بعناية السيد عزت العطّار الحسيني دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ .

٢٦ - الفوائد ، حققها جماعة من العلماء ، ط الأولى (١٤٠٣هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

٢٧ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، شرحها وحققها د . محمد خليل هراس ، ط الأولى (١٤٠٦هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

٢٨ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، راجعها لجنة من العلماء ، ط ، الأولى بدون تاريخ دار الكتب العلمية بيروت .

٢٩ - مختصر الصواعق المرسلة ، اختصر الشيخ محمد بن الموصلي ط (١٤٠٥هـ) دار الندوة الجديدة بيروت .

٣٠ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ، ط (١٤٠٢هـ) الناشر دار نجد طبع دار الفكر بدمشق .

٣١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، دار النور للطباعة والنشر ألمانيا الغربية .

٣٢ - الوابل الصيب والكلم الطيب ، تحقيق عبد القادر الأرناؤط ، ط دار البيان دمشق .

ثانيًا : المصادر والمراجع من غير كتب ابن القيم

٣٣ - القرآن الكريم .

٣٤ - ابن القيم الجوزية حياته وآثاره د . بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط الأولى (١٤٠٠ هـ) مطابع دار الهلال الرياض .

٣٥ - ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن ، د . عبد الفتاح لاشين ، ط الأولى (١٤٠٢هـ) دار الرائد العربي بيروت .

٣٦ - البداية والنهاية ، للحافظ ابن كثير ط الأولى (١٣٥١هـ) دار الفكر العربي .

٣٧ - البيان والتبيين ، للجاحظ ، ط الرابعة بمكتب الخانجي بمصر .

٣٨ - التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين ، أبو المظفر الإسفرائيني ، تحقيق وتخريج الشيخ محمد زاهد ، ط الأولى (١٩٤٠) نشر عزت العطار مكتبة الثقافة الإسلامية القاهرة .

٣٩ - التفسير القيم للإمام ابن القيم ، جمعه وحققه محمد حامد الفقي ط (١٣٩٨هـ) دار الكتب العلمية بيروت .

٤٠ - التقريب لفقه ابن القيم ، د . بكر بن عبد الله أبو زيد ، ط الأولى عام (١٤٠١هـ) مطابع دار الهلال للأوفست الرياض .

٤١ - الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي ، ط الثانية تصحيح أحمد عبد العظيم البروني (١٣٧٣هـ) مطبعة دار الكتب المصرية .

٤٢ - إحياء علوم الدين الإمام أبو حامد الغزالي سنة (٥٠٥هـ) طبع دار الندوة الجديدة بيروت .

٤٣ - الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، لمحمد العروسي المطوي ، طبع

دار المغرب الإسلامي عام (١٩٨٢م) .
٤٤ - الحسبة تعريفها ومشروعيتها وحكمها د . فضل إلهي ، ط الأولى (١٤١٠هـ) ، مكتبة المعارف الرياض .
٤٥ - الحسبة في الإسلام ، شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (٧٢٨هـ) تحقيق سيد بن محمد بن أبي سعيدة ، ط الأولى (١٤٠٣هـ) نشر وتوزيع مكتبة دار الأرقم الكويت .
٤٦ - الحسبة في العصر النبوي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، د . فضل إلهي ، ط الأولى (١٤١٠هـ) مكتبة المعارف الرياض .
٤٧ - الأحكام السلطانية ، لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي (٤٥٠هـ) دار الكتب العلمية بيروت بدون تاريخ .
٤٨ - الإحكام في أصول الأحكام ، لابن حزم الظاهري ، تحقيق محمد بن أحمد بن عبد العزيز ، ط الأولى عام (١٣٩٨هـ) مطبعة الامتياز .
٤٩ - الإحكام في أصول الأحكام للإمام سيف الدين علي بن محمد الآمدي ، ط (١٤٠١هـ) دار الفكر للنشر والتوزيع .
٥٠ - أخبار القضاة ، لمحمد بن خلف بن حيان عالم الكتب بيروت بدون تاريخ .
٥١ - الخطابة أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب ، لمحمد أبو زهرة ط الثانية دار الفكر العربي بيروت .
٥٢ - ادع إلى سبيل ربك ، د . مصلح سيد بيومي ، ط الرابعة (١٤٠٦هـ) دار القلم الكويت .
٥٣ - الدارس في تاريخ المدارس ، لعبد القادر محمد النعيمي ، تحقيق جعفر الحسيني ، ط (١٩٤٨ م) مطبعة الترقي دمشق .
٥٤ - الدعوة إلى الله في سورة إبراهيم ، لمحمد بن سيدي الحبيب ط الأولى

(١٤٠٦هـ)، دار الوفاءة - جدة .

٥٥ - الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها ، د . رؤوف شلبي ، ط الثالثة (١٤٠٢هـ) دار القلم الكويت .

٥٦ - أدلة التشريع المختلف الاحتجاج بها ، د . عبد العزيز بن عبد الرحمن الربيعة ط الثانية (١٤٠١هـ) مطابع الرياض .

٥٧ - أزهار الرياض في أخبار عياض ، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني تحقيق مصطفى السقا وغيره منشور المعهد الخليفي للأبحاث المغربية ط (١٣٥٨هـ) لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة .

٥٨ - أسد الغابة في معرفة الصحابة ، للإمام عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم المعروف بابن الأثير ، دار إحياء التراث العربي بيروت .

٥٩ - السلوك لمعرفة الملوك ، للمقريزي ، نشر محمد مصطفى زيادة ط (١٩٣٦م) دار الكتب المصرية .

٦٠ - السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت .

٦١ - السيره النبوية لابن هشام ، حققها مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي .

٦٢ - الصحاح لإسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطاء ، ط الثانية (١٣٩٩هـ) دار العلم للملايين بيروت .

٦٣ - أصول التربية الإسلامية وأساليبها ، لعبد الرحمن التحلاوي ط الأولى (١٣٩٩هـ) دار الفكر دمشق .

٦٤ - أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ط الثالثة (١٣٩٦هـ) دار عمر بن الخطاب للطباعة الإسكندرية .

٦٥ - الطبقات ، لخليفة بن خياط ، تحقيق د . أكرم ضياء العمري ط الثانية (١٤٠٢هـ) دار طيبة الرياض .

٦٦ - العبر ، للذهبي الطبعة الأولى دار الكتب العلمية .

٦٧ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للفخر الرازي ، ط (١٣٩٨هـ) شركة الطباعة الفنية المتحدة العباسية .

٦٨ - العقل وفهم القرآن ، للحارث المحاسبي ، قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلي ط (١٣٩٨هـ) دار الكتب للطباعة ودار الفكر .

٦٩ - العقيدة أولاً لو كانوا يعلمون ، محاضرة للدكتور عبد العزيز القارئ ، ط الأولى (١٤٠٤هـ) مكتبة الدار بالمدينة .

٧٠ - الأعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين بيروت .

٧١ - الفتح المبين في طبقات الأصوليين ، عبد الله بن مصطفى المراغي ، ط (١٣٩٤هـ) ، الطبعة الثانية مطبعة محمد أمين بيروت .

٧٢ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ط الرابعة عام (١٣٩٨هـ) دار الكندي للطباعة .

٧٣ - الفرق بين الفرق ، لأبي منصور عبد القاهر البغدادي بعناية محمد بدر، ط (١٩٢٨م) .

٧٤ - الفصل في الملل والأهواء والنحل ، للإمام محمد بن علي بن حزم الظاهري (٤٠٦هـ) مكتبة الخانجي بمصر .

٧٥ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، للشيخ محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي ، تحقيق د . عبد العزيز القارئ ، ط الأولى عام (١٣٩٦هـ) نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

٧٦ - الفهرست لأبي الفرج محمد بن يعقوب الشهير بابن النديم ، تحقيق رضى تجدد ، ط (١٣٩١) طهران .

٧٧ - القدوة الصالحة ، لحسن أدهم جرار ، ط الأولى (١٤٠٥هـ) بمطابع دار الضياء عمان .

٧٨ - الكشاف ، لأبي القاسم جار الله الزمخشري (٥٣٨) دار المعرفة بيروت .
٧٩ - الكتاب المقدس التوراة والإنجيل .
٨٠ - الاكتفا في مغازي المصطفى ، أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي أربع مخطوطات مجتمعة ، تحقيق د . أحمد غنيم ، ط الثانية (١٤٠١هـ) باسم حروب الردة .
٨١ - الملل والنحل للشهرستاني ، ط (١٣٧٥هـ) مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة .
٨٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأبي بكر الخلال ، دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكة المكرمة .
٨٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق د . محمد السيد الجليند ، ط الثالثة دار المجتمع للنشر والتوزيع .
٨٤ - المختصر في أخبار البشر ، لعماد الدين إسماعيل أبي الفداء ، ط (١٢٨٥هـ) المطبعة الوهبية بالقاهرة .
٨٥ - المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، للشيخ عبد القادر بن مصطفى المعروف بابن بدران الدمشقي ، قدم له أسامة عبد الكريم الرفاعي (١٤٠٠هـ) مؤسسة دار العلوم بيروت .
٨٦ - المصباح المنير، لأحمد بن محمد الفيومي (٧٧٠هـ) المكتبة العلمية بيروت.
٨٧ - المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى محقق .
٨٨ - المعتزلة ، زهدي حسن جار الله ط عام (١٣٦٦هـ) منشورات النادي العربي في يافا مطبعة مصر القاهرة .
٨٩ - المغني ، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة (٦٢٠هـ) مكتبة الرياض الحديثة بالرياض .

٩٠ - المنهج الحركي للسيرة النبوية ، لمنير الغضبان ، ط الثانية مكتبة المنار الأردن .
٩١ - الموطأ للإمام مالك بن أنس ، دار إحياء الكتب العربية فؤاد عبد الباقي .
٩٢ - الموافقات في أصول الأحكام للحافظ أبي إسحاق موسى اللخمي الشهير بالشاطبي دار الفكر للطباعة والنشر .
٩٣ - إنباه الرواه على أنباه النحاه ، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القنطي تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط (١٣٧١هـ) دار الكتب المصرية .
٩٤ - الانتصاب ، لابي سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني ، طبعة مرغليوت سنة (١٩١٢م) ليدن .
٩٥ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي ط (١٣٥٥هـ) دار الكتب المصرية القاهرة .
٩٦ - النظم الإسلامية والمذاهب المعاصرة دراسة مقارنة ، د . حسن عبد الحميد عويضة ط الثانية (١٤٠١هـ) دار الرشيد للنشر والتوزيع الرياض.
٩٧ - الوحدة الإسلامية للشيخ أبي زهرة دار الفكر العربي القاهرة بدون تاريخ .
٩٨ - الإيمان ، لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيميه .

ب

٩٩ - بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة بتاريخ (٢٤/٢/ ١٣٩٧هـ) طباعة الجامعة الإسلامية .

ت

١٠٠- تذكرة الحفاظ للإمام الذهبي ، دار الباز مكة المكرمة بدون تاريخ .

* * *